العصور الكلاسيكية

تمهيد

أثناء حفل اقيم مؤخرا سألت احدى الفتيات الاستاذ ريتشارد جينكينز Richard Jenkyns عن مهنته ، فلما اخبرها بانه استاذ جامعي متخصص في الدراسات الكلاسيكية صاحت : « انظر ، لقد جعلوني ادرس اللغة اليونانية في المدرسة الثانوية ثلاث ساعات كل اسبوع لمدة عامين . ولكن ما فائدة كل هذا بالنسبة لي الآن ؟ هل لك ان تجيبني على ذلك ؟ وهذا سؤال وجيه وجاد وخطير بغير شك ، لاسيما وان تدريس اللغات الكلاسيكية في الخارج ، وبخاصة في بريطانيا ، يتعرض الآن لكثير من المراجعة والنقد والهجوم . وبصرف النظر عما في دراسة اللغات القديمة عموما من متعة ذهنية وتدريب عقلي شاق ، فان ثمة أسباباً ومبررات اخرى يعتمد عليها انصار تدريس اللغتين اليونانية واللاتينية في دفاعهم عن قضيتهم . ولعل اول وابسط واهم هذه الاسباب والمبررات هو انه لكي نفهم الحضارة الاوروبية فان الامر يستدعي معرفة وفهم حضارة الاغريق ، وان خير مدخل لذلك هو دراسة اللغة اليونانية القديمة حتى يمكن التعرف ليس فقط على منجزات تلك الحضارة بل وايضا على العقلية التي انتجتها .

ومثلما قال شيللي Shelly اننا جميعا اغريق ، قاصدا بذلك الاوروبيين ، فان جنكينز يقول في آخر كتبه وهو كتاب ظهر منذ شهور فقط بعنوان The Victorians and Ancient Greece ونشرته له جامعة هارفارد : ان الاوروبيين هم ورثة الاغريق بكل فضائلهم ونقائضهم ، سواء في ذلك روح التنافس الشرسة او التطلع الذهني او

ارادة العمل . وهذا التراث هو الذي يميز الاوروبيين عن غيرهم من الشعوب ، كما انه هو القوة الدافعة للحضارة الاوروبية الحديثة . والواقع ان التساؤل الذي يتضمن التشكيك في اهمية دراسة اللغات الكلاسيكية يمكن ان يصدق على كثير من فروع المعرفة الاخرى مثل الآداب القديمة او التاريخ القديم . ولكن اذا كان ثمة ما يبرر الاهتمام بدراسة التاريخ بعامة فان الامر يستحق منا ان ندرس التاريخ القديم ، واذا كانت الفلسفة تستحق الدراسة فان فلاسفة اليونان كانوا في اغلب الظن اعظم الفلاسفة على الاطلاق ، وهكذا .

ولكن دراسة الكلاسيكيات تتميز الى جانب هذا كله بميزتين هامتين :

الأولى هي انها في اساسها وجوهرها دراسة واسعة شاملة لثقافات او حضارات متكاملة وليست مجرد تخصص ضيق يهتم بجانب واحد من جوانب هذه الثقافة او الحضارة ، فهي تتيح للباحث فرصة للتعمق في دراسة الادب والفن والتاريخ والفكر واساليب الحكم والسياسة ، مع الاحاطة بشكل واف بالعادات والتقاليد وانماط الحياة والعلاقات الاجتماعية السائدة بين الناس .

والميزة الثانية هي ان هذه الدراسات تتمتع بدرجة عالية من الموضوعية نظرا لقدم تلك المجتمعات والعصور ، وهو امر قلما يتحقق في دراسة المجتمعات المعاصرة او الثقافات التي لم يمض على اندثارها سوى وقت قصير . فالبعد الزماني الذي يفصل بيننا وبين تلك العصور والمجتمعات يجعل من السهل على الباحث ان يتخلص الى حد كبير من الافكار المسبقة والاهواء والاغراض التي كثيرا ما تشوب دراسة المجتمعات القائمة الان وقد تؤثر فيها وتوجهها وجهات معينة بالذات . وكلتا الميزتين تساعدان في آخر الامر على القاء كثير من الاضواء على الثقافة الانسانية ، بل وعلى الطبيعة البشرية بوجه عام . وربما كان هذا هو ما يعنيه ماثيو أرنولد **Matthew Arnold** من قوله : « ان الذين لهم صلة دائمة بالعالم القديم كانوا يبدون لي اكثر خضوعا لحكم الواقع واكثر فهما للحقيقة من غيرهم ».

ومن الانصاف ان نميز هنا بين دراسة الثقافات الكلاسيكية واللغات الكلاسيكية . فمعظم الاعتراضات والانتقادات التي تثور الآن في اوروبا ، وفي انجلترا بالذات ، تنصب على تعليم اليونانية واللاتينية وليس على اهمية دراسة الثقافات الكلاسيكية . وهذا موقف سبق ان واجهته الجامعات المصرية حين اراد طه حسين ادخال اللغة اللاتينية في كلية الآداب واللغة اليونانية في بعض اقسام تلك الكلية بحيث تدرس لطلاب الامتياز ، وهي قضية اشار اليها ودافع عنها في كتابه « **مستقبل الثقافة في مصر** » ولم يسترح اعداء اللغتين الا بعد ان الغي تدريسهما الا بالنسبة لطلاب الدراسات الكلاسيكية بالطبع واقسام اللغات الاجنبية . فتدريس اللغات الكلاسيكية اذن هو الذي يلقى المقاومة والاعتراض .

ولكن كما يقول بلم S.H. Plumb في مقدمته القصيرة للكتاب الذي اشرف على نشره في الستينات بعنوان Crisis in the Humanities والذي يناقش فيه عدد من الاساتذة المتخصصين الوضع الحالي لموضوعات

تخصصهم ، انه حتى الاربعينات من هذا القرن كانت « الثقافة » التقليدية تقوم على دراسة الكلاسيكيات والكتب المقدسة والتاريخ والأدب ، وكان هذا النوع من « الثقافة » هو الذي يميز الصفوة والطبقات الحاكمة في بريطانيا ويوحد بين افرادها ، كما انه كان يعتبر من اهم الملامح التي تميز السيد المهذب (الجنتلمان) عن غيره من الناس (صفحة٧) .. والواقع انه حتى الآن ، وعلى الرغم من المعارضة الشديدة لفرض تعليم اليونانية واللاتينية على تلاميذ المدارس بوجه خاص فان الاعمال الكلاسيكية ذاتها لا تزال تجد اهتماما متزايدا واقبالا شديدا على قراءتها مترجمة الى اللغات الحديثة . فأعمال هوميروس تباع الآن في الخارج بملايين النسخ ، واعمال توكيديديس Thucydides تباع بمئات الآلاف ، بل حتى اعمال تاكيتوس Tacitus تباع بعشرات الآلاف . ولايزال الرجل الاوروبي يقبل في شراهة ونهم على قراءة هذه الاعمال وغيرها بل وعلى كل ما يساعده على معرفة العالم القديم وفهمه . ومن الطريف ان نجد الاستاذ فينلي M.L. Finley استاذ التاريخ القديم والتاريخ الاجتماعي في جامعة كيمبردج وصاحب كتابي The Ancient Greeks, the world of Odysseus يقول في مقاله عن « ازمة الكلاسيكيات Crisis in the Classics المنشور في كتاب بلم السالف الذكر ، ان عدد نسخ الالياذة والاوديسة المتداولة الآن اكبر بكثير جدا من كل النسخ التي ظهرت لهاتين الملحمتين خلال كل العصور الكلاسيكية مجتمعة ، ولكنه يعترف في الوقت ذاته بان هذا الاهتمام بالاعمال والكتابات الكلاسيكية لا يرتكز على دعائم قوية ومتينة ، وانما هو يقوم على اسس واهية مهتزة ، نظرا لأن اللغة اليونانية اختفت منذ سنوات طويلة من المدارس بعد ان كانت احد المتطلبات الاساسية لدخول الجامعات البريطانية ، وان الدور جاء الان على اللغة اللاتينية ، ويرى ان ذلك سوف يكون له اثر سيء في اعداد الدارسين الذين سيتخصصون في الدراسات الكلاسيكية ، فضلا عمن سيتخصص في اللغات الكلاسيكية ذاتها (صفحة ١٢) . ومع ذلك فلابد من التسليم بان الاوضاع الان تختلف اختلافا كبيرا عما كانت عليه منذ نصف قرن مثلا ، كما ان النظرة الى التخصصات المختلفة قد تغيرت هي ايضا ، بحيث اصبحت اهمية التخصص تقاس بمدى نفعه في الحياة العملية . وليس ثمة من يجرؤ الآن على ان يقول ما قاله توماس جيزفورد Thomas Gaisford عميد كلية Church Christ واستاذ اليونانية في اكسفورد في اوائل القرن التاسع عشر من ان الدراسات الكلاسيكية « تساعدنا على ان ننظر في شموخ واستعلاء وترفع الى كل الذين لم يشاركونا في مزاياها » .

فلقد انقلب الوضع تماما واصبحت فروع المعرفة الاخرى ، بل والعلوم البحتة والتطبيقية تجذب معظم النابهين من الطلاب وتحظى بمكانة رفيعة تماثل تلك التي كانت تحتلها الدراسات الكلاسيكية حتى عهد قريب . ومع ذلك فان اقبال المثقفين على قراءة الاعمال الكلاسيكية في ترجماتها الحديثة لا يزال يثير الامل لدى الكثيرين من العلماء في بعث الاهتمام بتعلم اللغات الكلاسيكية ذاتها مرة اخرى ، على اعتبار ان تذوق الآداب ، والشعر بوجه خاص ، في لغاتها الاصلية يكون اعمق واصدق بكثير من تذوقها مترجمة ومنقولة الى لغات اخرى .

●●●

وليس ثمة شك في ان الحضارة الاوروبية الحديثة تدين بالشيء الكثير لحضارة الاغريق بحيث تعتبر - بشكل او بآخر - امتدادا لتلك الحضارة . وعلى الرغم من ضياع جوانب كثيرة من الثقافة الكلاسيكية خلال العصور الوسطى المظلمة فقد شاهد عصر النهضة وما تلاه حركة احياء لدراسة تلك الثقافة والاهتمام بها ، لدرجة ان اطفال المدارس - وبخاصة في انجلترا وفرنسا والمانيا - كانوا يدرسون في القرن التاسع عشر وفي سن الحادية عشرة او الثانية عشرة اللغة اليونانية دراسة جادة ، تمهيدا لقراءة هوميروس ، بل وايضا اعمال ارسطوفانيها . ولم يكن ذلك الاهتمام قاصرا على اللغة والادب وانما امتد الى ميادين ومجالات اخرى ، فنجد عددا من علماء الاركيولوجيا مثلا يقومون بكثير من عمليات الحفر والتنقيب بقصد البحث عن ادلة وبيانات قد تلقي الضوء على ما تحتويه الآداب الكلاسيكية والتراجيديات والاساطير من احداث ، وتساعد بالتالي على معرفة مدى صدق هذه الاعمال الادبية وتعبيرها عن وقائع حدثت بالفعل . وقد كشفت بعض هذه الكشوف الأركيولوجية عن عدد من المواقع المرتبطة بعصور ما قبل التاريخ والتي ترد ذكرها في اعمال هوميروس ، مثل طروادة وكثير من قبور ميكيناي Mycenae كما القى كثير من الضوء على عصور المينويين Minoans في كريت ، وظهرت اسماء عدد كبير من علماء الاركيولوجيا الذين شغلوا انفسهم بهذه النواحي من البحث من امثال شليمان Schlieman وسير آرثر ايفانز Sir Arthur Evans وغيرهما ممن كانوا يربطون بين الاساطير اليونانية ونتائج الكشوف الاركيولوجية* - وهذا مثال واحد للجهود الشاقة الطويلة التي بذلها كثير من العلماء المتخصصين خلال القرنين الاخيرين لدراسة وفهم حضارة الاغريق ، ومع ذلك فلا تزال هناك جوانب كثيرة تحتاج لمزيد من الجهد والعناء .

كذلك شغل كثير من العلماء انفسهم في تتبع اصول تلك الحضارة والبحث بوجه خاص عن العناصر والتأثيرات الشرقية بالذات التي دخلت في تكوينها . ولقد كان الاغريق انفسهم ينظرون بكثير من الاجلال الى الحضارة المصرية القديمة والفكر المصري القديم ، بل والى العلم المصري ايضا ، كما ان الديانة الاغريقية والفن الاغريقي المبكر يكشفان عن وجود تأثيرات وعناصر مصرية كثيرة . الا ان الفكر الاغريقي له بغير شك اصالته وذاتيته وخصائصه المميزة - وربما كان اهم تلك الخصائص انشغال ذلك الفكر بالكون ، واهتمامه الشديد بالانسان ومكانته في هذا الكون ، والاعجاب بطبيعة الانسان وبكل ما يتعلق به ، سواء في ذلك جسم الانسان او عقله . وبينما كان الاهتمام بالعالم الآخر يؤلف النقطة المركزية في كل الحضارات الشرقية القديمة ، كانت حضارة الاغريق تهتم بهذا العالم وبوضع الانسان فيه ، وهي امور تبرز واضحة في فلسفتهم وفنونهم وآدابهم واساطيرهم .. لم يكن ايسخيلوس مثلا يهتم بقدر الانسان ومصيره النهائي المحتوم بقدر ما كان يهتم بوضعه في الارض وعلاقته بالآلهة .. ولقد كان السوفسطائيون في منتصف القرن الخامس ق . م ينادون بان الانسان هو مقياس كل شيء ، وكان همُّ سقراط البحث عن اخلاق جديدة عن طريق اختبار الذات . كما ان افلاطون قال جملته الشهيرة

* Antony Andrewes, Greek Society, Pelican 1977 pp. xx—xxii

« اعرف نفسك » قاصدا بذلك ان باستطاعة المرء ان يعرف الخير ، وان هذه المعرفة كفيلة بان تجعله يفعل الخير ، وهكذا .

ولم تتفق الآراء على تحديد الأصل الاول الذي انحدر منه الاغريق او موطنهم الاصلي ، وان كان هناك من العلماء من يذهب الى انهم اتوا الى بلاد اليونان او الى هيلاس Hellas * ـ كما يسمونها ـ من اواسط اوروبا ، وان عملية الهجرة والتوطن تمت ببطء شديد واستغرقت عدة قرون . ولسنا نعرف ايضا شيئا مؤكدا عن سكان هيلاس الاصليين قبل مجيء تلك الموجات من الوافدين ، وان كنا نعرف ان آخر هؤلاء الوافدين كانوا الدوريين ، وهم على اية حال اكثر الجماعات الوافدة تأخرا وادناهم في المستوى الحضاري ، وقد سبقهم الى المجيء الايونيون والآخيون مع غيرهم من الجماعات الاقل عددا مثل الايوليين . وكان الاثينيون يفخرون بأصولهم الايونية او على الاصح بتراثهم الايوني العريق ، ولديهم كثير من القصص عن مدى قدم هذا التراث ، وعراقته . ولذا كانوا يعتبرون انفسهم ارقى وانبل من الدوريين الاجلاف . ومهما يكن من شيء فان العنصرين الايوني والدوري كانا هما الشعبان الرئيسيان في بلاد هيلاس خلال العصور الكلاسيكية . وكان الهيلينيون او الاغريق يعتبرون انفسهم بذلك شعبا متميزا ومختلفا عن بقية شعوب العالم ، الذين كانوا يشيرون اليهم باسم البرابرة او البربريين Barbarai وهو لفظ كان يقصد به في الاصل الاشارة الى اللغات او اللهجات الاجنبية والغريبة غير المفهومة ، وان كان اللفظ يتضمن في الوقت ذاته نوعا من التعريض بتلك الشعوب والحكم عليها بالوطاءة والتخلف ، وبأنها أدنى مكانة واقل حضارة من الاغريق ، وهذا هو المعنى الذي اتخذته الكلمة ابتداء من القرن الخامس ق.م على ما يقول الدروز ، (صفحة ٢٧٣) . ومع ذلك فانه لا يمكن القول ان الاغريق كانوا « سلالة » او « عنصرا » نقيا من الناحية العرقية البحتة ، بل ان اختلاف عاداتهم واعرافهم وتمايزها كان هو الذي يميزهم في المحل الاول عن غيرهم من الشعوب .

كان الاغريق يفخرون على غيرهم من الشعوب الاجنبية المتبربرة بانهم شعب من الاحرار ، بينما كانوا يعتبرون كل من عداهم عبيدا وارقاء بشكل أو بآخر . واعتبارا من القرن الرابع ق . م بوجه خاص بدأوا ينظرون الى انفسهم على انهم شعب له حضارة ذات خصائص مميزة ، وانهم قد حققوا الكثير من الانجازات العقلية الرفيعة السامية وبخاصة في اثينا . وربما كان اهم خصائص هذه الحضارة هي حرية التفكير والتأمل التي لم يكن يحدها شيء ، سواء اكان ذلك سلطة الحكم او قوة الاساطير او سطوة الخرافات السائدة في تلك العصور المبكرة . ويكفي

* عرف اليونانيون بصفة عامة باسم الهيلينيين Hellenes اعتبارا من القرن السابع ق.م . اما كلمة الاغريق Greeks فقد اطلقها عليهم الرومان ... نسبة الى القرايين Graioi الذين كانوا يسكنون اقليم ... وأما اسم اليونانيين فهو ... من كلمة ايونيين Iones الذين كانوا اول من احتكت بهم ... الشرق ... القديم من الاغريق ... [illegible] ... راجع في ذلك كتاب الاستاذ الدكتور عبد اللطيف احمد علي « التاريخ اليوناني ، العصر الهللادي » الجزء الاول ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٦ ، صفحة ٧٧ هامش رقم ٩

دليلا على هذه الحرية ان الاغريق لم يعرفوا ذلك النوع من الحكم الاستبدادي الذي كان يسود امبراطوريات الشرق ، والذي يتمثل بشكل خاص وقوي في امبراطورية الفرس ، بكل ما كان يحيط بها من مظاهر القوة والبأس والتقاليد والطقوس والمراسم التي كان الاغريق ينظرون اليها بسخرية تماثل ـ حسب قول اندروز ـ سخرية الامريكان من نظم الحكم الملكي والامبراطوري التي كانت تسود في اوروبا حتى عهد قريب . (صفحة ٢٧٣) .

وعلى الرغم من سيطرة الفكر الاسطوري ـ وهو امر طبيعي في المراحل المبكرة من تطور المجتمعات والثقافات ـ فقد ظهرت لدى الاغريق بوادر التفكير العلمي الذي اصبح ركيزة العلم الحديث . وليس المقصود بذلك ان نزعم وجود علاقة مباشرة بين العلم اليوناني القديم وما حققه العلم الحديث من تقدم وانجازات هائلة ، وانما المقصود هو ابراز التشابه في الموقف العقلي الذي يؤدي في آخر الامر الى الانجاز العلمي . ومع ذلك فليس ثمة شك في ان افلاطون اثر تأثيرا واضحا في عصر جليليو Galileo ، وان العلوم الوضعية تدين بالشيء الكثير لارسطو .

ومما له دلالة هنا ان التاريخ لدى الاغريق لم يبدأ بمجرد تسجيل سردي لأحداث ووقائع محددة ومحدودة ، وانما اتخذ طابع التأليف التاريخي الذي لا يخلو من بعض التحليل والتعميم ، كما يظهر بشكل واضح في تاريخ هيرودوت ، بل ان هذا يصدق حتى على اعمال توكيديدس على الرغم من انه كان يهتم بالحرب والسياسة في المحل الاول ، ولم تكن له تلك النظرة الواسعة الشاملة المحيطة التي كان يتمتع بها هيرودوت .

وهذا كله يكشف عن قدرة العقل اليوناني القديم على التساؤل وعلى البحث والتقصي . ونحن نعرف مثلا ان ارسطو حين شرع في تأليف كتاب « السياسة » كان يدرك ان ثمة عددا من المشكلات العامة التي تحتاج الى اجابة ، ولذا عكف على دراسة « الدساتير » التي اتيح له معرفتها ، فجمع قدرا هائلا من المعلومات المستمدة من ١٥٨ دستورا كانت حصيلة جهود طويلة لاجيال متعاقبة في بحثها عن افضل الاساليب التي يمكن بها حكم الشعوب وسياستها .

وعن طريق فهم هذه (الدساتير) وتحليلها وتصنيفها كان ارسطو يحاول الوصول الى (الدستور) الذي يحقق افضل ما تضمه هذه الدساتير ويجتنب ما فيها من مساوىء ونقائص بقدر الامكان .

كان الاغريق يعيشون فيما يعرف باسم « الدولة ـ المدينة » وهي ترجمة لكلمة Polis * ويعتبرون ذلك من

---

* يقول الدكتور عبد اللطيف احمد علي في كتابه السالف الذكر : ان بلاد اليونان كانت منقسمة الى « عدة وحدات سياسية صغيرة تعرف كل منها باسم Polis ـ وهي كلمة من العسير ترجمتها بدقة وقد تعني المدينة الحرة او دولة المدينة او المدينة الدولة او الدولة » (صفحة ١٩) . وعلى الرغم من ان معظم المؤرخين يعتبرون دولة المدينة من اهم الملامح المميزة للحضارة الاغريقية فان الدكتور عبد اللطيف احمد علي يشير الى ان دول المدن كانت موجودة في بلاد سومر قبل ميلاد الحضارة الاغريقية بحوالي الفي سنة كما كانت موجودة في أرض كنعان . « وبذلك » يتضح ان نظام دولة المدينة ليس في حد ذاته سمة مميزة لاسلوب الحياة الاغريقي . وانما الشيء الذي يميز الحضارة الاغريقية فهو انتفاعها بهذا النظام كوسيلة للتعبير العميق عن نظرة خاصة الى الكون وقد عبر الفيلسوف اليوناني بروتاغوراس الابديري في القرن الخامس ق . م عن هذه النظرة بقوله المأثور : ان الانسان مقياس كل شيء » . (صفحة ١١١) .

أهم المميزات التي تميزهم عن الشعوب المتبربرة التي تعيش في ممالك وامبراطوريات وتخضع لنظم حكم ملكي . وكان ارسطو يقول انه لا يمكن لغير الحيوانات او الآلهة ان تعيش في غير دولة ـ مدينة . وهو قول يلخص بطريقة رائعة الى حد كبير موقف الأغريق ونظرتهم الى تنظيمهم السياسي وتقويمهم له ، كما أنه يمكن اعتباره مكملا لعبارة ارسطو المشهورة « الانسان حيوان يتميز بانه يعيش في « دولة ـ مدينة » وهي العبارة التي كثيرا ما تترجم بطريقة غير دقيقة الى « الانسان حيوان سياسي » (او اجتماعي) * . ومع ان نظام دولة ـ المدينة لم يعش طويلا ولم يمكن تطبيقه في اي مكان اخر ، على الاقل بنفس الطريقة . فان فلاسفة الاغريق كانوا يرون انه هو التنظيم السياسي الاجتماعي الوحيد الذي يمكن ان تتوفر فيه الحرية والديمقراطية . ففي هذا النظام يحكم الانسان نفسه بكل ما في هذه العبارة من معنى ، وبطريقة لا تتوفر في الامبراطوريات التي لا يمكن للمرء ، رغم كل ما يقال عكس ذلك ، ان يحكم فيها نفسه او يتمتع بالحرية الحقة لأن الاخرين هم الذين يحكمونه وهم الذين يرسمون له ما يفعل دون ان يشارك هو في سياسة حياته ومجتمعه مشاركة فعلية على ما يفعل الاغريق في دولة المدينة . ولذا كانت النفي عقوبة يمكن توقيعها على اي شخص هي الحكم بنفيه من دولة المدينة التي يعيش فيها وينتمي اليها ، لأن هذا النفي معناه انه لم يعد له ما ينتمي اليه . ازاء هذا كله يميل كثير من علماء السياسة الى القول بانه ليس ثمة « اي وجه للمقارنة بين نظام دولة المدينة ونظم الحكم السياسي التي تتبع الان في « العالم الحر » .

الا ان هذا النظام كان يحمل بين ثناياه عناصر ضعفه واندثاره ، لأن هذه المدن او الدويلات المستقلة المتمايزة كانت تدخل في تنافس شديد وخطير مع بعضها البعض ، وكثيرا ما كان هذا التنافس يؤدي الى الحرب نظرا لعدم وجود اي سلطة اخرى اعلى من سلطة دول المدن تتولى الاشراف على تنظيم العلاقات بينها جميعا . ومن ناحية اخرى ، لم يكن يتمتع بهذه الحقوق الا المواطنون الاحرار ، بينما لم يكن الاغراب والاجانب يحظون بحقوق كاملة ، مع حرمان العبيد او الارقاء من كافة هذه الحقوق . ولكن هذا لايعني ان الاغريق الاصليين الاحرار كانوا يمثلون طبقة غنية خاملة ومترفة تعتمد في حياتها على العبيد اعتمادا تاما ، وظروف الحياة القاسية التي كانت تحيط ببلادهم كانت تضطرهم جميعا الى العمل ، وربما كان الاستثناء الوحيد من ذلك هو اسبرطة التي كان عدد العبيد فيها يفوق كثيرا عدد المواطنين الاحرار الذين كانوا يقنعون بأداء بعض الاعمال غير المنتجة . وعلى العموم فلم يكن العبيد ـ وبخاصة في اثينا ـ يعاملون معاملة سيئة في اغلب الاحوال .

ولكن على الرغم من هذه المنازعات والصراعات والتنافس بين المدن او الدويلات الاغريقية فقد كانت هناك بعض القوى في الحياة اليونانية ذاتها تساعد على التقارب بل وعلى التوحيد ..

* Stewart c. Easton, The Heritage of the Past, Holt, Rinehart, Winston, N. Y. 1963, P. 190

أولا : كان هناك أولا ذلك الاتفاق العام بين جميع الاغريق على اعتبار انفسهم اعلى واسمى من بقية الشعوب التي تعيش في الممالك والامبراطوريات المتبربرة والتي لم تكن تفهم معنى الحرية ، بل ولم تكن في نظر الاغريق خليقة بالحرية على ما سبق ان ذكرنا .

ثانيا : وكان هناك ، القدرة على التماسك والترابط والتكاتف امام التهديدات والغزوات الخارجية مثلما حدث في الحرب ضد الفرس المتبربرين في اوائل القرن الخامس .

ثالثا : كان هناك ، تلك الاعياد والاحتفالات الاغريقية الكبرى التي كان يشارك الجميع فيها بصرف النظر عن انتماءاتهم المحليه الى مدن متعادية ، كما هو الحال في الاحتفالات بالالعاب الاولمبية .

رابعا : ثم كان هناك ، الآلهة الكبار الرئيسيون الذين كان جميع الاغريق يتجهون اليهم على الرغم من ان كل مدينة كان لها إلهها الخاص او ربتها الخاصة التي تحميها ، وذلك بالاضافة الى وجود بعض الطقوس والشعائر ذات الطابع الديني العام مثل الشعائر الاورفية . بل ان بعض الكهان او المتنبئين ، مثل كاهن ابوللو في دلفي ، كانوا يقدمون المشورة والارشاد لجميع من يقصدونهم بغير تفرقة .. اذن فكل هذه العناصر الثقافية كانت تعطي نوعا من الاحساس بالوحدة والتماسك الذي يخفف من حدة النزاع والصراع والتفكك بين دول المدن .

ولقد رد هذا التفكك والنزاع الى نوع من الوحدة حين افلحت مقدونيا في بسط نفوذها على كل المدن الاغريقية ، ثم ما لبث أن ادى التوسع المقدوني الاستعماري الى ظهور حضارة جديدة متمايزة تماما نتيجة لاتصال الاغريق بالشرق ، وبوجه خاص بالامبراطوريات والشعوب التي كانوا يترفعون عنها ويصفونها بانها متبربرة . ولقد كان عام ٣٣٤ق.م نقطة تحول حقيقي في تاريخ العالم الكلاسيكي ، اذ عبر فيه الاسكندر من اوروبا الى آسيا ومنها الى مصر وبلاد ما بين النهرين في طريقه الى الشرق الاقصى .

وحين غادر الاسكندر بلاد هيلاس كان واقعا تحت تأثير نوعين متعارضين من التعاليم : تعاليم ارسطو التي ترى ان الاغريق وحدهم دون بقية البشر هم الذين بلغوا درجة الانسانية ، بعكس المتبربرين الذين كانوا بالطبيعة عبيدا ، ولم يكن العبيد سوى آلات حية ، وتعاليم ايزوكراتيس Isocrates التي كانت تصبو الى تحقيق الوحدة الاغريقية . ولكن آمال الاسكندر كانت تتخطى وتتعدى كلتا الفئتين من التعاليم ، فقد كان يصبو الى تحقيق الوحدة العالمية ، او على الاصح وحدة الجنس البشري . وهذا هو الذي يفسر لنا ـ كما يقول جون فيرجسون * ـ زيارته لمعبد زوس ـ آمون في سيوه بمصر ، حيث جاءته البشارة بانه هو ابن الاله الذي هو ابو البشر جميعا . وثمة عبارة في بلوتارك تشير الى ان الاسكندر كان يعتقد ان رسالته هي التقريب بين الناس بشكل

* John Ferguson, The Heritage of Hellenism, Thames and Hudson; London 1973, PP. 8 — 9

عام ، وان الوسيلة الوحيدة لذلك هي العمل على ادماج الشعوب كلها بعضها ببعض ومزج عاداتهم وتقاليدهم واساليب حياتهم معا . كذلك يقول اراتوستينيس Eratosthenes ان الاسكندر اغفل النصيحة بأن يعامل الاغريق كأصدقاء وان ينظر الى كل من عداهم على انهم اعداء له ، وانه فضل بدلا من ذلك ان يؤازر ويصادق كل من يستحق المؤازرة والصداقة بصرف النظر عن انتمائه العرقي .

وكانت هذه الرؤية وذلك الاتجاه نحو ادماج الشعوب المختلفة وتوحيدها يمثلان خروجا واضحا على نظام دولة المدينة وتهديدا لوجودها وتخطيا لكل الحواجز التي كانت تقيمها بين الناس ، مثلما كانا يمثلان خروجا على التصنيف الاغريقي التقليدي للبشر ، واعادة تصنيفهم على اسس سلوكية واخلاقية جديدة . وحين مات الاسكندر انقسمت امبراطوريته التي كانت تغطي مليوني ميل مربع ، وتضم عددا من الشعوب والثقافات الى عدد من الممالك المستقلة ، اذ لم يكن هناك من يمكنه ان يمسك باطراف كل تلك الامبراطورية الواسعة مثلما امسك هو بها خلال حياته القصيرة .

الا ان امتداد الفتح الهليني كانت له بعض النتائج المضادة ، ذلك أن الثقافة ـ الهلينية دخلتها عناصر ثقافية اخرى من كل تلك الشعوب الشرقية القديمة ذات الحضارات العريقة وترتب على هذا الاتصال والتأثير الشرقي ان ظهرت حضارة جديدة تعرف باسم « الحضارة الهلينستية » او « الحضارة المتأغرقة » كما يسميها الاستاذ الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى ، ويدافع عن هذه التسمية في كتابه الرائع العميق (الحضارة الهلينستية) مع ان هذه الحضارة ظهرت نتيجة لدخول مؤثرات شرقية كثيرة افلحت في تغيير الكثير من ملامح وجوانب الحياة والثقافة الهلينية التقليدية .. المهم هو ان العالم الهلينستي كان عالما (كوزمو بوليتانيا) بمعنى الكلمة ، واصبحت صفة العالمية هذه خاصة مميزة لكل الفكر اليوناني وللمجتمع اليوناني في ذلك العصر . وارتبط بذلك كله ظهور كثير من الملامح المميزة للمجتمعات الحضرية الكبرى مثل ازدياد النزعات الفردية . وعلى اية حال فان من الصعب الحكم بما اذا كانت هذه الفردية هي سبب او نتيجة لذلك التدهور او التفكك الاجتماعي الذي صاحب زوال نظام دولة المدينة . وكما يقول ايستون Easton (صفحة ٢٨٤) فان مظاهر الفردية والتفكك والصراع الفردي والتنافس في العصر الهلينستي لم يكن ينقصها الا « الثورة الصناعية » لكي يكون هو « مجتمعنا الاوروبي الحديث ».

ويذهب كثير من العلماء الى ان الحضارة الرومانية ليست الا امتدادا طبيعيا للحضارة الهلينستية ، وانه لم يكن هناك اي توقف او انقطاع في سير الحضارة ، وبذلك لم تكن هناك فجوة بين الحضارتين . فبينما كان الرومان يعملون على تطوير النظم المميزة لحضارتهم ، ونعني بها القانون والحكومة في ايطاليا والغرب ، فانهم كانوا يعتمدون دائما على الاغريق في كل فروع الثقافة والمعرفة الاخرى . فلقد كان اتصالهم بالمدن اليونانية في جنوب ايطاليا هو الذي ساعد على ظهور بواكير الشعر والفن لديهم ، كما ان اليونانيين هم الذين هيأوا لهم المجال لتذوق الادب وتقبل الفلسفة ، ويقول ايستون في ذلك « ان روما ـ بالمعنى الدقيق للكلمة ـ كانت مجرد استعمار ثقافي لليونان ،

وانها كانت آخر مركز غربي هام يضمه الاغريق الى امبراطوريتهم الثقافية ـ وعلى ذلك فحين غزا الرومان الحضارة الهلينستية بالقوة فانهم كانوا فقط يرثون العمل الذي قامت به مقدونيا من قبل » . (صفحة ٢٩٩) .

ومع ذلك ، فقد كان للرومان لغتهم اللاتينية المتميزة التي افلحوا في فرضها على الاغريق في مجالي القانون والحكومة ، الا ان ذلك لم يمنع من ان يستمر العالم الهلينستي عالما يونانيا الى حد كبير نظرا لقوة اللغة اليونانية وتغلغل الحضارة الهلينستية فيه . ومن هنا كان معظم المؤرخين حين يتكلمون عن حضارة الرومان يقصرون كلامهم على القانون ونظام الحكم ، باعتبار ان الاسهامات الاصيلة للرومان كانت في هذين الميدانين بالذات . وعلى العموم فان تزاوج الحضارة الهلينستية والحضارة الرومانية يماثل في تأثيره تزاوج الحضارة اليونانية والتأثيرات الشرقية التي نجمت عنها الحضارة الهلينستية ذاتها . ولكي ندرك عمق الآثار المترتبة على هذا التزاوج فانه يمكننا تشبيه غزو الفكر والفنون والفلسفة الهلينستية للعالم الروماني بغزو الحضارة الامريكية الآن لدول اوروبا الغربية والتأثيرات الناجمة عن هذا الغزو .

ولقد مر العالم العربي في حياته الثقافية المعاصرة بمرحلة كانت الاعمال الكلاسيكية تلقى فيها كثيرا من العناية والاهتمام ، وظهر ذلك بوجه خاص خلال الثلاثينات والاربعينات من هذا القرن . وكان من المألوف ان تنشر المجلات الثقافية تراجم لبعض هذه الاعمال او مقالات ودراسات عميقة عنها . وكان هذا واضحا في مصر بالذات . ورغم انكسار حدة هذه الموجة من الاهتمام بالاعمال والعصور والثقافة الكلاسيكية فلا تزال هناك جهود مشكورة تبذل في نقل الاعمال الضخمة الخالدة مثلما فعل ثروت عكاشة بالنسبة لكتاب أوفيد « مسخ الكائنات » ، وما فعله حسن عثمان في ترجمته للكوميديا الالهية رغم الاجزاء التي اغفلها منها لأسباب دينية ، او ما فعله ممدوح حمدي في ترجمته للانياده ، وكذلك الجهود التي تبذل منذ اعوام لنقل عدد من المسرحيات الكلاسيكية عن لغاتها الاصلية والتي تظهر في سلسلة « المسرح العالمي » التي تنشرها وزارة الاعلام في الكويت . ولكن يمكن القول ان تغير المناخ الثقافي العام صرف معظم المثقفين عن ان يهتموا بهذه الدراسات التي كانت تؤلف جانبا اساسيا في التكوين الثقافي منذ نصف قرن او اقل . والذي نرجوه ان يكون هذا العدد من « عالم الفكر » بداية لاهتمام جدي بالدراسات الكلاسيكية من جديد .

دكتور احمد أبو زيد

***

عــالم هوميروس

لطفي عبد الوهاب يحيى

أستاذ تاريخ الحضارة في جامعة الاسكندرية

الحديث عن هوميروس كان ، ولايزال ، حديثا متشعب الجوانب ، يتسع مجاله لباحث اللغويات بما فيها من خصائص وقواعد ، وللمتوفر على دراسة الأدب بعامة ، والتبحر في الشعر وصوره على وجه التخصيص ، ولدارس التاريخ الحضارى الذى يحاول أن يتعرف على قسمات المجتمع الذى ترد الاشارات اليه في ثنايا الشعر المنسوب الى هذا الشاعر . وفي هذا المجال الأخير فان حديث هوميروس يوحى لأول وهلة بجو تشيع فيه البطولات والأساطير وتلتقى فيه الآلهة بالبشر . وبتخذ الناس والاشياء أحجاما غير تلك التي نعرفها ، وتظهر فيه الانجازات والقيم في أبعاد غير تلك التى ألفناها في عالم أقل ما يوصف به أنه غريب عن عالمنا الذى نعيشه ، وأنه يقع ببطولاته وأساطيره وأشخاصه وأشيائه وقيمه جميعا في منطقة تتخذ مكانها الضبابي بين الحقيقة والوهم أو بين الواقع والخيال . والدراسة الحالية هي محاولة لرد كل ذلك الى حجمه الطبيعي برغم ما قد يوجد من ايحاءات في الأشعار خلدت اسم هذا الشاعر .

١ ـ هوميروس

وفي صدد هذه المحاولة ، فان أول ما يجابهنا هو هذا القدر الهائل من النقاش الذى دار ولا يزال يدور حول هوميروس ، بحيث تكاد تكون الحقيقة الواحدة التى لم يدر حولها خلاف في الرأى هى أن اليونان اعتقدوا أنهم في فترة مبكرة من تاريخهم قد جمعوا قواتهم وأبحروا من بلادهم تحت قيادة أجاممنون Agamemnon ، أكبر ملوكهم ، ليشنوا حربا

انتقامية على طرواده ، وهي منطقة تقع بالقرب من مداخل البحر الاسود في القسم الشمالي الغربي لآسية الصغرى ، وأن شاعرا اسمه هوميروس قد خلد هذه الحرب في ملحمتين : احداهما هي الالياذه (نسبة الى مدينة اليوس أو اليون Ilios, Ilion عاصمة منطقة طرواده) ويقع مسرحها ضمن نطاق الحرب ذاتها حول أسوار المدينة وفي داخلها . والأخرى ، وهي الأوديسية ، تتخذ موضوعها مما تعرض له أوديسيوسOdysseus ، احد الملوك والقادة اليونانيين ، من مخاطرات وهو في طريق عودته الى اثاكاIthaka مقر ملكه وهي جزيرة تقع عند الساحل الغربي لشبه جزيرة البلقان .

أما فيما عدا ذلك فقد ظل الخلاف مستمرا ومتشعبا ، سواء فيما يتصل بالظروف التي تتعلق بالشاعر او تلك التى أحاطت بشعره ، بحيث لا ترقي معرفتنا بهذه الظروف الا الى مرتبة التقريب والترجيح دون أن تصل الى مرتبة القطع واليقين . ومع ذلك فالالياذة والأوديسية كانتا ، ولا تزا لان ، تشكلان مصدرا أساسيا للتعرف على الجوانب المختلفة لعالم بأكمله ، هو حياة اليونان وحضارتهم في عصرهم المبكر . وسأحاول في الشوط الأول من هذه الدراسة أن أتحدث عن الخطوط العامة في هذا الخلاف الذى أثاره ما اكتنف الشاعر وشعره من غموض ، وعن الاعتبارات التي لا تنتقص ، رغم ذلك ، من قيمة هذا الشعر كمصدر لما نبغيه من التعرف على العالم المذكور . ولكن بداية الحديث عرضا سريعا للمادة التى أثارت ما ذكرت من خلاف والتى أحاط بها ما ذكرت من غموض ، والتى لاتزال تعتمد عليها في تصوير عصر كامل من حياة اليونان : أعني هوميروس وملحمتيه ، الالياذة والاوديسيه .

الشاعر والشعر

وقد كان هوميروس ، في اعتقاد اليونان ، شاعرا أعمى ـ هكذا تحدثوا عنه ، وعلى هذه الصورة ابرزوه في تماثيلهم التى نحتوها على مر العصور لتمجيده وتخليده ، وكان ينشد شعره أمام سامعيه من اليونان ، وبخاصة في قصور ملوكهم ونبلائهم ، على نحو ما كان يفعل غيره من الشعراء المتنقلين الذين كانوا يحملون شعرهم وانشادهم من مكان الى مكان . ولكن هوميروس كان في نظر اليونان غير بقية هؤلاء الشعراء ، فهو سيدهم بلا منازع ، وهو شاعر فيه صدق المعلم وأكثر من لمسة من الوحى الالهي . اعتقد اليونان ذلك ولم يشك فيه حتى كبار مفكريهم وأدبائهم الذين اتخذ بعضهم من شخصيات الملحمتين أو حوادثها مادة لما كتبوه من مسرحيات ، تمثل الخلفية التاريخية المستمدة من الواقع والحقيقه في عملهم الادبي . هكذا كانت قناعة اليونان ومن ثم كان كل ما قدمه هوميروس في الالياذة والاوديسيه يشكل في نظرهم تاريخا حقيقيا لأحداث ومواقف وقعت وحدثت ووجدت فعلا في حقبة سابقة من حياتهم .

والموضوع الرئيسى الذى تدور حوله الالياذه (أو ملحمة اليون) ، كما يظهر من أول سطر فيها هو غضب

أخيليوس . والملحمة تتخذ نقطة بدايتها من حيث يدب الشقاق بين أخيليوس Achilleus ، أعظم المحاربين اليونان (او الآخيين كما كان يسميهم الشاعر في اغلب الاحيان) ، وبين أجاممنون Agamemnon أكبر ملوكهم والقائد الأعلى لقواتهم ، حول مسألة تتعلق باحدى النساء الطرواديات اللائي رقعن سبايا في أيدي الآخيين . وحين يبدأ هذا الشقاق يكون الآخيون قد بدأوا عامهم العاشر في حصار اليون ، في محاولة منهم لاسقاط هذه المدينة واستعادة هيليني Helene زوجة مينيلاوس (الذي كان ملكا لاسبرطة وأخا لأجاممنون) . وكان باريس ابن ملك طروادة قد أغراها بالفرار معه الى بلاده ، بعد ان نزل ضيفا على زوجها .

ثم يروي لنا الشاعر العواقب الوخيمة التي ترتبت على غضب اخيليوس ، سواء بالنسبة للآخيين الذين كان عليهم أن يحاربوا بدون أعظم محاربي بينهم ، أو بالنسبة لأخيليوس نفسه ، الذي كانت نتيجة امتناعه عن الاشتراك في الحرب أن فقد أقرب أصدقائه اليه ، باتروكلوس Patroklos الذي سقط في ميدان القتال بعد ان صرعه هكتور Hektor البطل الطروادي . ويستطرد ناظم الملحمة الى حيث يقرر أخيليوس ، بعد ذلك ، أن يصفي النزاع بينه وبين أجاممنون على أثر وقوع هذه المأساة ، فينتقم لصديقه بقتل هكتور بعد مبارزة حامية تظهر بطولة الغالب والمغلوب . وبعد أن يقيم أخيليوس الاحتفال المناسب لتوديع جثمان صديقه ، يقبل فدية يقدمها برياموس Priamos ملك طروادة ليستعيد بها جثمان هكتور ويشيعه ، بعد اقامة الشعائر اللازمة ، الى مقره الأخير .

والموضوع كما هو واضح ، قصير . ونحن اذا تتبعنا مداه الزمني عبر سطور الالياذة ، نجد انه لا يستغرق أكثر من أربعين يوما . ومع ذلك فالشاعر يجعل منه هيكلا لقصة (وان كان التفصيل ليس بنفس القدر في كل الأماكن) ، عن روعة الحرب ومآسيها في الوقت ذاته ، وعن المتناقضات التي تسيطر على تصرفات البشر والآلهة على السواء . وهي قصة تستوعب في دائرة مواردها وشواردها كل السنوات العشر التي استغرقها الحصار والقتال . بل وتقذ في بعض الأحيان الى ما قبل هذه الحروب من ناحية وتستشرف الفترة التالية لها من ناحية أخرى . كذلك فان القصة لا تقتصر على ميدان القتال الرئيسي حول أسوار اليونان ، وانما تنتقل بنا الى ما خلف القتال ، حيث معسكر الآخيين واجتماعاتهم ومشاوراتهم ، والى داخل أسوار اليون حيث استعدادات الطرواديين للدفاع عن مدينتهم وفك حصارها . بل ان القصة كثيرا ما تأخذنا بعيدا حتى عن ميدان القتال في طرواده لتطوف بنا في أماكن أخرى كانت مسرحا لحوادث أو بطولات أخرى .

والشاعر يلجأ في الوصول الى تفاصيله لكل الوسائل التي يمكن أن تصل اليها مهارة الاديب ، سواء أكانت الوسيلة ذكريات عن الماضي يرويها أبطال الملحمة أو تنبؤات عن المستقبل أو مقارنات بين حوادث وقعت في أماكن مختلفة أو أزمنة متباينة ، أو مفارقات بين أشخاص أو جماعات من الناس وبين عادات كل منهم ، أم استطرادات يضعها الشاعر على لسان أبطال الاخيين أو على لسان الآلهة ، أو يقوم بها هو ذاته واصفا او معلقا وهو يضع وراء

كل هذا خلفية من العصر المبكر الذي تصوره اليونان ورسموه في أدبهم وفي كتاباتهم عصرا للأبطال ، ويتحدث فضلا عن بعض هؤلاء الأبطال مثل هراكليس (هرقل) Herkales كما يشير الى ما دار في هذا العصر من حوادث رئيسية اعتقد اليونان في وقوعها مثل « حرب السبعة الأشداء ضد طيبة » وهكذا ..

●●●

فأذا انتقلنا الى الأوديسية وجدنا موضوعها أكثر تعددا في جوانبه . فبينما تتركز الأليـاذه ، رغم تشعب تفاصيلها ، حول موقف واحد هو غضب اخيليوس ، تجد الأوديسية ، رغم أنها تتخذ موضوعها أساسا من عودة أوديسيوس من حرب طروادة الى وطنه في اثاكه ، تمتد على ثلاث مراحل ، ولكن مع ذلك ، فهي تشبه الالياذه من ناحية المدى الزمني الذي تدور فيه الحوادث التي تعالجها فهذه ، هي الاخرى ، لاتستغرق أكثر من أربعين يوما تقريبا من أصل عشر سنوات تشير اليها الملحمة ، وما عدا ذلك فيأتي بشكل جانبي أو عابر من خلال الأحاديث والذكريات .

والمرحلة الاولى تدور في اثاكة حيث نعلم في بداية الملحمة أن أوديسيوس لايزال غائبا رغم أن حرب طرواده قد انتهت منذ عشر سنوات وعاد من بقي حيا من أبطالها الى مواطنهم . والمنظر الاساسي في هذه المرحلة (التي تمتد عبر أربعة اناشيد من أصل الأناشيد الأربع والعشرين التي تتكون منها الأوديسية هو قصر أوديسيوس حيث يتكالب عليه نبلاء المدينة ويكالون يقيمون فيه بصفة دائمة ، وكل منهم طامع في أن يحصل على يد بنيلوبي Peneiope زوجة الملك الغائب بعد أن اعتقد أهل إثاكه أنه مات ولن يعود ، فالذي يتزوج الملكة سيتربع على عرش المملكة (وان كنا لانعرف كيف سيتم هذا في وجود تليماخوس ، الذي كان أبوه قد تركه رضيعا عندما أبحر الى طروادة قبل عشرين سنة ، وأصبح الآن بعد أن بلغ سن الرشد أهلا ليتولى العرش حتى دون وصاية) . ولكن الملكة وابنها لم يفقدا الأمل في عودة أوديسيوس ، ويستعد تلياخوس من جانبه للقيام برحلة يتقصى فيها أخبار والده من رفاقه الذين قدر لهم أن يعودوا من طروادة .

والمرحلة التالية من الأوديسية تمتد من النشيد الخامس لتستوعب الأناشيد التالية حتى القسم الأول من النشيد الثالث عشر وفيها نرى أوديسيوس في رحلة العودة ، بعد ان توسطت الالهة أثينة بالاس لدي زيوس ، كبير الألهة ، ليفك أسر البطل اليوناني من جزيرة أو جيجية Ogygia حيث كان واقعا تحت سيطرة كاليبسو Kalypso حورية البحر ، وبعد رحلة يتعرض فيها أوديسيوس لغضب إله البحر بوسيدون Poseidon يصل اخيرا الى جزيرة اسخيرية Scheria حيث يستضيفه ملكها ألكينوس Alkinoys ، وهناك يحتفي الملك بضيفه ويروي أوديسيوس للملك ما تعرض له من مخاطر وما صادفه من صعاب تدخل في دائرة العجائب ذاتها . وتنتهي هذه الرحلة بأن يبحر أوديسيوس ومعه بعض ابناء الجزيرة الى حيث يوصلونه الى إثاكه مقر ملكه .

اما المرحلة الأخيرة ، وهي التي تستغرق بقية النشيد الثالث عشر وتمتد الى نهاية الملحمة ، فالمنظر يعود فيها الى إثاكه حيث يبدأ أوديسيوس ، تعاونه الالهة أثينة ، في الاستعداد للصدام المحتم مع النبلاء الذين كانوا يطمعون في عرشه . وهكذا يتنكر اوديسيوس بمساعدة الالهة في زي سائل يتسلل الى داخل القصر ، دون ان يدرك هويته أحد من النبلاء ، بينما يجعله الشاعر يلتقي بابنه وزوجته اللذين يتعرفان عليه ! . وتكون هذه هي البداية التي تنتهي بقتال يدور بينه هو وأتباعه الذين ظلوا على وفائهم له من جانب ، وبين طائفة النبلاء من الجانب الآخر ، يختمه الشاعر بانتصار أوديسيوس وعودة السلام الى ربوع إثاكه .

الغموض الذي يحيط بالشاعر والشعر

هذه هي قصة هوميروس ، الشاعر الذي وضعه اليونان على رأس شعرائهم ، والملحمتان اللتان نسبتاها اليه واللتان آمنوا بما جاء فيهما كتاريخ لشعبهم في مرحلته المبكرة . ولكن ، مع ذلك ، فإن الخلاف والغموض ، كما ذكرت ، قد أحاطا بأكثر من جانب من جوانب هذا الموضوع ، سواء فيما يخص الشاعر أو الشعر الذي نسب اليه . ففيما يتعلق بالشاعر تصور لنا مقطوعة أدبية ترجع الى النصف الاول من القرن الثاني الميلادي ، مدى الحيرة التي كانت لاتزال تسيطر حتى ذلك الوقت المتأخر على اليونان أنفسهم حول اسم الشاعر وسبب تسميته وحول أصله ، والمكان الذي ولد ونشأ فيه[1] . أما عن الاسم وسبب التسمية فيذكر لنا كاتب هذه المقطوعة ثلاثة اسماء أعطتها الروايات المختلفة لهوميروس غير اسمه الذي نعرفه به ، كما يحدثنا عن اختلاف مماثل حول أصل الشاعر . وهو اختلاف يبدو أنه كان كبيرا فعلا حيث نجد سبع روايات كل منها تنسب هوميروس الى أب مختلف ، وسبع روايات اخرى تنسب الشاعر الى سبع أمهات مختلفة . وما يقال عن الأصل الذي انحدر منه هوميروس ، يصدق كذلك عن المكان الذي شهد مولده ونشأته ، حيث يذكر لنا الكاتب أنه « ما من مدينة إلا ونسبته اليها وادعى أهلها أنه من بين ظهرانيهم » .

هذا ، وليس أصل الشاعر ونشأته هما اللذان يحيط بهما الغموض فحسب ، بل يمتد هذا الغموض ليلف جوانب أخرى من القضية ، فهل هناك شاعر واحد نظم الملحمتين أم أن هناك أكثر من شاعر . لقد كان اليونان أنفسهم قاطعين في هذا الموضوع ، فاعتقادهم لايرقى اليه الشك في أن الالياذة والاوديسية قد نظمهما هوميروس . ولكن الامر لم يكن بهذه السهولة عند نقاد العصر الحديث ، فقد كان القرن الماضي مسرحا لرأيين متناقضين ، أحدهما يؤيد ما آمن به اليونان ، والآخر يرى أن الملحمتين لا يمكن أن يكونا من نظم شخص واحد . وليس من بين

١ ـ المقطوعة لكاتب مجهول وعنوانها « حول هوميروس وهزيودوس ، اصلهما والمباراة بينهما » Kai Hesiodou Kai Tou Genous Kai Agonos autou Peri Homerou وقد كانت كتابتها في عهد الامبراطور الروماني هادريانوس (١١٧ ـ ١٣٨م) أو بعد موته بفترة قصيرة . والمقطوعة يبدو ان كاتبها اعتمد على ما كتبه في فترة سابقة السوفسطائي الكيداماس Alkidamas قبل ذلك بنحو خمسة قرون ونصف (حوالي ٤٠٠ق.م) راجع نص المقطوعة في : Marckscheffel . Hesiodi Fragmenta, p. 35

اهداف هذه الدراسة التي تهتم أساسا بالعصر أو العالم الذي يرسمه الشاعر أن أخوض في تفاصيل هذا الخلاف ، ولكن اكتفي بأن أقول إن الرأي الغالب الآن بين المهتمين بهذه القضية هو أن اليونان كانوا على حق في اعتقادهم ، وأن الملحمتين ربما كانتا من نظم شاعر واحد ، وإن كان لايزال هناك من يفترض وجود شاعرين تفصل بينهما فترة زمنية وصلت في احد الآراء الى نحو مائة سنة[1] .

وحتى اذا افترضنا أن الملحمتين من نظم شاعر واحد فإن هذا لا يضع حدا للقضية ، اذ لا يزال هناك خلاف حول حقيقة الدور الذي قام به هذا الشاعر الواحد . وهناك اتجاهان فيما يخص هذه المسألة ، أحدهما يرى الداعون اليه أن هوميروس انتفع بالمقطوعات الشعرية التي كانت موجودة ومتراكمة في التراث الشعبي اليوناني في الفترة السابقة لظهوره ، ثم اضاف اليها لمساته الخاصة ليخرجها في صورة الملحمتين كما نعرفها الآن . بينما يرى أنصار الاتجاه الآخر أن الشاعر نظم ملحمتيه في البداية ثم حدثت بعد ذلك اضافات تفصيلية عليها قام بها شعراء آخرون[2] .

واذا كان الشاعر يحيط به الغموض من أكثر من جانب ، فان شعره الذي تجسده الملحمتان لم ينج من هذا الغموض والحيرة التي تصاحبه من وجهة نظر التاريخ . لقد حاول الأثريون والمهتمون بدراسة الآثار أن يثبتوا حرب طرواده من الناحية التاريخية . وقد بدأ هذا البحث وراء الحقيقة التاريخية هاينريخ شليمان Heinrich schliemann التاجر الألماني الذي تحمس منذ صباه لهوميروس ولغته وشعره ، وآمن بأن ما جاء في هذا الشعر لا يمكن ان يكون كله خيالا وأنه لا بد وأن يكون له أساس من الحقيقة . وقد قام بحفائره في اواسط النصف الثاني من القرن الماضي في المنطقة المعروفة الان باسم تل حصارلك ـ وهي تبعد عن شواطيء الدردنيل بنحو اربعة كيلومترات الى داخل أسية الصغرى ـ واستطاع أن يعثر فيها على طبقات اثرية ، ثم تابع الحفر في هذه المنطقة الباحث الأثري دريفلد Doerpfeld قرب أواخر القرن ، واستكملها بعد ذلك عدد من علماء الآثار الأمريكيين على رأسهم بليجن Blegen (بين ١٩٣٢ و ١٩٣٨) . وكانت النتيجة هي العثور على آثار المدينة التي تتفق أوصافها مع ظروف طروادة التي تحدث عنها هوميروس في الطبقة التي أعطاها العلماء الأثريون رقم ٧أ .

١ ـ من بين الذين اتفقوا على شاعر واحد للملحمتين :

E.V. Rieu: Homer, The Lliad (Pelican ed.) p. VII

C.M.Bowra : Ancient Greek Literature, P. 19

من بين أصحاب نظرية الشاعرين ، واحد لكل ملحمة ، مع فارق زمني بينهما :

M.I. Finley : The World of Odysseus (Pelican ed.) P. 36

٢ ـ فجر هذه القضية أساسا العالم الالماني فولف Wolf في أواخر القرن الثامن عشر في كتابه « مدخل الى هوميروس » Prolegomena ad Homerum ومن بين أنصار الرأي الاول الكاتبان الالمانيان G. Hermann و K. Lachmann ومن بين أنصار الرأي الثاني الكاتب الانجليزي R.P. Knight ومن بين الذين حاولوا التوفيق بين الرأيين المؤرخ الانجليزي G. Grote

وقد أثبت هذا الكشف من ناحية الدراسة التاريخية ، حرب طروادة التي رسمها هوميروس بالشعر والقصص ـ ولكن التطابق بين التاريخ والقصة يتوقف عند هذه الحدود العامة ، فاذا اوغلنا في التفاصيل لا نلبث أن نصطدم بأكثر من نقطة لا تتفق فيها القصة مع التاريخ ، وهكذا يبدأ الغموض الذي دفع بأحد الباحثين مؤخرا الى ان يقول « ان هناك خطأ ما ، إما في طروادة شليمان أو في طروادة هوميروس »[٤] .

وسأعرض الآن بعض الخطوط العامة لهذا التناقض بين ما أنشده الشاعر وما اكتشفه البحث الأثري والتاريخي الحديث . وأول جوانب هذا التناقض يتصل بساحة القتال ، أمام اسوار طروادة ، بين اليونان « أو الآخيين حسب تسمية هوميروس ، وبين الطرواديين . لقد اورد هوميروس كثيرا من التفاصيل الدقيقة لملامح هذه المنطقة وهو يتحدث عن تحركات القوات والتحام المحاربين ، بحيث يصبح من الممكن أن نرسم صورة دقيقة لساحة القتال بكافة ملامحها . ولكن الصورة التي يرسمها الشاعر لا تنطبق على الآثار التي كشفت عنها معاول الأثريين في المنطقة.

واذا كانت ملامح طروادة التي تحدث عنها الشاعر قد اختفت ، فاننا لا نجد للطرواديين أنفسهم وجودا تاريخيا في غير ملحمة هوميروس . وهذا يبدو غريبا اذا عرفنا أن كثيرا من الاقوام التي تحدث عنها الشاعر قد ثبت وجودها التاريخي ، وكان وجودا مستمرا في احيان كثيرة . ومن بين هذه الاقوام على سبيل المثال المصريون والفينيقيون الذين يتحدث عنهم الشاعر في أكثر من موضوع ، والدور التاريخي والحضاري لكل منها ثابت ومعروف . كذلك فان الشاعر يذكر بين حلفاء الطرواديين أنفسهم اقواما ثبت وجودهم التاريخي ، مثل الفريجيين (أهل منطقة فريجيه Phrygia) والكاريين (اهل منطقة كاريه Karia وهم وسابقوهم من آسيه الصغرى) وغيرهم . بل أكثر من هذا فأن هوميروس لا يعطي الطرواديين في كل الأحوال صفات أو ملامح تميزهم بشكل قاطع ، ففى أسمائهم على سبيل المثال نجد تداخلا بينهم وبين اليونان . فاسم هكتور مثلا ، وهو بطل طروادى ، هو اسم يونانى . وباريس Paris ابن ملك طرواده ، الذى كان اغراؤه لهيلينى بالفرار معه سببا في حرب طرواده (حسبما يذكر هوميروس) هو اسم غير يوناني ، ولكن الشخص ذاته يحمل اسما آخر يونانيا ، هو الكسندروس Alexandros (الاسكندر) .. وهكذا[٥] .

كذلك هناك تناقض آخر يخص الفترة الزمنية التى استغرقتها الحرب . ان هذه الفترة الزمنية امتدت عشر سنوات في حساب هوميروس ، ولكن مع ذلك فان بعض مناظر الحرب وملامحها لا تتفق مع هذه الفترة الزمنية

---

٤ ـ Rhys Carpentor : Folktale Fiction and Saga inthe Homeric Epics. P. 51

٥ ـ عن ذكر المصريين عند هوميروس انظر الاوديسيه ، نشيد ٤ ، سطر ٨٣ ، نشيد ١٤ ، ٢٦٣ ، ٢٨٦ ، نشيد ١٧ ، ٤٣٢ . عن ذكر الفينيقيين ، الاوديسيه ١٣ ، ٢٧٢ ، ١٤ ، ٢٨٨ ، ١٥ ، ٤١٥ ، ٤١٩ ، ٤٧٣ ، الالياذة ، نشيد ٢٣ ، ٧٤٤ ، عن الفريجيين ، الالياذة ، النشيد الثاني : ٨٦٢ ، عن الكاريين ، النشيد ذاته ، ٨٦٧ . عن اسم الكسندروس ، الالياذة ، ٤ : ٧٦ .

الطويلة . وعلى سبيل ، المثال فاننا نجد هيلينى فى أحد المناظر وقد جلست على تحصينات طروادة والى جانبها يظهر بريامومن ملك الطرواديين ، وهى تشير الى بعض القادة الآخيين حتى يتعرف الملك عليهم[٦] . وهذا يبدو غريبا ، اذا تذكرنا أن هذا المنظر يقع في السنة العاشرة من الحرب ـ اذ لا يعقل أن يغفل الملك مثل هذا الموضوع الهام وهو معرفة قادة أعدائه ، تسع سنوات أو أكثر ، ولا يبدأ في التعرف على هؤلاء القادة الا في السنة العاشرة ، قرب نهاية الحرب .

القيمة التاريخية للشاعر والشعر

الخلاف والغموض والتناقض ، اذن ، لا يلبث أن يحيط بهوميروس وبلحمتي الالياذة والاوديسية. اذا أردنا أن نضع الشعر والشاعر داخل حدود الحقيقة التاريخية الثابتة . ولكن مع كل هذا فقد كان للملحمتين قيمة كبيرة ومركزا لايستهان به في حياة اليونان ـ وهو مركز لا يقتصر على مجرد الاحترام والتبجيل ، وانما يتعداه الى التشبث بما كتبه هوميروس على انه حقيقة لا يرقى اليها الشك . والمسافة بين هذا الأثر الكبير الذي يشكل نقطة قوة ، وهذا الغموض الذي يشكل نقطة ضعف ، في رأيي ، هي التي يجب ان نبحث فيها عن القيمة التاريخية لما تركه لنا هوميروس . والطريقة السليمة للوصول الى ذلك هي أن نحاول التعرف على أسباب التناقض الذي يكمن وراء قدر كبير من هذا الغموض ، وهناك ثلاثة اسباب أقدمها في هذا المجال :

أما السبب الاول فهو أن هوميروس لم يبدأ من نقطة اللاشيء في نظم قصيدتيه الطويلتين ، وانما كان تحت يديه قدر كبير متراكم على مر القرون من التراث الأدبي الشعبي ممثلا في أناشيد وأساطير وأغاني ومقطوعات نسجها أبناء الأجيال المتعاقبة من اليونان حول الحوادث التي مرت بهم وحول القيم والمثل التي تسيطر على حياتهم . وطبيعي أن هذه المخلفات الأدبية تختلف في توجيهها من فترة الى فترة ، مع تطور الزمن ـ فالعادات تتغير ، والأدوات والأسلحة التي يستخدمها الناس تتغير ، والمعادن التي يصوغون منها هذه الادوات والاسلحة تتغير ، والنظم الاجتماعية والسياسية ونوع الموارد الاقتصادية التي يعتمد عليها اليونان تتغير وتتطور هي الاخرى ، وهكذا . والشاعر يأخذ من هذه المخلفات الادبية المتداولة التي وصلت اليه ما يحتاج اليه في نسج روايته أو قصته الطويلة ، حقيقة انه يضع لمساته الاخيرة ، وربما ، بل من المؤكد انه زاد على هذه المخلفات الشيء الكثير من عنده ـ ولكن هوميروس لم يكن مؤرخا او ناقدا تاريخيا ، وانما كان أديبا قبل كل شيء وفوق كل شيء ، ومحور الالياذه عنده ليس حرب طروادة التي ذكر لنا انها استغرقت عشر سنوات ، وانما غضب اخيليوس والمآسي التي ترتبت عليه هي التي تشكل هذا المحور ، وهي لاتستغرق اكثر من أربعين يوما من السنوات العشر . كذلك فان طريق العودة من طروادة الى اثاكة ليس هي محور الاوديسية بالنسبة لهوميروس وانما بطولة أوديسيوس

٦ ـ الالياذة ، ٣ ، سطر ١٦٠ وما بعده .

التي تدعمها عدالة قضيته في مواجهة النبلاء الطامعين في عرشه هي ما أراد الشاعر أن يصوره . ومن هنا لايهتم الشاعر بهذه التناقضات التفصيلية التي قد تقوم بين ما وجده تحت تصرفه من المقطوعات والقصائد والأناشيد التي ترجع الى فترات زمنية متباينة وتحمل في طياتها ، لهذا السبب ذاته ، بذور التناقض فيما بينها . وانما الذي يهتم به الشاعر هو التوافق أو الانسجام « العام » في الملحمة « ككل » وليس بين تفصيلاتها « كأجزاء » .

والسبب الثاني للتناقض الذي يبدو في بعض جوانب الاشعار الهوميرية يرجع الى طبيعة المجتمع اليوناني ذاته التي فرضتها عليه ظروفه الخاصة . فبلاد اليونان لم تعرف مجتمعا موحدا منذ بداية تاريخها حتى سقطت تحت السيطرة الاجنبية ، وانما كان هذا المجتمع في حقيقته مجموعة كبيرة من المجتمعات سواء في بلاد اليونان الأصلية في جنوبي شبه جزيرة البلقان أو في المناطق التي هاجر اليها اليونان . وقد كان من بين الاسباب التي أدت الى هذا الاتجاه الانفصالي دون شك ، الظروف التضاريسية التي نرى فيها الجبال تمتد في كل اتجاه لتمزق البلاد الى مناطق ومن ثم الى مجتمعات منفصلة عن بعضها أو تكاد تكون كذلك . وقد كان لكل من هذه المجتمعات الصغيرة بالضرورة أساطيره وأناشيده التي تختلف عن غيرها ، والشعراء المتجولون ، ومنهم هوميروس ، كانوا يجوبون هذه المناطق أو الأقسام او المجتمعات المختلفة ويتغنون فيها بأشعارهم أمام فئات الشعب المختلفة أو أمام الحاكم ، ومن ثم فقد كانوا يلتقطون كثيرا من هذه الاساطير والأناشيد لتصبح لديهم مجموعات متعددة منها يستخدمونها في نسج قصة أو رواية ينشدونها بدورهم . وهكذا ـ ومن بين هذه الاخيرة ، الملحمتان المنسوبتان الى هوميروس . وقد كانت هاتان ، من واقع تواترهما واستمرارهما ، هما ما تغنى به الشعراء المتجولون المذكورون في هذا الصدد .

كذلك فان تعدد هذه المجتمعات الصغيرة كان معناه أنه كان على هؤلاء الشعراء المتجولين أن يكونوا على شيء من المرونة وهم ينشدون ملحمة مثل الالياذة أو الأوديسيه ، فالموقف أو المنظر الذى يمجد بيتا حاكما معينا قد لا يكون من الملائم أن ينشد كما هو أمام حاكم من بيت آخر اذا كان هناك عداء مثلا ، بين البيتين الحاكمين . وتغيير البيوت الحاكمة نتيجة انقلاب او أية حركة مماثلة ، وكثيرا ما كان هذا يحدث في بلاد اليونان ، كان يستتبع بالضرورة تغييرا فيما ينشده الشاعر فيما يخص الشخصيات والأبطال التى كانت تمت بصلة حقيقية متصورة الى البيوت الحاكمة المختلفة وهكذا وبمرور الوقت ، أصبحت هناك تغييرات في سياق الالياذة والأوديسية أدت بالضرورة الى التناقض الذى يظهر في بعض جوانبهما .

والسبب الاخير الذى أدى الى ما يبدو من هذا التناقض هو أن اليونان في الحقبة المبكرة من تاريخهم مروا بفترة لم يعرفوا فيها الكتابة ، ومن هنا كان الاعتماد فى الاحتفاظ بقصائدهم وملاحمهم على الرواية الشفوية أساسا ، بكل ما يعنيه هذا من تغيير بين شاعر وشاعر وبين جيل وجيل من هؤلاء الشعراء المتجولين الذين كانوا يكسبون خبز يومهم بانشاد هذه الملاحم . حقيقة كان هناك نوع من الخط في العصر البرونزى ، ولكن لا توجد

أية شواهد على أن هذا الخط استخدم في تدوين أي شيء يستحق أن تطلق عليه صفة الادب . كذلك فقد أعقبت هذا العصر فترة من الجهل بالكتابة امتدت الى حوالي القرن الثامن ق.م. تقريبا قبل أن ينقل اليونان الحروف الأبجدية عن الفينيقيين ، الذين كانوا قد نقلوها بدورهم عن المصريين ثم صقلوها . وحتى بعد أن عرف اليونان الكتابة فانها كانت قليلة الانتشار حتى القرن الخامس ق.م.

●●●

هذه هي الاسباب التي تكمن وراء التناقض الذي يظهر في أشعار هوميروس . ولكن رغم هذا التناقض الذي يبدو في كثير من التفاصيل ، الا أن الصورة العامة أو الخلفية التي تظهر وراء هذه التفاصيل فيها شيء كثير من الوحدة والانسجام أو التوافق في عمومها . وهذه الوحدة العامة تصلح كبداية تساعد دارس الحضارة في استخدامه للملحمتين هوميروس كأداة لتصوير حقبة من حياة المجتمع اليوناني دون أن يتعرض لاكثر من القدر المقبول من الخطأ لعدة أسباب . وأول هذه الاسباب هوأن هوميروس لم يقحم نفسه في المواقف التي كان يذكرها الا في أضيق الحدود الممكنة ، وانما احتفظ بمكانه بعيدا عن التعليق على ذلك الى أقصى حد مستطاع . وقد لفت هذا نظر أرسطو في كتابه عن الشعر ، حيث يذكر أن « هوميروس يستحق الثناء في أكثر من مجال ، وبخاصة لأنه يدرك دون غيره من الشعراء ، الدور الذي يجب أن يتخذه ، فالشاعر يجب ألا يتحدث عن نفسه الا أقل القليل »[٧] . وهذه في الواقع ميزة للباحث في تاريخ الحضارة لأن معناها أن الدور الرئيسي الذي قام به هوميروس هونقل المادة الأدبية التي كانت موجودة ومتراكمة حتى عهده دون أن يدخل شخصيته في محتواها ، وانما اقتصر دوره على ترتيبها واخراجها في الصورة التي وصلت الينا ، فظل هذا المحتوى معبرا عما كان موجودا بالفعل في المجتمع اليوناني . وان كنا يجب أن ندخل في الاعتبار بطبيعة الحال أن هوميروس كان يقوم بالضرورة بانتقاء المادة التي يراها تصلح للقصة أو تتفق معها .

كذلك فنحن لا نعتمد على الالياذة والأوديسية لمعرفة تفاصيل أو أحداث معينه ، وانما المجال الرئيسي لاعتمادنا عليها هو أساسا في معرفة اتجاهات عامة ، (سواء في معرفة الأوضاع والقيم الاجتماعية أو التيارات السياسية أو الاقتصادية أو غيرها) تعتمد على التحليل العام للملحمة أو الملحمتين ككل دون ان نحصر أنفسنا داخل التفاصيل . وهكذا تضيق حدود الخطأ بالنسبة للباحث في تاريخ الحضارة اليونانية مرة أخرى ، وبخاصة اذا لجأ الى مقارنة ما يصل اليه بما كان سائدا في بلاد اليونان ذاتها في العصور التالية أو بما يتوصل الى معرفته عن المجتمعات الأخرى .

---

٧ ـ Aristoteles : Poetika, 24 : 13

٢ ـ عصر هوميروس

لا اقصد بعصر هوميروس الفترة التي عاش فيها الشاعر الذي تسب اليه اليونان نظم الالياذة والأوديسية والذي أشرت الى بعض الظروف التي أحاطت بشخصيته وبعمله الأدبي، وهي ظروف كانت مثارا لأكثر من خلاف ـ وانما اعني بهذا العصر كل المرحلة التاريخية التي نجد اشارات اليها في الملحمتين المذكورتين . وقد كانت الملحمتان بما فيهما من اشارات ، كما رأينا ، محصلة لتطور مستمر على مدى طويل كان كل شاعر يضيف فيه الى سابقيه شيئا جديدا يصوغه في هيئة مقطوعة أو أنشودة يتغنى فيها بحدث أو بأسطورة تحمل معالم الوقت الذي يعيش فيه ، حتى جاء الشاعر الذي صاغ الملحمتين المذكورتين من كل هذا التراث ، أو مما اختاره من بينه . وبهذا المفهوم يصبح من البديهي أن عصر هوميروس يغطي من حياة المجتمع اليوناني فترة لايمكن رسم أبعادها الزمنية بشكل محدد ، وان من الممكن مع ذلك أن نشير الى بعض الظروف التي أحاطت بها .

بداية عصر هوميروس

وليكن الحديث الآن عن بداية هذه الفترة أو هذا العصر . لقد حاول اليونان الأقدمون أن يحددوا تاريخ حرب طروادة ووصلت بهم حساباتهم في هذا الصدد (وهي حسابات تقوم غالبا على عدد الأجيال التي انقضت منذ وقوع هذه الحرب من خلال نسب بعض الحكام أو الأشخاص الظاهرين أبطال الملحمتين) الى الاعتقاد بان هذه الحرب وقعت في الربع الاول من القرن الثاني عشر ق.م. ومن الناحية الأثرية فان الحفائر التي قام بها شليمان والذين جاءوا بعده ، تكاد تطابق هذا الاعتقاد ، فقد وجدت آثار مدينة (وهي التي اطلق عليها اسم طروادة ٦) كانت على اتصال ببلاد اليونان الأصلية حيث كانت الحضارة الميكينية قد وصلت الى مرحلة قوتها ابتداء من ١٤٠٠ ق.م . اذ تظهر فيها مخلفات مستوردة من هذه المنطقة ، وقد دلت الحفائر على أن هذه المدينة قد دمرها زلزال حوالي ١٣٠٠ ق.م وبعد الزلزال اعيد بناء المدينة بشكل أقل في مستواه مما كانت عليه من قبل ، ولكن هذه المدينة دمرت هي الأخرى وأحرقت بعد نحو مائة عام أي في أوائل القرن الثاني عشر ق.م. تقريبا[٨] . فاذا أدخلنا في الاعتبار هذا التاريخ ، وأن طروادة التي يتحدث عنها هوميروس قد دمرت وحرقت كذلك ، يمكن ان نحصل على نوع من التوافق ، أو على الأقل عدم التعارض ، بين ما اعتقده اليونان وبين ما كشفته هذه الحفائر الأثرية .

كذلك فان الحفائر قد كشفت عن آثار تشير الى هذا التاريخ بشكل تقريبي من ناحية اخرى . فقد اكتشفت معالم من الحضارة الميكينية في كل الأماكن العامة التي أشار اليها هوميروس في أشعاره ، وقد ذكر الشاعر هذه

٨ ـ Blegen : Bulletin of the British School At Athens, XXXVII, 8

الأماكن حين كان بصدد الحديث عن الكتائب اليونانية التى تجمعت أمام طرواده . ومن بين هذه الأماكن : ميكني وتيرنس وأرجوس وبيلوس وأثينه وغيرها . وقد كانت المخلفات التى وجدت في هذه المناطق على نفس المستوى المرتفع الذى تطرق الى وصفه هوميروس في بعض الأحيان . والاستثناء الوحيد في هذا المجال هو مدينه اثاكه التى لم تبلغ المخلفات التي وجدت فيها نفس المستوى الذى وصفه هوميروس وهو يتحدث عن قصر أوديسيوس(٩) .

وقد ازدهرت الحضارة الميكينية في بلاد اليونان في الفترة الواقعه بين ١٤٠٠ ، ١٢٠٠ق.م. فهناك شواهد كثيرة تشير الى انتشار هذه الحضارة التى كانت مدينه ميكني Mykenae مركز اشعاع لها ، الى عديد من المدن اليونانية : ففي أثينه وجدت آثار قصر وحصن ومقبرة وكلها ذات طابع ميكيني ، وفى أورخومينوس Archomenos وجدت مقبرة على النمط الميكني . وفي كورنته Korinthos والمدن الواقعة في غربى بلاد اليونان وجدت آثار مشابهة تدل على مدى تأثر هذه المناطق بالحضارة المذكورة(١٠) .

كذلك تقترب الحفائر الأثرية من الاشارة الى الفترة التى اعتقد اليونان أن حرب طرواده وقعت خلالها من ناحية أخرى . فشعر هوميروس في الالياذة يعطى انطباعا بأن مدينة ميكيني كان لها نوع من السيطرة على بقية المدن اليونانية ـ وهذه الفكرة لابد أن نخرج بها حين نرى الشاعر يعرض لنا الاستجابة الجماعية من جانب هذه المدن لنداء اجاممنون ، ملك ميكيني ، حين أهاب باليونانيين (أو الآخيين كما يسميهم هوميروس) أن يجمعوا قواتهم ويعدوا لحرب انتقامية ضد طروادة لأن ابن ملكها قد أغرى زوجة أخيه (أي أخي أجاممنون) بالفرار معه الى بلاده . كما تؤكد هذا الانطباع التسمية التى يطلقها الشاعر على أجاممنون حين يصفه بأنه « ملك البشر » او « سيد الآخيين » في أكثر من موضع من سطور الملحمة . ولكن يبدو أن هذه السيطرة كانت تقارب نهايتها ، يدلنا على ذلك موقف أخيليوس وتحديه السافر لأجاممنون (وهو الموضوع الذى تدور حوله وتبتدىء به الالياذه) ، وهو موقف يصل فيه أخيليوس الى مداه حين يمتنع عن الاشتراك في الحرب لفترة معينة ولا يملك أجاممنون أن يجبره على العودة الى الصف . كل هذا وأخيليوس لا يزيد عن أن يكون ملكا لاحدى المدن التى يفترض أن تكون تابعة لميكيني وملكها أجاممنون ، سيد اليونان !

ان هذه السيطرة التى كانت قوية ولكنها بدأت تتخلخل ، تعكسها نتائج الأبحاث الأثريه في بلاد اليونان وتشير الى الفترة الزمنية التى تم فيها ذلك . فقد وجد عدد من الطرق الممهدة التى مدت لتصل بين ميكيني وبين عدد من المناطق اليونانية ـ وهى طرق كانت تعبر الأنهار التى تعترضها عن طريق جسور أقيمت لهذا الغرض .

---

٩ - راجع في هذه النقطة :

M.p. Nilsson : Homer And Mycenae

H.L. Lorimer : Homer and the Monuments

١٠ - J.B. Bury : A History of Greece (3r. ed.) p. 30

كما كانت تتغلب على التلال التى تقف في طريقها بمساعدة ممرات شقت خصيصا للغرض ذاته . واذا كانت الآثار تشير الى هذه السيطرة في فترة الذروة التى وصلت اليها الحضارة الميكينية ، فانها لا تلبث ان تشير الى انحدار مركز ميكيني وتخلخل قوة المدن الأخرى التى امتدت اليها السيطرة والحضارة وهو الانحدار الذى يفسر لنا هذا الموقف الضعيف لسيطرة اجاممنون على الملوك الآخيين الذين ذهبوا الى طروادة تحت قيادته على نحو ما يظهر من أشعار هوميروس . وقد ابتدأ هذا الانحسار أو الانحدار منذ أواخر القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الثاني عشر ، يدلنا على ذلك ما تحدثنا عنه المخلفات الأثرية من أن ميكيني قد بدأت في غضون القرن الثالث عشر تزيد من تحصيناتها الدفاعية وتبدأ بالاهتمام بحماية مواردها المائية ، كما ان هناك احتمالا بانها أقامت صومعة كبيرة لتخزين الغلال كاجراء وقائي اذا حدث أى هجوم على المدينة ـ وهو اتجاه يحتمل انه انتشر في أماكن أخرى من بلاد اليونان ، اذ تشاهد في الفترة نفسها استعدادات تحصينية مشابهة في حصن مدينة تيرنس وفي حصن الاكروبوليس في أثينة .[١١]

●●●

على ان الآثار الميكينية في بلاد اليونان ليست المصدر الوحيد الذى يساعدنا على تحديد بداية العصر الهوميرى ، اذ نحن نجد بعض الشواهد التي تتصل بهذه المسألة وتسهم في القاء الضوء عليها في القرائن التاريخية والاثرية المتصلة بالشرق ، سواء في آسية الصغرى أو في مصر . ففيا يخص آسية الصغرى نجد هوميروس يشير الى ابناء دولة فريجية Phrygia على انهم أحد الاقوام التي كانت تقطن قسما من آسية الصغرى والتى حالفت طرواده اثناء تصديها للهجوم الذى شنه عليها الآخيون تحت قيادة أجاممنون . ولكن الفريجيين لم يكونوا من سكان هذه المنطقة منذ الفترة المبكرة من تاريخها . وانما كانوا يقطنون قبل ذلك منطقة مقدونية في شبة جزيرة البلقان . ثم هاجروا منها ضمن موجات الهجرة التي عرفتها بعض مناطق القسم الشرقي لحوض البحر المتوسط ، عرفت باسم حركة هجرات الشعوب ـ وهي الحركة التى شهدت انتقال اقوام باكملها من مناطق الى مناطق داخل نطاق هذا القسم في أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الثاني عشر ق.م [١٢] . وقد استقر الفريجيون في آسيه وأقاموا دولتهم هناك ضمن الدول التي قامت على أنقاض الامبراطورية الحيثية ـ الامر الذى يجعلنا نضع حرب طروادة بعد بداية القرن الثاني عشر ، وهو الوقت الذى شهد انهيار هذه الامبراطورية .

على أننا اذا اردنا أن نقترب من التوقيت الدقيق لهذه الحرب فاننا نستطيع ان نقول انها وقعت بعد فترة وجيزة من سقوط الامبراطورية الحيثية قد لا تتجاوز عقدا أو عقدين من الزمان . والقرينة الاولى التي تستطيع ان تدعم

---

١١ ـ المرجع ذاته ، صفحات ٤٥ ـ ٤٦

١٢ ـ عن وجود الفريجيين كحلفاء للطرواديين في هوميروس ، الالياذة ، ٢ : ٨٦٢

بيا ترجيحنا لهذا التوقيت نجدها ضمن مجموعة من وثائق الامبراطورية الحيثية التي اكتشفت في مدينة بوغازكوى Boghaz—Keui (في القسم الشمالي من وسط تركية) يرجع تاريخها الى فترة تقع بين أواسط القرن الرابع عشر ونهاية القرن الثالث عشر ق.م. وهذه الوثائق تشير بشكل متكرر الى مملكة الأخياوة Achiyyawa كانت على علاقة بالامبراطورية الحيثية . وقد اتفق الباحثون على ان هذا الاسم هو المقابل لاسم الآخيين الذى يطلقه هوميروس في أشعاره على اليونان . كما يظهر من الوثائق المذكورة ان المنطقة التي كانت تقع فيها هذه المملكة كانت توجد عبر البحر ـ وهذا ، من وجهة نظر الحيثيين ، يعني بالضرورة بحرايجه الذى يقع بين الشاطىء الغربي لآسية الصغرى والشاطىء الشرقي لبلاد اليونان في شبه جزيرة البلقان ـ وان المنطقة التى تسيطر عليها كانت تضم عددا من جزر هذا البحر . والذى يهمنا في هذا الصدد هو ان هذه الوثائق تشير الى استيلاء الأخياوة (الآخيين) على جزيرة قبرص في أواخر عهد الامبراطورية الحيثية ، أى قرب نهاية القرن الثالث عشر ق.م.[٧٣] . فاذا اعتبرنا سقوط قبرص في يد الآخيين مؤشرا نحو الجدية المتزايدة لاتجاه الهجرات الآخية نحو الشاطىء الغربي لآسية الصغرى فانه يصبح من الممكن والمنطقي ان نضع حرب طروادة ـ التى تمثل محاولة في هذا الاتجاه ـ في العقود الاولى من القرن الثاني عشر ق.م.

وهذا التوقيت يدعمه ما تحدثنا عنه آثار مصر وآسية الصغرى من اتجاه الآخيين (ضمن أقوام أخرى) في تحركاتهم التي سبقت الاشارة اليها نحو شواطىء القسم الشرقي للبحر المتوسط . اذ تروى لنا النقوش ان مجموعة من الشعوب هاجمت مصر عن طريق البحر مرتين : احداهما في ١٢٢١ق.م. (قبل سقوط الامبراطورية الحيثية) والاخرى في ١١٩٠ق.م. (حوالى الوقت الذي سقطت فيه هذه الامبراطورية او بعده بقليل) . وفي المرة الاولى كان من بين المجموعة التى حاولت ان تغزو الشواطىء المصرية قوم أسماهم المصريون « أخياواشة » Achiyawasha وهو اسم استقر رأى الباحثين على انه النطق المصرى للفظة « آخيين » (الاسم الذى عرف به اليونان الذين هاجموا طروادة في أشعار هوميروس) . وفي القائمة التي خلد بها الفرعون المنتصر انتصاره على جدران معبد الكرنك نجد قائمة بالأسرى الذين وقعوا في يده من هؤلاء المهاجمين ، ومن بينهم اسرى الأخياواشه . أما المرة الثانية التي تعرضت فيها مصر للهجوم من جانب شعوب البحر (في ١١٩٠) فقد جاءها

---

٧٣ ـ O.R. Gurney : The Hitties (Pelican ed.) PP. 46 — 50' R.W. Hutchinson : Prehistoric Crete (Pelican ed.) pp. 312 — 313 ; J.B. Bury: op. Cit; p. 440

المهاجرون من الشمال الشرقي وكان من بينهم مجموعة تدعى « دانونه » Danuna يعواسم اتفق الباحثون ، مرة أخرى على انه مقابل لاسم الدانائيين Danaoi الذى يظهر في أشعار هوميروس مرادفا لاسم الآخيين .[١٤]

وفي الواقع فانه من السهل ان تضع هجوم اليونانيين على طرواده في هذه الفترة التي شاهدت تحركات أو هجرات الشعوب التي نحن بصدد الحديث عنها في بدايات القرن الثاني عشر ق.م كواحدة من هذه التحركات التي واكبت فترة عدم الاستقرار في القسم الشرقي من حوض البحر المتوسط والتي ظهرت على أثر انهيار الحضارة المينوية في كريت حوالي الوقت الذى رجحناه ، وانتهاء السيطرة الكريتية التي كانت بمثابة صمام الأمن في منطقة بحرايجه .

ونحن نستطيع ان نتصور الأخيين وقد اغرتهم هذه الغارات على المنطقة الواقعة في شرقي المتوسط في تلك الفترة ، فالأخيون يظهر بينهم هذا الاتجاه بشكل واضح في شعر هوميروس . وعلى سبيل المثال فان وصف « محاصر المدن » يظهر بين الأوصاف المشرفة التي يطلقها هوميروس على أبطاله . ومن بين أبطال الالياذة والاوديسية اللذين أطلق الشاعر عليهم هذا اللقب أخيليوس وأوديسيوس[١٥] . كذلك فان حديث هؤلاء الابطال عن الغارات أمر عادى بل ويتم احيانا بشكل عابر كما نرى في أحد المناظر حيث يقول أخيليوس وهو في مجال الحديث عن شيء آخر مختلف تماما هو قيمة حياة الانسان « ان الحياة نحصل عليها مرة واحدة ، أما الماشية فنستطيع الحصول عليها في أية غارة » . كذلك نرى نسطور ملك بيلوس ، وهو يتذكر أمجاد صباه يقول « كنت في شرخ الشباب ، ولدي من القوة ما كنت املك حين نشب نزاع بيننا وبين اهل الايليس بسبب غارة للحصول على الماشية ... لقد كانت الغنائم التي اخذناها كثيرة . ثم يمضي ليعد قطعان الماشية والاغنام والخنازير والماعز والخيل التي حصل هو وأتباعه عليها في هذه الغارة التي عاد في نهاية حديثه فسماها حربا .[١٦]

وفي الواقع فان حرب طروادة يمكن ان تكون واحدة من هذه الغارات ، وان كانت على نطاق اوسع وأعنف من الغارات التي تستهدف الحصول على قطعان الماشية من المناطق المجاورة . وقد اشرت في مناسبة سابقة الى

---

١٤ ـ عن نص الأسرى من الاخيليانه ، ومن المطابقة بين هذا الاسم واسم الأخيين ، ومن النص الخاص بالغارة والمطابقة بينه وبين الدانائيين ، ثم عن الترادف بين الدانائيين والأخيين في أشعار هوميروس راجع على التوالي :

J.H. Breasted; Ancient Records of Egypt, 588; Hutchinson :

Op. cit, p. 314; R.D. Barnett & C. Mosi: A Phoenician

Inscription From Eastern Cilicia (Iraq, 1948) p. 56;

الالياذة ، النشيد الاول ، ٤٢ .

١٥ ـ الالياذة ، ٢ ، ٣٧٨ .

١٦ ـ الالياذة ، ٦٧٠ ـ ٦٨٤ .

ان هذه الحرب لايمكن ان تكون قد استمرت عشر سنوات كما شاء خيال الشاعر أن يصورلنا ، وان مدتها لابد أن تكون اقصر من هذا بكثير ، فقد رأينا برياموس ملك طرواده وهو يحاول أن يتعرف من مكان مراقبة على اسوار المدينة ، على قادة الآخيين الهاجمين ـ وهو أمر لا يمكن أن يحدث في السنة العاشرة من الحرب ـ وانما هو أنسب ما يكون في بداية الحرب بل في الايام الاولى منها . وهكذا ربما لم تزد هذه « الحرب » فعلا عن الايام الأربعين التي تدور فيها الحوادث حسبما نرى في الالياذة .

ومثل هذه الغارة أو الحرب التي شنها الآخيون (أو اليونان) على طرواده في تلك الفترة التي كانت فيها هجرات الشعوب وتحركاتهم تمثل الاتجاه السائد ـ أو « صيحة الموسم » ، اذا جاز لي ان أستعير هذا التعبير الحديث ـ من الممكن أن تدخل ضمن تحركات اليونان نحو الشرق في محاولة للحصول على المعادن أو على الحبوب من المناطق المطلة على شواطيء البحر الأسود . وقد كان موقع طرواده الذي يتحكم في مداخل البحر الاسود وفي الطريق البرية المؤدية الى الشواطيء الجنوبية لهذا البحر يشكل دون شك حجر عثرة أمام هذه التحركات .

نهاية العصر

العصر الذي اصطلحنا على تسميته باسم عصر هوميروس ، اذن ، يمكن ان نضع بدايته بوجه عام حول بداية القرن الثاني عشر ق.م. أي في فترة أفول الحضارة الميكينية التي انهارت بعد ذلك بنحو مائة عام . ويبقى في آخر الحديث محاولة لمعرفة نهاية هذا العصر ايضا ، كذلك ، أشير قبل بدء المحاولة الى ان هذه المحاولة ستكون من قبيل التعرف العام ولن تكون لها صفة التحديد الدقيق .

لقد قال المؤرخ اليوناني هيرودوتوس في هذا المجال « انى اعتقد أن هزيودوس وهوميروس عاشا قبل الوقت الذى أعيش فيه بأربعمائة عام ، ليس اكثر »[٢٧] وقد كتب هيرودوتوس تاريخه في أواسط القرن الخامس ق.م. وعلى هذا يكون هوميروس في رأى المؤرخ قد عاش ـ او بعبارة ادق تكون الالياذة والاوديسيه قد ظهرتا ، في أواسط القرن التاسع ق.م. ويبدو من صيغة التحديد التى تظهر واضحة من هذه العبارة أن هيرودوتوس ربما يكون قد حسب المسألة عن طريق تتبع أنساب بعض الأشخاص الذين يردون نسبهم الى بطل او آخر من الأبطال الذين جاء ذكرهم في ملحمتى الالياذة والأوديسيه .

وبغض النظر عن كلام هيرودوتوس فان بعض ما جاء في الملحمتين يشير الى عصر لاحق لحرب طرواده بعد قرون . ففى العصر الميكيني ، الذى وقعت فيه حرب طرواده كان البرونز هو المعدن السائد في الاستعمال . أما الحديد فقد كان آنذاك معدنا ثمينا نادرا ، وبلغ من ندرته انه كان يستخدم في صنع الحلي . ولكنا نراه في شعر

٢٧ـ Herodotos: II, 53

هوميروس معدنا عاديا يستخدم في صناعة أدوات الاستعمال اليومي مثل السكاكين والبلط . حقيقة ان البرونز يظهر في شعر هوميروس ، ولكن ذلك دون شك يرجع الى اعتماد الشاعر في بناء ملحمتيه على قصائد ومقطوعات قديمة يرجع نظمها الى قرون قبل عصره .

والشيء ذاته نلمسه في عديد من المظاهر الأخرى من بينها ، على سبيل المثال ، أن الموتى في شعر هوميروس تحرق جثثهم ويوضع الرماد المتخلف في آنية ، بينما يدفن اهل العصر الميكيني موتاهم . كذلك فان هوميروس يشير الى وجود معابد بينما لا توجد شواهد على وجود المعابد في العصر الميكيني . ومن بين هذا المظاهر كذلك : طرق القتال التى نجد اختلافا كبيرا بينها كما وردت في اشعارهوميروس وبين ما كانت عليه في العصر الميكيني . وحتى في الأمثلة التى يورد فيها هوميروس طريقة كانت معروفة في العصر الميكيني ثم اندثرت ، وهى استخدام العجلة الحربية ، نجده لايدرك كيفية استعمالها ، وهكذا يصور أبطاله وقد ركبوا هذه العجلات ولكنهم لا يستخدمونها في القتال ، وانما ينتقلون بها مسافة قصيرة بعيدا عن معسكراتهم ثم ينزلون منها ليصلوا الى ميدان المعركة سيرا على الاقدام .

الوقت الذى نظم فيه هوميروس ملحمتيه (وهو الوقت الذى يمثل بالضرورة نهاية العصر الذى نحن بسبيل تحديده) يقع ، اذن ، بعد حرب طروادة بفترة غير قصيرة . فاذا أردنا تحديدا أكثر وجدنا ظاهرتين ، على الأقل ، تشيران الى ذلك والظاهرة الأولى تتصل بمعرفة الكتابة . وفي هذا المجال نجد أن أبطال هوميروس لايعرفون الكتابة،وانما تسيطر عليهم الأمية،بشكل واضح،فهم ينقلون رسائلهم شفاهة،بصفةدائمة،علما بأن عصر الحضارة المكينية الذى وقعت حرب طروادة قبل انتهائه بحوقرن كامل ، قد عرف أهله الكتابة ، كما يظهر في المخلفات التى عثر عليها والتى كانت تحتوى عليها قصور الحكام في ذلك العصر .

والمثال الوحيد الذى يشير الى الكتابة في أشعار هوميروس هو الرسالة التى حملها بللوروفونتيس Bellorophontes من أرجوس الى ليقيه . وكانت زوجة بروپتوس قد أرادت أن تنتقم من بللوروفونتيس هذا (لسبب عاطفي) فحملته هذه الرسالة الى والد زوجته تحضه فيها على قتل بللوروفونتيس ، لأنه اراد أن يضاجعها (أى زوجة بروپتوس) على غير رغبة منها (بما في ذلك من خيانه واضحة لزوجته)[١٨] .

والطريقة التى يعرض بها هوميروس هذه القصة توحى بشكل واضح بأن هوميروس كان يعيش في عصر قد بدأت الكتابة تتسرب اليه حديثا وفي أضيق الحدود . فمن الواضح أن بللوروفونتيس الذى يحمل رسالة اعدامه بيده لا يعرف الكتابة . كذلك من الواضح أن المرأة التى كانت تود الايقاع به كانت مطمئنة الى أنه لن يصادف

١٨ ـ الالياذة ، ٦ ، سطر ١٦٨ وما بعد .

في رحلته من يستطيع قراءة الرسالة ، وأنه لن يفكر في أن يسأل أحدا أن يقرأها له لأن جو الأمية الذى يسود العصر لن يوحى اليه بمثل هذا السؤال . كذلك فان الطريقة التى عرض بها هوميروس هذه الرسالة توحى بأن الكتابة كانت آنذاك شيئا نادرا . فالكلمات المكتوبة يصفها الشاعر بأنها « علامات رهيبة » أو « رموز تؤدى الى الموت » .

بهذا الوضع الذى تسوده الامية ، وان كانت الكتابه قد بدأت تتسرب فيه بهذا الشكل المحدود ، اذا كان لا ينطبق على القرن الثانى عشر ، فهو ينطبق على بداية الفترة التى نقل فيها الفينيقيون طريقة الكتابة (بعد أن نقلوا الحروف الأبجدية عن المصريين ثم طوروها) الى بلاد اليونان . وقد تم دخول الكتابة الى بلاد اليونان بين بداية القرن التاسع وأواسطه تقريبا ، بهو وقت يبدو منطقيا اذا عرفنا أن الكتابة قد انتشرت بعد هذا التاريخ بقرن واحد (حوالى ٧٥٠ ق.م) في مناطق يونانية كثيرة من بينها أثينه وطيبه وكورنثة ورودس وكريت .

أما الظاهرة الثانية التي أود أن أوردها في مجال هذا التحديد فهي ظهور الفينيقيين في الأوديسية بشكل يدل على نشاط مزدهر من جانبهم في مجال التجارة في القسم الشرقي للبحر المتوسط . ونحن نعرف ان صيدون وصور لم تكونا قد وصلتا الى مركز تجاري ظاهر في الفترة التي عاصرت حرب طروادة ، وانما بدأ ظهورهما بالشكل الذي يتفق مع ما جاء في الملحمة المذكورة بعد ذلك بكثير ـ في غضون القرنين التاسع والثامن ق.م.[١٩]

٣ ـ الحياة الاقتصادية في عالم هوميروس

الزراعة والرعي

ولنبدأ الحديث بعرض سريع للحياة الاقتصادية في بلاد اليونان كما نلمسها من قصائد هوميروس . وهنا نجد أن الزراعة والرعي هما الموردان الرئيسيان للاقتصاد اليوناني . وكانت المحاصيل الرئيسية هي الحبوب والكروم . وهما محصولان لم تكن تخلو منها أية ضيعة كبيرة : الحبوب لصنع الخبز وهو الجانب الاساسي من الغذاء عند اليونان ، كما هو الحال عند اغلب السكان الذين يقطنون حوض البحر المتوسط . والكروم لصناعة النبيذ الذى لم تكن تخلو منه مأدبة او احتفال ديني او حتى المناسبات العادية .

وفي هذا المجال يحدثنا هوميروس عن تليماخوس بن أوديسيوس عندما ماراد أن يغادر اثاكة الى بيلوس Pylos واسبرطه ـ فيذكر أنه أخذ معه على سبيل التموين أثناء الرحلة اثنى عشر دنا مليئة بالنبيذ ، وعشرين معيارا من أنقى أنواع الدقيق فى أكياس من الجلد[٢٠] . كذلك يشير هوميروس في موضع آخر الى الخبز والنبيذ ـ

---

١٩ ـ J.B. Bury: op. cit., p. 52

٢٠ ـ الأوديسيه ، ١ : ٣٥١ ـ ٣٥٢

وهما رمز زراعة الحبوب والكروم – على أنهما المقومان الاساسيان للوجبة اليونانية ، كما يرينا طرفا من حياة الرعى حين يقول على لسان يومايوس Eumaeos ، الراعي الذى كان يعمل في مراعي أوديسيوس ، حين التقى به هذا الأخير عند عودته الى اثاكه ، ولم يدرك الراعى أنه يحدث سيده بسبب تنكر أوديسيوس[٢١] :

« وعلى أية حال ، اتبعني يا سيدى الى كوخى لتقاسمني طعامي ، حتى اذا ما أصبت كل ما أنت بحاجة اليه من خبز ونبيذ أخبرتني عن المكان الذى أتيت منه وعمايضيق به صدرك من هموم .

وهنا قاد الراعى الطريق الى كوخه ، وأفسح لأوديسيوس طريق الدخول ، ثم أومأ اليه بالجلوس فوق كومة من الأغصان والحشائش المنثنة بعد أن رتبها له وغطاها برقعة من جلد الماعز ، وقد سر أوديسيوس ، ولم يخف سروره لهذا الاحتفاء » .

وفي موقع آخر يعيد هوميروس الاشارة الى أن الزراعة كانت تشكل المورد الاقتصادى الأساسي في بلاد اليونان حين يقول أوديسيوس ردا على ما قابله به الملك ألكينوس في قصره من اكرام[٢٢] :

« أيها الرب زيوس ، لتمنح ألكينوس القدرة على أن يحقق كل ما وعد ، ولتجعل صيته ينتشر حيثما فلح انسان أرضا » .

ولعل خير ما قدمه هوميروس لنا في تصويره للوضع الاقتصادى لبلاد اليونان هو ما جاء في أثناء تصويره للمناظر التى نحتها هفايستوس اله الصناعة الأعرج ، على الدرع الذهبية التى أعدتها الالهة ثيتيس للبطل أخيليوس حيث يقول[٢٣] :

« أما المنظر التالي فكان يمثل حقلا من التربة اللينة الخصبة يحرث للمرة الثالثة ، يقوم بذلك عدد من الرجال يسوقون أزواج الماشية جيئة وذهابا ،

---

٢١ – الاوديسية ، ١٣ : ٥٥ – ٥٢
٢٢ – الاوديسية ، ٧ : ٣٣١ – ٣٣٣
٢٣ – الالياذة ، ١٨ : ٥٤١ – ٥٧٨

وحين كانوا يصلون الى حافة الحقل حيث يرتدون بمحاريثهم ، يأتي اليهم رجل ليعطي كلا منهم كأسا من نبيذ حلو المذاق ، وعندئذ يعودون الى الحافة الأخرى وهم يشقون التربة السمراء الداكنة ...

كذلك يرينا الاله (على الدرع) ضيعة لأحد الملوك حيث كان الأجراء يقومون على شؤون الحصاد ، وبأيديهم مناجلهم الحادة ، وقد أخذت مجموعات من عيدان القمح تتساقط في شكل منتظم على جوانب الخطوط ، وجعل آخرون يحزمون السنابل بينما كان عدد من الصبية يزودونهم بكميات من عيدان القمح بشكل مستمر وفي وسطهم وقف الملك ، وقد أمسك بصولجانه وبدت عليه دلائل الارتياح .

بعد ذلك نرى حقلا من الكروم قطوفه دانية ، يقود اليه ممر واحد يستعمله الجامعون عندما يتجه المحصول بينما مجموعة من الفتيات والفتية الذين غمرهم المرح يأخذون ما جمع من الكروم في سلال يذهبون بها الى حيث يفرغونها .

كذلك صور الاله منظرا لقطيع من البقر والثيران ذات القرون المستقيمة ، وهي تخور أثناء اسراعها من حظائرها نحو أرض المرعى حيث تترنح عيدان الحشيش على حافة غدير هامس الخرير ، وقد صحب الماشية أربعة رجال (صاغهم الاله) من الذهب بينما كانت تسير الى جانبهم تسعة من كلاب المرعى .

وقد أضاف الاله الاعرج العظيم الى الصور منظرا فيه مرعى واسع يرعى فيه قطيع من الغنم ذات الصوف الأبيض ، يقع في واد جميل ، قامت به أبنية القرية بما فيها من حظائر الغنم ومنازل الرعاة . »

الحرف والتجارة والصناعة

ولكن رغم أن الزراعة كانت ، هي والرعي ، تشكلان الموردين الرئيسيين لاقتصاديات اليونان في العصر الهوميري ، فقد كان لا يمكن لهما أن يستمرا على هذا الوضع . فبلاد اليونان بلاد لا تصلح مهدا للزراعة او الرعي على نطاق واسع ، فهي بلاد يميل مناخها الى الجفاف ، كما تغطي ٨٠٪ من مساحتها بحيث لا يبقى من الأماكن التى تصلح مبدئيا للزراعة الا نحو ربع المساحة الجبلية وخمس المساحة العامة .

والأمر لا يقتصر على هذا ، فان المناطق السهلة نفسها ليست على جانب كبير من الخصوبة ، بحيث كان لا يمكن لهذه الامكانيات الزراعية أن تساير تزايد السكان والنمو الطبيعي لاحتياجاتهم ومستوى معيشتهم . وهكذا قامت ، الى جانب الزراعة والرعي ، في شكل ثانوى في العصر الهوميرى ، موارد اقتصادية أخرى وفي هذا الصدد فان اليونان في هذه الفترة المبكرة من تاريخهم كانوا قد بدأوا يتعرفون الى التجارة ، وفي هذا المجال يرسم لنا هوميروس صورا تمثل هذا النشاط التجارى في شتى جوانب فحين تظهر الآلهة بالاس أثينة لأول مرة أمام تلماخوس (بن أوديسيوس) ، تتراءى له في هيئة أحد الزعماء اليونان ثم تخاطبه قائلة[٢٤] :

« وأني سأبحر مع عدد كبير من الأصحاب الى
أرض أخرى الى تيميسي Temese وقد أحضرت
حديدا لأقايض به برونزا » .

وحين يصل تلماخوس الى بيلوس Pylos يسأله نسطور Nestor عما جاء به الى هذه المدينة ، أي نوع من المصلحة وأي نوع من العمل[٢٥] ، والمعنى يدور في الحديث حول المصلحة المادية المتصلة بالعمل التجارى .

ولم يكن الأمر قاصرا على التجارة الداخلية بين المدن أو المناطق اليونانية وبعضها ، بل امتدت هذه كذلك الى خارج بلاد اليونان لتصل الى الشواطىء الأخرى المطلة على البحر المتوسط ، فنحن نقرأ في الالياذة والأوديسة عن الأقمشة الشفافة الوشاة الآتية من صيدون ، والأدوات المصنوعة من الذهب الآتية من فينيقيه عموما ومن مجموعة من المصنوعات الأخرى مثل الزهريات والسلال المصنوعة من أسلاك الفضة والأدوات المصنوعة من العاج والبرونز والصفيح . كل هذه كانت تأتي بالضرورة من الخارج اذ أن الخامات التى تصنع منها لم تكن موجودة ببلاد اليونان . كذلك كان الرقيق ضمن واردات بلاد اليونان ، وفي هذا المجال يشير يومايوس في حديثه مع

---

٢٤ - الأوديسة ، ١ ، ١٨٢ - ١٨٤

٢٥ - الأوديسة ٣، ٧٢

أوديسيوس الى جارية فينيقية في قصر والده كانت ابنة لأحد الموسرين ، ثم اختطفها القراصنة وباعوها في سوق الرقيق ، كما نجد جارية أخرى من صقلية في بيت لاترتيس [٢٦] .

وكان اليونان من جانبهم يقايضون على هذه الواردات أساسا بالمعادن أو بالماشية ، اذ لم يكن التعامل بالنقد قد عرف في بلاد اليونان اذ ذاك . وقد مربنا المثال الذي رأينا فيه الالهة أثينة بالاس ، متخفية في شكل رجل يزمع الرحيل ليقايض حديدا ببرونز . كذلك نجد احدى الجوائز التي يقدمها اخيليوس في الاحتفالات الجنزية التي أقامها بعد موت صديقه باتروكلوس ، تتكون من حامل من النوع الذي يستخدم في المعابد قيمته اثنا عشر ثورا ، وجارية قيمتها أربعة ثيران ، كما نجد لاترتيس يدفع عشرين ثورا ثمنا لجارية اشتراها . وقد كانت الجهات التي تتم معها هذه المقايضه التجارية ، حسب ما يظهر من قصائد هوميروس ، هي البلاد الموجودة في القسم الشرقي من حوض البحر المتوسط وهي تراقية وآسية الصغرى ، وقبرص وفينيقية ومصر [٢٧] .

كذلك لم تكن بلاد اليونان في الفترة التاريخية خلوا من الصناعة ، فقد قامت في هذا الوقت المبكر صناعة المنسوجات والجلود والصناعات المتصلة بالمعادن والاخشاب والاواني الخزفية ، حقيقة ان اغلب هذه الصناعات كان يقوم على أساس فردي يهدف في المقام الاول الى تغطية الحاجات المباشرة لافراد المجتمع ، ولكن بعضا منها وصل الى درجات متقدمة من التخصص . ففي صناعة الاخشاب مثلا كانت الجذوع المقطوعة تأتي من الغابات محملة على الدواب ، ثم تشق الى الواح أو عروق لاستخدامها في الصناعات الخشبية الثقيلة ، كما كان المقياس المدرج والفرجار يستعملان عند استخدام هذه الاخشاب في بعض الصناعات مثل صناعة المراكب ، بينما كانت كل الادوات اللازمة للزراعة تصنع أساسا من الخشب .

واتجاه التخصص نجده ، مرة اخرى في صناعة المعادن والجلود والبناء فهناك مثلا درع اخيليوس ، التي سبقت الاشارة الى بعض مناظرها ، والتي كانت تبدو فيها الدقة البالغة في استعمال معادن الذهب والفضة وغيرها ، وان كان هوميروس قد نسب صنعها ، في طريقة كاريكاتورية ، الى الاله هفايستوس ليدلل على مقدار الدقة والروعة والمهارة التي تظهر في صنعها وتصميمها . وهناك تيخيوس Tychios صانع السلاح الماهر الذي يذكر لنا هوميروس عنه انه صنع درعا لاياس استخدم في انجازها سبع طبقات من جلد الثيران ـ وقد كان أمهر من يعالج صناعة الجلود ، ثم وضع فوقها جميعا طبقة من البرونز . ولاتركيس الذي يأمره نسطور ، في احد مناظر الاوديسية ، أن يغطي بالذهب قرون بقرة قبل أن يضحي بها امام الالهة اثينة . أما عن صناعة البناء فدليلنا على ما وصلت اليه من تخصص هو قصور الملوك والزعماء التي تُظهرها لنا الالياذة والاوديسية على مستوى عال من

٢٦ ـ انظر على التوالي ، الالياذة ، ٦ ، ٢٨٧ ـ ٢٨٩ ، الاوديسه ، ١٥ ، ٤١٢ ـ ٤٢٩ ، ٢٤ ، ٢١١ .

٢٧ ـ انظر على التوالي ، الالياذة ، ٢٣ ، ٧٠٢ ـ ٧٠٥ ، الاوديسه ، ١ ، ٤٢٩ ـ ٤٣٣

فخامة الصنع ودقة الزخرفة ، مثل قصور برياموس وأوديسيوس ونسطور ومنيلاوس وألكينوس ، هذا الى جانب الجسور وغيرها من المرافق العامة[٢٨] .

الهجرة

ولكن هذه الموارد الاقتصادية كانت ، كما ذكرت ، ثانوية الى جانب الزراعة والرعي ، وهذان كما عرفنا كانا غير كافيين لتغطية الاحتياجات المعيشية لليونان ، وهي احتياجات كانت تسير سيرها الطبيعي نحو النمو والتزايد . والآن فسيجد اليونان أنفسهم مضطرين منذ فترة مبكرة من تاريخهم الى البحث خارج بلادهم عن الرزق الذي ضاقت سبله أمامهم بداخلها ـ وهكذا يندفع اليونان الى الهجرة ، يحلون عن طريقها مشاكلهم الاقتصادية . ولم تتجه هجراتهم هذه نحو داخل القارة الاوروبية ، فقد وقفت جبال الكربات في شمال شبه جزيرة البلقان حاجزا في وجه اليونان بينما كان البحر من الشرق والجنوب والغرب مشجعا لهذه الهجرات بما له من مميزات تسهل الاتصال بين شواطئه المختلفة .

وفي هذا المجال نجد البحر المتوسط من جهة بحرا مقفلا يكاد يكون بحيرة لولا المضيق الذي يفصل بين شبه جزيرة أيبرية والساحل الافريقي في الغرب ، وكان ذلك سببا في هدوئه الى حد كبير اذا استثنينا بعض العواصف المحلية البسيطة التي يتعرض لها في بعض مواسم السنة ـ وقد كان هذا الهدوء دون شك من العوامل التي شجعت اليونان على ركوب البحر في فترة مبكرة من تاريخهم . كذلك شجع على الملاحة في هذا البحر تقارب سواحله في أكثر من موضع ، وكثرة الجزر التي تنتشر في أرجائه والتي تشكل نقط ارتكاز ملاحية بين شواطىء القارات الثلاثة المطلة على هذا البحر ، كما شجع على ذلك كثرة الانحناءات والتعاريج على طول سواحله والتي تمثل أماكن لحماية السفن وموانىء طبيعية من الطراز الأول .

والآن فقد تهيأت الوسائل لعدد من الهجرات انبثقت من بلاد اليونان منذ وقت مبكر ، وأدت الى انتشار اليونان على شواطىء البحر المتوسط . ومن بين هذه الهجرات كانت اغزرها واكثرها تلك التي انطلقت نحو الشرق ، والسبب في ذلك هو التوجيه الجغرافي الذي سيطر على بلاد اليونان والذي جعل اتجاه اليونانيين في أي نشاط حيوي لهم يتخذ طريقه أساسا نحو الشرق . فالسواحل اليونانية الشرقية اكثر تعرجا من السواحل الغربية ، ومن ثم فهي تقدم لليونان عددا من الموانىء الطبيعية لحماية السفن أكثر مما يقدمه الساحل الغربي ـ وهو أمر على جانب غير قليل من الاهمية في تلك الفترة المبكرة التي كانت فيها الملاحة لاتزال في طفولتها ، وبالتالي كانت مخاطر البحر اكثر بالنسبة للملاحين . كذلك نجد بحر إيجة الذي يقع الى شرق بلاد اليونان الاصلية ويمتد حتى الساحل

٢٨ ـ عن درع أخيلوس راجع اعلاه ، من باقي المخلفات راجع على التوالي ، الالياذة ٢٠ : ٢٢٠ ـ ٢٢٤ ، الاوديسية ٣ ، ٤٢٥ ، ٧ : ٨١ ـ ٩٤ ، ٧ ، ٨٠ ، ٨١ .

الآسيوي يكاد يكون خليجا كبيرا ، فاليابسة تحده من ثلاث جهات في الغرب والشمال والشرق ، بينما تنتشر فيه عشرات الجزر التي تشكل جسرا يكاد يكون الساحل اليوناني والساحل الآسيوي .

وحرب طروادة ـ التي جعل منها هوميروس موضوعا لملحمته ، دون شك احدى المحاولات المنظمة للانتشار أو الاستيطان اليوناني على شاطىء آسيا الصغرى ولكن مع ذلك فان الهجرة التي تلتها حرب طروادة لا بد أنها كانت في بداية حركة الانتشار اليونانية . فان الالياذة والاوديسية تظهران اليونان وقد نظروا الى البحر نظرتهم الى عالم مجهول يزخر بالأخطار والمخاوف ويكتنفه عدد لاحصر له من الاهوال والصعاب . بينما نحن نعرف أن الطريق الوحيد لحملة اليونان على طروادة هي بحر إيجة ، وهو بحر على ما ذكرت من الهدوء وكثرة التعاريج والجزر التي تخدم راكب البحر ولا تقف في سبيله . واذن فالسبب في هذه النظرة هو أن اليونان كانوا حتى ذلك الوقت لايزالون في مرحلة المبتدىء المتردد ، يشعرون بأن مواردهم الطبيعية التي درجوا على الاعتماد عليها حتى ذلك الوقت لا تكفيهم ، ومع ذلك فهي الموارد التي يعرفونها ، أما غيرها فهو بالنسبة لهم مجهولة لايدري المرء اذا كان يستطيع ان يقف عليها بأقدام ثابتة . ان هذه النظرة تظهر في أكثر من مناسبة في الالياذة رغم ان هذه الملحمة لا تتناول في الواقع الرحلة البحرية الى طرواده ، وانما شاءت رغبة هوميروس أن يكون مسرحها على الشاطىء الآسيوي بعد أن وصل اليونان هناك فعلا .

ثم هى تظهر فى أغلب مناظر الأوديسية التى جعل الشاعر منها فى الواقع سجلا للأخطار التى أحدقت بأوديسيوس ، أحد قادة اليونان ، أثناء عودته من طروادة حتى وصل الى جزيرة ايثاكة (مقر ملكه) الواقعة على الساحل الغربي لبلاد اليونان . وهى بعد ليست سجلا لكل ما واجهه هذا القائد من أخطار ، وانما لما واجهه منها خلال شهرين من أصل عشر سنوات قضاها يضرب فى عرض البحر لكى يقطع هذه الرحلة التى لا بدأنها كانت تبدو لليونان الذين كانوا يستمعون الى هوميروس وهو يتغنى بها ، كأنها رحلة عبر عالم مجهول فى بحر ظلماته بعضها فوق بعض .

ولنتأمل الآن بعض هذه المناظر لنسبر حقيقة تردد اليونان في هذه المرحلة التي بدأوا فيها يطلبون لقمة العيش خارج حدود بلادهم . ولنأخذ أول أمثلتنا من النشيد الأول للالياذة ، والمنظر يمثل شقاقا بين أخيليوس ، احد قادة اليونان ، وبين أجاممنون قائدهم الاعلى ، وقع بسبب محاولة أجا ممنون الاستيلاء على فتاة أخيليوس التي سباها من بين بنات طروادة . ففي اثناء المشادة التي وقعت بين البطلين يقول أخيليوس لأجاممنون[٢٩] :

« ألا ما أبعدك عن الحياء أيها الاناني ، كيف
تنتظر أن يتكبد أي يوناني من أجلك مشقة السفر

٢٩ ـ الالياذة ، النشيد الاول ١٤٩ ـ ١٥٢

والحروب . انك لتعلم أني لم آت الى هنا لحاربة
أبناء طروادة الشجعان من أجل نفسي ، فهم لم
يسيئوا الي قط إنهم لم يسلبوا بقري ولا خيلي ، ولم
يخربوا محاصيلي في حقول فثية Phthia الخصبة ،
فبيني وبينهم يقوم بحر صاخب وجبال تحجب
الشمس . »

وهكذا يلخص اخيليوس في الكلمات القليلة فكرة اليونان عن المورد الاقتصادي الأساسي ، وهو الأرض ، سواء أكانت للزراعة أو للرعي ، بينا يعبر في وضوح عن نظرتهم الى المجال البحري الجديد ـ هذا العالم المجهول الذي يقع بينهم وبينه « بحر صاخب وجبال تحجب الشمس » .

ولنلتقط الخيط من هذه الجملة الأخيرة التي فاه بها البطل اليوناني لنلقي نظرة على الأخطار التي تعرض لها بطل يوناني آخر ، هو أوديسيوس ، أثناء عبوره هذا العالم الذي لم يكن اليونان يعرفون عنه الا ظلالا من الحقيقة ، والا لسخروا من هوميروس وهو يروي عنه أحداثا ويرسم له صورا لا يمكن أن يكون لها وجود الا في خياله الخصب الرحيب . ولنكن خطوتنا الأولى في هذا المجال هي الجزيرة التي تقطنها حورية البحر كاليبسو Kalypso .

ان المنظر يبدأ بالالهة أثينه وهي تبتهل الى والدها زيوس ، كبير الآلهة ، لكي يرفع مقته عن البطل أوديسيوس الذي ضل طريقه وأخذ يضرب في البحر دون أن يصل الى موطنه اثاكه . ويستجيب زيوس لتوسلات ابنته فيرسل هرميس Hermes ، رسول الالهة ، الى الجزيرة التي استبقت فيها الحورية أوديسيوس بعيدا عن وطنه وخلوا من أية وسيلة يعود عن طريقها الى الوطن . ثم يطير هرميس الى الحورية ويخبرها برغبة كبير الآلهة وأيهم في أن تطلق سراح البطل الذي اتخذته عشيقا لها على غير رغبة منه ، فاذا بها تحتج في بداية الأمر وتذكر أنها انقذت أوديسيوس من الموت المحقق ...

« حين جرفة التيار وهو ممسك بما تبقى من سفينة
بعد أن حطمها زيوس بصاعقته فوق البحر الذي في
دكنة النبيذ ، وبعد أن فقد (أوديسيوس) كل رجاله
ودفعته الرياح والأمواج وجيئا الى هنا . »[٣٠]

---

٣٠ ـ الاوديسة ، ٥ : ١٣٠ ـ ١٣٨ .

وبعد أن يقنعها هرميس بأن تساعد أوديسيوس على العودة الى وطنه تخرج من كهفها لكى تبلغ عزمها الى أوديسيوس ...

« فاذا هي تجده جالسا على الشاطىء وقد تندت عيناه بالبكاء ، كما كان يفعل دائما . ان الحياة وما فيها من متعة كان يذرفها دمعا من عينيه على وطنه المفقود ، فقد بدأ يسلو الحورية منذ وقت طويل .

حقيقة انه كان يخلو اليها في الليل تحت سقف المغارة ، ولكن كما يخلو عاشق سال الى امرأة تضج بالدفء والحياة . بينما كان النهار يجده دائما وقد جلس فوق الصخور أو الرمال ، تعتصر قلبه العبرات وهو ينظر من خلال دموعه عبر صفحة الخضم الذي خلا من أسباب الحياة »[٣١]

ولكن هوميروس لا يكتفي بهذا لكي يرسم لسامعيه صورة البحر وما يحفل به من مخاطر وأهوال ، وانما يضع لهذا المنظر اللمسات الاخيرة . فحين تعبر الحورية أوديسيوس بعزمها على مساعدته على العودة الى وطنه في مركب يصنعها من أشجار الجزيرة ، بعد أن تزوده بكميات كافية من الماء والخبز والنبيذ ، نجده يجيبها وهو لا يكاد يصدق أذنيه[٣٢] :

« أيتها الالهة ! إنك حين تقترحين على أن أعبر هذا البحر اللانهائي بكل ما يحف به من مصاعب في هذا المركب ، لا يمكن أن يكون في نيتك سلامة عودتي ، وانما انت تضمرين شيئا آخر .

اذ ان اسرع المراكب لا يمكنها ان تقطع الرحلة ، حتى ولو كانت الريح تواتي اشرعتها كل المواتاة . وهكذا لن أطمئن الى الابحار الا اذا صاحبتني نواياك الطيبة . »

---

٣١ ـ النشيد ذاته ١٥١ ـ ١٥٩

٣٢ ـ النشيد ذاته : ١٧٢ ـ ١٧٩

وهكذا ، يرى أوديسيوس في البحر العادي، المليء بالجزر خضما لا نهائيا به المصاعب والأهوال . وقد كان أحد هذه الأهوال هو ما قابله أوديسيوس ورجاله حين دفعتهم الرياح الى جزيرة الكيكلوبيس Kyklopes . أن هوميروس يصور لنا سكان هذه الجزيرة كلهم اقرب الى الوحوش منهم الى الآدميين ، ويرسم لنا واحدا منهم وهو بوليفيموس Polyphemos ، فاذا هو عملاق مخيف له عين واحدة تتوسط جبهته . يحاول أوديسيوس أن ينزل هو ورجاله ضيوفا عليه يحتمون في جواره ، بعد أن يذكر له ما صادفه من رياح غير موالية دفعت به وبهم الى هذه الجزيرة بعيدا عن موطنه في إثاكه . ولندع أوديسيوس يرسم بنفسه المنظر الذي أعقب هذا اللقاء ، وهو منظر كان هوميروس يتغنى به أمام سامعيه من جموع اليونان ، دون أن يجدوا فيه ما يتعارض وما يعرفون من حقائق وتجارب عن حياة البحر ، فقد كان ما يعرفون في هذا المجال لا يزال بعد في طوره الجنيني . ان البطل اليوناني يقول[٣٢]

« ولكنه (بوليفيموس) ، وقد خلا قلبه من الرحمة ، لم يستجب لنا . وانما قفز واقفا ومد ذراعيه نحو رجالي ، فأخذ اثنين منهم في قبضته وهشم رأسيهما على أرض المغارة فسال مخهم وبلل التربة .

ثم جعل يمزقهما اربا اربا ليتخذ منهما وجبة له التهمها ، كما لو كان أسدا من أسود الجبال ، دون أن يتوقف خلال ذلك ، حتى اتى عليهما لحما وعظما ونخاعا ، بينما كنا لانستطيع أن نرفع أيدينا بالضراعة الى زيوس ، ونحن في ذروة الفزع من هذا المنظر البشع ، وقد شل اوصالنا شعورنا باليأس القاتل . »

هذه هي بعض المناظر التي أردت بها أن أرسم صورة للوضع الاقتصادي في بلاد اليونان عبر الاناشيد التي تُنسب الى هوميروس . ويؤدي هذا الوضع هو أن الشعب اليوناني في هذه الفترة المبكرة من تاريخه كان لا يزال يعتمد على الزراعة كمورد اقتصادي أساسي ، وان كان قد بدأ يحس أن هذا المورد لم يعد يفي بحاجاته المعيشية . وهكذا بدأ اليونان يولون وجههم شطر الهجرة ، وبخاصة نحو الساحل الغربي لآسيا الصغرى ، بحثا وراء مجال حيوي جديد ، وان كانت الفترة التي عاصرتها حرب طروادة تمثل هذه الهجرات في بدايتها المترددة .

---

٣٢ – الاوديسية ، ٩ ، سطر ٢٨٧ وما بعده

٤ ـ الحياة السياسية في عالم هوميروس

المجتمع السياسي في طريق التنظيم

وفي هذا المجتمع الزراعي الذي لم يعرف التعامل والتبادل عبر البحر بشكل مستمر وعلى نطاق واسع ، ومن ثم لم يعرف التجارة والصناعة الا في كثير من التردد والخوف ـ كان من الطبيعي أن تكون طبقة اصحاب الاراضي هي صاحبة السيطرة الحقيقية على موارد الانتاج ، ومن ثم صاحبة التحكم السياسي في المجتمع اليوناني القائم اذ ذاك .

وقد ساعد على ذلك أن الظروف التي كانت تحيط ببلاد اليونان كانت تضع في يدهم ، الى جانب السيطرة الاقتصادية ، التحكم في الجانب الحربي . فالمدن اليونانية لم تكن اذ ذاك قد عرفت النشاط السياسي الكبير الذي قام فيما بينها في الفترات التالية من تاريخها ، ابتداء من القرن السادس ق.م. وعلى هذا فهي لم تكن بعد في حاجة الى الجيوش الكبيرة التي تحتاج الى اعداد غفيرة من المجندين . وانما كانت تكفي للسيطرة على الموقف العسكري في الغارات المتبادلة بين المدن أو القبائل قوات الفرسان الصغيرة العدد من الارستقراطيين الذين كان في مقدورهم اقتناء الخيل ، وفي وقتهم متسع للتدريب على الفروسية وفنون القتال في وقت لم تكن فيه الدول اليونانية قد عرفت بعد التزام الدولة بمسئولية الانفاق على الشئون الدفاعية .

ولكن المجتمع الهوميري لم يكن مجرد استمرار للمجتمع الزراعي الاقطاعي القديم الذي كان فيه الملك هو الرجل الاول في البلاد ، والقابض على زمام السلطة في كافة جوانبها ، وانما كان هذا المجتمع قد بدأ يشهد ظاهرة جديدة . فالمجتمع الهوميري كان قد انتهى لتوه من الخطوة التي تنقله من مرحلة التكوين البدائي الى مرحلة جديدة بدأت تتضح فيها معالم اليونانية كدول أو كيانات سياسية قائمة بذاتها ترتبط بقدر من الحقوق والحدود التي يستتبعها هذا الدور الجديد .

وهنا أستدرك فأقول انه كان طبيعيا ، والمجتمع لايزال في مرحلة الانتقال ، أن نجد كثيرا من الثغرات في هذا التكوين الجديد ، فمقومات المجتمع القديم لم تكن قد اندثرت تماما ، ولم يكن من الطبيعي أن تندثر تماما ، وانما ظلت أثارها هنا وهناك وان كانت قد بدأت تختفي تحت طبقة من التقاليد الجديدة كان سمكها يزداد من يوم الى يوم . والمجتمع الجديد ، وان كانت معالمه قد ظهرت واتضحت ، الا أنها لم تكن قد بدأت تقوم بدورها بصورة ايجابية كاملة من جميع نواحيها لتجعل منها كلا متناسقا وليس مجرد أجزاء متجاورة متلاصقة .

ويظهر لنا هذا الوضع في وضوح اذا نظرنا الى هذه المدن الجديدة ان هوميروس يذكر لنا عددا كبيرا من هذه

المدن ، ولكن اغلبها لا يزيد عن قرى صغيرة لا تصلح أن تكون مقرا إلا لتجمعات قبلية بدائية ، ولا يعقل أن تكون إطارا لدولة ذات تكوين كامل ومقومات كاملة . فجزيرة كريت ، حسبما يذكر الشاعر في مناسبتين ، مثلا ، كان بها تسعون أومائة من هذه المدن ، ولكنه لايتحدث الا عن سبع من بينها لها الحجم المناسب للمدينة والعدد الكافي من السكان الذي يتناسب وهذا الكيان الجديد ، وأجاممنون ، قائد اليونان في حربهم ضد طرواده ، يعد بتقديم سبعة من هذه المدن هدية لابنته عند زواجها ، بينما نجد منيلايس الملك الاسبرطي يفكر في أن يخلي احدى مدن لاكونيه لكي يقيم فيها أوديسيوس وأتباعه[٣٨] .

واذن ، فهذه الاماكن رغم أن الشاعر سماها مدنا ، الا أنها كانت تفتقر في الواقع الى المساحة وعدد السكان اللذين يكفيان بشكل معقول ليكونا قاعدة لمدينة . وهكذا لانبتعد كثيرا عن الصواب اذا قلنا ان التكوين السياسي الجديد الذي كان يقوم على نظام المدينة لم يكن قد عم بلاد اليونان في العصر الهوميري . وانما كانت المدن التي ظهرت تشمل العشائر الكبيرة او الظاهرة في أغلب الاحوال ، بينما احاط بهذه المدن الرئيسية عدد كبير من « المدن » الصغيرة أو القرى حيث كانت تعيش فيها القبائل والعشائر الصغيرة في شبه عزلة نسبية .

كذلك لم تكن الدويلات التي قامت في المدن الرئيسية تمثل مجتمعا تتداخل أقسامه أومكوناته من مجموعات وافراد ، لتشكل كلا متكاملا متكافلا ، وانما كان هذا المجتمع يتكون من أقسام أو مكونات صغيرة تلاصق بعضها ، ولكنا لا نزال نرى آثار الحدود التي تمثل نواتها القديم . وقد كانت هذه الحدود تدور حول القبائل والعشائر والاسر ، فالمجتمع الجديد لم يتكون من كل من كان يقطن بالمدينة من سكان ، وانما من أفراد هذه المجموعات القديمة بصفتهم أعضاء فيها ، بينما لم يحظ غيرهم بالمميزات التي كفلها المجتمع الجديد ، سواء تمثلت هذه في حق المواطنة في القمة أو في الحقوق المدنية التي تنظم المعاملات العادية اليومية في القاعدة . لقد كانت هذه القبائل والعشائر حتى الامس القريب في تنافس وتناحر مستمرين يصلان في بعض الاحيان الى درجة العدوان المباشر الذي يتخذ شكل الغارات المتبادلة ، وقد ظلت اثار هذه النزعة واضحه الى حد ما في المجتمع المدني الجديد ـ فكلمة مدينة polis لم تكن تعني عند هوميروس ، في اغلب الأحوال ، المعنى الذي أصبحت تفيده فيما بعد ، وهودولة المدينة ذات الكيان السياسي الكامل القائم بذاته ، وانما كان معنى هذه الكلمة ينصرف عادة الى مجرد المفهوم المكاني لكلمة مدينة . كذلك فان الدور الذي كانت تقوم به العشائر أو القبائل المكونه للمدينة في العصر الهوميري كان واضحا بشكل مبالغ فيه ، مما يدل على أنها كانت لاتزال قريبة عهد بالتكتل داخل حدود المدينة الواحدة . فعند اسهام مدينة معينة بعدد من المراكب ، على سبيل المثال ، في الاسطول المشترك الذي اقل اليونانيين الى طرواده ، يذكر لنا هوميروس ان كل قبيلة أو عشيرة كانت تقدم عددا مساويا للذي

٣٨ ـ انظر على التوالي ، الاوديسية ، ١٩ ، ١٧٤ ، الالياذة ، ٢ ، سطر ٦٤٩ وما بعده ، الالياذة ، ٩ ، ١٤٩ وما بعده ، الاوديسية ، ٤ ، ١٧٤ وما بعده .

تقدمه كل من العشائر الأخرى . والشيء ذاته ينطبق على عدد البحارة الذين تقدمهم المدينة ، فقد كان موزعا بالتساوي بين القبائل والعشائر التي تنقسم اليها ، وهكذا .

ولكن مع كل ذلك فقد بدأت حدة هذا الوضع تخبو وتتلاشى تحت وطأة التقاليد الجديده التي واكبت ظهور المدن . وهكذا بعد أن كان المعنى الأصلي لكلمة demos هو المكان الواقع حول مركز المدينة ، أصبحت الكلمة تعني بالتدريج سكان هذا المكان ـ وهو معنى يعتبر علامة على الطريق في استخدام هذه اللفظة التي أصبحت تعني « الشعب » في عصر ازدهار دولة المدينة كنظام سياسي ومدلول حضاري عام[٣٥] . كذلك بدأ يظهر بين المجموعات المتلاصقة من سكان المدينة علامات تعترف بقواعد وأصول ومبادىء عامة تتبعها في حسم ما يثور بينها بين الحين والحين من ألوان الشقاق والصراع . وأخذت هذه المبادىء أو التقاليد تكتسب شيئا كثيرا من القوة ، فالذي يتحداها يتعرض لغضب الآلهة opies theos ـ كما يظهر من ثنايا الحديث الذي دار بين أوديسيوس وبوليفيموس في جزيرة الكيكلوبين ، حين حذر أوديسيوس هذا الرجل المتوحش من غضب الاله زيوس الذي يرعى الغرباء والمستجيرين[٣٦] فقد كان هذا الغضب يمثل في حقيقة الامر غضب المجتمع الجديد لخرق تقاليده ، التي كانت قد بدأت في التبلور حول مصالحه الناشئة .

بين الملوك والطبقة الارستقراطيه :

هذه الظروف الجديدة كان من الطبيعي أن تترك أثرها على مجرى الحياة السياسية التي انتقلت الى المدينة . وهنا نجد الملوك الذين تم على ايديهم توحيد القبائل المتناثره ، يحيط بهم النبلاء أو الأرستقراطيون من أصحاب الاراضي . وهكذا أدى قيام المدن إلى تجمع الارستقراطيين بعد أن كانوا متفرقين في ظل النظام القبلي .

وقد كانت النتيجة الطبيعية لهذا التجمع داخل اسوار المدن الضيقة هو تركيز انتباه هؤلاء الارستقراطيين حول سلطة الملك التي أصبحت الآن نصب اعينهم ، فقد يسر لهم هذا التجمع سبل الاتصال المستمر فيما بينهم ، وهكذا وجد لديهم الدافع والفرصة لمناقشة السلطات التي كانت تتركز في يد الملك ، والحقوق والامتيازات التي كانت تتعلق بمنصبه بل أكثر من هذا لقد بدأوا ينفسون على الملك هذه السلطات والحقوق ويعملون على اقتسامها معه ، أو حتى الاستيلاء عليها .

والمثال الذي سأنتقيه في هذا المجال من الالياذه . وهو يتعلق بالسلطة القضائية التي كان معروفا أنها من

---

٣٥ ـ راجع مناقشة هذه النقطة وتعليق عليها في T.A. Sinclair: A History of Greek Political Thought, p. 15 .

٣٦ ـ الاوديسة ، ٩ : ٢٦٩ ـ ٢٧٢

حق الملك في عصر سطوة الملكية ـ والمنظر الذي يصورهذا المثال هو أحد المناظر التي يذكرهوميروس أن الاله هفايستوس نقشها على الدرع التي صنعها لتهديها الآلهة الى أخيليوس فماذا نرى في هذا المنظر؟

« لقد تجمهر الناس في مكان الاجتماع ، اذ قامت هناك مشادة بين رجلين من أجل دية قتيل . وقد أخذ أحد الرجلين يعلن أمام الجمع أنه دفع كل شيء ، بينما جعل الاخر ينكر أنه تسلم شيئا على الأطلاق . وكل منهما يرغب في أن يفصل الحَكَمُ في المسألة لصالحه .

وقد احاط بكل من الطرفين أنصاره وهم يلغطون ويثرثرون بينما جعل المنادون يحاولون فرض السكون والنظام . وقد جلس النبلاء في هيئة نصف دائرة على مقاعد من الحجارة المصقولة يحملون في أيديهم الصولجانات وكل منهم يقف في دوره ليدلي بحكمه في القضية . »[٣٧]

وواضح من هذا المنظر أن الفصل في القضية لم يعد من حق الملك فحسب وأن دور النبلاء لم يعد دورا استشاريا وانما أصبح لهم دور رئيسي في الفصل في الأمور . أما المنظر الثاني فهو من الأوديسيه ، ويمثل بيت أوديسيوس في أثناء غيابه وهو في طريق عودته الى اثاكه . ان البيت يغص بعدد هائل من النبلاء ، وقد ساد الاعتقاد بأن الملك لن يعود ، وكل منهم يحاول أن يغري زوجة الملك أن تتزوجه . والوضع القانوني غامض بعض الشيء ولكن الشاعر يوحي لنا بأن من يفوز بزوجة الملك سيكون العرش من نصيبه بطريقة من الطرق . ويظهر واضحا من المنظر أن منصب الملك لم يعد له كل ميزاته القديمة ، كما يظهر منه أن حق الوراثة ، أحد الاركان الأساسية للنظام الملكي ، قد بدأ يتعرض لضربات الارستقراطيين ، وأنه بدأ يترنح تحت وطأة هذه الضربات . وفي هذا المنظر تقوم مشادة بين بعض النبلاء وبين تليماخوس بن أوديسيوس ، يظهر فيها هذا شيئا من الجرأة ولندع هوميروس يصور لنا بقيه المنظر[٣٨]

« لقد أدهشهم جميعا أن يكون لدى تليماخوس من الجرأة ما يجعله يتخذ هذه النغمة في كلامه ولم

---

٣٧ ـ الالياذة ، ١٨ ، ٤٩٧ ـ ٥٠٦ .

٣٨ ـ الاوديسة ، النشيد الاول ، سطور ٣٨١ ـ ٣٩٨

يكن امامهم الا أن يعضوا شفاههم غيظا وعجبا . ولكن أنتينوس بن يوبيثيس نهض أخيرا وقال : يبدو أن الآلهة قد بدأت تشد من أزرك ، اذ أنها علمتك هذه الطريقة المترفعة في الكلام . انك بحكم بنوتك لأبيك وريث لعرش هذه المملكة وان كنت أسأل الالهة الاتصبح ملكا في يوم من الأيام .

ولكن تلياخوس أجابه دون تردد : قد يسوؤك أن تعرف أني سأكون مسرورا بقبول منصب الملك من يدي زيوس (كبير الآلهة) وقد تقول أنت ان أسوأ ما يمكن أن يصيب المرء هو أن يصبح ملكا . أما أنا فعلى العكس من هذا ، أرى أن منصب الملك ليس شرا ، فهو يزيد من سطوة من تقلده ويوفر الثروة في بيته .

ولكن مع ذلك فان بين الآخيين عدد وافر من الأمراء سواء منهم المسنون أو صغار السن وان واحدا منهم لابد وأن يصبح ملكا على اثاكه التي يحيط بها البحر من جميع جهاتها بعد أن مات أوديسيوس الطيب .

وهنا جاء الرد من يورياخوس بن يولوبوس : أي تلياخوس ! أن الآلهة هي التي ستقرر من من الآخيين سيصبح ملكا على اثاكه . »

ولكن الملكية ، وان كانت قد بدأت تتعرض لتحدي الارستقراطيين ، بل وتترنح أمام ضرباتهم في بعض الاحيان ، الا أنها لم تكن فقدت كل شيء ، وانما كانت لاتزال فيها بقية من قول ، وان بدت متداعية في بعض الأحيان اذا كان الممسك بزمامها أو صاحب الحق فيها ضعيفا كما رأينا من موقف تلياخوس ، فقد كانت في أحيان أخرى متماسكة تستطيع الوقوف أمام التحدي الجديد ، بل ان هذا التحدي لم يكن هنالك بد من الاصطدام به ، كما يظهر لنا من موقف أوديسيوس حين عاد أخيرا الى اثاكة ، مقر ملكه ، حيث نجده ينجح بعد فترة غير طويلة

في أن يتغلب على النبلاء المتآمرين ، ويرد كيدهم الى نحرهم ، بل ويجد العون بين صفوف العامة من رعيته الذين لم ترقهم مؤامرات الطامعين في الحكم ، وانما ظلوا محافظين على ولائهم للكهم رغم طول غيبته .(٣٩)

ونحن نلمس هذا الموقف الذي كان لايزال يمسك على النظام الملكي بعضا من قوته السالفة بوجه خاص في ظاهرتين : الأولى هي أنه اذا كان الارستقراطيون قد بدأوا يتجرأون على سلطات الملك وحقوقه ، وحتى على نظام وراثة الحكم الذي يعتبر أساسا للنظام الملكي ، فانهم لم يجرؤوا على تجاهله او انكاره صراحة ، كما رأينا من حديث انتينوس الى تليماخوس حيث يقول : انك بحكم بنوتك لأبيك وريث لعرش هذه المملكة .

أما عن الظاهرة الأخرى فهي أن الحق الالهي للملك ظل هو العماد الأساسي للنظام الملكي بصرف النظر عن أي اعتبار . وفي حديث أنتينوس ، مرة أخرى ! نجده رغم عدائه الواضح لأوديسيوس وابنه تليماخوس ، لا يملك الا أن يعبر عن هذه المساندة الالهية لابن الملك حين يقول لتليماخوس ان الالهة تشد من أزره . بل حتى حين يبدي أمنيته الصريحة في ألا يصبح تليماخوس ملكا في يوم من الايام ، فأنه يتوجه الى الآلهة بهذه الرغبة ، على اساس أن الالهة هي التي ستحدد من يكون ملكا ومن لا يكون .

كذلك فاننا نلمس هذه المساندة الالهية بشكل واضح منذ اللحظة التي يعود فيها أوديسيوس الى اثاكة . ان الالهة أثينة بالاس تقف الى جانب الملك العائد خطوة خطوة ، وبشكل تلمس فيه نص أو مواربه ، فهوميروس يحدثنا عن لقاء يتم بين الالهة والملك حين يصل هذا الى اثاكة ، يجلس فيه الاثنان « ليدبرا معا سقوط النبلاء » . ونحن نجد الالهة توضح لأوديسيوس الأمر فتحثه على أن يفكر في طريقة يخرج بها ظافرا من الصدام بينه وبين هؤلاء النبلاء ، « تلك العصابة التي عاثت فسادا في بيتك طوال ثلاث سنوات » ، ثم تعده في النهاية بالمساندة التامة . بل يبدو من حديثها أن مسألة عودة أوديسيوس الى عرشه وانتصاره على أفراد الطبقة الارستقراطية الذين كانوا يهددون هذا العرش ليست مسألة تخص أوديسيوس وحده ، وانما تخصها هي كذلك ، وهكذا تقول الالهة (٤٠) :

« من المؤكد أني سأقف الى جانبك . وأني لن
انساك حين يأتي الوقت الذي نقضي فيه مهمتنا
هذه . أما عن أولئك (الارستقراطيين) الذين
يطاردون زوجتك ويبددون ثروتك فأني اراهم الآن
(مقدما) وقد صبغت دماؤهم ورؤوسهم المهشمة
أرض قصرك » .

٣٩ ـ عن وفاء رعية أوديسيوس له انظر الاوديسية ، ١٥ : ١٣٧ ـ ١٤٣ . كذلك الاوديسية ، ٢٤ : ٣٩٧ ـ ٤٠٢ . عن انتصار أوديسيوس على أعدائه من أفراد الطبقة الارستقراطية انظر الاوديسيه ، ٢١ : ٥٣٤ ـ ٥٣٨ .
٤٠ ـ الاوديسيه ، ١٣ : ٣٩٢ ـ ٣٩٦ .

طبقة العامة

كانت هذه هي الصورة التي رسمها هوميروس للوضع السياسي في بلاد اليونان ـ وهو وضع انتقالي كما رأينا ، تخوض فيه الملكية معاركها الاخيرة في ضعف أحيانا وفي قوة أحيانا أخرى ، أمام زحف طبقة النبلاء أو الارستقراطيين . أما بقية المجتمع فقد كانوا من أصحاب الحرف الصغيرة الذين يسكنون المدن ويتجمعون حول السوق ، أومن سكان الريف من الذين لا أرض لهم اطلاقا أو ليس لهم منها الا النزر اليسير الذي لا يكاد انتاجه يغطي ضرورات حياتهم . والكثرة الغالبة من هؤلاء يعتمدون بطريقة مباشرة على اصحاب الاراضي أو يعملون عندهم كأجراء بعقود فيها بالنسبة للأجير الكثير من الاجحاف والالزام والقليل من الغنم او فرص التظلم . وهم يشكلون طبقة لاتكاد تملك من الحقوق السياسية شيئا على الاطلاق ، وهي وان كانت قد بدأت تتطلع الى شيء من الحقوق فان هذه لم تزد على حق الشكوى أوحق النقد اذا وصلت الى اقصى مداها . وعلى أية حال فان هذه الشكوى اوهذا النقد لم يكن ظاهرة عامة بين صفوف هذه الطبقة وانما اقتصر على حالات فردية بسيطة وكان النبلاء والملوك يسارعون الى القضاء عليها .

وسأنتقي لتصوير هذا الموضوع منظرا من الالياذة عن اجتماع عقدته القوات اليونانية الرابضة أمام طروادة . في هذا المنظر يدب الشقاق بين أجاممنون قائد القوات اليونانية وأخيليوس أحد الملوك القواد الذين كانوا يعملون تحت لوائه . فيهدد أخيليوس بالانسحاب ، والعودة الى بلده ، ثم تحدث مساع لاصلاح ما بين الملكين تنتهي أخيرا بعقد هذا الاجتماع الذي حضره ، الى جانب الملوك والنبلاء ، كل الجنود اليونان . واريد ان اوجه الضوء الى موقف بالذات في هذا المنظر ، وهو موقف ترسيتيس Thersites الذي قام من بين صفوف الجنود (وهم من طبقة العامة بطبيعة الحال) ليوجه اللوم والتقريع الى أجاممنون الذي كان السبب فيما دب بين الصفوف من خلاف . ولكن النبلاء والملوك لايشجعون هذا الموقف رغم أنهم كانوا جميعا يعرفون مقدار الخطأ الذي يحيط بتصرفات أجاممنون . ثم يمضي شاعر الالياذة في تصوير المنظر فيقول[٤١] :

« ولم يكد ترسيتيس ينتهي من كلامه حتى
وصل أوديسيوس الى حيث يقف ، وفي عينيه نظرة
صارمة قائلا له : ان حديثك هذا قد يكون فيه
فصاحة ولكن وقتنا ليس به متسع لفصاحتك ...

أيها المعتوه ، يا أحقر من تبع آل أتريوس (عائلة

---

٤١ - الالياذة ٢ ، ٢١٢ - ٢٦٩

أجاممنون) الى طروادة : كيف تجرؤ على أن تتلفظ بأسماء الملوك أو توجه اليهم التقريع ... فلتنصت اذن الى كلماتي . وانها بالقطع ليست تهديدا أجوف : اني اذا امسكت بك مرة أخرى وانت متلبس بمثل هذا التهريج الذي قمت به اليوم ... فلن يكون لتلماخوس من طلبي ان لم أنتزع ملابسك حتى تبدو عاريا ، ثم ألهب ظهرك وأقذف بك الى حيث تولول بجانب السفن . وحين انتهى أوديسيوس من كلامه ضرب ثرسيتيس بعصاه على ظهره وكتفه ، فأنفجر هذا باكيا والتهب ظهره من أثر الضرب وجلس وقد بدا عليه الذعر وغلبه الألم ، بينما طفرت الدموع من عينيه وجعل ينظر حوله في حالة تدعو للرثاء . »

والنظر حتى هذه المرحلة يعطينا فكرة واضحة عن علاقة الطبقات التي يتكون منها المجتمع اليوناني ممثلا في جيشه . ولا نستطيع أن نقول ان التقريع الذي وجهه أوديسيوس الى ثرسيتيس والعقاب الذي أوقعه به انما هو سبب تطاول جندي على قائده ، فالنغمة الطبقية واضحة من كلام أوديسيوس بقائدها العسكري ، وقد عوقب ثرسيتيس لأنه أهان اجاممنون بوصفه ملكا وليس بوصفه قائدا في المقام الأول .

العلاقة بين المدن

هذا عن الوضع السياسي من حيث علاقة الطبقات بعضها داخل كل مدينة أو دويلة من الدويلات التي كانت في ذلك الوقت قد تكاملت عناصر تكوينها في بلاد اليونان . أما من حيث علاقة هذه الدويلات بعضها لما نجده في الاشعار المنسوبة الى هوميروس يكمل الى حد ما الاتجاه الذي رأينا الآثار تشير اليه في مناسبة سابقة : لقد كانت هناك رابطة من نوع معين بين هذه الدويلات من جانب وبين دويلة ميكيني التي جعل هوميروس أجا ممنون ملكا لها في الملحمتين . ودليلنا على ذلك هو مدى الاستجابة التي قابل بها ملوك هذه الدويلات نداء أجاممنون حين أهاب بهم ان يسيروا تحت لوائه في الحرب ضد طرواده .

ولا ينفي هذه الرابطة أو يضعف منها أن السبب الذي يقدمه لنا شاعر الملحمتين لهذه الحرب هو مجرد استعادة زوجة هاربة والانتقام من الذي أغراها بالهروب معه ـ وهو سبب لا يكفي في حد ذاته لقيام حرب امتدت عشر سنوات باكملها كما يزعم الشاعر . إن الامر الذي يعنينا هنا ليس سبب قيام هذه الحرب ، وانما هو الاستجابة

نفسها ـ وهو امر لابد وانه حدث أو كان من الممكن أن يحدث ، والا لكان في تغني الشاعر به أمام سامعيه ضرب من العبث الذي لا يمكن أن يستسيغه هؤلاء السامعون من اليونان الذين يعرفون عن طريق الرواية شيئا من تاريخ بلادهم السالف في اطاره العام ، ان لم يكن في تفاصيله الدقيقة .

أما كنه هذه الرابطة فهو حسب ما نستطيع استنتاجه من مناظر الملحمتين ، وبخاصة الالياذة ، لا يكاد يتعدى حدود الولاء العام للملك ميكيني دون ان يزيد على ذلك . وفي هذا المجال أستبعد المنظر الذي يدور فيه النزاع بين أجا ممنون وأخيليوس والذي رأينا فيه هذا الاخير يكيل الترقيع والتأنيب لأجاممنون ويهدد بالانسحاب من الحرب والعودة الى مدينته ومقر ملكه دون ان يجد في ذلك خروجا على التزام معين ـ وهو تهديد لم يقابله أجاممنون من جانبه بأية اشارة الى مثل هذا الالتزام ، وانما قابل التقريع بالتقريع والتأنيب بالتأنيب ، وأنهى كلامه بأعتراف ضمني منه بأن في امكان أخيليوس أن يعود اذا كانت هذه هي رغبته وارادته[٤٢] ، هذا بينما يقتصر دور بقية الملوك الذين حضروا المشادة بين الملكين على مجرد بذل المساعي لاصلاح ما بينهما ، محاولين ارضاء كل من الطرفين على توحيد الصف ، انهاء للشقاق بين المحاربين اليونان وهم في مواجهة العدو المشترك .

٥ ـ الحرب والسلام في عالم هوميروس

عصر هوميروس ، اذن ، كان عصر انتقال بين عالمين ، بين مرحلتين من المراحل التي مر بها المجتمع اليوناني في تاريخه المبكر . وقد رأينا صدى هذه الظاهرة الانتقالية في حياة هذا المجتمع ، سواء في ذلك وضعه الاقتصادي ، أو تكوينه السياسي . وقد كانت هذه الظاهرة الانتقالية في الحقيقة هي سمة العالم الذي يطل علينا أينما تنقلنا بين المناظر التي يرسمها الشاعر من خلال سطور ملحمته . لقد تركت بصماتها على هذا العالم الهوميري في حركاته وسكناته وكل ما يتصل بها من قيم ومواقف . وقد ظهرت هذه البصمات بصورة واضحة في موقف أبناء ذلك العصر من الفكرة التي كان لا بد أن يقابلوها أينما اتجهوا في عالمهم ذاك الذي كان يجيش بحركة دائمة ، سواء في هجراته من مكان الى مكان أو في انتقاله من مرحلة الى مرحلة ـ وأعني بها التأرجح الحتمي بين فكرة الحرب والسلام وما يرتبط بذلك من تصورات عن المجد والبطولة والفردية والجماعية والشوق الى المغامرة والحنين الى الاستقرار .

الحرب

والجانب الاول من الصورة الذي يقدمه لنا هوميروس في هذا الصدد فيه تمجيد للحرب في أكثر من ناحية . حقيقة ان الشاعر يذكر لنا أن ما يصبو اليه من ظهور قد يحصل عليه في مجال الخطابة أمام أقرانه المجتمعين في

٤٢ ـ الالياذة ، ١ ، ١٧٣ ـ ١٧٥ حيث نجد اجاممنون يوجه الخطاب الى أخيليوس قائلا : عد وارك واهرب اذا كنت تريد ؛ واني لا ارجوك الا تبقى هنا من أجلي فحسب ، فمعي آخرون يشرفني ويجيئهم .

مجلس أو آخر من المجالس التي تعقد بين الحين والحين ، وبخاصة في أوقات الشدة ، لتناقش أمور المجتمع وتقرر الخطوة التي يجب أن يقوم بها . ولكن مع ذلك فان الخطابة ليست هدفا في حد ذاتها ، وانما تخدم هدفا ابعد هو الاستعداد للحرب . والظهور الذي يحرزه المرء فيها ليس الا وسيلة لتأكيد ظهوره في ميدان القتال[٤٣] .

ولكن الظهور في ميدان القتال لم يكن في عصر هوميروس انعكاسا لروح قومية أوطنية في كل الاحوال . بل على عكس ذلك كان المجد الشخصي الذي يستهدفه المحارب . والسبب في ذلك ينبعث من الوضع الذي كان سائدا إذ ذاك والذي لم يكن فيه المجتمع قد وصل إلى التبلور الكامل الذي يجعل شخصية الفرد تذوب الى حد كبير في شخصية المجتمع . كذلك فان حالة عدم الاستقرار في وقت كانت فيه تحركات الشعوب أوهجراتها التي عمت القسم الشرقي للبحر المتوسط بوجه خاص تكاد تكون هي الاتجاه السائد وهي تحركات رأينا فيما سبق أنها ابتدأت في هذه المنطقة حوالي القرن الثاني عشر ق.م. ثم ظهرت مرة أخرى في صورة الغزو الدوري الذي تعرض له العالم اليوناني بعد ذلك والذي ادى إلى انهيار الحضارة الميكينيه وهي حالة كانت أبعد ما تكون عن أن تخلق قيما اجتماعية ثابتة تؤدي إلى اندماج الفرد في المجتمع .

ومن هنا لم يكن القتال يمثل في كل الاحوال دفاعا عن قيم جماعية محضة ـ الأمر الذي لايمكن أن يتم إلا في مجتمع نعم بالاستقرار لفترة طويلة ـ وإنما كان هذا الدافع يختلط إلى حد كبير بعوامل عائلية أو حتى شخصية وفي هذا الصدد فأن السبب الذي يقدمه لنا هوميروس على أنه المحرك الأول لحرب طروادة هو محاولة استعادة هيلينى ، زوجة منيلاوس ، التي اختطفها باريس ابن ملك طروادة ـ مسألة عائلية محضة . ولكنها كانت كافية ، في نظر الشاعرالذي ينظر في الواقع الى الامور من خلال نظرة عصره ، لأن تسبب حربا . كذلك فاننا نرى أخيليوس يمتنع عن الاستمرار في القتال لأن اجاممنون يريد أن يستولي على الفتاة التي كانت من نصيبه وقت توزيع السبايا ، حتى ولو كان امتناعه هذا سيؤدي الى كارثة جماعية في صفوف المحاربين اليونان .

كذلك كثيرا ما كان الدافع هو حماية الأراضي والأملاك التي يمتلكها المحارب . وهنا ، مرة اخرى ، نجد اخيليوس يوجه تقريعه الى اجاممنون أثناء الشقاق الذي دب بينهما فيتساءل عن السبب الذي يجبره على الاشتراك في القتال ما دام الطرواديون لم يخربوا محاصيله أو يستولوا على جياده[٤٤] . وهو حين يقرر العودة الى القتال لايكون الدافع الوطني الجماعي هو الذي يوجه قراره ، وانما نجد هذا الدافع يكاد يكون شخصيا محضا ، وهو الانتقام لصديقه باتروكلوس الذي خر صريعا امام هكتور ابن الملك الطروادي . واذا لم يكن الدافع هو حماية الاراضي في بعض الأحيان فهو على وجه اليقين البغية في الحصول على مزيد منها ، كما يظهر لنا من المنظر الذي

---

٤٣ ـ الالياذة ٦ : ٤٩٠ ، ٢٢ : ٢٠٢ ، ٣٠٢ ـ ٣٠٤ وما بعده ، ٨ : ٣٦٠ وما بعده ، ١٦ : ٤٠٢ ـ ٤١٠ .

٤٤ ـ راجع أعلاه . راجع كذلك ، الى جانب هذا النظر ، الالياذة ١٦ : ٣٦٠ ـ ٣٦٨ ، حيث نرى الآلهة نفسها تتحمس للقتال في سبيل الأملاك الشخصية

سبق ذكره والذي رأينا فيه نسطور يتذكر بارتياح كبير أيام صباه حين هاجم منطقة إيليس هو واتباعه ، ثم يعدد الغنائم التي حصل عليها من الخيل والماشية والاغنام وغيرها .

ولعل خير ما يمثل هذا الدافع الشخصي للحرب ، سواء أكان يتصل بمائلة الشخص أو بما يحصل عليه في الحرب من غنائم وأسلاب ، هو دعاء هكتور حين كان يستعد لمنازلة أخيليوس ، ولنستمع اليه في هذا الصدد حين يقول[٤٥] :

« أي زيوس وايتها الآلهة الأخرى ! اني اتجه
اليكم بالدعاء ان يشب ولدي على ما أنا عليه ،
أعظم شخص بين الطرواديين ، وأن يكون مثلي قويا
وشجاعا ، حينئذ يقول الرجال عنه حين يعود من
الحرب : انه اشجع حتى من والده .

ولكن مشيئتكم أن يعود (من الحرب) بأسلاب
تصبغها دماء الرجال الذين يقتلهم ، حتى يهنأ بذلك
قلب أمه . »

•••

الحرب التي تغنى بها هوميروس ، اذن ، حرب لها الطابع الضيق الذي لم يكن قد وصل بعد الى تجسيد اتجاهات المجتمع ككل ، وقد مجد الشاعر هذه الحرب وفصل فيها الى حد كبير . فهي في نظره الشغل الشاغل للرجال ، من صباهم الى شيخوختهم ، وان كانت تمثل زهرة الصبا بوجه خاص ، ومنظر السلاح يكفي ليملأ نفس المحارب بسعادة عارمة ، هي سعادة من نوع خاص لا تثيره في النفس الا المعركة ، فيجعل المرء يتحرق الى القتال ولا يمله أو يكل منه . وان الآلهة لتسهم بدورها في تحقيق هذه السعادة في ميدان المعركة ، فحين ينتشي المقاتلون بالاقتراب من النصر تجد ان الحرب نفسها ، بمباركة الآلهة ، هي التي تهب الرجال قدرات ليست في الحسبان . ولعل خير شاهد على هذا هو المنظر الذي نرى فيه الاله بوسيدون **Poseidon** وهو يهب هذه القدرة لاثنين من الآخيين وهما بجوار السفن يستعدان لمنازلة الطرواديين[٤٦] .

« ومن بين الاثنين كان أياس بن أويليوس هو
أول من عرف الاله . وفي الحال وجه حديثه الى

---

٤٥ ـ الالياذة ، ٦ : ٤٧٦ ـ ٤٨١

٤٦ ـ الالياذة ، ١٣ : ٦٨ ـ ٧٥

ایاس بن تیلامون : ... ان الشجاعة التي في قلبي لتجعلني أهرع الى المعركة وان قدمي من أسفل جسمي ، ويدي من أعلاه لتهزها نشوة التطلع الى القتال . »

والشاعر يزيد من تمجيده للحرب حين يرى أن الموت في المعركه بدافعها الذى أشرت إليه ليس عارا ما دام يؤدى إلى انقاذ البيت والعائلة ، وإنما العار هو الجبن الذى يجعل الرجال يفرون من الميدان ، وعلى ذلك فإن الجبن والضعف لابد أن ينحيهما المرء جانبا وأن يجمع كل حماسه ليدخل المعركة أمام تحدى الحياة[٤٧] :

« أيها الاصدقاء ، تحلوا بالشجاعه وكونوا رجالا ، وليكن خوفكم الوحيد هو الخوف من العار . فأن الذين يفرون من العار أقلهم هم الذين يقتلون بينا تنجو الغالبية ، أما الذين يفرون من المعركه فانهم يفقدون سمعتهم ويفقدون حتى الأمن الذى ينشدونه . »

بين الحرب والسلام

على أن العصر ، كما ذكرت كان عصر تداخل بين القيم لأنه كان بطبيعته عصر انتقال . ومن هنا فان الشاعر الذى مجد الحرب لايلبث أن يبدى في شعره جوانب اخرى تتارجح بين تمجيد الحرب والسعى إلى السلام . فالعالم اليونانى في الفترة بين بداية عصر هوميروس ونهايته كان قد تدرج من التحمس للحرب ومن الهجرة والتجوال والغارات وبدأ يتطلع الى افاق أخرى ، إن لم تخل من الحرب فهى تدخل إلى جانبه اعتبارات أخرى ، وتظهر الجانب السيء من الحرب ، فالحرب ليست كلها سعادة ونشوة وشرف فحسب ، وإنما الى جانب ذلك هى شيء تترتب عليه كثير من المآسي والعواقب الوخيمة . كذلك فان علاقات المجتمعات لا يمكن أن تحكمها الوحشية التى يمثلها ميدان القتال فحسب ، وإنما هناك مجال للمساعى الحميدة التى تستهدف الصلح أو تحقن الدماء أو ترعى كرامة الموتى .

وقد ظهر هذان الاعتباران في أشعار الملحمتين بشكل واضح . ولنعرض الآن بشكل سريع الى ما جاء في هذه الاشعار عن الاعتبار الاول الذي يتأرجح بين الحرب والسلام ، وهو إظهار المآسي التي تنطوي عليها الحروب . إن

٤٧ ـ الالياذة ، ٥ ، ٥٢٨ ـ ٥٣٦

النغمة التي تمثل هذا الاعتبار تظهر في بعض الاحيان بشكل عابر يصور مرحلة الاعياء من الهجرة والتدافع والقلق المستمر والرغبة في الاستقرار بعد كل ذلك ـ وهي المرحلة التي كان العالم اليوناني قد وصل اليها حين يقول الشاعر ، على سبيل المثال[٤٨] :

« إن الذي يتقدم الى ميدان القتال ، والذي يتخلف وراء الصفوف لهما نفس المصير ، والخير والشر يعطيهما الناس في القدر من الاحترام . فالموت هو النهاية المحققة سواء للمتقاعس الذي لا يعمل شيئا ، أو للبطل المقدام الذي ينجز الكثير » .

بل أكثر من ذلك فإننا نجد انه حتى في لحظة الانتصار ذاته حين يصرع الرجل غريمه وينتقم لشرفه ، لا ينتشي المنتصر بالفوز في كل الحالات ، وإنما يذكر شرور الحرب وحلاوة السلام ، وما يسوده من أمن ومتعة . فحين يقتتل مينيلاوس (ملك اسبرطة وزوج هيلينى التي فرت مع الأمير باريس) مع بيساندروس Peisandros الطروادي ، ويتمكن مينيلاوس من أن يصرع غريمه ويضع قدمه فوق جثته المجندلة نجده لا ينتشي بفرحة النصر بقدر ما ينكر على الطرواديين تعطشهم الذي لايرتوي الى الحرب ، وما أصابوه به من شر وعذاب حين اخذوا منه زوجته وماله ، كما ينكر عليهم عدم خوفهم من غضب الاله (زيوس) الذي يرعى كرم الضيافة (فقد كان باريس ينزل ضيفا على مينيلاوس ، حين أغرى زوجة الملك بالفرار معه) . ثم يتجه الى الاله الذي يدبر كل شيء حتى لو كان ذلك رعاية الطرواديين ، « الذين لايرتوون من الحرب التي لا خير فيها » . ثم يختتم كلامه قبل أن ينتزع من جثة عدوه الصريع ما عليها من سلاح ودروع بقوله[٤٩] :

« إن المرء ليشبع ويرتوي من كل شيء ، من النوم ومن الحب ومن الغناء والرقص الممتع من كل هذه الاشياء يفضل المرء ان يصيب ما يشبعه ويرويه إلا هؤلاء الطرواديين فان تعطشهم الى القتال لا يطفيء غلته شيء على الاطلاق » .

---

٤٨ ـ الالياذة ، ٦ ، ٢٧٣ ـ ٢٨٢

٤٩ ـ الالياذة ، ١٣ ، ٦٣٦ ـ ٦٣٩

كذلك نجد هوميروس ، اذا كان قد صور في براعة فائقة الاقدام والشجاعة والمجد الذي يحصل عليه من يتحلى بها ، فانه لم يكن اقل براعة من تصوير جانب المأساة في الحرب ، فهو يدرك كل الادراك ان الحرب تجلب العذاب للمحاربين ، فيرينا كيف يضطر المحارب الى ان يبقى بعيدا عن زوجه وولده ، وان يبتعد عن شرب النبيذ الحلو المذاق حتى لا تتركه قوته[٥٠] . كما يقدم لنا صورة تلمس القلب عن القلق الذي يقضي على اية فكرة للطمأنينة والاستقرار . فالاله أريس (إله الحرب) ليس لغضبه ضابط ، والرجال يعيشون أو يموتون كما يقضي القدر ، فإله الحرب ليس لديه مقربون . والذي يقتل يقتله غيره بدوره . وهكذا تضيع حياة كثيرين من أنبل الرجال لتتوارى في الظلام وتنتهي كل منجزاتهم الى لاشيء وتتركهم ارواحهم مولولة الى مملكة هاديس (العالم الأخر) ، أكثر الممالك بؤسا . أما الجسد فيبقى بعيدا عن أولئك الذين كانوا يحبونه ليصبح فريسة للكلاب وجوارح الطير[٥١] .

ومأساة المحارب في ميدان القتال ليست هي كل ما يرسمه هوميروس في هذا المجال . فللصورة جانب آخر يمثله الآباء والزوجات والابناء والاتباع الذين ينتظرون عودة المحارب ، فاذا عاد كانت هناك فرحة ، يحل مكانها الأسى الذي يعتصر القلوب اذا لم يعد المحارب الغائب . وهو وضع يصل الى قمة المأساة في حالة الهزيمة حين تسبى النساء وتشاهد الزوجة السبية زوجها ووالدها واخوتها وهم يذبحون أمام أعينها . كما تشاهد ابنها الصغير وهو يلقى مصرعه حين يقذف به العدو المنتصر من على أسوار المدينة ليتبع كل ذلك شقاء لا حد له حين تقاد لتقضي في الاسر بقية حياتها تحت رحمة زوجها[٥٢] . ولن ماقالته اندروماخي Andromache في رثاء زوجها هكتور Hektor ، بعد أن قتله أخيليوس وأطلت هي من على أسوار طروادة لترى الآخيين يجرون جثته الى حيث توجد سفنهم ليصور مدى ما يمكن أن يصل اليه الحزن في قلب زوجة قتل زوجها في ميدان المعركة[٥٣] .

●●●

هذا هو المظهر الأولي في شعر هوميروس ، الذي يرينا مدى التأرجح بين الحرب والسلام في العصر الهوميري . أما المظهر الآخر الذي يشير الى هذا التأرجح فهو ما نلاحظه في هذا الشعر من ظهور بعض التقاليد التي يلتزم بها ، الى حد ما ، الاطراف المتحاربة . حقيقة ان هذه التقاليد لم تكن قد اصبحت جزءا من المجتمع اليوناني في

---

٥٠ ـ الالياذة ، ٢ : ٢٤١ ـ ١٣٧ ، ٣٦١ ـ ٢٩٨ ، ٦ : ٣٦٤ ـ ٣٦٥

٥١ ـ الالياذة ، ١١ : ٤٠٢ ـ ٤١٠ ، ١٦ : ٨٥٦ ـ ٨٥٧ ، ١٨ : ٣٠٩ ، الاوديسة ، ١١ : ٤٨٨ ، ٥٣٤

٥٢ ـ الالياذة ، ٢ : ٣٥٤ ـ ٣٥٦ ، ٦ : ٤١٠ ـ ٤١٥ ، ٤٩٠ ـ ٤٩٤ ، الاوديسة ، ٨ : ٥٢٢ وما بعده .

٥٣ ـ الالياذة ، ٢٢ : ٤٧٧ ـ ٥١٥

هذه المرحلة من مراحل تطوره ، والافراد والجماعات كان يهاجم بعضهم بعضا ، أو يهادن بعضهم بعضا دون أي تقيد بما يتصل بهذه العلاقات عادة من رسميات أو تقاليد ـ فالجماعات على سبيل المثال ، تهاجم راعيا وقطيعه دون سبب ، لمجرد الاستيلاء على ما يملكه ، وهم حين يسلبون الراعي قطيعه ، يسلبون كذلك حريته اذ يبيعونه عادة في سوق الرقيق . كذلك ، الجانب الاخر ، كانت الطريق الوحيدة التي يتبعها من يتعرض للضرر من جراء هذه الهجمات هو الانتقام ومقابلة الغارة بغارة مماثلة طالما وجد الى ذلك سبيلا[٥٤] . ولكن ، الى جانب ذلك ، فان بعض التقاليد كانت قد بدأت تظهر في ذلك العصر لكي تحكم العلاقات بين الجماعات ، وتصبح بذلك بذورا للعلاقات التي يحكمها نظام معترف به بين الدويلات اليونانية ، والتي تبلورت في عصر لاحق للعصر الذي نحن بصدد الحديث عنه .

ومن بين هذه التقاليد ، التقليد الذي يتعلق بمسألة الوفود التي ترسلها مدينة الى مدينة ، أو جماعة الى جماعة . فقد بدأ يظهر بين الجماعات اليونانية نوع من التفاهم على حصانة أعضاء هذه الوفود ـ وهي حصانة كان زيوس كبير آلهة اليونان يباركها ويرعاها . ومن بين المناظر التي تصور هذا التطور الجديد ، ذلك الذي يظهر فيه مينيلاوس وأوديسيوس وقد ذهبا الى طرواده في محاولة قدر لها ألا تنجح لتفادي وقوع الحرب . لقد اجتمع مجلس الطرواديين لمناقشة المسألة واقترح أحد المجتمعين أن يذبح مينيلاوس ، وقد اعتبر هذا التصرف عارا كبيرا على الطرواديين[٥٥] .

كذلك بدأت تظهر في عصر هوميروس فكرة عقد الهدنة التي يمكن أن نصفها بالصفة الرسمية ، اذ كان يحيط بعقدها عدد من الطقوس والشعائر الدينية . وكانت هذه الهدنات تعقد لأسباب مختلفة ، من بينها إعطاء فرصة لدفن الموتى (أو احراقهم) أو ليخاطب قائد جنوده ، أو ليتقابل زعيمان من الجانبين حتى يقررا مصير النزاع حقنا للدماء .

وقد كان خرق هذه الهدنة يعتبر أمرا خطيرا ومخالفا للدين ، ويؤدي الى تحلل الطرف الآخر من الالتزام بالهدنة المتفق عليها[٥٦] كذلك نشاهد نوعا من الاحترام الذى كان المحارب يظهره لعدوه ، اذا كان هذا العدو شخصا مبرزا او على قدر من البطولة . وقد كان هذا الاحترام يؤدي في بعض الاحيان الى ايقاف النزاع لفترة ، مهما كانت قصيرة ، بل الى تبادل الهدايا في هذه الهدنة المؤقتة بصرف النظر عن استئناف القتال بعد ذلك[٥٧] . كما كان

---

٥٤ ـ الالياذة ١ ، ١٢٤ ـ ١٢٥ ، ١٥٢ ـ ١٥٦ ، ٩ ، ١٠٤ ـ ١٥٦ ، ٩ ، ١٠٤ ـ ١٠٦ ، ٢٢ ـ ٢٤١ ، ٢٤٢ الاوديسة ، ٢ ، ١٠٢ ـ ١٠٦ ، ٩ ، ٢٥٢ .

٥٥ ـ الالياذة ، ١١ ، ١٣٨ ـ ١٤٢

٥٦ ـ الالياذة ، ٣ ، ٢٥٠ ـ ٣١١ ، ٧ ـ ٣٤٨ ـ ٣٥٨ ، ٩ ، ٣٢٨ ـ ٣٤١

٥٧ ـ الالياذة ، ٧ ، ٢٨٨ ـ ٣٠٢

للسن ، اذا اقترن بالبطولة ، احترامه لدى الاعداء . وهكذا حين سقطت طيبة (التي يتحدث عنها هوميروس في شعره) نجد أخيليوس يعطي الفرصة لاعدائه حتى يدفنوا ايتيون Eietion بالصورة التي تليق بمركزه كمحارب بارز[٥٨] . وقد كانت هذه التقاليد محترمة ومتبعة في أغلب الاحوال ، الا اذا كانت الخصومة بين الاعداء المتحاربين من النوع الذي يفوق في مرارته كل اعتبار ، كما كان الحال مثلا بين أخيليوس وهكتور ، فقد كان بين هذين العدوين دم صديق مقتول ، هو باتروكلوس صديق أخيليوس .

السلام

كانت هذه هي المظاهر التي نلمحها في شعر هوميروس والتي تحتل المنطقة الوسط بين الحرب والسلام ، وهي مظاهر كانت تدل دون شك على حالة القلق التي تصاحب مرحلة الانتقال ـ وهي المرحلة التي كان يمر بها المجتمع اليوناني في عصر هوميروس كما أشرت في مناسبات سابقة . ولكن الامر لم يتوقف عند هذا الحد ، فالى جانب اتجاه التأرجح بين الحرب والسلام والاتجاه نحو تمجيد الحرب ، كان هناك الاتجاه الذي يحلم بعالم يوناني مستقر تسوده الطمأنينة ويشيع فيه السلام .

وفي هذا المجال نجد أن منظر المدينة التي تدور حولها الحرب ، وهو احد المناظر التي تحتوي عليها درع أخيليوس ، يظهر بجانبه منظر آخر لمدينة يسودها السلام ، فيها سعادة غامرة واحتفالات زواج ورقص ، ونساء يقفن عند ابواب منازلهن ورجال يتناقشون في السوق . كذلك هناك الحقل الكبير الذي رأيناه يحرث في مناسبة سابقة وقد وقف صاحبه ، وهو الملك ، يراقب سير العمل أثناء ذلك في سرور ظاهر ، وقطعان الماشية والاغنام ذات الصوف الأبيض والغدير الهامس وأكواخ الرعاة ، بكل ما يوحي به ذلك من مظاهر الطمأنينة والاستقرار[٥٩] .

والمنظر الثاني الذي يشير الى هذا الاتجاه هو ما نراه في جزيرة سخيرية ، التي مر بنا ذكرها عند الفاياكيين . إن هؤلاء القوم ينعمون بسلام دائم ، وقد نبذوا من حياتهم كل ما فيه قتال أو صراع . أما عن المجد والظهور في هذا المجتمع فقد كان الفاياكيون يحصلون عليه في مجال المباريات الرياضية التي استبعدوا منها كل ما يتصل بالملاكمة او المصارعة . وقد عللوا ذلك في صورة رمزية بقولهم[٦٠] :

« اننا لا نجيد الملاكمة والمصارعة ، ولكننا
عداءون وبحارة من الطراز الاول ، كما تهوى قلوبنا

٥٨ ـ الالياذة ، ٦ ، ٤١٦ ـ ٤٢٠

٥٩ ـ راجع اعلاه

٦٠ ـ الاوديسة ، ٨ ، سطر ١١٨ وما بعده ، ٢٤٦ وما بعده .

المأدبة والقيثارة ، ونعشق الرقص والملبس والحب
والنوم . »

ومع ذلك فان الشاعر لم يعتبرهم جبناء ، وانما نظر الى هذا المجتمع على أنه مجتمع مسالم ، اذا كان لنا ان نأخذ حديث أوديسيوس الى ملك هذه المدينة على انه يمثل رأي الشاعر . وقد كان أوديسيوس مع ذلك محاربا من الطراز الاول .

وأخيرا فلعل خير ما يصور لنا اتجاه السلام الذي كان قد بدأ يظهر بين اليونان في عصر هوميروس هو الابيات التي يختم بها هوميروس ملحمة الاوديسية حين توجه الالهة أثينة ندائها الى أوديسيون ليوقف القتال ، بعد أن انتصر على اعدائه من طبقة النبلاء حتى يشيع السلام في ربوع إثاكه ، وحتى يرضى بذلك الاله زيوس ، كبير الآلهة (٦١) .

***

٦١ ـ الاوديسه ، ٢٤ ، ٥٤٠ ـ ٥٤٤ .

تطور الفن الاغريقي في العصر الهيلادي والتأثيرات المصرية

احمد حسن غزال

أستاذ الآثار اليونانية والرومانية

كلية الآداب - جامعة الرياض

الذي يتأمل نشاط الحضارات القديمة التي تمت على شواطىء حوض البحر المتوسط يلمس ، من خلال الأدلة الأثرية ، التقاء هذه الحضارات في أكثر من فترة تاريخية . وقد قصدت بهذه الدراسة متابعة الدور الذي مارسته الحضارة المصرية القديمة في تطور الفنون الاغريقية في الفترة الاولى من فترات هذا الالتقاء . ونقصد بها مرحلة الحضارة الهيلادية الأخيرة ، وهي مرحلة النضوج الحضاري في العصر البرونزي ، وتمتد من حوالي ١٥٨٠ الى ١١٠٠ق.م .(١)

من الطبيعي ان يكتشف الباحثون قطعا أثرية مصرية على الارض اليونانية ، أو قطعا أثرية إغريقية على الارض المصرية ، فقد كانت هناك اتصالات تجارية حدثت عبر البحر المتوسط بين الجانبين . ولا شك أن وجود هذه القطع الأثرية المصرية هناك كان له الفضل الأكبر في مساعدة الآثاريين ، في بداية

---

(١) يقصد بالحضارة الهيلادية (نسبة الى Hellas—ados ، وهي اليونان) العصر الذي يمتد من حوالي ٢٨٠٠ الى ١١٠٠ق.م . وهو العصر الذي سبق العصر الحديدي ، وقد استخدم فيه البرونز كمادة أساسية لصناعة متطلبات الحياة اليومية ، ولهذا سمي أيضا بالعصر البرونزي . وقد اتفق الآثاريون على تقسيم حضارة هذا العصر الى ثلاث مراحل أساسية بعد مقارنة تطورها بالحضارة المينوية في جزيرة كريت على النحو التالي :

١ - الحضارة الهيلادية الاولى : (٢٨٠٠ - ١٩٠٠ ق.م) .

٢ - الحضارة الهيلادية الوسيطة : (١٩٠٠ - ١٥٨٠ ق.م) .

٣ - الحضارة الهيلادية الاخيرة : (١٥٨٠ - ١١٠٠ ق.م) .

وسميت الحضارة الهيلادية الأخيرة أيضا بالحضارة الموكينية نسبة الى موكيناي التي شهدت الاكتشافات الأولى لهذه الحضارة . وتنقسم هذه الفترة الحضارية بدورها الى الفترات التالية :

١ - الفترة الاولى للحضارة الهيلادية الأخيرة أو الموكينية الاولى (١٥٨٠ - ١٥٠٠ ق.م) وهي الفترة التي كشف عنها شليمان عام ١٨٧٦ ، والتي سأتناولها في هذه الدراسة .

٢ - الفترة الوسيطة للحضارة الهيلادية الأخيرة أو الموكينية الوسيطة : (١٥٠٠ - ١٤٢٥) ق.م .

٣ - الفترة الأخيرة للحضارة الهيلادية الأخيرة أو الموكينية الأخيرة (١٤٢٥ - ١١٠٠ ق.م) وهي الفترة التي حدثت فيها حرب طروادة مع بداية القرن الثاني عشر ق.م .

الاكتشافات الاثرية على وضع الاطار التاريخي لتسلسل الحضارة الاغريقية ، من خلال هذه الادلة المصرية التي سبق دراستها ومعرفة فتراتها التاريخية . ولكن الذي نعنيه في هذه الدراسة بالدور الذي مارسته الحضارة المصرية ، هي تلك التأثيرات المصرية في العادات والتقاليد الاغريقية ، والتي انعكست بدورها في الفنون وأدت الى تطويرها ، لتأخذ دورها في مسايرة فنون الحضارات الأخرى في العالم القديم ، بل وتفوقت عليها في بعض مراحلها .

والحديث عن تطور الفنون في المرحلة الميلارية الأخيرة (١٥٨٠ - ١٢٠٠ق . م) والتأثيرات المصرية يقودنا الى مناقشة الاكتشافات الأثرية التي حدثت عندما أدى شغف هاينرخ شليمان بأشعار هوميروس والتراث الاغريقي القديم الى اكتشاف مركز الحضارة الميلارية في موكيناي . فقد كشف داخل أسوار قلعة موكيناي عام ١٨٧٦ في بداية حفائره على الارض اليونانية عن المجموعة الاولى من المقابر المنحوته عموديا (Shaft graves) في سطح الارض ، داخل سياج يحيط بها (Grave circle A) . وهذا السياج عبارة عن سور من صفين متوازيين من اللوحات الحجرية ، يبلغ قطره ١٧,٥٠ مترا ، يقع مدخله عند الغرب ، ويضم ست مقابر . ومع أن مكان هذا السياج كان معروفا على مدى التاريخ ، الا أنه أحيط بشيء من الاحترام الديني . فقد اعتقد الناس ولظروف غير معلومة ، أن المكان له طابع ديني ، وأدى ذلك بالتالي الى عدم العبث به ، حتى كشفت عنه الحفائر الأثرية (شكل ١) .[٢]

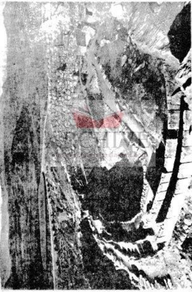
حذلك أدت اكتشافات الجمعية الأثرية اليونانية بعد ذلك بخمس وسبعين سنة (١٩٥١) الى اكتشاف المجموعة الثانية من هذه المقابر (Grave circle B) . وهي تقع خارج أسوار قلعة موكيناي على بعد ١٣٠ مترا الى الغرب من البوابة . ويضم السياج في هذه المرة أربعا وعشرين مقبرة ، ولكن ما يكن أن نسميه بالمقابر المنحوته عموديا يصل الى أربع عشرة مقبرة ، مساحة أكبرها تصل الى ٣,٨×٢,٨ مترا . ويبلغ قطر السياج المحيط بها ٢٨ مترا ، ومدخله أيضا نحو الغرب . وهذه المجموعة تحمل بشكل عام المظهر المعماري للمجموعة الأولى .[٣]

وقد جاءت محتويات مقابر هاتين المجموعتين لتوضح أن تحولا بارزا في تطور الحضارة الميلارية قد حدثت فجأة وبسبب غلبة أسرة ملكية جديدة في موكيناي ، حقق أفرادها تفوقا واضحا مع بداية القرن السادس عشر ق.م ، نتيجة اتصالاتهم النشطة في حوض البحر المتوسط . وربما يعني وجود مجموعتين من

(١) A.J.B. Wale. Mylense (Prinleton 1949) pp. 58-60 ;

(٢) Sp. Mariqatos and M. Humer. **Krate Kai Mykenaike Hellas** (Athens 1959) note 145 on p. 109. George E. Mylonas. Mylense, A Guide to the Ruins and its History (Athens 1970) pp. 19-23

(٣) Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., p. 60; George E. Mylonas, op. cit., pp. 52-56.



شكل ١ - ...

المقابر أن البيت الملكي الجديد كان يضم أسرتين ، لكل منهما مدافنها الخاصة . وقد اتفق الأثاريون على أن هذا التطور غير العادي يمثل فترة تحول في تطور الحضارة الهيلادية ، وفنونها بصفة خاصة ، وهي الفترة الاولى في المرحلة الهيلادية الاخيرة (١٥٨٠ - ١٥٠٠ق.م) وليست كما اعتقد شليمان الفترة الاخيرة لهذه المرحلة (١٤٢٥ - ١١٠٠ق.م) وهي الفترة التي حدثت فيها حرب طروادة في بداية القرن الثاني عشر ق.م ، والتي حدثنا عنها الشاعر هوميروس ، والتي اعتقد شليمان أنه كشف عنها تحت تأثير العبارة التي وردت عند هوميروس « موكيناي الذهبية » (Od. III, 304) عندما وجد أقنعة وحليا وزخارف مصنوعة من الذهب في المقابر التي اكتشفها .[4]

وقد تعددت الأراء حول طبيعة هذا التحول في تطور الفنون الهيلادية . وعندما كشف سير آرثر ايفانز عن القصور المينوية في كنسوس بجزيرة كريت عام ١٩٠٠ ، اثار اكتشافه ضجة كبيرة بسبب الانطباع الذي اعطته تخطيطات هذه القصور وبقايا مبانيها المعمارية ، حيث اعتقد البعض ان الحضارة الهيلادية في فترتها الاخيرة الناضجة انما تمت في بدايتها ، أي فترة نموها ، تحت تأثير الحضارة المينوية . وفي رأي البعض ان محتويات المقابر الموكينية التي كشف عنها شليمان وبعثة الجمعية الاثرية اليونانية إنما جاءت نتيجة اغتصاب الآخيين ـ أصحاب موكيناي ـ لقصور جزيرة كريت وكنوزها . ولا تزال هذه التفسيرات تتردد في أيامنا هذه .[5]

وهذه التفسيرات في الواقع مغايرة للحقيقة . فالاطار التاريخي الذي تطورت من خلاله الحضارة المينوية ، كما أثبتت سلسلة الاكتشافات الاثرية بجزيرة كريت ، يوضح ان القصور القديمة في كنسوس بدأت بحوالي ٢٠٠٠ق.م ، وانتهت حوالي ١٧٠٠ق.م ، وان القصور الحديثة التي تلتها بدأت حوالي ١٧٠٠ق.م ، وانتهت حوالي ١٤٠٠ق.م . وان الكارثة التي انتهت بها القصور المينوية الاولى عام ١٧٠٠ق.م كانت بسبب ظروف طبيعية ـ بفعل الزلازل ـ وليست بسبب غزو هجومي على الاخيين الموكينيين أو غيرهم ، كما ان القصور الحديثة التي تلتها بنيت بدون أسوار للدفاع عنها ، وذلك دليل على قدرة أسطول كريت البحري على حماية سواحلها .

ولو افترضنا أن الاخيين قاموا بشن غارات على كريت فيما بعد في بداية القرن السادس عشر ق.م ، ونجحوا في الاستيلاء على مراكزها ، فهناك مراكز أخرى قوية على الجزيرة كان لابد وأن تتصدى لهذا الهجوم . ولو افترضنا ايضا ان الغزو كان شاملا على هذه الجزيرة ، فلماذا رحل الغزاة عنها وهي جزيرة غنية توافرت فيها سبل الحياة بطريقة أفضل من موكيناي ؟ لا شك أن بعض القطع الاثرية التي

---

(٤) Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., pp. 55-56.

(٥) نفس المرجع السابق ، ص ٥٥

اكتشفت بموكيناي تؤكد انها مينوية الأصل ، ولكن هذا لا يعني بالضرورة أنها غنائم مينوية استولى عليها الآخيون نتيجة غارات قاموا بها على الجزيرة ، بل على الارجح أنها جاءت نتيجة اتصالات تجارية حدثت من وقت لآخر . كما أن الاعتقاد السائد بأن الفنانين الذين صاغوا الفنون الهيلادية في موكيناي ، خلال هذه الفترة ، انما كان الموكينيون قد نقلوهم معهم من كريت ، يصبح رأيا غير مقبول .

ان الفنان الذي صاغ الفنون الهيلادية في فترة نموها ، كما سنرى في هذه الدراسة ، هو فنان موكيني أصيل أحس بظروف مجتمعه فعبر عنها في فنونه المختلفة ، وعندما وقع تحت تأثير فنون الحضارات الاخرى أخذ عنها ما يناسبه وصاغه في اسلوب هيلادي ، كما انه من الملاحظ ان الموضوعات التي اختارها لفنونه الهيلادية وصاغها في أسلوبه الخاص لم تعرف من قبل في الحضارة المينوية .

ان الدراسة التفصيلية لمحتويات مقابر المجموعتين الاولى والثانية في موكيناي تشدنا للبحث عن مصدر آخر غير الحضارة المينوية ، كان له تأثير قوي ومباشر على نمو الحضارة الموكينية في فترتها الاولى . وكان البروفسور مارينانوس من أكثر المتحمسين لفكرة التأثيرات المصرية ، وأن مصر لابد وأن تكون هذا المصدر لنمو هذه الحضارة . فكمية الذهب التي صنعت منها الأقنعة الذهبية التي اكتشفت بالمقابر الموكينية أتت من مصر . فمصر كانت الارض الوحيدة التي تمتلك الذهب ، وكان الملوك في انحاء العالم القديم يطلبون الذهب من مصر [٦] ويفضل هذا الرأي الجريء بدأت من جديد ، الدراسة التفصيلية لمحتويات هذه المقابر ، ومقارنتها بالفنون المصرية ، ومتابعة الظروف التي حدثت فيها هذه التأثيرات المصرية .

ويتضح أهم هذه التأثيرات في صنع الأقنعة الذهبية ، فهي عادة مصرية ، ولم تعرفها الحضارة المينوية من قبل في جزيرة كريت . وقد عثر على سبعة أقنعة ذهبية في مقابر المجموعة الاولى ، منها ثلاثة عثر عليها في القبر الخامس ، الذي كان أكثر القبور ثراء في محتوياته الاثرية . وتبدو في أحد الاقنعة التي عثر عليها ، في القبر الخامس قوة الملامح . وقد جعل ذلك شليمان يعتقد بأن قناع أجاممنون (شكل ٢) ، ملك موكيناي وقائد حملة الآخيين ضد طروادة .[٧] أما بالنسبة لمقابر المجموعة الثانية فقد عثر في أحدها على قناع ذهبي آخر .

وتظهر هذه الاقنعة محاولة موكينية لاظهار ملامح الموتى وفي ذلك تأثر بالتقليد المصري المتبع في صناعة الاقنعة . ويلاحظ ايضا ان الملامح هنا تختلف عن ملامح المينويين . ففي أقنعة موكيناي نجد أن الجبهة عريضة ، والأنف قصير ، والشفاه رقيقة ، والحواجب ثقيلة ، والأعين مستديرة ، كما تظهر أيضا اللحية والشارب . وكلها ملامح تنتمي الى عنصر آخر غير مينوي ، استقر وعاش في موكيناي (شكل ٣) . كما

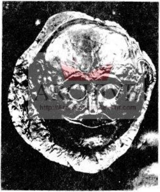
---

(٦) نفس المرجع السابق ، ص ٥٦

(٧) George E. Mylonas, op. cit., p. 22.



شكل ٦ - قناع من الذهب جاء من مقابر المجموعة الأولى - ويدعى قناع «اجاممنون».



شكل ٣ ـ قناع من الذهب ، عثر عليه من مقابر المجموعة الأولى

أن شليمان عثر ايضا على احدى الجثث التي بقي فيها وجه المتوفى بحالة جيدة تحت القناع الذهبي الثقيل ، رأى فيهـا كل من مارينـاتـوس وميلونـاس ، تقليدا للطريقة المتبعة في تحنيط المومياوات المصرية . فكان المصريون يرسمون وجوه الموتى على اللفائف الكتانية التي لفت بها المومياوات ثم يشيدون فوقها الاقنعـة بالملامح المميزة للمتوفي حتى تتعرف الروح على صاحبها عند دخولها المقبرة . ومن الطبيعي أن بعض الملوك كانوا يصنعـون أقنعتهـم من معـدن نفيس كالذهب .[٨]

وقد زودت القبور في المجموعتين بعدد غير قليل من الخناجـر والسيوف البرونزية وجـدت بجـوار الجثث . وقـد زينت مقابضهـا بزخـارف هندسيـة حلزونية ، وطعمت انصالها بمناظر للصيد تعكس صورا للبطولة والاشكال النباتية (شكل ٤) . وهذه المناظر والاشكال المطعمة قد صنعت في معظمها من الذهب والفضة . والذي يشد الانتباه هنا خنجر صنع نصله من البرونز ، عثر عليه في القبر الخامس من المجموعة الاولى ، ويتمثل عليه قطط برية تطارد البط ، على شاطىء نهر بين سيقان نبات البردي ، وتظهر الاسماك في خلفية المنظر مع البـردي لتـوضيح مجـرى النهـر المتعرج (شكل ٥)[٩] . وهذه الاشكال صنعـت جميعا من الذهب والفضة ، ثم طعمت في مادة البرونز المصنوع منها نصل الخنجر . ولا شك ان الفنـان الموكيني هنا قد استوحى فكرته من مصر . فالموضوع الذي اختاره هو موضـوع مصري يعكس مشهـدا يحدث عادة على شاطىء النيل أو أحـد فروعـه او قنواته بين سيقان البردى في ربوع الريف المصري . كما ان فكرة تطعيم المعادن بأشكال مصنوعة من معادن أخرى ، هي فكرة عرفتها مصر ايضـا ولـم تعرفها الارض اليونانية من قبل .[١٠]

ويتضـح التأثـير المصري المبـاشر أيضـا في شواهد القبور التي اكتشفت في مجموعتي هذه المقابر بموكيناي . وهذه الشواهد قطعت من الحجر الجيري ثم نقش عليها بالنحت البارز مناظر تمثل الحياة اليومية للمتوفين في حياتهم الدنيوية . وفكرة نقش المناظـر على شواهد القبور ظاهرة فنية لم تعرفهـا من قبـل الحضارة الهيلادية ، بل ليس لها نظير على الارض اليونانية ذاتها قبل هذه الفترة . لقد مارس المصريون هذه الفكرة من قبل فوق مقابرهم وهناك أمثلة عديدة جاءت من مصر ، حيث مثـل شاهـد القبـر بابـا للمقبرة ، وتمثلت عليه مناظر من حياة المتوفي وأقاربه وما يقدمونه من مأكولات . ولكن المناظر اليومية التي اختارها الموكينيون على شواهد قبورهم اقتصرت على المحاربين المنتصرين ، او المطـاردين للحيوانـات المفترسة من فوق عرباتهم ، وهي جميعا مناظر تدل

---

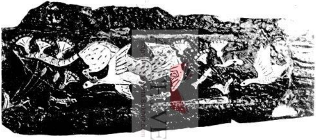
(٨) Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., p. 56, note 32 on p. 72:
George E. Mylonas, op. cit., p. 22.

(٩) Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., p. 65, note 171 on p. 118.

(١٠) Cf. Frank H. Stubbings, ,,The Rise of Mylenneon Crilization,) CAH, Revised ed., of vol. II, Chap. XIV (1963) p. 9.



شكل ٤ - خناجر من البرونز طعمت أنصالها بمناظر لقتل صيد الصيد الطبيعية . وهي من الذهب والفضة . إمبراطورية الدولة الأولى



شكل ٥ ـ حجر طعم نقشه بمنظر يشتمل على قط برى ينقض على البط في نهر به أسماك ونبات البردى ، وصنعت هذه الدوافع الفنية من الذهب والفضة ـ بمجموعة القاهرة الأولى .

على البطولة التي كان يعكسها الفنان في معظم أعماله الفنية .(١١)

وقد وصل عدد شواهد القبور الى سبعة عشر شاهدا في مجموعة المقابر الاولى منها أحد عشر شاهدا تمثلت عليها مناظر منحوتة (ستة شواهد كاملة ، وخمسة أخرى مكسرة الى أجزاء) وستة شواهد باقية لا توجد عليها أية زخرفة . أما بالنسبة لمجموعة المقابر الثانية فقد عثر ايضا على عدد من الشواهد ، منها شاهدان فقط يحملان مناظر منحوتة .

وتتناول بالوصف هنا لوحتين من ثلاث لوحات تعتبر من أحسن الشواهد التي جاءت من مجموعة المقابر الاولى ، وكانت فوق القبر الخامس ، الذي ادعى شليمان أنه قبر أجاممنون .

١ - شاهد قبر من المجموعة الاولى : الطول ١,١٢ مترا ، العرض ١,٢٣ مترا . المنظر المنحوت على الجزء الاعلى يمثل محاربا يقف على عربة يجرها حصان ، وتحت أرجل هذا الحصان يرقد العدو الناقص . وعلى الجزء الاسفل من الشاهد تمثل حيوانات تندفع الى الامام .

٢ - شاهد قبر من المجموعة الاولى : الطول ١,٣٣ مترا ، العرض ١,٠٦ مترا . المنظر المنحوت على الشاهد يمثل عربة يقف عليها فارس يحمل سيفا ، وأمام العربة يسير شخص يحمل شيئا غير معروف في يده (شكل ٦) .

يوضح الشاهدان السابقان موضوعين منحوتين لأول مناظر للعربات التي لم تعرفها اليونان من قبل ، ولم تعرف ايضا في الحضارة المينوية . ولكننا نميل الى أن هذا الموضوع قد قدم من مصر التي عرفت العربة أولا تحت حكم الهكسوس ، ثم استخدمها الموكينيون بعد أن عرفوها هناك . ولكن الفنان الموكيني نحتها في أسلوبه الخاص الذي يعكس الحياة اليومية - حياة البطولة - عند الآخيين .(١٢)

يتضح من العرض السابق أن صناعة الاقنعة الذهبية التي صاحبت الموتى ومحاولة التحنيط ، وتطعيم المعادن بأشكال زخرفية من معادن أخرى ، ومنظر القطط البرية على شاطئ النهر ونبات البردي ، وشواهد القبور والعربات المنحوتة على هذه الشواهد ، انما تدل على ان الموكينيين قد تأثروا بعادات المصريين وتقاليدهم واعتقادهم في الحياة الاخرى . وذلك على عكس المينويين الذين أحيوا حياتهم الدنيوية ولم يهتموا بحياتهم في العالم الآخر . لقد زود الموكينيون مقابرهم بما يلزمهم في حياة أخرى أكثر سعادة ، وبالتالي جاء الفن الموكيني متأثرا بهذه التقاليد المصرية .(١٣) ولكن نفذه الفنان في أسلوب موكيني

(١١) A.J.B. Wale, op. cit., p. 56 -61 : Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., p. 56: Frank H. Stub bings, op. cit., p. 9.

(١٢) نفس المرجع السابق ، ص ٩

(١٣) Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., p. 60.



شكل ٦ - شاهد قبر يشتمل على نقش بالنحت البارز منها مشهد لحرب وزخارف هندسية . مجموعة المقابر الأولى .

محلي . وبالاضافة الى هذا التأثير المصري كان هنالك أيضا بعض القطع الفنية المصرية الصنع التي وجدت مع محتويات المقابر ، منها سلطانية كريستال أخذ شكل البطة (شكل ٧)(١٥) . وصندوق صنع من خشب الجميز المصري عليه أشكال عاجية لمثل حيوانات ، لصقت عليه وليست مطعمة (Applique Ivory figures) .(١٦)

وبدراسة هذه الاشكال الفنية ومقارنتها بأشكال مصرية مماثلة . أتضح أن هذه الفترة التي تمثل تحولا مفاجئا في الحضارة الهيلادية ارتبطت مباشرة ببداية الأسرة الثامنة عشرة في مصر (١٥٨٠ - ١٥٧٠ق.م) وهي أيضا فترة التحول العظيم في مصر . والنظرية التي أكدها ونادى بها البروفسور ماريناتوس ويأخذ الكثيرون بها اليوم ، هي أن المصريين في ذلك الوقت قد بدأوا نضالا مسلحا ضد الهكسوس الذين كانوا يحتلون مصر . وأنهم ، أي المصريين ، قد استعانوا بعدد من الجنود المرتزقة من سكان موكيناي ، مع نهاية الفترة الهيلادية البسيطة (١٩٠٠ - ١٥٨٠)ق.م . في طردهم للهكسوس من أرض وادي النيل(١٧) وبعد حرب التحرير كافأ المصريون الجنود المرتزقة بكميات من الذهب ، الذي توفر وجوده في مصر ، والهدايا الاخرى . وقد أتاح بقاء هؤلاء الجنود في مصر فترة غير قصيرة ، ان تأثروا بالعادات والتقاليد والفنون المصرية . وعند عودتهم الى وطنهم كان ذلك مصدرا أساسيا في تحولهم الحضاري المفاجيء في فترة الحضارة الهيلادية الوسيطة الى فترة الحضارة الهيلادية الأخيرة الناضجة (١٥٨٠ - ١١٠٠ق.م) بعد أن طبقوا ما تعلموه ونقلوه في ضوء تقاليدهم وعاداتهم .(١٧)

وتتفق هذه النظرية مع ما نعلمه من أن مصر قد شهدت مع بداية القرن السادس عشر ق . م . هذا الحدث الهام ، وهو طرد الهكسوس من مصر وتطهير أراضيها من المستعمرين ، ثم بداية عصر جديد من خلال حكم الملك أحمس مؤسس الأسرة الثامنة عشرة (١٥٧٠ - ١٣١٠ق.م) وأن حكم هذا الملك قد امتد الى أربعة وعشرين عاما قضاها في اصلاح البلاد وتوطيد نظمها ومعابدها .(١٨)

والذي يعنيني هنا وأضيفه الى هذه الدراسة هو النص الذي ورد في لوحة الكرنك والذي يوضح ولاء أحمس لأمه الملكة « إع حتب » والتي يبدو انها لعبت دورا بارزا في الحرب ضد الهكسوس . ويقول النص : « امدحوا سيدة البلاد وجزر البحر المتوسط (Hau—ne bu) ، فاسمها محترم في جميع البلاد الاجنبية ، وهي التي تضع الخطط للناس ... الى آخره » . ويشير الى أهمية هذا النص ان الزخارف

---

(١٤) George H. Myleonas, op. cit., pp. 56-57.
(١٥) Frank H. Stubbings, op. cit., p. 9.
(١٦) Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., p. 55; Frank H. Stubbings, op. cit., p. 10.
(١٧) Sp. Marinatos and M. Hirmer, op. cit., p. 56.
(١٨) أحمد فخري ، مصر الفرعونية ، (الطبعة الثالثة ١٩٦٦) صفحات ٢٦٠ - ٢٦١ .



شكل ٧ - سلطانية من الكريستال أخذت شكل بطة . جاءت من مجموعة القنار الثانية .

المنقوشة على بعض الحلي والاسلحة التي اكتشفت بمقبرة الملكة ، رغم أنها مصرية الصنع ، فهي تحمل أثر الفن الايجي في شكلها وزخارفها ، مما يوحي بأن هذه السيدة كانت لها فعلا علاقة مباشرة أو غير مباشرة بسكان بعض جزر البحر المتوسط . ويبدو أن الألقاب التي أضفاها أحمس على أمه كانت بسبب الدور الاساسي الذي لعبته في سياسة البلاد ، وأن لقب أميرة جزر البحر المتوسط يوحي بأن سكان هذه الجزر قدموا شيئا من المعونة في الحصار ضد الهكسوس ، وأن هذه الملكة قد لعبت دورا فعالا في هذا الأمر.[١٩]

ويرى المؤرخ ادوارد ماير أن اللقب « أميرة جزر البحر المتوسط » يشير الى أن نجاح حرب التحرير ضد الهكسوس انما جاء بسبب المصاهرة بين البيت الملكي في طيبة وكريت ، وأن الملكة « إع حتب » ربما كانت من أصل كريتي ، أو تزوجت أحد أمراء الجزيرة ، وجعت جيوشها بمساعدته لطرد الهكسوس من مصر . ولكن المؤرخ بندلبيوري يرى ان فكرة زواج الملكة من أمير كريتي رأي لا أساس له من الصحة ويفتقر الى أدلة تدعمه . وفي نفس الوقت يرى انه ليس من المستبعد ان الكريتيين قد قدموا المساعدة لطرد الهكسوس.[٢٠]

لا شك أن جزيرة كريت كانت معروفة جيدا لمصر . وهناك أدلة أثرية عديدة تؤكد هذه العلاقة المزدهرة بين البلدين . وقد عرف المصريون الكريتيين تحت اسم الكفتيين (Kephtians)[٢١] . ومن الطبيعي لو ان المقصود بعبارة « جزر البحر المتوسط » في نص لوحة الكرنك « جزيرة كريت » لجاء في النص مايوحي بذلك بصراحة . وعلى هذا يبدو واضحا ان العلاقة المصرية الكريتية قد جاءت نتيجة نشاطات تجارية فقط ، ولا يوجد ما يفيد بأن الكريتيين قد ساندوا مصر في طرد الهكسوس من أراضيها . وبذلك يصبح من الضروري أن نعتقد أن اللقب « أميرة جزر البحر المتوسط » لابد وان يعني منطقة معينة غير جزيرة كريت ، وأن هذه المنطقة من جزر البحر المتوسط كان لها علاقة وطيدة مع مصر وقت طرد الهكسوس .

والمنطقة التي اثبتت آثارها أن تحولا بارزا في تطور حضارتها قد لازم بطريقة مباشرة قدوم الاسرة الثامنة عشرة في مصر ، هي منطقة موكيناي ، مركز الحضارة الهيلادية في شبه جزيرة البيلوبونيسوس ، كما أوضحنا من قبل في هذه الدراسة . والذي يتفحص بعض الحلي والاسلحة التي عثر عليها في مقبرة « إع حتب » وخاصة البلطة الحربية التي تحمل اسم ابنها أحمس ، اول ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، يلاحظ انها قد طعمت « بجريفين » من الذهب ، ويتفق هذا

---

(١٩) Frank H. Stubbings, op. cit., p. 10.

(٢٠) J.D.S. Pendlebury, „Egypt and the Aegean in the late Bronze Age" JEA, 16 (1930) p. 76, note 2.

(٢١) نفس المرجع السابق .

الطابع الى حد كبير مع أحد الخناجر التي اكتشفت في مقابر موكيناي . ولما كانت هذه البلطة وكذلك خنجر وجد معها يحمل زخرفة ايجية ، وهي ايضا مصرية الصناعة ، فان هذا التأثير الذي يرى المؤرخون بصفة عامة أنه إيجي ما هو إلا تأثير موكيني واضح .

وهكذا فان نص لوحة الكرنك والزخارف الايجية على الحلي والاسلحة التي اكتشفت بمقبرة الملكة « إع حتب » تشدنا بالضرورة الى الاعتقاد بأن المملكة (Hau—ne bu) التي تعني جزر البحر المتوسط ، يقصد بها موكيناي . وهذا دليل آخر يدعم النظرية التي تقوم أساسا على أن هذا التحول المفاجىء في الحضارة الهيلادية ، من الهيلادية الوسيطة الى المرحلة الاولى من الهيلادية الاخيرة (الموكينية الاولى) جاء نتيجة التأثير المصري المباشر ، وان المساعدات التي يزعم أنها جاءت من مصر ، قد جاءت من موكيناي وليست من كريت .

* * *

ميديا أو هزيمة الحضارة

يحيى عبدالله

قسم الدراسات اليونانية واللاتينية
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

برولوجوس : كلمة عن الأصالة

في نزوعنا الى البحث أو التفاعل مع ماهو أصيل قد تغفل حقيقة أن الابتكار ليس كل شيء ، وأن مفهوم الأصالة يحتمل تفسيرات شتى ، وأن للمحاكاة ، في الجانب الآخر ، أكثر من وجه . وفيما يخص الرومان فصحيح القول بأنهم حتى عندما وسع ادراك أدبائهم بطبيعة الابداع ، وتزايد وعيهم بموقعهم في العالم المتحضر ، ومسئولياتهم نحوه ، وتضخم لديهم الشعور بالتفوق ، لم يكفوا عن الاستمرار في الأخذ عن الأدب اليوناني : يتأثرون به ، ويستجيبون له ويدورون من حوله . ولكن يصح القول أيضا بأنهم قد راحوا ، عندئذ ، يتخذون من محاكاة النماذج اليونانية محكا لاختبار قدراتهم ومواهبهم ، وربما طريقا للتحدي والمنافسة .(١) على أنني لست هنا في موضع عقد مقارنة بين الأصل والصورة . انما أعتني ببيان أن الصورة تحمل في طياتها بعض ملامح الأصالة ، وأن هذه الملامح هي ، أساسا ، وليدة مايمكن أن نسميه الطابع الروماني أو الشخصية الرومانية التي هي ، كما نعرف ، ليست كالشخصية اليونانية .

اذا كنا نتفق على وجود خصائص مميزة للشخصية الرومانية تاريخيا ، أي في المضمار

---

(١) كثيرا ما يتردد على سمعي ذلك القول لدوناتوس :
pereant qui ante nos nostra dixerunt بمعنى هو سحقا لمن سبقونا ، فإنهم قد قالوا أقوالنا ـ أي لم يتركوا لنا شيئا نقوله .

التاريخي . فما الذى يمنع ان تتحدد نفس هذه الخصائص أو بعض منها في المضمار الادبي ؟ . وما السبب في أن تؤكد ، مباشرة ، الملامح الرومانية للسياسي أو المشرع او القائد الروماني ثم نتباطأ في هذه الملامح للشاعر أو المفكر ؟ نحن ، في حقيقة الأمر ، لانستطيع أن نفصل بين الصلابة العسكرية عند الرومان وصلابة اللغة اللاتينية ، ولاينبغي أن نتحدث عن وضوح الرؤية عند المشرع الروماني في الوقت الذي نتجاهل قدرا من هذا الوضوح عند الاديب .

ومع ذلك ، فان اختلاف الشخصية الرومانية عن اليونانية لايعني ، بأية حال ، أن أحدهما كان يسلك مسلكا فكريا مختلفا تماما عن صاحبه . فذلك الكم الهائل من التأثر باليونان يشير الى أن ثمة اتفاق مبدئي ، على الاقل ، حول مايمكن ان يكون اتجاها عاما . هنا تصبح الفلسفة أو الأفكار الفلسفية عنصرا مشتركا بين الأدبين ، وهنا يصبح العقل اليوناني مؤثرا بنفس الدرجة ، تقريبا ، التي نلحظها في مجال تأثير قوانين أو قواعد التأليف الادبي على ما أنتجه الرومان من أعمال . هذا مع أهمية وضرورة تقديرنا بأنه اذا كانت تلك الاخيرة (أي الاعمال) تكاد تكون معالجات للأنواع أو الاجناس الادبية ، فان التأثر الروماني الخاص بالعقل ينعطف على الطريقة الرومانية ، الى دروب وعطفات خاصة .

التعليق على الحضارة :

يتفق الاديبان ، اليوناني والروماني ، على استعمال الأسطورة كأداة للتعبير عما أسميناه الاتجاه العام . فالأسطورة ، رغم ما تحويه من عنصر الخرافة : مخلوقات غريبة ، وقائع مستحيلة ، تصبح ، في مجمل الموقف الذى تعرضه ، ومن خلال شخصيات تنوء بحمل هذا الموقف ، اكثر فعالية في الكشف عن الوضع الانساني وأشد ملامسة لأغوار النفس البشرية من الأحداث الواقعية .[٢] هذه المفارقة ، لاريب ، كانت مدركة لدى كتاب العصر الكلاسيكي ، وهو ما يفسر اصرارهم على الاستعانة بالأسطورة كمادة لموضوع الشعر . وفيما يخص الشعر الدرامي (التراجيديا) ، فان الاسطورة تصبح ضرورة يصعب تجاوزها ، اذ أن فن عرض المأساة ليس ، في صميمه ، الا فن تصوير مأساة الانسان . وربما يمكن القول بأن هذا الاصرار من جانب الشاعر يمثل بداية الوضع العبثي ironic الذي يصوره ، والذي لاينفصم ، أبدا ، عن تصوره . بمعنى أنه لايستطيع أن يتحدث الينا بصدق ، ولاأن يعرض علينا جوهر الواقع الا عن طريق مخالفته لهذا الواقع . وفي عبارة أخرى ، فان الخيال هو أقصر الطرق التي يمكن أن تؤدى الى الحقيقة .

---

(٢) انظر ، على سبيل المثال ، خلدون الشمعة ، « مدخل الى مصطلح الاسطورة » ، المرآة ، العدد ١٩٢ (١٩٧٨) ص٨ ، « الاعتراف بأن المضمون الواقعي لاستحضارات الاسطورة ينطوي على قيمة خاصة » .

الأسطورة لاتفسر فقط حالة انسانية بعينها ، ولكن بأمكانها ، كذلك ، أن تلقى الضوء على الحالة الانسانية عموما . تفصيل ذلك أن أسطورة ما ، كأوديب مثلا ، قد تساعد على اكتشاف تركيبات نفسية أو حتى ميتافيزيقية خاصة (تتحدد بتحديد الشخصية الأسطورية نفسها دراميا أو شعريا) ، لكن الأمر لاينتهي عند هذا . اذ أننا نجد أنفسنا في مواجهة البطل أو الشخصية وهي ، في النهاية ، تحمل صفات انسانية ليست خارقة للعادة ، وأننا بسقوط هذا البطل ، لانملك سوى أن نربط بين هذه الصفات وبين ذلك السقوط . فاجعة أوديب هي فاجعة الانسان ذى القدرات أو الاستعدادات التي خص بها نفسه ، أو خصته بها الآلهة ـ وهي قدرات يشترك فيها معه ، بعد فصل عنصر الخرافة جانبا ، آخرون كثيرون من قبل ومن بعد وجوده المؤقت .

لايهمنا ، الآن ، أن نبحث فيما اذا كان البطل المأساوى (أوديب) قد دفع ثمنا يزيد أو يتساوى أو ينقص عما كان ينبغي أن يكون . ولكن نلحظ ، كما يلاحظ الآخرون ، أن أوديب ينتهي الى مابدأ عليه . فهو قد بدأ شريدا طريدا وانتهى كذلك . هذه العودة الى حيث بدأ ، هي التي تعرف بالحركة الدائرة أو الشكل الدائرى ، والتي تنجز ، شكلا أو حركة ، بفعل الزمن ، هذه الحركة بعينها ، لايندفع معها ، رغما أو طواعية ، أوديب فقط ، ولكن الانسان بصفته العادية . غير أن أوديب لم يكن بامكانه أن يصل الى نقطة البداية ، بمعنى أن يكمل اتصال الدائرة الا بعد أن يبلغ مبلغا من السعادة ، وأن يدرك شأوا من القوة ، ان أوديب الذي سقط هو أوديب الملك .

الانسان ، عموما ، ينزع لأن يصبح ملكا أو مالكا لأمور كثيرة ، متحكما ، في أسباب الحياة الراقية ، قادرا على توجيه هذه الامور وتحريك تلك الأسباب بما يحقق له الاستقرار والثبات ، ولما يكفل له الرفاهية والمتعة ـ لكن لوقت ، أي أن قدرته محدودة بزمن محدود . على أية حال ، فهو يبلغ مايريد ، ويدرك مايحتاج اليه عبر مجهود يبذله وارادة يمارسها وذكاء ينتفع به . ولاينبغي ، في هذا الصدد ، ان يفوتنا الاختلاف بين ماهو بطولي وماهو عادى الى حد ما في التقدير ، فنقول بأن مكونات عالم أياس وأجاممنون وأوديبيوس ليست كالتي يألفها الرجل العادى ، وأن أفعالهم ليست كأفعاله . فمثل ذلك الاختلاف لايمكن ان ينسب الى ماهو أكثر من مظهر مصدر الفعل . أما النتاج الذي يصل اليه الفعل فهو مانتساوى عنده الحركة الناهضة لبني الانسان ، وهو مانعرفه باسم الحضارة . ليس ثمة شك في أن البطل أو الملك الأمثل هو من يقود شعبه الى درجة أعلى من درجات الرقي والتقدم . وعندئذ يمكن القول بأن مايتعرض له ذلك البطل من هزيمة أو تدهور سوف يعني ، أيضا ومباشرة ، هزيمة لشعبه وانتكاسا له ، وهبوطا من الدرك الاعلى الى الاسفل نحو استكمال الخط الدائرى . اذن ، يتحد البطولى ، والعادى في مواجهة نفس المصير .

أضف الى ماسبق أن الوضع الحضارى يستجيب أو بالأحرى يخضع لما تفرضه قوانين الطبيعة على حياة الانسان ، سواء كان بطلا مميزا أو انسانا عاديا ، من حيث أن هذا الوضع يبدأ من طور الطفولة ، كما يبدأ الانسان ، لينتهي مثله ، مرورا بمرحلتي النضج ثم الشيخوخة ، الى الموت . هنا تلمح أول مبدأ للتعارض بين

الحضارة والطبيعة . ومن شأن هذا المبدأ أنه يحث ، تلقائيا ، على تبنى نظرة تشاؤمية ـ تبدو أكثر الحاحا في غيبة الاعتقاد بالبعث والحياة الاخرى .

من الملاحظ ان حضارة الانسان لايمكن ان تتحقق الا بالابتعاد عن الطبيعة أو الخروج منها . فالحضارة (cultus) هي حالة عمل بغرض تجميل ، تغيير ، تطوير لما هو موجود أصلا في الطبيعة . ويقضى ذلك التغيير ، بطبيعة الأمر ، ان يعمل الانسان على الحذف والاضافة في معاملته لتلك العناصر الثابتة والكائنة منذ البدء في الطبيعة . وتصور الفعل الانسانى المغير في مواجهة الفعل الثابت هو تصور لايخلو ، بلا شك ، من فكرة الصراع . فالانسان يرفض ماتقدمه الطبيعة له ، ويسعى الى هدمها والسيطرة عليها . والطبيعة ، من جانبها ، مرغمة ، تسمح له ، بعض الوقت ، أن يفعل بها مايشاء ، ثم لاتلبث ان تناهض وتقاوم . وحتى لو اعترفنا بأن الانسان انما يقوم بتجميل الطبيعة ، أى صنع الحضارة ، مستعينا بعناصر طبيعية فان ذلك لايمنع من حقيقة حدوث عملية التغيير . كذلك فان التحوير الذي هو بغرض الاحسن والأرقى من وجهة النظر الانسانية ، قد لايكون كذلك من وجهة نظر الطبيعة . وعلى أية حال ، فان خروج الانسان على الطبيعة أيا كانت دوافعه ، يمثل عملا لا أخلاقيا لما ينطوى عليه من معنى التمرد أو الرفض لما وهبته له الطبيعة الأم ، الذي دعا الى ضرورة التعليق وابداء الرأى .

كثيرا ما أشعر بأن حاجتنا ، الآن ، الى فهم بعض فلسفات العصر الهيلينستى تفوق أى وقت مضى . ما أشير اليه هو اتجاهات الفكر اليوناني في القرون الثلاثة الأخيرة التي سبقت ميلاد المسيح ، والتي تتمثل ، بصفة أساسية ، في مذاهب الرواقية والابيقورية والكلبية . فلقد أولى فلاسفة ذلك العصر لمشكلة الحضارة اهتماما بالغا . وهم في سعيهم الى التوصل الى أفضل أنواع الاستدواء ، قد وقفوا على أهم أسباب الداء .[٣] واذا كانت هذه الفلسفات تخالف بعضها البعض في كثير من المسائل ، فان الاتفاق بينها يكاد يكون تاما فيما يخص الاعتراض على مبالغة الانسان في التحضر ، والنأى المتطرف عن حياة الطبيعة ، وهو رفض أو اعتراض يعبرون عنه بالفعل الى جانب القول . فهذا كراتيس الكلبي يتخلص ، عمليا ، من كل مايزيد عن حاجته . وكلنا يعرف كيف استطاع ديوجينيس أن يضرب مثلا فذا بطريقة الحياة التي عاشها . ومن الأقوال التي وصلت الينا عن المعلم ما يحذر من سوء العاقبة بسبب الاعتداء على الطبيعة .[٤] والرواقية التي تنشد ارتفاع الانسان عن مهاوى الضعف والتردد والتأثر ، تنظر الى الحكيم أو العاقل باعتباره مالكا في ذاته وبذاته لكل مايكفيه . وتصبح الكلمة أوتاركيا ، ومعناها الاكتفاء الذاتي ، علامة مميزة للفكر الهلينيستى ، وهدفا تصبو اليه تلك الفلسفات ، وان سلكت من أجله سبلا شتى .

---

(٣) الاشارة الى الرمز والعلاج ليست جديدة . انظر
N Brown, Life against Death (New york, 1959), P. 141

(٤) ابيكوروس . الشذرة ٢١ وغيرها .

.لم يكن السخط على الحضارة ، الذي نلمحه بقوة عند هؤلاء المفكرين العظام ، الا تعليقا معقولا وعاقلا على فشل الحضارة في تحقيق الطمأنينة والسعادة لأصحابها . لقد كانت هزيمة أثينا في الحروب البلوبونيسية ، وانتصار اسبرطة عليها هو البرهان على ذلك الفشل من جانب الحضارة ، والرمز الواضح لغلبة الخشونة والضراوة على الرقة والليونة ؛ أو في عبارة أخرى ، ومن زاوية أخرى ، تفوق الطبيعة على خصومها ، بل بحرها إياهم . وبصرف النظر عن مدى تاريخية خطاب التأبين الشهير لبريكليس عند توكيديديس ، فان التصور بالجمال ، الذي يتحدث عنه ، غالبا مايأتي على حساب التفكير الجاد ، وأن يؤثر ، بالتالي ، على استقامة النفس البشرية ، وأن يتيح للخيال الناعم فرصة التشويه والتبديد لقوة الانسان الفعلية . وعندما انتهى الصراع مع اسبرطة ، بات واضحا أن حديث بريكليس لقومه الاثينيين لم يكن يخلو من مبالغة في التصور ، الشيء الذي هو ، في حد ذاته ، وليد الحضارة ، واذا كانت اسبرطة قد أفلحت في الانتصار على أثينا ، فقد أثبتت ، في نفس الوقت عدم صلاحية النظام الاثيني . والحقيقة ان الصراع بينهما كان يمتد سياسيا ليتصل بنوعين متناقضين من السلوك الاجتماعي . وبالأحرى فان ذلك التباين هو ما أدى الى نشوب الصراع السياسي بينهما .

وجدير بالذكر أنه اذا كان الاسبرطي قد أنكر قيمة الحضارة الاثينية ، فان قدرا عاليا من التشكك تلحظه عند الروماني تجاه نفس الحضارة . ان مقاومة الرومان للحضارة اليونانية تمثل صفحة شيقة من التاريخ الروماني . ولقد كان في اختلاف الشخصيتين اليونانية والرومانية ماجعل من هذه المقاومة أمرا طبيعيا ، غير أنها لم تكن لتستمر طويلا ، فسرعان ما وقع الرومان فريسة لاغراء الفن والشعر والبلاغة . لقد بدأت المحنة (الوقوع في براثن الحضارة) عندما راحت روما تشعر بحنينها الى الاسترخاء بعد زمن من الحروب المتلاحقة ، وكأن ممارسة الرومان المتصلة لمواهبهم البدنية قد دعت الى الحاجة الى ممارسة من الوان النشاط الوجداني .

لسنا في مجال متابعة أوجه الغزو الحضاري للأرض الرومانية ، كما ان الحديث لايسمح بالكشف عن أسباب فشل الديمقراطية الاثينية . انما التعليق الرواقي على الحضارة هو ماتريد أن نلفت النظر اليه في ميديا الشاعر والفيلسوف الروماني لوكيوس انيوس سنكا . وقبل ذلك ، يهمني أن أوضح أن ميديا يوريبيديس قد قدمت نفس المبدأ الرافض للحضارة . وفيما أعتقد ، فان أسطورة ميديا ، اكثر من غيرها ، قد ساعدت على أن يأتي ذلك الرفض قاطعا لاهوادة فيه .

●●●

أسطورة ميديا

يرتبط اسم ميديا بعبادة الالهة هيرا في كورنثه . وينظر اليها الكورنثيون باعتبارها امرأة اجنبية وفدت اليهم

من الشرق ، وأنها سليلة اله الشمس (هليوس)من ناحية ، وربيبة لالهة القمر والليل والاشباح (هيكاتى)[*] من ناحية أخرى ، وأنها بصفتها الثانية ، قد ارتبطت بأعمال السحر وفنونه . وظهور ميديا في كورنثه ، أى انتقالها من الشرق الى اليونان تفسره القصة الشائعة حول رحلة السفينة أرجو البحرية الي كولخيس (المعروفة حاليا بجورجيا) ، والتي تحكي كيف أن قائد هذه الرحلة ياسون قد وصل مع رفاقه الى تلك الأرض طلبا للجزة الذهبية ، وكيف وقعت ميديا ابنة الملك في حبه ، مما دفعها لأن تذلل من أجله كل الصعوبات والمخاطر ، كيا ينجز مهمته الشاقة ، ثم انها لم تتردد في قتل أخيها عندما أراد أن يطاردهما في طريق الهروب . وكيف استطاعت ، بعد ذلك ، أن تقضي على بلياس خصم ياسون اللدود ، والذي كان قد سلب أباه عرشه في ثيساليا (يوكلوس) ، بأن أوحت الى بناته بقتله ، بعد اقناعهن بأنهن انما سوف يعدن اليه شبابه ، الأمر الذي أدى لأن تلوذ بالفرار مرة أخرى مع ياسون الى ان استقر بهما المقام في كورنثه حتى كان من أمر زواج ياسون الجديد من ابنة كريون . هذا هو موجز وقائع الأسطورة التي تسبق الحدث الدرامي لمأساة ميديا عند كل من يوربيديس وسنكا . أما فيما بعد انتهاء الدراما والذى يتمثل في رحيل ميديا عن كورنثه بعد أن أنهت مهمتها الانتقامية ، فان المادة الأسطورية تشير الى أنها قد وصلت الى أثينا ، حيث تزوجت ملكها ايجيوس ، وأنجبت منه ولدا ، ثم اضطرت للهروب اثر مؤامرة دبرتها ضد ابن زوجها (ثيسيوس) ، واخيرا اتجهت الى كولخيس موطنها الذي بدأت منه أسفارها ، وثمة تفاصيل أخرى لا أجد مايدعو الى ذكرها ، ويمكن معرفتها بالرجوع الى المصادر القديمة ـ وتأتى مؤلفات باوسنياس ، أبو للنيوس الرودسي ، فاليريوس فلاكوس ، أوفيديوس ، سترابو وديودوروس الصقلى ، كأهم تلك المصادر .

ميديا يوربيديس

عند مطالعة ميديا يوربيديس ، يلفت نظرنا أن الشاعر أولا : قد قصر موضوع مسرحيته على ماتم من أحداث في كورنثه ، أى أنه قد تجنب عرض ماسبق ذلك ومالحق به . ويتفق هذا ، بطبيعة الامر ، مع مايقوله أرسطو عن وحدة الموضوع .[٦]

(*) انظر :
O.Seyppert, A Dictionary of Classical Antiquities, (New York,1960) S.V. Hecate.

(٦) د . وبناء على ذلك يخطىء الكتاب الذين يختارون لهم الحياة الكاملة لبطل قام بأعمال عديدة ومتنوعة مثل أعمال هيراكليس (الهرقليات) او اعمال ثيسيوس (الثيسيكات) معتقدين انه ما دام البطل واحدا فان قصته بالضرورة ستكون ذات وحدة واحدة » الترجمة للدكتور محمد حمدي ابراهيم ، دراسة في نظرية الدراما الاغريقية (القاهرة ، ١٩٧٢) ص٧٧ .

ثانيا : أن يوربيديس قد نسب قتل طفلي ميديا الى ميديا نفسها ، خلافا لما ورد في الرواية الشائعة بأن الكورنثيين هم الذين فعلوا ذلك الجرم،وأن الالهة هيرا،من جراء ذلك،قد غضبت غضبا شديدا،وأن طاعونا قد أصاب المدينة ... ذلك التحوير من جانب الشاعر يأتي ، بلا شك ، نتيجة ما أداه لميديا من تصوير درامي . اذ أن قتل ميديا لطفليها هو استكمال ، او تتويج لمشروع انتقامها من زوجها ، وذلك بعد أن هجرها ليتزوج بغيرها . قتل طفلي ميديا وياسون هو بغرض القضاء على ياسون قضاءا كاملا . وتدمير ياسون ، على هذا النحو ، هو العقاب الذى رأته ميديا مناسبا لخيانته . حجم العقاب على قدر الخيانة . ونحن لانستطيع أن نتصور مدى هول أثر خيانة ياسون الا اذا تصورنا روعة الجريمة التي ارتكبتها ميديا . كما وأنه يتعيز علينا أن نسترجع مافعلته ميديا من أجل ياسون منذ بدء العلاقة بينهما وحتى استقرارها في كورنثه : لقد دفعها الحب لأن تقسو على أبيها ، وأن تفتك بأخيها ، وأن تقتل بلياس ، وأن تنجو ، من كل هذا ، بنفسها وبياسون معها . كان لابد من الاشارة الى تلك الاحداث الجسام ، حتى نقدر غضب ميديا حق قدره ، وأن نجد لهذا الغضب مبررا كافيا . من ثم فقد استغل الشاعر ذكر الأسطورة لواقعة قتل الطفلين بيد الكورنثيين ، لينسبه الى الأم ، مسوقة الى تلك الفعلة الشنعاء بحالة من الغضب المشتعل والرغبة العاتية في الانتقام . وبالاضافة لذلك ، فان قتل الطفلين يحمل بعدا دراميا آخرا ، حينما يعمل على خلق تناقض شعوري بين عاطفة الأمومة ، وشهوة الانتقام . وهو ما نعرفه بالصراع الداخلى . وأخيرا فان القتل قد ينبىء عن تناقض آخر يقوم بين الخصوبة ، كما يجسمها وجود الاطفال وبقاءهم على قيد الحياة ، والعدم ، باعدامهم . ومع أن هذا التناقض يحمل خشمة يوريبدية ، الا أن مشكلة العدم أو العقم ، كما ينبغي أن تذكر ، تظهر في الفصل الثالث عند اللقاء بين أيجيوس وميديا ، كما يتكرر الحديث عنها في الفصل الخامس على لسان الجوقة ، في حديثها عن مزايا عدم الانجاب .

لكن الصراع في ميديا ليس هو ، أساسا ، الصراع الدائر في نفسها حيال قتل الطفلين (الداخلى) . كما وأنه ليس ذلك الصراع الميو - درامى ، والذى يمكن أن ينتهى الى مجرد التعارض بين أفكار مجردة . صراع التناقض في ميديا يدور بين ميديا التي تمثل جنس المرأة ، وياسون الرجل . انه صراع الجنس . وكما هو واضح في المسرحية ، فانه ينتهى بغلبة المرأة وهزيمة الرجل . وقبل أن أمضى أكثر من هذا لمناقشة هذا الصراع ، اطرح سؤالا يتعلق بنهاية الحدث المأساوى . أو ليس من الممكن ان نتصور نهاية أخرى ؟ كأن تشعر ميديا بالتعاسة والندم على هول مافعلت ، أو أن تلقى عقابا على ما ارتكبت ؟ ان شيئا من ذلك لم يحدث ، بل ان يوربيديس يصور ، على النقيض ، شعورها بالزهو والانتصار على نحو قاطع قولا وفعلا . لماذا ،لأن النهاية التي نتصورها قد تأتى أكثر اتفاقا مع التحرير الذى أجراه يوربيديس ، والخاص بجريمة قتل الطفلين . ولقد كان بوسع الشاعر ، من الناحية الأخرى أن يكتفى بقتل ميديا لكريون وابنته ، خاصة وأن الأسطورة لاتلزمه بعرض ازهاق الام لروحى طفليها . كان على يوربيديس ، اذن ، اما أن توفر على ميديا وعلينا مشقة قتل الطفلين البريئين ، أو أن يعكس أثر

ذلك على ميديا في نهاية المسرحية ، بحيث لاترحل عن كورنثه ، بهى على مثل هذا الحال من نشوة الانتصار والتفوق .

وفيما أعتقد ، فان القول بأن ميديا كامرأة أجنبية ، بربرية وساحرية ، وأنها لما كانت لاتنتمى الى الجنس اليونانى المتحضر ، وأنها ، كذلك طبقا لمواصفات مستمدة من الاسطورة ، فهى قادرة على ان تعمل هذا الفعل الشنيع ، وقادرة أيضا ، على أن ترحل ، كما اعتادت من قبل ، عن أرض الجريمة ، غانمة كل مأرب (الانتقام) سالمة من كل شر ـ أقول أن هذا القول لاينهض مبررا كافيا للنهاية التي أنجزها يوريبيديس لبطلته ولمأساته . فنحن لانملك سوى أن نقرر بأن الشاعر ، وقد اختار هذه الشخصية البربرية ، فانه ينطقها بكلمات هى في غاية الحكمة وسداد الرأى . انها لتبدى ، رغم حالتها النفسية المهتاجة ، من اليقظة والثبات والنظرة الثاقبة مايجعلنا ننظر اليها في اعجاب . وهى على أية حال ، لم تكن لتقوى على تحقيق رغبتها في الثأر لو لم يتوفر لديها حظ كاف من حسن الفهم لما يحيط بها من ظروف ، ومقدرة على التعامل مع احداثها ، وشدة ذكاء في التصرف بصفة عامة . وأحسب أن أحدا لاينكر أن انتقام ميديا لم ينجز بوسائل السحر بأكثر مما أنجز عن طريق استعمال الحكمة والدهاء : الحقيقة أن يوريبيديس راح يصور انتصار ميديا كاملا ، صافيا ، متألقا دون أية شائبة من كدر أو نذير سوء أو عاقبة وخيمة أو شعور بالندم . والحقيقة أيضا أنه لاينبغي أن يفوتنا الشعور بالحرج مما فعله يوريبيديس الى سوء الفهم فنقول حسنا . انها امرأة متوحشة ، ولقد اقترفت ما صنعت لأنها انسانة غير عادية ، أو غير يونانية ، او غير متحضرة ، او لأنها ربما ليست انسانة على الاطلاق ، ويبقى السؤال

لقد سبق ان ذكرنا أن الصراع في مأساة ميديا هو صراع بين الرجل والمرأة ، او يمكن ان يكون في تحليلنا لذلك الصراع مخرجا للمأزق الذي أوقع الشاعر فيه نفسه ـ او بالأحرى مدخلا الى ادراك ما أراد لنا الشاعر ادراكه ؟ نحن لانستطيع ان نغفل حقيقة اجتماعية عرفتها اثينا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، ألا وهى المعاملة السيئة التي لقيتها المرأة من الرجل ، والوضع الاجتماعي المهين الذي كانت عليه ، كما قد لاحظه المؤرخون والدارسون ، الى الحد الذي حدا بهم لأن يطلقوا تسمية العزلة الشرقية للمرأة اليونانية ، وصفا لهذا الوضع . ويبدو ان حرية المرأة قد انحدرت مع تطور نظام الحكم ، اى بتقلص نفوذ الطبقة الارستوقراطية ، وتدهور حكم الاقليات ثم ظهور الديموقراطية . مع تلك التحولات السياسية تتوارى المرأة تدريجيا وتفقد كثيرا من أهميتها . أحد النقاد[٧] يقول انه لاشيء يثير الملاحظة اكثر من زوجات وبنات القادة الهومريين ، اذا ماقورنت بحالة النساء الأقل حظا في الازمنة اللاحقة . يمل هذا الرأى معظم اتجاه الباحثين ، أو كما يقول Kitto[٨] « انه

(٧) C.E. Robinson, Everyday Life in Ancient Greece, (Oxford, 1933) P. 28.

(٨) H.D.F. kitto, The Greeks, (Pelican Books, 1956)P. 219

الرأى الذي يقبله الجميع ولم يعارضه أحد سوى Gomme على قدر ما أعلم . « ويدعم هؤلاء رأيهم هذا بمقتطفات من المؤلفات الادبية والتاريخية والفلسفية ، وكلها تدل على ذلك الوضع المؤسف . ويؤكدون أن المرأة لم تكن رفيقا يستوجب حب الزوج ومودته ، انما كانت اداة متعة ، من واجبها ان تمنح نفسها ومخلوق ضرورى لحفظ النوع . وبصفة عامة ، فقد كان الاثينيون يحقرون من شأن المرأة ، ويصفونها بالقصور العقل والضعف النفسي . نستطيع أن نقول أن يوريبيديس قد وقف موقفا معارضا لهذه الظاهرة الاجتماعية . وقد يفسر هذا حقيقة أن معظم الادوار الاولى في مسرحياته هي أدوار نسائية .[٩] والحقيقة ، ايضا أن يوريبيديس هو أول من طالع مجتمعه بجوانب نفسية في المرأة لم تطرق من قبل . وأظهر براعة فائقة في تحليل أزماتها الروحية ورسم لأحوالها الشعورية ، مما لايتأتى الا عن احساس صادق وكلف حقيقي . لقد كان حدبه على وضع المرأة في عصره موقفا فكريا ، وتقول Macurdy[١٠] « ان النساء كن يمثلن احدى القضايا التي عنى بها . « الصراع في ميديا ،انن موجه للكشف عن هذا الموقف الفكرى ، أو لعرض هذه القضية . يبدو هذا واضحا في عديد من الاشارات ، التي ترد ضمن حديث ميديا ، الى تعاسة حظ المرأة ، وأنها تضطر الى الارتباط برجل لاتعرف كنه خلقه ، وأن الزواج ، على هذا النحو ، يصبح نوعا من المقامرة ، قد تدفع الزوجة ثمنا له فادحا . ومن أقوالها أيضا أن عذاب الأمهات عند الوضع ليفوق عنف مواجهة الرجال لاعدائهم عند القتال . وأن العزلة التي يفرضها مجتمع الرجل على النساء ليست الا عدوانا على حقوقهن البشرية ، ومسلكا من القسوة لايبرره شيء . وهي تنبه الجوقة من النسوة الكورنثيات الى أن دفاعها عن حقها المشروع في الانتقام ممن أساء اليها وغدر بها . ان هو ، في واقع الامر الا دفاع عن جنس المرأة بصفة عامة .

كل هذا ، وغير هذا مما يؤكد أن الصراع في المسرحية ينبيء عن روح المعارضة والتمرد على مبدأ يسود به الرجل المرأة ويقهرها . وعلى ذلك ، فان ميديا تبدو وكأنها لسان حال الأمهات والزوجات الاثينيات ، وليست كما يتصورها البعض نموذجا للمرأة الغجرية الساحرة التي لاعهد للاثينيين بها . ولقد استفاد يوريبيديس من قصة الحب القوى الذى جمع بين ميديا وياسون في بداية العلاقة بينهما ، ثم الاشارة الى المغامرات التي عاشتها والتضحيات التي بذلتها ، كما تبدو المفارقة بينه عندما تلقى ميديا جزاء ما قدمت خيانة وهجرا . ان خيانة ياسون ليست مجرد نزوة عابرة ، لكنها زواج رسمى وارتباط بامرأة أخرى ، آلت اليها ، ماكان لميديا ، السيادة في بيته ، وفي قلبه ، وعلى فراشه . غير أن الشاعر اذا كان يسعى الى اثاره قضية المرأة في عصره ، على نحو ما ذكرنا ، فان النهاية التي تنتهي اليها ميديا ، البطلة والمأساة ، لاتساعده على بلوغ هدفه . على العكس ، فان انتصار ميديا

---

(٩) من بين اعماله التي وصلت الينا نجد العذارى الاثنية . الكستس ، هلينى ، اندروماخي ، اليكترا ، وزفيكاني ، وغيرها تنسب اما الى بطلات او الى جوقة من النساء .

(١٠) G. Macurdy, The Quality of Mercy, (New York, 1940),P.36

المدمر والساحق ليدفع الرجل الى اتخاذ مزيد من المناورة والحذر في معاملة المرأة ، وهو مايعني مزيدا من عزلها ورفض التعامل معها . ويبقى السؤال قائما : لماذا كانت هذه النهاية ؟

الصراع في ميديا لايتوقف عند روح أو مبدأ المعارضة أو التعارض بين الرجل والمرأة . ويمكن القول بأن صراع الجنس هو مايدور على السطح أو في الظاهرة . اما الصراع ، في حقيقته ، فانه ينشب بين نوعين من الحياة الانسانية : الطبيعة في جانب ، والحضارة في الجانب الآخر . النوع الاول تمثله ميديا لكونها اجنبية ، ولأنها وفدت من أرض يعيش أهلها هذا النوع من الحياة . والنوع الثاني يمثله ياسون ، من حيث كونه هيليني أو يوناني متحضر . وكما ينبغي أن نتوقع ، فان كل نوع يؤدى الى ما انتهت اليه الشخصية من تكوين نفسي وخلقي ، والى مايصدر عن هذا التكوين من تصرف . ان ميديا لاتسلك فقط سلوك امرأة ، لكنها تفعل مافعلت لأنها ، أساسا تنتمي الى جنس يعيش حياة تختلف عن تلك التي يعرفها الناس في اليونان . ان مقاييسها الخاصة ، واحكامها وتقديراتها ليست الا انعكاسا طبيعيا لما تقضي به نوعية التربية والنشأة والبيئة التي هي منها . انها تحب بقوة ، وتكره بقوة . لقد ضحت بكل شيء ، وبأقصى ماتستطيع من أجل ياسون . فعندما نبذها وتحول عنها، تحولت الى وحش كاسر أوموج عاصف لايبقى على زرع أو نماء . انها قادرة على أن تمنح كل الأحاسيس الرقيقة والوديعة ، لكنها تستطيع ، ايضا ان تكشف عن كل الانفعالات العنيفة والمتوحشة . انها لاتعرف الحل الوسط ، ولا الوجه المعتدل (المعدل) ، ولا تؤمن بمبدأ حكمة الحياة ، او الدعوة الى ضبط النفس ، ولاتفهم كيف يمكن تفسير الشيء على غير ماهو عليه في الواقع . لقد أحبت ياسون فوهبته روحها وجسمها لكنه اذ يهجرها دمرته تدميرا كاملا . ليست هذه هي طبيعة المرأة ذاتها ، لكنها هي طبيعة الجنس الذى خرجت منه ميديا أولا وقبل كل شيء ، انها طبيعة ميديا سليلة الشمس والقمر . وفي عبارة أخيرة ، ان هذه هي طبيعة ذاتها .

وعلى النقيض من ذلك ، ياسون . انه يؤمن بقيمة الحضارة ، ويرفض كل ماهو بدائي وهمجي . وهو يقول لميديا صراحة انها انما تدين له بفضل الانتقال من حياة همجية الى أخرى متحضرة . ان يعيش الانسان حياة بدائية يعني ، في رأيه ، أن يعيش حياة مغمورة ، وانه لينظر الى الحضارة في المحل الاول ، بهذا المفهوم .ان الحضارة هى الطريق الى المجد والشهرة . ويفهم أيضا ، ألا قيمة لحياته بدون ممارسة سلطة أو سيطرة . لذلك ، فالحضارة ، عند ياسون ، مرتبطة بالذكاء الاجتماعى ، حسن التصرف ، استغلال الفرصة ، البراعة في التعامل مع الآخرين ، الحرص على الانتساب الى ذوى القوة والبطش ، والتودد اليهم وكسب رضائهم . الحضارة عند ياسون ، تعنى القدرة على تفسير الامور لصالحه ، وبالطريقة التي تقنع السامع بوجهة نظره . وسلاحه الفعال ، في هذا ، هو صنع الكلام ، وبراعة التعبير واجادة ترتيب الافكار وعرضها . وفي كلمة واحدة اللباقة ، او يرد في النص اليونانى sophos legein ، أى ماهر في الحديث (sophos) أى حكيم تفيد أيضا المعنى بارع أوماهر) .

لقد استطاع ياسون أن يحظى بحب ميديا ، منذ اللحظة الاولى ، بواسطة اللباقة[١١] ـ ومن ثم كثرة اشاراتها الى وعوده وعهوده . ثم هو قد استطاع ان يحوز على رضاء كريون ، واعجاب ابنته بنفس الطريقة ، أو بذات السلاح . ثم هو ، أخيرا يجتهد في اقناع ميديا بأنه لم يقدم على ماأقدم عليه الا لنفعهم جميعا : هي بعو وطفليها . غير أنه لا يفلح . وتظهر براعة الشاعر في جعل ياسون يكاد ينجح في اقناعنا بموقفه ، وفي استمالتنا الى جانبه ، لكن ميديا تهدم أساس محاولته على الفور . على طول اللقاء المتكرر بينهما في المسرحية ، ياسون يسعى دائما لأن يبنى مسلكه على أساس من اللباقة ، وميديا ، في الجانب الآخر ، تقوض دوما هذا الأساس .

اللباقة ، بالنسبة لياسون كما ذكرنا ، عنصر فعال من عناصر الحضارة . ومما يلفت النظر أن ميديا دائمة الصراخ والولولة . واجمالا ، فانها تعبر عن نفسها في صدق ومباشرة الا في حالات ثلاث : أولها ، عندما تظهر ضعفها وقلة حيلتها امام كريون ، متوسلة اليه أن يمنحها مهلة يوم واحد تفارق بانتهائه كورنثة كما يريد . والثانية ، اذ تسعى كما تنال من ايجيوس ملك أثينا عهدا بايوائها وحمايتها اذا مالجأت اليه . الثالثة ، والاخيرة حين تخدع ياسون نفسه ، كبير البلغاء ، وعظيم الفصحاء ، بأنها قد رجعت عن غيها ، وثابت الى رشدها ، وانها لترجوه فقط أن يسمح لطفليها بتقديم الهدايا المسمومة الى العروس طلبا لكسب العفو عنها والسماح لها بالاقامة في كورنثه . هنا ، وفي مواجهة ياسون ، فان ميديا تلجأ الى نفس السلاح الذي طالما كان ومازال ياسون يجيد استعماله . وبالنسبة للحدث الدرامي ، فقد كان لابد لميديا أن تتبع هذه الوسيلة بغية تنفيذ انتقامها . ولكن يوريبيدس أراد ، ايضا ، فيما اعتقد ان يظهر ميديا قادرة على أن تسلك مثلما يسلك ياسون ، بل وان تفوقه في مجال تخصصه . أن تلاعبه اللعبة المفضلة لديه وتنتصر عليه . ذكاء ميديا ، في هذا الخصوص يثبت لياسون ولنادان الذين يعيشون حياة البدائية التي يستهجنها ويزدريها ، قادرون على ان يبلغوا مابلغه اليونان من حضارة ، لكنهم يرفضون . المسألة كما نكتشف ، ليست أن هؤلاء البرابرة لايستطيعون وانما لا يرغبون . واذا كان المتحضر ينظر الى البربرى على أنه دونه علما وثقافة فان البربرى يبادله نفس نظرة الاحتقار ، اذ هو يرفض ذلك النوع من المعرفة الذي يصل بالمرء الى الخداع والخيانة ، الى التفسير المعوج والتبرير الخاطىء . ان حضارة ياسون ، في

تقدير ميديا ، بلا مبادىء وانها زائفة غير ذات قيمة ، وليس لها نفع . تقول المربية ان الموسيقى لاتؤدى وظيفتها على النحو الأمثل ، لانها لاتخفف عن آلام المكروبين والتعساء . وتقول الجوقة ان الشعراء قد أخطأوا في اختيار الموضوعات ، كذلك تعلن أن الشرف والاخلاق قد انعدما في بلاد اليونان . واليونان هو البلد الذي يفاخر به ياسون ويزهو . اليونان بالتحديد هي أثينا الديمقراطية كما يراها الشاعر .

(١١) قارن Ovidius ، الرسالة الثانية عشرة من البطلات حيث تقول ميديا . Et decor et linguae gratia ficta tuae

لاشك أن الديمقراطية الاثينية قد عرفت القدرة على تفسير الشيء وضده ، وسمحت بامكان التبرير الصائب والخاطيء . الحصافة البلاغية او اللباقة الكلامية قد اينعت وازدهرت أكثر من أى وقت مضى . ذلك أن الديمقراطية تحمل في طياتها بذور الديماجوجية ، ويصير بناؤها الشامخ قابلا للانهيار . ان انتصار ميديا ليس الا رمزا لما ينتج عن تلك المواجهة العنيفة بين الاساليب الحضارية والعناصر الطبيعية الصريحة ، وتعبيرا عن الرأى بضرورة اجتياح تلك القوى البدائية الشرسة لحضارة لاتماسك الابكليات ، ولاتنهض الا على الخداع ، خداع الآخرين وخداع النفس . انه الاجتياح الذى يعصف بكل شيء ، يدخل فى هذه الحضارة او يخرج منها . لقد قتلت ميديا أطفالها لأنهم أبناء ياسون ، فانهم محكوم عليهم بالضعف والخسة والتخاذل .

●●●

ميديا الرواقية

فاذا ما انتقلنا الى ميديا سنكا ، نجد أن الشاعر الرومانى يصدر نفس الحكم ، ويعمل على تنفيذه ، وان يكن على نحو أشد قسوة ، كما فعل يوريبيديس . غير أن ثمة معالجة درامية للأسطورة يخالف بها سنكا يوريبيديس . ولأننا لسنا في مجال عقد مقارنة بين الشاعرين من هذه الناحية ، فاننا نتجه ، توا الى مايلفت النظر في المأساة اللاتينية فيما يتعلق بهزيمة الحضارة .

تظهر الفكرة الفلسفية الخاصة بالعودة الى الطبيعة اكثر وضوحا عند سنكا ممثلة في عودة ميديا نفسها الى الطبيعية . ان لجوء البطلة الى السحر ليس فقط افصاحا عن قدرات خارقة تستعين بها في صراعها مع ياسون وحلفائه ، لكنها أيضا رده الى طبيعتها الاولى بكامل تفاصيلها ، ورجوع الى بيئة خاصة تختفى عنها معالم الحضارة . فكل تلك الادوات وخبايا السحر الأسود التي تقربها الآن كانت قد أهملت واغلق عليها منذ أمد بعيد . جميع الأرباب والمخلوقات والارواح الهائمة في جوف الليل الحالك ، التائهة والمعذبة في الجحيم ، الكامنة تحت الأرض ترزأ بما يقع عليها من عقوبات على ما قدمت فوق الأرض ، الآن تتوجه اليهم ميديا بالدعاء ، وتستغيث بهم في محنتها ، وترجو منهم مؤازرتها على الانتقام . ان مأساة سنكا تبدأ بجملة من الدعوات المستطيرة ، فأول حديثها ، الذي هو أول المسرحية ، موجه الى تلك القوى المظلمة . وسرعان مايتضح لنا أن من تستنصرهم ميديا يمثلون مظاهر أو ظواهر الطبيعة الهوجاء العاتية ، وأنهم ليسوا كمثل ألهة التقدم والتحضر في شيء . واذا كانت ميديا ترسل دعواتها ، في بادى الامر ، الى إلهة الزواج di coniugales ، والى من تقوم على حمايتها (لوكينا) ، والى منيرفا ربة الحكمة ، ونبتونوس سيد المحيطات ، والشمس الذي يوزع الضوء على العالم ، فلأن الموقف الأساسي للمأساة يبدأ من الخيانة الزوجية ، وأن قبطان سفينة الارجو (في سياق التذكر لما حدث) قد تلقى عليا

(أى حكمة) في القيادة . وأن ياسون هو صاحب تلك الرحلة المشئومة في عرض البحر ، وأنها تنتسب الى الشمس ، كما ذكرنا من قبل . يلى ذلك مباشرة ذكر هيكاتي وسرد سربيشا وبلوتوس وربات الانتقام ultrices deae ، وباختصار الى « فوضى الليل الابدى » noctis acternae chaos . واذن ، فيمكن ان نؤكد بأن ميديا ، عندما تشتعل فيها الرغبة في استعمال فنون السحر ، فانها تعود تلقائيا الى الحالة التى كانت عليها من قبل ، والى الأجواء البدائية التي نشأت فيها . وانها لتهب روحها ، من جديد ، الى تلك المعبودات الكئيبة ، والقوى المعتمة . ومع ان صفات الذكاء والحيلة والمكر لاتنقصها ، الا أن سنكا يؤكد لنا ذلك الجانب الفطرى . ان ميديا الساحرة ، عنده تصبح بلاشك ميديا الاكثر بدائية ، والاكثر همجية مما تبدو عند الشاعر اليونانى .

رغم ارتباط ميديا باليونان المتحضرة وامتداد حياتها في كورنثة لعشر سنوات ، فانها لم تزل تحتفظ بخصالها البربرية . وعدم تأثر ميديا بالحضارة هو دليل صلابتها في مواجهة أعمال الصنعة والتكلف ، وهو تصميم ، من جانبها ، على رفض تلك الواجهة الزائفة من اللباقة والكياسة ، وهو ايمان راسخ بأن مثل هذا السلوك المتحضر ليس الا قشرة لامعة او سطحا براقا يخفى من ورائه عنفا خلقيا ونفسا مهدرة الكرامة . فاذا ما اتفقنا على أن كشف ميديا عن بدائيتها ، في رجوعها الطبيعي الى الطبيعة ، انما يفصح عن جانب جوهرى من شخصيتها ، ألا وهو الثبات والصلابة وعدم الرغبة في التحول عن الأصل . فكل هذا ما يميز الرواقى . ثم ان سنكا يعمل من جديد على أن يجعل من ميديا بطلة رواقية ، حتى ينطقها بأفكار الرواقيين وعباراتهم . فها هى تتحدى أعمال الحظ fortuna ، وتقلب الزمن ، وقسوة القدر . كذلك فانها لتستهين بقوة الملوك ، وطغيان الطغاة ، وتحتقر روح الاستخذاء والضعف ، وترفض مشاعر العطف والشفقة . ان قوة ميديا تتوافق ، فكريا وشعوريا ، مع صلابة المبادىء الرواقية . والعنف الذي تسلكه قد لايختلف كثيرا عن الصرامة التي يعرفها ويدعو اليها دعاة هذه الفلسفة .

صحيح أن سنكا لاينفى عن بطلته حالة الصراع الداخلي عند قتل الطفلين ، مما قد يؤثر مؤقتا على صفة الثبات التي أشرنا اليها . ولكن ، في الوجه المقابل ، نجد ان ذلك الصراع يعمل على أن تصبح ميديا ، لتعرضها له ، أما طبيعية اكثر منها أسطورية . (ولا أريد أن أغفل الاشارة الى أن سنكا قد استطاع ان يتجنب الميلودرامية ، التي عادة ما تلحق بتقديم من الصراع .) ومن ناحية أخرى ، فانه بخصوص مشهد العنف الصارخ الذى يصور جريمة قتل الطفلين ، الرأى عندى ، أنه حين استقر عزم ميديا على ضرورة هذا القتل ، فان طريقة القتل نفسها تصبح غير ذات أهمية ، وهو مايتفق مع المسلك البدائي . اذ أن الرقة في العنف هي مظهر من مظاهر التصرف المتحضر . وعلى أية حال ، فان حالة الصراع الداخلى ثم التخلص منه هو ما نألفه عند الشخصية الحاملة للفكر الرواقي . فالرواقي ، عادة يواجه صراعا بين مشاعر الحب والحدب تجاه من يأتلف معهم برباط من الدم أو علاقة مودة ، وبين الضرورة التي تفرض عليه أن يعاملهم في قسوة وبرود apathia .

هذه القوة العاطفية ، التي تظهر عند الصراع الداخلي تمثل نفس العمل تقريبا ، في صدر ميديا ، فيما يتعلق بزوجها . ان ميديا سنكا تحمل بالتأكيد شعورا عاطفيا تجاه ياسون الخائن ، يكاد يكون مفقودا عند يوريبيديس . وكما تقهر ميديا عاطفة الأمومة ، فانها كذلك تتحرر من بقايا الشعور بالحب للزوج وفيما أعتقد ، فان قلب ميديا يرق نحو ياسون ، عند سنكا ، من لحظة أو أكثر ـ لأن ياسون نفسه عند الشاعر الروماني ليس تماما كما نجده عند يوريبيديس . فبينما هو في المأساة اليونانية يمثل وجه الحضارة الهيلينية ، ومن ثم موضع كراهية ميديا الشديدة التي لاتقبل النقصان ، فانه في المأساة الرومانية يؤدى دورا مختلفا الى حدما ـ انه الضحية للحضارة الرومانية . الشيء الذي يدفع ميديا الى التفكير فيما اذا كان يمكن تبرير موقفه او تصديق كلماته .

الوضع الحضاري يونانيا فرومانيا يحتاج الى بعض التعليق : ان الديمقراطية الاثينية لم تكن تعني ، بطبيعة الحال ، مظهرا من مظاهر القهر ، لكنها تصل ، كما أشرنا ، الى حالة من حالات التدهور العقلي للجماعة : مسلك التطبع وحكم الديماجاجية ، وما تقوم عليه الزعامات النفعية من الركون الى الفصاحة والبلاغة الخطابية ، والقصد الى تشويه الحقائق . ذلك هو ما تواجهه ميديا عند يوريبيديس . أما الرواقي سنكا وبطلته ميديا ، فانهما يواجهان وضعا مختلفا . فالامبراطور يحتل قمة السلطة في روما ، وهو يمثل بذلك أعلى درجات الحكم الامبريالي ، الذي يحمل بداخله امكانية ممارسة أقصى درجات البطش والقهر فاعلية . المواجهة عند سنكا ، ليست كما هو الأمر عند يوريبيديس ، مع أساليب الحيلة والتحايل ، انما هي مع قوة نظام هيرارخي ، محكم راسخ ، مدعم . وبالتالي ، فان وجه الحضارة في كل من الوضعين او النظامين السياسيين يبين عن ملامح خاصة : ديموقراطية تستحيل ، ضرورة الى ديماجوجية ، وامبريالية أو مونارخية تتوفر لديها ضرورة أيضا امكانية الفعل المستبد . ومهما يكن من اختلاف تلك الملامح ، فان الحضارة ، للأسف ، تكشف عن وجه قبيح .

كريون ، وليس ياسون ، هو من يمثل قمة ذلك النظام الامبراطوري في ميديا سنكا . وعلى ذلك ، فان كراهية ميديا لزوجها لاتتمركز ، كما هو الامر عند يوريبيديس في كونه رمزاً للحضارة ، وانما يتخذ شعورها نحوه خطا آخرا ، وان يكن موازيا ، تجاه ذلك الخط من الكراهية ـ ألا وهو الشعور بضعف الزوج في مواجهة القوة والبطش (كريون) . هنا نلقي أثرا هاما لما تلحقه حضارة القهر بكيان المجتمع الانساني . فلقد أدى ضعف ياسون الى هلاكه (وهلاك الطفلين) . واذا كان قتل الطفلين يعني اكتمال ضياع كل شيء بالنسبة لياسون ، فان ياسون نفسه (وجه الحضارة عند يوريبيديس ، او ضحيتها عند سنكا) هو الذى كان سببا في ذلك الضياع . الأمر لايختلف في النهاية . كما وأن الخسارة كاملة والهزيمة نهائية . ان حساسية كل من الشاعرين تؤول الى ادانة الحضارة ، بصرف النظر عن موقف البطل أو رسم شخصيته . انها حساسية مشتركة . ومع الاعتراف بوجود تفاصيل اختلاف بين الشاعرين ، فان الموقف الفكرى العام يكاد يكون متساويا .

جدير بالملاحظة ان دافع ميديا الى قتل الطفلين ، عند سنكا ، يأتي اشد ارتباطا برغبتها في الانتقام لأخيها الذي فتكت بأوصال جسمه . وكأن الشاعر يريد أن يبحث عن مبرر آخر يضاف الى رغبة الانتقام من الزوج ، وهو في نفس الوقت ، يؤكد انتماءها الى الأصل العائلي . غير أن ثمة دافع ثالث قد يفوق الرغبتين معا . ميديا تنطق بما معناه أنها ودت لو كان لها من الاطفال أضعاف ما انجبت ، فتجهز عليهم جميعا . وأخلص من ذلك أن دم الطفلين لايسفك ، فقط بغرض التكفير عن جريمة قتل الأخ ، وليس فقط كذلك ، كوسيلة انتقام من الزوج الخائن ، انما هو بالاضافة لذلك قربان متواضع تقدمه ميديا لآلهة الطبيعة طلبا للغفران عما لقيته من اساءة على يد الحضارة وصانعيها .

رفض الحضارة يأتي ، ضمن ما يأتي عند سنكا ، على لسان الجوقة حين تعلو لهجة الأسى الشديد ، الذي لايفتأ يلاحقها ، والذي يتعلق برحلة السفينة أرجو . فان تلك الرحلة هي عنوان رئيسي في كتاب الحضارة . اذ أنها تشير الى أول محاولة انسانية ناجحة لخرق قوانين الطبيعة بهدف السيطرة عليها والتحكم فيها وكبح جماحها . ان قائد السفينة قد تلقى علما في القيادة ، والرحلة قد شارك فيها نخبة من أبطال اليونان دعاة الحضارة . غير أن عقاب الطبيعة الصارم قد حاق بكل من هؤلاء الذين ساهموا في قهر الطبيعة . وكأن ثمة لعنة راحت تطاردهم أينما كانوا وحيثما ذهبوا . ومن الطبيعي أن يلقى ياسون ، صاحب الرحلة ، نفس النهاية الأليمة . وأن يحيق به العقاب على يد ميديا ، فتاة كولخيس ، البلد الذي شقت اليه السفينة طريقها ، وأن تصبح الجزة الذهبية ، الغاية التي هفت اليها نفس ياسون ومن معه ، رمزا لتلك اللعنة . وكأن بريق الحضارة مستمد من بريق ذلك الذهب ، القابع في أرض نائية ، المحفوف بالمخاطر الشديدة . ليست هذه الافكار مجرد تخيلات شاعر ، لكنما هي تفاصيل حالة من التذكر المؤلم لأسباب ونتائج ، ومحاولة لتقصى أسماء بعينها ووقائع كلها تشير الى تلك الحادثة الهامة والمثيرة في مجرى تاريخ الانسان وهي ركوب البحر .

واقعة اللقاء بين الحضارة كما تجسمها رحلة السفينة أرجو ، بالطبيعة ، كما تتمثل في عاطفة الحب المتدفقة من جانب ميديا ، يعبر عنه الشاعر بلقاء عنصرين من عناصر الطبيعة : الماء والنار . وسرعان ما يتضح لنا أن اجتماع العنصرين يكاد يكون مستحيلا . انه لقاء المتناقضين . وهو لقاء يتحول ، على الفور ، الى صراع . تماما كما تنبيء عنه أحـــداث الاسطورة . ويجتمع او يتفق بعض أوجه النار لتحديد طبيعة ميديا لهيب العاطفة ، توهج الوجنتين ، شموع الزفاف المشتعلة ، نار الغيرة ، النيران المتقدة في القصر الملكى بكورنثه . النار تلتهم كل شيء . (مبدأ الاحتراق الشامل هو من بين الافكار الرواقية) والعنصر المضاد هو الماء . وعندما اتذكر الجوقة للرسول ، الذي يروى كيف شبت النيران في القصر الملكى ، أنه كان من الممكن استعمال الماء لاطفائها ، يجيب بأنهم قد حاولوا ذلك بالفعل ، ولكن دون جدوى . على النقيض ، فقد كانت النيران تزداد اشتعالا حين كانت تدفع بالماء ، وهو ما يعنى ، صراحة ، غلبة النار على الماء .

وعلى مستوى الفهم السطحي ، فان ما حدث هو من عمل السحر ، اى نتيجة استغلال ميديا لقدراتها كساحرة ولكن طبيعيا ، وبشهادة بلوتارخوس ، فان في بعض الماء ما يزيد النار اشتعالا . هذا بوضوح يعنى أن في الطبيعة ذاتها من المقومات مالايتفق مع قوانين الطبيعة المألوفة . وبذلك نصل الى القضية الآتية : الحضارة تسخر قوانين الطبيعة بهدف السيطرة عليها . غير أن للطبيعة من القوى غير العادية ما تقهر به فعل الحضارة . انها أخيرا تفلت من قبضة الانسان . هذه القوانين الطبيعية الغير مألوفة ، والتي تمثل في حد ذاتها خروجا سافرا على قوانين الطبيعة لايمكن أن يفرغ الانسان من اكتشافها والتحكم فيها .[١٢] وبالتالي ، فان وعى الانسان بوجودها هو من قبيل الادراك الامثل لقضية الحضارة . وبذا يصبح موقف الرواقي من الحضارة موقفا عاقلا . انه أقرب بنى جنسه ملاءمة روحية وعقلانية لما تنطوى عليه الطبيعة من قوانين غامضة يصعب الاحاطة بها .

وفي مجال معالجة سنكا الدرامية للاسطورة ، نلحظ ان علاقة ميديا بالطبيعة تتأكد اكثر فأكثر . ذلك عندما يخالف سنكا الاصل اليوناني في عرض المشهد الاخير للمأساة ، والخاص برحيل ميديا عن كورنثه . عند يوريبيديس ، فانها سوف تتجه الى أثينا . أما سنكا فهو لايحدد لها مكانا أو مهربا . ويمكن التعليق بأنه اذا ما كانت ميديا قد نجحت في القضاء على خصومها ، فان الرحيل عن كورنثه الى حيث لايعلم أحد انما يعنى أن ماهمنا ، دراميا هو ماحدث في كورنثه (حيث تبدأ وتنتهي المأساة) . سيان ، اذن ، أن تمضى ميديا الى أثينا أو الى مكان آخر . غير أنه يوسعنا أن نضيف بأن الرحيل عن كورنثه ، في حد ذاته ، يمثل رفضا للمكان (كورنثه كموقع للحضارة) اكثر مما هو الرغبة في الفرار من جريمة أو جرائم ارتكبتها ، وبما يلحق هذه الرغبة من تدبير مكان آخر للاستقرار (أثينا) . ثالثا وأخيرا ، وهذا هو ما ألمح فيه المعنى الاكثر أهمية ، ان هروب ميديا بعد أن فعلت مافعلت هو من العلامات المميزة لحياتها . انها المرأة التي على موعد دائم مع الرحيل . الرحيل ، في أسطورة ميديا ، لايمثل فقط مجرد حادثة عارضة او نتيجة لسبب ، أو سعيا الى هدف ، وانما هو ، كذلك أشبه باللينموتيف leitmotiv الذي يتكرر خلال عمل موسيقى : سفينة الارجو ترحل الى كولخيس . ميديا وياسون يرحلان عن كولخيس الى ثيساليا . الاثنان يرحلان بعد ذلك من ثيساليا الى كورنثة . ميديا في النهاية (نهاية الحدث الدرامى عند يوربيديس وسنكا) ترحل عن كورنثه الى أثينا (عند يوريبيديس) . أو الى مكان آخر غير معلوم (عند سنكا) . وكأن المغامرة كحدث أسطورى (هناك مزيد من الرحيل قبل وبعد الحدث الدرامى) لاتتم الا بالانتقال مكانى الى حيث مغامرة جديدة وهكذا . وهو انتقال مدفوعة اليه ميديا في كل الاحوال ، ويؤدى ليس فقط الى مزيد من الحدث ، ولكن ، أيضا وبطبيعة الحال ، الى استكمال الخط الحياتى . (لاحظ ان عودة ميديا ، في النهاية ، الى كولخيس حيث بدأت الرحيل تعمل على استكمال الخط أو الشكل الدائرى الذي تحدثنا عنه في أول المقال) . المقصد المكانى ، اذن لايهم . انما يحرص سنكا على تأكيد مبدأ الرحيل . في أول لقاء لها مع ياسون تبدأ

(١٢) مثل هذه القوانين يمكن ان تصل بنا الى ما نعرفه باسم « سحرية القدر » .

ميديا الحوار بهذه العبارة : « اننا نهرب ، ياياسون ، نهرب . وليس جديدا علينا تغيير الموطن . » (٤٤٧ ، ٤٤٨) .

تجتمع الفكرتان : الثانية (والخاصة برفض ميديا للمكان) والثالثة (مبدأ الرحيل) لتحددان موقفا فكريا . فميديا ، اذ ترحل عن كورنثة الى حيث نجهل ، تبدو وكأنها قد تحررت من موقع حضارة ، ومن الحضارة نفسها . لقد عادت الى الطبيعة ، مرة أخرى ، خالصة من كل الاوضاع المقيدة والصفات المحددة : الزوجة والام والعاشقة . وعلى خلاف ماحدث عند يوريبيديس ، فان ميديا الشاعر الرومانى تترك لياسون من ورائها جثتي طفليها : ـ recipe iam natos, parens; ego inter auras aliti curru vehar.
(1024, 1025) •

الشيء الذي يؤكد تلك الانطلاقة الكاملة لميديا من ربقة كل شيء .

ملاحظة أخرى ، الجوقة ، عند يوريبيديس تأخذ موقفا أقرب مايكون الى التآمر مع ميديا على التغاضي عن الجرائم التي هي بصدد ارتكابها . مؤامرة الصمت هذه تأتى أمرا طبيعيا بعدما تقتنع النسوة الكورنثيات بآلام المرأة ، ووضعها المهين ، وتحظى منهن ميديا على وعد بعدم افشاء نواياها الانتقامية . بذلك تتحول الجوقة الى صورة جماعية مصغرة لميديا ، تحمل في قرارة نفسها كل واحدة منهن بعضا ، ولوهينا ، من مشاعر ميديا الغاضبة . وعلى العكس ، فاننا لا نلقى مثل هذا التآلف او التشابه بين نسوة كورنثة وميديا عند سنكا . وتفسير هذا ، فيما أرى ، أن سنكا لايريد أن يثير مشكلة الزواج بصفة عامة ، او أن يطرح الاسئلة الخاصة بمقدار المكسب والخسارة ، في تقرير المرأة ، فيما يتعلق بهذا النظام الاجتماعى . ان ميديا الزوجة ، عنده ، تنفرد بحالتها وهى لاتسعى الى أن تستخلص من تلك الحالة الخاصة مثلا أو نموذجا عاما . فالازمة او المأساة هى مأساتها ، والفعلة التى أقدمت عليها ـ حب ياسون ، ذلك الذي دفعها لان تضحى بكل ما تملك من أجله ـ هى فعلتها . ليس ثمة محاولة (شبه حضارية) من جانبها لاقناع الأخريات بأن دفاعها عن نفسها انما يمثل ، في نفس الوقت ، دفاعا عن قضية المرأة على وجه العموم . هذا المسلك الانفرادى هو ما يجعل ميديا سنكا تواجه الحضارة دون الاستعانة بأخريات (الجوقة) ، أو اللجوء الى التحايل لضمان مقصد أمن وأمان (الفصل الثالث مع ايجيوس عند يوريبيديس) ،أو أن تعرف ، مقدما الأرض التي سوف تأوى اليها (أثينا) . ان الوسائل الشبه حضارية التي تتبعها ميديا يوريبيديس للقضاء على الحضارة كما تتألق في الديمقراطية الاثينية ، تصبح بلا جدوى عند مواجهة الحضارة كما تتجسد في الحكم الامبراطورى (روما القرن الاول الميلادى) . ان ميديا سنكا تستلهم كل امكانيات الطبيعة في مواجهة رومانية للحضارة . وكما نعرف فان الرواقى لايعتمد الا على مقومات ذاته . القدرة الهائلة على التحمل ، الرفض الذى لايقبل الحل الوسط او الحالة الوسطى ، ولايركن خارج نفسه ، الا على ما تنطوى عليه من القوى والمعانى حتى لو كانت غامضة .

• استرد الطفلك الان ايها الوالد ، اما انا فسر الهواء على عربة مجنحة سأمضي .

ميديا سنكا : السطر الاخير

في نهاية ميديا سنكا يصرخ ياسون في عبارة أخيرة له وللمأساة : testare nullos esse, qua veheris, deos (1027) (حيثما تذهبين ، فاشهدي بأنه ليس ثمة آلهة) .

لماذا يشير ياسون الى الالهة في هذا الموضع النهائي من المسرحية ، عند يوربيديس ، أيضا تلهج الجوقة بحديث عن الالهة ـ قد أرادت ودبرت وحكمت وفعلت ، الى آخر هذه العبارات التي تأتي كتعليق نهائي مناسب ، والذي يمكن أن نتوقعه من مجموعة الكورس الذي شهد معنا ، او شاهدنا معه ، كل ماجرى ، وهو ماقد يمثل محاولة باطلة للتخفيف من شدة وقع ذلك الحدث العنيف على نفوسنا ، كما أنه قد يدعونا الى ملاحظة عامة (باهتة) لما ينطوي عليه الحدث من درس أخلاقي . ان ما تنطق به الجوقة في المأساة اليونانية هو ، على أية حال حال كليشية درامي . اما النهاية التي قصد اليها سنكا فلا يمكن ان تكون كذلك . واذا كانت العبارة الياسونية تأتي في النهاية (السطر الأخير) ، فان قابليتنا للتأثر بها ـ (لاحظ صيغة الأمر للفعل : testare) ـ تزيد عما لو كانت قد وردت في أي موضع آخر . انها أقرب ما تكون الى النبوءة ، وسواء صدقت النبوءة أم لا ، الشيء الذي هو خارج حدود الامكانية الدرامية ، وان لم تنعزل تماما عن فاعلية التأثير الكلي للعمل ، فان فقدان أو افتقاد ميديا للآلهة هو ، فيما أرى ، نتيجة رفضها للحضارة . وهو مايعني أن ميديا ، بما صنعت ، أي عندما قضت على الحضارة تعني بالضرورة هزيمة الالهة . والرأي الثاني ان ياسون يعبر ، بعدما رأى من هول الاحداث مارأى ، عن اعتقاده بعدم وجود آلهة أصلا . حالة من الكفران نتيجة ما حاق به من البلاء . الرأي الثالث أنه مع اعتراف الرواقيين بوجود الالهة ، فان نظرتهم الى الرواقي الكامل تفوق أية اعتبارات دينية ، بحيث نجد أن الالهة قد تهبط الى المستوى الادنى من الدرجة التي يشغلها عندهم الرواقي الحق . وفي عبارة أخرى ، فان الرواقي الذي يقف ، وحيدا ، في مواجهة عناصر البطش الحضارية ، يصبح من القوة بما لايتيح مكانا لوجود قوى أعلى . كل هذه الآراء أو بعضها ، لايؤثر في الاتفاق على أن عبارة ياسون الاخيرة تسهم في بناء التأثير الدرامي الكلي للمأساة .

●●●

ان مسلكنا تجاه الحضارة لايجب أن يكون ، بالضرورة رواقيا . بل اننا قد نختلف مع الرواقيين في بعض آرائهم . لكن علينا ان ندرك مدى الجدية التي راح الرواقيون ينظرون بها الى المشكلة الحضارية . ومن ناحية أخرى ، فان مثل هذه الجدية لاينبغي ان تؤخذ باعتبارها عاملا ينتقص من القيمة الدرامية ، التي أعتقد بوجودها في مأساة ميديا الرومانية .

الثورة الرومانية
المرحلة الثالثة
الصراع بين بومبي وقيصر حتى الحرب الأهلية
٧٨ – ٥٠ ق.م

محمد عواد حسين

أستاذ ورئيس قسم الحضارة سابقا بجامعة الاسكندرية

أستاذ التاريخ الروماني سابقا بجامعة الكويت

مقدمـــــة :

يبدأ النظام السياسي في روما بالحكم الملكي، ثم تلاه الحكم الجمهوري، فالحكم الامبراطوري. وعاشت روما في ظل النظام الجمهوري نحو خمسة قرون من الزمان (من اواخر القرن السادس الى اواخر القرن الأول ق. م). وقد درج المؤرخون على تسمية القرن الأخير من حياة الجمهورية الرومانية بـ «عصر الثورة»، وهو القرن الذي يمتد من عام ١٣٣ ق. م. الى عام ٢٧ ق. م. وترجع هذه التسمية الى ان تلك الفترة بدأت بمحاولات اصلاح نبيلة قام بها بعض ترابنة الشعب، لكنها تحولت الى صراع عنيف مرير بين كبار القادة العسكريين، ثم ما لبث هذا الصراع ان تحول الى حرب اهلية قضت على النظام الجمهوري.

وفي دراسة سابقة تناولت محاولات الاصلاح تلك[1]، وهي التي قام بها الشقيقان تيبريوس وجايوس جراكوس بين عام ١٣٣ وعام ١٢٠ ق. م.، وتمثل المرحلة الأولى من مراحل عصر الثورة.

ثم في دراسة ثانية[2] تناولت الصراع الذي احتدم بين القائدين الكبيرين ماريوس وسلا بين عام ١٢٠ وعام ٧٨ ق. م، وهو الصراع الذي يمثل المرحلة الثانية من عصر الثورة.

---

(١) انظر هذه الدراسة في العدد الثالث عشر من مجلة كلية الآداب والتربية - جامعة الكويت - وهي بعنوان «الثورة الرومانية - المرحلة الاولى - الجراكيان ومحاولات الاصلاح» ص ١٢٣ وما بعدها.

(٢) انظر هذه الدراسة في العدد الخامس عشر من مجلة كلية الآداب والتربية - جامعة الكويت - وهي بعنوان «الثورة الرومانية - المرحلة الثانية - ماريوس وسلا» ص ١٧٧ وما بعدها.

وفي هذه الدراسة التي تمثل المرحلة الثالثة وتمتد بين عام ٧٨ وعام ٥٠ ق . م[٣] سوف نتناول الصراع بين قائدين آخرين ، هما بومبي وقيصر ، وهو الصراع الذي ادى في نهايته الى نشوب الحرب الأهلية التي لم تبق من النظام الجمهوري الا على اسمه فقط .

وتبقى بعد ذلك مرحلة رابعة واخيرة ، ندرس فيها ـ باذن الله تعالى ـ تلك الحرب الأهلية التي انتهت بسقوط الجمهورية وقيام النظام الامبراطوري .

وقد استطاع مجلس الشيوخ الروماني (السناتو) ان يحتفظ بسلطاته وسيادته طوال المرحلتين الأولى والثانية ، بل انه استطاع بفضل سلا ان يسترد ما كان قد فقده من مكانة وهيبة في خلال هاتين المرحلتين ، لكن ذلك كان مؤقتا ، لأن سُلا ترك روما غارقة في خضم من المشاكل التي نجمت عن سياسة العنف والبطش التي اصطنعها تجاه الديموقراطيين او الشعبيين كما يسمون احيانا ، وتجاه الايطاليين بصفة عامة .

الأوضاع بعد سُلا :

الواقع ان تاريخ روما بعد وفاة سُلا أصبح عبارة عن تاريخ مجموعة صغيرة من الرجال البارزين ، الذين كانت اطماعهم ومنافساتهم هي العامل الحاسم في السياسة الرومانية ، وسبب ذلك ان السناتو ، وكذلك الجمعية القبلية ، كلاهما لم يكن يملك القوة للتحكم في تصرفات هؤلاء الرجال ، الذين اتاحت لهم احتياجات الدولة وظروفها الظفر بسلطات عسكرية مطلقة .

ولقد شهدت أيام ماريوس وسُلا ـ في المرحلة الثانية من مراحل عصر الثورة ـ ظهور الجيش المحترف الذي يتحكم في قائده وحده ، فغدا مثل هذا القائد هو صاحب السلطة الحقيقية في الدولة ، ومن ثم اصبحت الانجازات العسكرية هي الأساس الوحيد للظفر بالقوة السياسية ، وبالتالي اصبح تولي قيادة عسكرية هامة هو الهدف الاكبر لدى كل الطموحين من اصحاب الكفايات .

وأمام خطر اندلاع الحروب الاهلية ، وكذلك خطر الحروب الخارجية ، كان السناتو يجد نفسه مضطرا لمنح السلطة العسكرية لأصحاب الكفاية ، برغم عدم اطمئنانه الى حقيقة نواياهم . لكن منح هذه السلطة اصبح بعد ذلك في يد الجمعية القبلية نتيجة للتفاهم الذي كان يتم بين القادة العسكريين وبعض الترابنة ، ومن هنا برزت « القيادات الاستثنائية » التي تخول صاحبها سلطة تجاوز القواعد

(٣) ان مصادرنا الرئيسية عن هذه المرحلة من مراحل عصر الثورة هي ما كتبه المؤرخ بلوتارخ عن كل من بومبي وكراسوس وسرتوريوس ، وما جاء في خطب شيشرون التي القاها في خلال هذه الاعوام ، وما وصلنا من « تواريخ » سالوست حيث سجل تفاصيل الاحداث بين عام ٧٨ ق . م وعام ٦٧ ق . م . وكذلك ما جاء في « التاريخ الروماني » للمؤرخ ديوكاسيوس عن احداث عام ٦٨ ق . م . وما بعده وهو يعتمد اعتمادا كبيرا على المؤرخ ليفيوس

الدستورية ،[٤] وكان اول من ظفر بقيادة استثنائية من هذا القبيل هو بومبي الكبير على نحو ما سوف نرى .

هبت العواصف من كل جانب على دستور سُلا عقب وفاته ، فهو لم يفعل شيئا ليجعل للحقوق السياسية التي منحت للايطاليين أية قيمة فعلية ، وتحفزت المجتمعات الايطالية التي حملت السلاح ضده فحرمها الحقوق الرومانية وصادر اراضيها ليحولها الى مستعمرات لجنده المسرحين ، تحفزت هذه المجتمعات لاسترداد ما فقدته ، وكذلك تطلع الرومان الذين فقدوا حقوقهم لاتهامهم بالعطف على عدوه ماريوس الى استرداد حقوقهم .

اما اشياع ماريوس من الشعبيين فكانوا يتطلعون الى تحرير وظيفة التريبونية من القيود التي فرضها سُلا عليها ، وأما الفُرسان فكانوا يريدون استعادة سيطرتهم على المحاكم التي سلخها منهم سُلا وأعطاها للسناتو .

وكانت القنصلية لعام ٧٨ ق . م قد آلت عقب اعتزال سُلا الى كل من كاتولوس وليبيدوس ، وكان هذا الأخير من أسوأ النبلاء خُلُقاً ، كما كان عديم الكفاية واسع الاطماع ، سار في ركاب سُلا حتى اعتزاله ، ثم انقلب عليه وانتهز فرصة التذمر العام من دستوره فأخذ يهاجم الدستور وصاحبه أثناء دعايته الانتخابية .

وسرعان ما احتدم الخلاف بين القنصلين لاختلاف طباعهما[٥] ، فحاول ليبيدوس ان يجمع العناصر الساخطة على دستور سُلا حوله كي يظفر بتأييدهم له ، فتقدم بمجموعة من مشروعات القوانين لرد الاراضي المصادرة لأصحابها الايطاليين ، واستدعاء المنفيين من اشياع ماريوس ، والعودة الى توزيع الغلال على الفقراء ، واعادة السلطة كاملة الى ترابنة الشعب بحيث تصبح كما كانت قبل ان يقيدها سُلا[٦] . لكن زميله كاتولوس عارضه فلم يوافق السناتو الا على قانون منح الغلال للفقراء .

وأدى رفض السناتو لمشروع قانون اعادة الاراضي المصادرة الى اصحابها الايطاليين الى سخط الايطاليين في شمال اتروريا ، فطردوا جنود سُلا المسرحين من مستعمراتهم ، وبدا واضحا انهم يقومون بثورة مسلحة ، فعهد السناتو الى القنصلين بمهمة معالجة الموقف ، لكن ليبيدوس انتهز الفرصة وجمع جيشا في شمال ايطاليا ، وتزعم الثوار وزحف نحو روما ، فما كان من السناتو الا ان اصدر « قراره النهائي » باعتبار ليبيدوس عدوا للوطن ، واستطاع كاتولوس ـ القنصل الآخر ـ ان يصد

---

(٤) A. E. R. Boak, A History of Rome to A. D565, P.207

(٥) App., B. C. ,I,105 — 106; Plut. , Sulla, xxxviii

(٦) Sallust., Hist. ,I,55,22.

الثوار ، لكن السناتو ارتكب في نفس الوقت خطأ دستوريا كبيرا ، اذ قبل المساعدة التي عرض بومبي تقديمها في هذا الظرف الدقيق ، فمنحه سلطة البروبرايتور ، وخوله قيادة جيش للقضاء على ليبيدوس ، مع ان بومبي لم يكن عضوا في السناتو ، ولم يكن قد تولى منصبا عاما من قبل .

وقاد بومبي قواته وارغم مساعد ليبيدوس ـ على التسليم ، ثم اعدمه ، وبعد ذلك اتجه الى اتروريا حيث هزم ليبيدوس نفسه ، لكنه تمكن من الفرار الى سردينيا حيث توفي ، فاتجه مساعده الآخر بربرنا بمن بقي من قواته الى اسبانيا حيث انضم الى سرتوريوس (٧٧ ق . م .)(٧) الذي كان يقود هناك ثورة خطيرة ضد السناتو والنبلاء الارستقراطيين .

هكذا امكن القضاء على ليبيدوس ، لكن ذلك لم يتم الا بعد ان تغاضى السناتو عن مبدأ اساسي من المباديء التي اراد بها سُلا دعم سلطات هذا المجلس ، ذلك ان اعضاءه وهم يريدون انقاذ الموقف بأي شكل ، ولم يتحرجوا من اسناد قيادة عسكرية عليا الى شاب لم يسبق له ان تولى وظيفة عامة ، وهو امر عمل سُلا في دستوره على تفاديه ، فكانت هذه الخطوة ذات اثر بالغ على السناتو ، بل لعلها كانت الاولى في تقويض دعائمه ، فما الذي حدث ؟

لقد تفاقم الوضع في اسبانيا واصبح واضحا انه لابد من ارسال نجدة عاجلة الى ميتيللوس هناك ، فانتهز بومبي الفرصة ورفض تسريح قواته وطالب السناتو بارساله لنجدة ميتيللوس ، خصوصا وان قنصلي عام ٧٧ ق م كانا يفتقران الى الكفاية العسكرية ويخشيان الهزيمة فرفضا الذهاب الى اسبانيا ، وللخروج من هذا المأزق اضطر السناتو الى الاستجابة لبومبي ، ومنحه سلطة البروقنصل ليتولى بموجبها حكم ولاية اسبانيا الدانية وقيادة القوات العسكرية فيها .

وهكذا غدا بومبي يقف على قدم المساواة مع ميتيللوس . وليس مجرد مساعد قدم لنجدته ، وهكذا ايضا ارغم السناتو على الرضوخ لمطالب بومبي المجافية للقواعد الدستورية ، وحين تساءل احد اعضائه عما اذا كان من الضروري منح بومبي سلطة البروقنصل ، قيل له ان بومبي ذاهب للقيام بعمل القنصلين معا لا بعمل قنصل واحد(٨) . ورحل بومبي الى اسبانيا حيث واجه مهمة شاقة امام سرتوريوس الذي كان يحتل مكانة رفيعة في حزب الشعبيين الديموقراطي .

شغل سرتوريوس منصب الكوايستور عام ٩١ ق . م ، وكشف عن مهارة عسكرية فائقة في حربه ضد قبائل الكلت في ايبيريا ، حتى لقد تخوف منه سُلا وبدأ يحقد عليه ، وقد رشح حاكما لاسبانيا

---

(٧) App., B C ,I, 107; Sallust., Hist. I,65 — 67; Heitland Roman Republic, III, pp. 4 — 5; C.A.H., ix, PP. 315 — 317.

(٨) Plut., Pomp., xii

القريبة (الدانية) لسنة ٨٢ ق . م . ، لكن سلا اسرع بارسال حاكم آخر الى هناك ، ونجح هذا الحاكم في انزال الهزيمة بانصار الحزب الديموقراطي ، فاضطر سرتوريوس الى الفرار الى شمال افريقيا ، ثم تمكن من العودة الى اسبانيا في عام ٨٠ ق . م . ليتزعم ثورة اشتعلت فيها ضد روما ، وما لبث - في عام ٧٩ ق . م . - ان هزم ميتيللوس حاكم اسبانيا القاصية (البعيدة) ، الذي كان زميلا لسُلا في القنصلية . ولم ينته عام ٧٧ ق . م . حتى كان سرتوريوس قد سيطر على كل ايبيريا تقريبا ، واعتبر نفسه حاكم اسبانيا الدانية الشرعي .

وأمام هذه الأوضاع لم ير السناتو بدا من ارسال بومبي لمواجهة هذا الثائر ، فمنحه الاميريوم البروقنصلية ، ليتولى حكم ولاية اسبانيا الدانية ويقود الجيش فيها ، وقد انتصر بومبي واعاد السلام الى اسبانيا ، بينما لقي سرتوريوس مصرعه وكذلك مساعده بربرنا ، وعاد بومبي الى ايطاليا عام ٧١ ق . م مزهوا بنصره[٩] .

وفي خلال السنوات التي قضاها بومبي في اسبانيا جرت أحداث ومحاكمات اكدت بما لايدع مجالا لأي شك فساد محلفي المحاكم وكلهم من رجال السناتو، اذ ثبت انهم يرتشون وان ضمائرهم قد ماتت تماما ، فاشتد الهجوم عليهم ، وانتهز الفرسان هذه الفرصة لانتزاع المحاكم من أيديهم ، واستردادها لانفسهم عن طريق تقربهم الى الشعبيين الديموقراطيين[١٠] .

وفي نفس الوقت بدأت محاولة جادة وقوية لتحرير ترابنة العامة من القيود الصارمة التي كبل بها سُلا سلطاتهم ، واستطاع احد قنصلي عام ٧٥ ق . م ، ان يقنع السناتو باصدار قانون يسمح للترابنة بترشيح انفسهم للوظائف العامة بعد انقضاء تريبونيتهم اذا رغبوا في ذلك ، وهو الامر الذي كان سُلا قد حرمهم منه حرمانا تاما . وقد ظلت الجهود مستمرة بصورة متصلة لاعادة حقوق الترابنة اليهم كاملة غير منقوصة ، حتى حسمها بومبي بعد عودته من اسبانيا[١١] .

حرب العبيد :

وأخطر من كل ذلك ، اشتعال ثورة العبيد في ايطاليا عام ٧٣ ق . م .[١٢] ذلك ان العبيد الذين

---

(٩) A. E. R. Book, op. cit., pp. 208 — 209.

(١٠) Plut., Cato, IV, cic., Brutus, 92, 317.

(١١) Sallust, Hist., III, 48.

(١٢) جاء الحديث عن هذه الثورة باستفاضة في مصادرنا القديمة التالية :

App., B.C. 116 — 120; Plut., Crassus VIII — XI, Plin., N. H., XXXIII, 49.

اما المراجع الحديثة فأهمها :

Rice Holmes Rom. Rep., I, PP. 386 ff; C.A.H., IX PP. 329 — 332; Heitland, ro. Rep III, PP. 10 — 11, 13 — 34.

كانوا يشتغلون بالزراعة في الضياع كانوا يعانون من اوضاع بالغة السوء على يد السادة اصحاب هذه الضياع ، وأسوأ منها كانت اوضاع العبيد المبارزين او المجالدين (Gladiatores) ، الذين كانوا يتعرضون للهلاك في اثناء مباريات المبارزة التي يقومون بها[١٣] .

وقد بدأ هؤلاء ثورتهم بزعامة مبارز من تراقيا يدعى سبارتاكوس ، واعتصموا بجبل فيزوف ، وانضم اليهم عبيد الاراضي الذين ضاقوا ذرعا بما يعانون في ضياع النبلاء . ونجحت حركة الثوار واخذت اعدادهم تتزايد حتى بلغوا سبعين ألفا ، واستطاعوا في نهاية عام ٧٣ ق . م . ان يسيطروا على كل جنوب ايطاليا .

وانقضى العام التالي (٧٢ ق . م) والعبيد يحرزون النصر تلو النصر على القوات الرومانية الحكومية ، حتى استطاع البرايتور كراسوس[١٤] ـ بعد ان منحه السناتو قيادة استثنائية وسلطة بروقنصلية ـ ان ينزل بهم هزيمتين كبيرتين ، وان يقتل زعيمهم سبارتاكوس . وفي هذه الآونة كان بومبي قد انتهى من حربه ضد سرتوريوس وعاد الى ايطاليا ، فقام بدور في القضاء على هذه الثورة بالاجهاز على الذين فروا من العبيد شمالا ، وادعى لنفسه بعد ذلك انه هو الذي قضى على ثورة العبيد واراح روما منها[١٥] .

هكذا انتهت ثورة سبارتاكوس ، ولكن بعد ان تمخضت عن تخريب مساحات شاسعة من الاراضي الزراعية في جنوب ايطاليا ، الأمر الذي اثر تأثيرا كبيرا على الحياة الاقتصادية في ايطاليا كلها ، كما كانت بمثابة تحذير للسادة اصحاب العبيد الذين يعملون في الاراضي الزراعية ، فبدأوا يحسنون معاملتهم .

لكن النتائج السياسية لتلك الثورة كانت اخطر من ذلك بكثير ، فقد اعتقد كراسوس ـ بعد النصر الذي احرزه على الثوار ـ انه قائد عظيم له مواهبه التي ينبغي ان يفيد منها ، ذلك من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان تدخل بومبي في المرحلة الاخيرة من الثورة ، ومشاركته المحدودة في اخمادها ، ثم ادعاؤه بانه هو الذي انهى ثورة العبيد ، كل ذلك ملأ صدر كراسوس حقدا عليه ، ومن ثم بدأ العداء بينهما على نحو ما سوف نرى ، فضلا عن ان السناتو ـ وذلك هو الاخطر ـ وجد نفسه بعد الثورة امام قائدين كبيرين منتصرين ، وتحت امرة كل منهما قوات كبيرة ، وكلاهما يقف بقواته على ابواب روما .

---

(١٣) Heitland, Ro., Rep., II, PP.243 — 244

(١٤) [illegible]

(١٥) Boak, Rom, Hist, PP.211 — 212

وفي تلك الاونة كان ملك بونتس ـ ميثريداتيس الاكبر ـ لا يزال يمثل خطرا كبيرا على هيبة روما ومكانتها في الجناح الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، ذلك ان سُلا لم يكن قد قضى عليه قضاء مبرما ، لأن الاوضاع في روما ارغمته على التعجيل بانهاء الحرب ضده والعودة اليها ليواجه اعداءه فيها . .

وتجدد خطر ميثريداتيس في عام ٧٤ ق . م ، فعهد السناتو الى قنصلي ذلك العام بمواجهة ذلك العدو العنيد ، واسند الى احدهما قيادة القوات البرية وحكم ولايتي كيليكيا وآسيا ، كما اسند الى الثاني قيادة القوات البحرية وحكم بيثينيا ، التي كان ملكها قد اوصى بها ـ قبل وفاته ـ للشعب الروماني ، فنفذت روما وصيته وحولتها الى ولاية ضمن ممتلكاتها(١٦) .

وفي عام ٧٤ ق . م ايضا اضطر السناتو الى منح البرايتور ماركوس انطونيوس سلطة بروقنصلية غير محدودة لمحاربة القرصان الذين عاثوا فسادا في البحر المتوسط ، وسببوا كثيرا من القلق لروما ، اذ كانوا يحولون دون وصول السفن المحملة بالغلال الى موانيء ايطاليا(١٧) وكان منح هذه السلطة الاستثنائية لانطونيوس سابقة خطيرة اتخذ منها بومبي بعد ذلك ذريعة لتحقيق اهدافه على نحو ما سوف نرى .

هكذا مضت الاحداث في روما ابان غيبة بومبي ، فكيف مضت بعد عودته ؟

مطالب بومبي وكراسوس

وجد السناتو نفسه امام ازمة سياسية خطيرة ، فهذان قائدان منتصران ، وكلاهما يرفض تسريح قواته ليضمن انصياع المجلس لمطالبه ، وبرغم ما كان بينهما من كراهية وما يضمر كل منهما للآخر من حقد ، الا انهما تفاهما على دفن هذا الحقد وتلك الكراهية ـ مؤقتا بطبيعة الحال ـ وقررا التعاون معا لتحقيق اطماعهما ، وهي اقامة موكب نصر لكل منهما(١٨) ، ثم ترشيحهما لمنصب القنصلية لعام ٧٠ ق . م .(١٩) .

وكان مطلب كراسوس الخاص بموكب النصر ، مطلبا مقبولا ومعقولا ، فهو قد اخمد ثورة العبيد الخطيرة ، وهو قد شغل منصب البرايتورية ، اما مطلب ترشيحه للقنصلية لعام ٧٠ ق . م . فكان

---

(١٦) App., Mithr., 7, B C. I, III, iv, Epit., 93; plut., Lucullus, V — VI.

(١٧) Plut., Ant., I وقد مني هذا القائد بالفشل في الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، ولقي هزيمة كبيرة اثناء هجومه على معقل القراصنة في كريت ومات هناك بعد قليل ، ومما يذكر هنا ايضا انه والد ماركوس انطونيوس عشيق كليوباترا السابعة ملكة مصر البطلمية

(١٨) كان بومبي يطالب لنفسه بموكب نصر كبير يتيح له دخول العاصمة في عجلة حربية ، وحول رأسه اكليل من الغار ، بينما طالب كراسوس بموكب صغير بحيث يدخل روما راجلا او ممتطيا جواده وحول رأسه اكليل من الريحان

(١٩) Plut., Pomp., XXI — XXII, Crassus, XI — XII; App., B.C., I, 121

يتنافى مع قانون سُلا الخاص بتنظيم تولي الوظائف ، لأنه كان بريتورا في عام ٧٢ ق . م . وبالتالي فلا يجوز له ان يرشح نفسه للقنصلية الا لعام ٦٩ ق . م . ولعل ادراكه لذلك هو الذي دفعه الى التفاهم مع بومبي والاحتفاظ بقواته دون تسريح كتهديد للسناتو .

اما بالنسبة لبومبي فلم يكن يحق له اقامة موكب نصر ، اذ لم يسبق له ان شغل منصب القنصلية او البرايتورية ، وكذلك لم يكن يحق له ان يرشح نفسه للقنصلية ، اذ لم يشغل من قبل منصب الكرايستور والبرايتور ، كما ان عمره كان يقل ستة اعوام عن السن المقررة لتولي هذا المنصب كما تقضي بذلك القواعد الدستورية .

لكن بومبي كان قد تعود الحصول على ما يريد بصرف النظر عن القواعد الدستورية ، فقد اذن له سلا باقامة موكب نصر كبير عقب انتصاره على خصوم هذا الدكتاتور دون ان يكون له حق قانوني في ذلك ، ثم ان السناتو منحه ـ استثناء ـ سلطة بروبرايتورية للقيام بحملة في صقلية وفي افريقيا ، وسلطة بروقنصلية لمحاربة سرتوريوس ، وفي كل هذه الحملات فاز وانتصر ، فلماذا لا يسمح له بتولي القنصلية مباشرة ، وهل يقبل ان يعود ـ بعد كل ما وصل اليه فعلا ـ فيبدأ من اول السلم ويحتل اولا وظيفة الكوايستور ؟

يضاف الى ذلك ان بومبي كان يثق بقدرته على تحقيق مطالبه بفضل شعبيته الهائلة ، واستنادا الى القوات التي لا تزال تحت امرته ، لكن السناتو كان في حالة قلق بالغ من ناحية بومبي وما يمكن ان يعمله اذا حقق له رغباته ، وهو في نفس الوقت يشعر بعجزه التام عن الوقوف في وجه هذا القائد الطموح : فالشعبيون معه قلبا وقالبا ، وكراسوس قد حالفه وتفاهم معه ، وميتيللوس لا يزال في اسبانيا ، ولوكوللوس منهمك في الحرب الثالثة ضد ميثريداتيس[٢٠] .

ومع كل ذلك فقد تظاهر السناتو بمظهر القوة ورفض ترشيح القائدين لمنصب القنصلية ، فما كان من بومبي ـ الذي استبعد استخدام القوة العسكرية حينذاك ـ الا ان لجأ الى العامة فألهب حماسهم واثار نفوسهم ، اذ نادى بضرورة اعادة سلطات التراينة الشعبيين اليهم كاملة غير منقوصة[٢١] ، كما لجأ فكسب ودهم وتأييدهم اذ وعدهم باعادة النظر في نظام تشكيل هيئات المحلفين ، وكانوا يتطلعون الى العودة لهذه الهيئات بعد ان انتزعها منهم سُلا[٢٢] .

(٢٠) R. Holmes, Ro., Rep., I, P. 390; C.A.H., IX pp.332 ff.; Heitland, Ro., Rep. III, pp.13 ff.
(٢١) Plut., Po.p., XXI; App., B.C., I,121
(٢٢) Cic., 1, in Verr., I, 15,45

هكذا ضمن بومبي تأييد عامة الشعب كما ضمن تأييد طبقة الفرسان ، وامام هذه الاوضاع ، ومع بقاء قوات هذا القائد وزميله كراسوس تحت امرتهما ، رضخ السناتو لمطالبهما ، فرشحا لمنصب القنصلية لعام ٧٠ ق . م . ثم ظفرا بها[٢٣] ، فكان ذلك خرقا واضحا لدستور سُلا الذي حاول منع الجيش من التدخل في الحياة السياسية الرومانية ، كما كان مثلا يمكن ان يحتذيه قادة آخرون ، وهذا يعني ان حربا اهلية يمكن ان تشتعل في اي وقت ، وان النظام الجمهوري كله بات على وشك الانهيار .

وما لبث القنصلان ان ردا الجميل للعامة وللفرسان ، فقد استدرا تشريعا يعيد الى ترابنة الشعب سلطاتهم كاملة ، وفي مقدمتها سلطة الاعتراض[٢٤] ، كما استصدرا تشريعا آخر يقضي باختيار هيئات المحلفين في المحاكم من بين رجال السناتو ورجال طبقة الفرسان وترابنة الخزانة العامة[٢٥] .

كذلك أعيد منصب الرقباء (Censores) الذي كان سُلا قد عطله ، فظل شاغرا من عام ٨٥ ق . م الى عام ٧١ ق . م ، وقام هؤلاء بمهمتهم على الفور ، فراجعوا قوائم اعضاء السناتو واستبعدوا منها اربعة وستين اسما ، كما قاموا بتسجيل أسماء المواطنين الجدد في جميع القبائل الرومانية ، وفي الوحدات المئوية .

وهكذا قوض بومبي ـ تلميذ سُلا ـ دستور استاذه تقويضا شاملا ، ولا يعني ذلك أن الجمهورية الرومانية باتت تنعم بالديموقراطية ، وانما اخذت تمضي قدما نحو نهايتها المحتومة على نحو ما سوف نرى .

وحين انتهى عام القنصلية بالنسبة لبومبي وزميله كراسوس آثرا التريث والانتظار حتى تحين لكل منهما فرصة مناسبة تتيح له الظفر بسلطة تناسب اطماعه .

بومبي والقراصنة :

وقد سنحت الفرصة المرتقبة لبومبي حين تفاقم خطر القراصنة في البحر الابيض المتوسط بعد فشل الحملات التي وجهت ضدهم في اعوام ١٠٢ ق . م و٧٧ ق . م . و٧٤ ق . م ، وتزايد نشاطهم تزايدا كبيرا ، فأصبح وصول القمح الى روما مهددا ، فارتفعت اسعاره ارتفاعا فاحشا ، وبالتالي عم السخط واخذ الناس يطالبون بالتصدي لاعمال القرصنة والقضاء على القراصنة[٢٦] .

---

(٢٣) Plut., pom., XXII

(٢٤) Plut., Pomp., loc., cit., Liv., Epit., Loc. Cit., Liv., Ept., 97

(٢٥) Cic., ad Att., I,16,3, Liv., Epit., Loc. Cit. وكان ترابنة الخزانة العامة يعملون في الأصل صيارفة في القوات المسلحة ، ثم اصبحوا يشكلون طبقة تلي طبقة الفرسان من حيث النصاب المالي ، وطبيعي ان مصالحهم كانت متوافقة مع مصالح طبقة الفرسان اكثر منها مع طبقة السناتو .

(٢٦) Plut., Pomp. XXIV — XXV, 1; Dio Cass. XXXVI 20 — 23

وفي اواخر عام ٦٨ ق . م غدت هذه المشكلة هي الشغل الشاغل للرومان جميعا مما دفع جابينيوس ـ وهو احد ترابنة عام ٦٧ ق . م ـ الى التقدم بمشروع قانون يقضي باسناد مهمة القضاء على القراصنة الى بروقنصل (قنصل سابق) مع منحه سلطات واسعة لم يسبق لها مثيل[٢٧] . ولم يقترح جابينيوس في مشروع قانونه اسما بعينه من اسماء القناصل السابقين لاسناد المهمة اليه ، لكن كان واضحا تماما للسناتو ان بومبي هو المقصود بالذات ، وقد ايد العامة والفرسان مشروع القانون ، لكنه ووجه من الارستقراطيين النبلاء بمعارضة شديدة . غير ان هذا التأييد الشعبي الكاسح مع تأييد شديد من جانب شيشرون ، وشاب نبيل آخر كان يبحث لنفسه عن مكان في الميدان السياسي ، ونعني به يوليوس قيصر ، كل اولئك كان كافيا ليحني السناتو رأسه ويرضخ للامر الواقع ويصدر قراره بالموافقة[٢٨] .

ولقد يقال ان هذا القانون كان من نفس طراز القانون الذي صدر في عام ٧٤ ق . م ومنح انطونيوس بمقتضاه سلطة بروقنصلية غير محدودة لمحاربة القرصان ، لكننا نرى الفرق بين القانونين كبير ، فقد منحت لبومبي في عام ٦٧ ق . م . سلطات وموارد وقوات تفوق كثيرا ما منح لانطونيوس ، فقد اسندوا لرجل واحد ـ هو بومبي ـ من السلطات والوسائل والاموال ما يكفي للسيطرة على العالم كله تقريبا كما قال احد المؤرخين القدامى[٢٩] . وفي وسعنا ان نعتبر قانون جابينيوس هذا ضربة قاصية وجهت الى السناتو ، وخطوة حاسمة في طريق دك دعائم النظام الجمهوري والتمهيد لقيام حكم الفرد الواحد .

وأسرع بومبي لتنفيذ المهمة التي اوكلت اليه[٣٠] ، وبرغم انه لم يستخدم الا بعض القوات التي

---

(٢٧) كان مشروع القانون ينص على تكليف بروقنصل واحد القيام بالمهمة على ان يتمتع بسلطة ثلاث سنوات ، ويكون في خلالها صاحب السلطة العليا في البحر المتوسط كله ، مع منحه كذلك سلطة كسلطة حكام الولايات الساحلية شاملة لمد خمسين ميلا من البحر ، ويوضع تحت تصرفه مبلغ ضخم من المال واسطول يضم مائتي سفينة واي عدد من المقاتلين والبحارة يراها هو ضروريا ، وفوق كل ذلك خمسة عشر مساعدا برتبة البروبريتور
(cf. Cio Cass , XXVI, 23; Plut., Pomp., XXV, 2—3)

(٢٨) Plut. Pomp., XXV, 3; Boak, Hist. Rome, p.215

ويقول بلوتارخوس ان يوليوس قيصر كان هو الوحيد من بين اعضاء السناتو الذي ايد المشروع ، لا حبا في بومبي ، وانما رغبة في اكتساب ود الشعب الذي ابدى حماسا منقطع النظير للمشروع ، وربما ايضا رغبة في التقرب من بومبي ، [illegible] . وقد حاول السناتو تسخير احد [illegible] ـ وهو لوكيوس تريبليوس ـ لمعارضة المشروع حين عرضه على الجمعية القبلية [illegible] ، لكن صاحب المشروع طلب من الجمعية عزل [illegible] من منصبه (كما فعل تيبريوس مع [illegible] من قبل) مما كان من هذا الرجل الا ان سحب اعتراضه ، [illegible] واسندت القيادة لبومبي ، بل انها [illegible] اسطوله الى خمسمائة سفينة ، كما زادت عدد مشاته الى مائة وعشرين الفا وعدد فرسانه الى خمسة الاف ، وعدد مساعديه الى اربعة وعشرين مساعدا
(cf. Cio Cass , XXXVIm 24—36; Plut., XXV, 4—7)

(٢٩) G. Velleius Paterculus, rom. Hist., II, 31,2

(٣٠) يقال انه بمجرد صدور قانون جابينيوس واسناد مهمة تطهير البحر المتوسط من القراصنة الى بومبي ، هبطت على الفور اسعار القمح في روما مع انه لم يكن قد بدأ في كفاحهم ، وهذا يدل على مدى الثقة الكبيرة التي كان بومبي يتمتع بها عند الرومان (cf. Plut., Pomp., XXVI,2.

وضعت تحت امرته ، الا انه استطاع ان يطهر البحر من القراصنة في مدى ثلاثة اشهر فقط . ولعل نجاح بومبي الى هذا المدى كان راجعا ـ ولو جزئيا ـ الى اعتداله في معاملة اسراه من القراصنة الى درجة ان الكثيرين منهم سلموا له تسليما ، وارشدوه الى مخابيء اخوانهم المختفين ، فما كان منه الا ان عفا عنهم ، ومنحهم حريتهم وسمح لهم باعمار بعض المدن التي يقل فيها عدد السكان ، وهكذا هيأ لهم سبيل العيش الشريف حتى يضمن عدم عودتهم الى القرصنة ثانية[٣١] .

اسناد الحرب في آسيا الى بومبي :

حين انتهى بومبي من حرب القرصان لم تكن المدة التي نص عليها قانون جابينيوس قد انتهت (ثلاثة اعوام) ، فاستقر ـ وقواته كلها تحت امرته ـ في كيليكيا يتطلع الى خوض حرب اخرى يحرز فيها نصرا جديدا . وكان لوكوللوس عاجزا عن انهاء الحرب التي كلف بقيادتها ضد ميثريداتيس ، فسعى بومبي الى تولي قيادة هذه الحرب بدلا منه ، وكان الرأي العام في روما يميل الى ذلك ، فتقدم التريبون جايوس مانيليوس في عام ٦٦ ق . م . ـ مستغلا فرصة السخط على لوكوللوس وساعيا الى التقرب من بومبي ـ بمشروع قانون يقضي باسناد حكم ولايات آسيا وكيليكيا وبيثينيا الى بومبي ، وكذلك اسناد قيادة الحرب في آسيا اليه ، وتكليفه حل المشاكل التي تعلق بها روما في الشرق ، وذلك كله مع احتفاظه بالسلطات التي خولها اياه قانون جابينيوس . وعرض المشروع على السناتو فعارضه زعيمه كاتوللوس وبعض اعضائه البارزين ، لكن المشروع عرض على الجمعية القبلية فوافقت عليه[٣٢] .

هكذا منح بومبي سلطات لم يحدث ان منحت لغيره من قبل ، ولقد كان في وسعه ان يصبح وحده سيد العالم الروماني حينذاك ، لكنه فوت الفرصة على نفسه ، وان كان قد اعطى قيصر درسا لكي لا يفوت مثلها حين تسنح له .

وتولى بومبي القيادة من لوكوللوس ، وعمل منذ اللحظة الاولى على الوصول الى نتيجة حاسمة فتحالف مع ملك بارثيا ، ودخل في مفاوضات مع الملك مثريداتيس ليشل حركته ويوقف نشاطه ، لكن هذه المفاوضات قطعت سريعا اذ تقدم بومبي بشروط لا يمكن قبولها . ودارت رحى القتال في عام ٦٦ ق . م . ، وانتصر بومبي ، واضطر ميثريداتيس الى الفرار الى ارمينيا التي ما لبث ان هرب منها هي

(٣١) لمزيد من المعلومات عن حرب بومبي ضد القراصنة ، انظر :

App., Mith., XIV, 94 — 96; Plut., Pomp., XXVI, 3 — XXIX; Liv., Ept., 99; Dio Cass., XXXVI, 18 — 19

(٣٢) Cic., pro lege Manilia; Plut., Pomp., XXX; App., Mith., 97.

وكان الشيشرون وقيصر من ابرز مؤيدي قانون مانيليوس هذا

الاخرى الى المدن الاغريقية في القرم ، بينما التقى بومبي بملك ارمينيا ـ تيجرانس ـ الذي سلم له دون قيد او شرط فأبقاه بومبي على عرشه كحليف لروما .

وفي ربيع عام ٦٤ ق . م . وضع بومبي تسوية مؤقتة للاوضاع في آسيا الصغرى ، واستقبل وهو في بونتس بعثة اوفدها اليه ميثريداتيس الذي كان قد تمكن من استعادة ممتلكاته الشمالية حول البحر الاسود ، وطلبت البعثة استرداد بونتس نظير الاعتراف بالسيادة الرومانية ، لكن المفاوضات لم يكتب لها النجاح ، فترك بومبي لاسطوله مهمة تشديد الحصار حول ميثريداتيس واتجه هو الى سوريا التي قرر ضمها الى الممتلكات الرومانية كي يستطيع تسوية اوضاع الشرق كلها ، وقد نجح في تحويلها الى ولاية رومانية ، كما نجح في بسط السيادة الرومانية على غرب آسيا ، اذ تدخل في الصراع الذي احتدم بين المتنافسين على عرش جوديا من كبار كهنة بيت المقدس ، وبعد حملة قصيرة عين كاهنا اكبر في بيت المقدس وولاه حكم جوديا . اما ميثريداتيس فقد قتله جنده الذين ثاروا عليه بزعامة ابنه المدعو ناوناكيس (عام ٦٣ ق . م .) وهكذا انتهت متاعب روما من هذا الملك الطموح ، وآن لها ان تستريح بعد ان لقيت منه اشد العناء[٣٣] .

ونظم بومبي الاوضاع في هذه الولايات الجديدة التي ضمها الى ممتلكات روما في الشرق ، فوضع لها دساتير خاصة ، ونشر في ارجائها الحضارة الاغريقية باقامة العديد من المدن الحرة ، وشجع الادارات المحلية على النهوض بأعبائها ، واستطاع ان يأتي للخزانة الرومانية بمبالغ ضخمة هائلة بفضل الضرائب التي فرضها هناك ، وتعويضات الحرب التي جمعها من المقهورين[٣٤] .

بيد اننا ينبغي الا ننسى ان هذه الامجاد العريضة انما كانت لفرد واحد ، ولقد كشفت هذه الحروب التي خاضها بومبي عن عجز السناتو التام عن مواجهة رغبات القادة الكبار ، وفي نفس الوقت لم تكن الجمعيات الشعبية قادرة على القيام بدور السناتو في القبض على زمام الامور وتوجيه سياسة الدولة . فماذا كانت النتيجة ؟ كانت طغيان الفرد القادر الذي يتحكم في قوات عسكرية كبيرة ، وبالتالي دك دعائم النظام الجمهوري ولعلنا لا نكون مسرفين اذا قلنا ان قيادة بومبي في الشرق والانتصارات التي احرزها هناك كانت نقطة التحول من النظام الجمهوري الى نظام حكم الفرد الواحد ، او هي بداية هذا التحول .

---

(٣٣) Boak., Hist. Ro., pp. 216 — 217

(٣٤) عن تنظيمات بومبي في الشرق راجع المصادر الآتية .

Plut., Pomp., XXXVIII — XLII, App., Mith., 114 — 115; Dio Cass., XXXVII., 7.

وانظر المراجع التالية .

C.A.H. IX, pp. 390 — 396; Jones, Cities East. Rom. Emp., pp. 157 ff., pp. 202 ff., T. Frank, Roman Imperialism, pp. 323 ff.

وبعد ان انتهى بومبي من عملية تنظيم الاوضاع في آسيا الصغرى وسوريا وفي الممتلكات الشرقية بوجه عام ، بدأ يجهز نفسه لعودة ظافرة الى ايطاليا بقواته المنتصرة ومعه غنائم الحرب التي ظفر بها من الشرق ، وينبغي ان نذكر هنا شيئا عن تطورات الاحداث في روما اثناء غيبته عنها التي طالت بضع سنين .

الواقع ان السلطات الاستثنائية الواسعة التي خولها بومبي قانون جابينيوس لحرب القراصنة وقانون مانيليوس لحرب ميثريداتيس ، جعلت مصير النظام الجمهوري معلقا بما ينتويه هذا القائد ، بصرف النظر عن السناتو والجمعيات الشعبية وما يصدر عنها من قرارات ، لقد اصبح الامر كله معلقا بالقوة وحد السيف ، وبنوايا الرجل الذي يملكها .

واشتد الصراع اثناء غيبة بومبي وبات الجميع في خوف من ان يترسم هذا القائد خطى استاذه سُلا ، ولا سيما انهيار النظام الجمهوري ، وعلى رأسهم شيشيرون وكاتُو . وكان الاخيار النبلاء يتمسكون بالنظام الجمهوري اشد التمسك ويريدون الابقاء عليه ، ولهذا فقد اتجه شيشيرون ـ وهو من طبقة الفرسان ـ الى حزب الاخيار ، وحاول ان يقيم وفاقا بينهم وبين الفرسان (Concordia Ordinu,) مؤملا ان يكون هذا الوفاق كفيلا بالذود عن النظام الجمهوري .

محاولات النيل من بومبي في غيبته :

ولما كان رجال السناتو في قلق شديد من بومبي ونواياه ، فقد انتهزوا فرصة غيابه في الشرق وكالوا الاتهامات لانصاره من ترابنة العامة ، واولهم كورنيليوس احد ترابنة عام ٦٧ ق . م . الذي اتهموه بالخيانة العظمى وقدموه للمحاكمة في عام ٦٦ ق . م ، لكن شيشيرون وقف الى جانبه وتولى الدفاع عنه فظفر بالبراءة[٣٥] . وثانيهم جابينيوس صاحب القانون الذي خول بومبي سلطة القيادة ضد القراصنة ، والذي احس بما يديره له الاخيار الارستقراطيون من اتهامات فرحل عن ايطاليا والتجأ الى بومبي في الشرق . وأما الثالث فكان مانيليوس صاحب قانون اسناد قيادة الحرب في اسيا الى بومبي بدلا من لوكوللوس ، وقد حوكم هذا بتهمة الخيانة العظمى وادين فعلا في عام ٦٥ ق . م .[٣٦] .

اما اكبر نصير للديمقراطيين الشعبيين اثناء غيبة بومبي ، فكان كراسوس الذي زامله في قنصلية عام ٧٠ ق . م . كما ذكرنا ، ومع ذلك فقد امتلأ كراسوس حقدا على بومبي بسبب هذه الامجاد العسكرية التي ظفر بها والمكانة الرفيعة التي وصل اليها ، فبذل كل ما في وسعه لجمع الانصار من حوله ، وبدأ

(٣٥) Cic . pro Corn.
(٣٦) Dio Cass., XXXVi, 44, 1 — 2; Plut . Cic . IX

يدبر الامر لتوطيد مركزه في روما مستعينا بعدد من المؤيدين الذين كانوا على استعداد للوقوف معه في وجه بومبي ، وكان على رأس هؤلاء يوليوس قيصر[٣٧] الذي كان يأمل ان يهيء له تعاونه مع كراسوس فرصة جيدة لبناء مستقبله السياسي .

وقد انتخب كراسوس لمنصب الرقيب (Censor) لعام ٦٥ ق . م . فأوعز الى احد ترابنة العامة ان يتقدم بمشروع قانون يقضي بضم مصر وتحويلها الى ولاية رومانية على ان يكلف قيصر بمهمة تنظيمها بعد ضمها[٣٨] .

ولاشك أن هدف كراسوس من ضم مصر كان اتخاذها قاعدة عسكرية ضد بومبي عند الضرورة ، ولا شك ايضا ان الفرسان رحبوا بهذا المشروع لانه يفتح امامهم سوقا يحصلون منه على ثروة طائلة ، كما ايده الشعبيون لأنه يضمن لهم موردا يمدهم بكل ما يحتاجون اليه من الغلال ، لكن المشروع لو نفذ فانه يحرم الارستقراطيين النبلاء من رشاوي ملك مصر حينذاك وهو بطليموس الزمار ، الذي لم يعترف به السناتو ملكا على مصر مع انه كان قد ارتقى عرشها في عام ٨٠ ق . م . فلجأ الى شراء ذمم اعضائه الجشعين بالرشاوي الضخمة التي كان يقترضها من الرأسماليين وهم من كبار رجال طبقة الفرسان ، واستطاع السناتو ان يقنع كاتوللوس زميل كراسوس في الكنسورية بالاعتراض على المشروع فاستجاب لهم ، وقام شيشيرون بدور كبير في المعارضة ، فالقى ضد المشروع خطبة قوية في السناتو[٣٩] . وهكذا وقف النبلاء مع الفرسان صفا واحدا ضد كراسوس ومشروعه فرفض .

لكنّ كراسوس ـ بعد ان مني بهذا الفشل ـ حاول ان يفيد من ناحية اخرى للوصول الى هدفه ، ذلك ان روما آنذاك كانت تعاني كثيرا من الذين صودرت ممتلكاتهم باوامر الدكتاتور سُلا ـ بوصفهم من انصار غريمه ماريوس ، ومن الذين استبعد الكنسوران في عام ٧٠ ق . م . أسماءهم من قوائم مجلس السناتو ، وكان المدعو كاتيلينا ابرز هؤلاء على الاطلاق ، وهو سليل اسرة شريفة لكنه اشتهر بفساد اخلاقه واساليبه المعوجة ، وبرغم ذلك فقد وصل الى منصب البرايتور عام ٦٨ ق . م . ثم عين حاكما

---

(٣٧) لم يكن قيصر قد برز كشخصية سياسية لها قدرها بعد ، لكنه اخذ يشق طريقه الى مسرح السياسة بخطى سريعة ثابتة . ولد حوالي عام ١٠٠ ق . م من اسرة شريفة ، وكان ماريوس قد تزوج من عمته ، بينما تزوج هو نفسه من كورنيليا ابنة [illegible] ، [illegible] الى الانحياز لحزب الشعبيين ، وقد امره سلا بالانفصال عن زوجته فأبى وغادر روما ، وقد وقع اسيرا في قبضة القراصنة وهو في الشرق بين عامي ٨٠ و٧٨ ق . م فافتدى نفسه بفدية ضخمة . وبعد وفاة سلا عاد الى روما وانتخب لمنصب الكوايستور عام ٦٩ ق . م . وانضم الى كراسوس ليقف معه في وجه بومبي . وفي عام ٦٥ ق . م تولى منصب الايديل فاكتسب العامة اليه ببذخه الشديد والالعاب الفاخرة التي كان يقيمها لهم ، وقد اضطر بسبب اسرافه الشديد الى الاستدانة من كراسوس الذي حالفه . وحاول [illegible] بعد ذلك تعيين قيصر في منصب يلقى [illegible] ثروة كبيرة تعينه على سداد ديونه

Cf. Oxford Class Diction., pp 153 — 154., Cic . de Leg., II, 22,26;Plut., Caes., V,6

(٣٨) Plut , Crass., XIII.

(٣٩) Cic., De Tege Alexandrino

على ولاية افريقيا عام ٦٧ ق . م . وفي عام ٦٥ رشح نفسه لمنصب القنصلية غير انه اتهم بابتزاز الاموال من اهالي ولايته(٤٠) فاستبعد من قائمة المرشحين للمنصب ، فامتلأت نفسه بأشد الحقد واكبر الغيظ وقرر الانتقام لنفسه .

واتفق كاتيلينا مع القنصلين اللذين ظفرا بالمنصب ، ثم استبعدا لادانتهما بالرشوة على اغتيال القنصلين اللذين اختيرا بدلا منهما ، ثم الاستيلاء على مقاليد الحكم في اليوم الاول من شهر يناير عام ٦٥(٤١) لكن السناتو احس بهذه المؤامرة واستطاع ان يحبطها قبل تنفيذها(٤٢) .

واذا كان كراسوس لم يشترك في هذه المؤامرة ، الا انه عمل على الافادة منها بحماية المتآمرين من المحاكمة ، ثم بتسخيرهم لخدمته نظير ذلك ، فلم تجر اية محاكمة او تحقيق مع المتآمرين ، بل ان احدهم ـ وهو بيسو ـ عين حاكما على ولاية اسبانيا الدانية برتبة بروبرايتور ، وذلك من باب اتخاذ الحيطة ضد نوايا بومبي حين عودته ، اذ يمكن اتخاذ هذه الولايات قاعدة عسكرية خارجية للافادة منها عند الضرورة ، لكن احد الاسبان ما لبث ان اغتال بيسو لسوء خلقه وسوء تصرفاته(٤٣) .

وبعد حصول كاتيلينا على البراءة من تهمة ابتزاز الاموال التي وجهت اليه ، عاد فرشح نفسه لقنصلية عام ٦٣ ق . ، وقام كراسوس بتمويل حملته الانتخابية وكذلك حملة زميله المرشح الآخر وهو جايوس أنطونيوس ، وقام قيصر بدور كبير في تأييد كلا المرشحين ، لأنه لا هو ولا كراسوس كانا يستطيعان ترشيح نفسيهما للقنصلية حينذاك ، فهذا الاخير لم يكن قد قضى السنوات العشر التي ينبغي ان تنقضي على توليه القنصلية الاولى في عام ٧٠ ق . م ، واما قيصر فلم يكن قد تولى بعد وظيفة البرايتور التي تؤهله للترشيح لوظيفة القنصلية ، ثم انهما كانا ـ حينذاك أيضا ـ لايملكان القوة العسكرية التي يستندان اليها اذا فكرا في خرق حرمة القانون ، فمن الافضل لهما في هذه المرحلة ان يعينا كاتيلينا وزميله أنطونيوس على الظفر بالقنصلية ليصبحا من بعد أداة في قبضتهما ، تعينهما على تسخير كل امكانيات الدولة للوقوف في وجه بومبي .

أما المرشح الثالث فكان شيشرون الذي أثبت كفايته حين كان كوايستورا ثم بريتورا ، وكانت تؤيده طبقة الفرسان التي ينتمي اليها ، ولم يكن يعيبه ـ في نظر الرومان ـ الا أنه كان « رجلا جديدا » لم يسبق لأحد من رجال عشيرته ان تولى منصب القنصلية .

---

(٤٠) حصل كاتيلينا على البراءة من هذه التهمة لكن بعد فوات الأوان
(٤١) Sallust., B.C., XVII — XVIII
(٤٢) تعرف هذه المؤامرة باسم مؤامرة كاتيلينا الأولى
(٤٣) Sallust., Loc. cit., XIX,3

وقد أسرف كاتيلينا في توزيع الرشاوي السخية للظفر بالمنصب ، بل انه تبجح فكان يوزعها علانية في غير حياء ، وادى مسلكه هذا الى عزوف الكثيرين من أعضاء السناتو عن تأييده ، فضلا عن احساسهم بان كراسوس وقيصر يؤيدانه ، وكلاهما يمثل خطرا جسيما على النظام الجمهوري لايقل عن خطر بومبي ، وانتهز شيشيرون هذه الفرصة فاستغلها لصالحه وألقى خطبة من خطبه النارية ضد كاتيلينا الذي ارتكب أبشع الجرائم ايام الدكتاتور سُلا . (٤٤)

وأجريت الانتخابات ففاز كل من شيشيرون وانطونيوس بمنصب القنصلية بينما فشل كاتيلينا ، وبرغم ان نجاح انطونيوس جاء نتيجة للمساعدة التي بذلها له كراسوس وقيصر ، الا ان شيشيرون استطاع ان يجتذب زميله الى صفه ويبعده عن أن يتحول الى أداة في يد كراسوس وقيصر ، اذ وعده بالتنازل له عن ولايته (مقدونيا) في نهاية عام قنصليتهما ، وأن يأخذ هو ولاية بلاد الغال جنوب الالب التي جاءت من نصيب انطونيوس ، وهي ولاية فقيرة لا تعود على حاكمها بنفع يذكر ، وذلك شريطة الامتناع عن المشاكسة والسير في ركاب المعارضة .

وهكذا ذهبت محاولات كراسوس وقيصر في السيطرة على القنصلين هباء ، برغم كل مابذلاه من جهد ، وكل ما أنفق كراسوس من اموال .

ولم ييأس كراسوس وزميله قيصر ، وانما فكرا في أمر آخر يرفع قدرهما ويعلي مكانتهما في روما ويعينهما على الوقوف في وجه بومبي ، ذلك ان كراسوس لجأ الى أحد ترابنة عام ٦٣ ق . م وهو المدعو سرفيليوس روللوس ، واقنعه بالتقدم بمشروع قانون يقضي بتوزيع اقطاعات من الاراضي الزراعية في ايطاليا على فقراء الرومان مع منحهم الحق في توريثها لأبنائهم دون الحق في بيعها للغير ، وفعلاتقدم روللوس بهذا المشروع في الأيام الأخيرة من ديسمبر عام ٦٤ ق . م (عقب اعتلائه المنصب في العاشر من ديسمبر) قبل ان يعتلي شيشيرون وزميله منصبيهما في الأول من يناير عام ٦٣ ق . م .

والمشروع في ظاهره لاغبار عليه اطلاقا ، بل هو يؤدي الى اصلاح اقتصادي واجتماعي كبير . فلسوف يخفف عبء الحياة عن اللذين صودرت ممتلكاتهم أيام سُلا ، ولسوف يزدهر الريف بالنازحين اليه ، ولسوف تتخلص روما - جزئيا على الاقل - من ازدحامها الشديد . . . . ولكن من أين الاراضي التي توزعها الدولة على الفقراء ؟ ان ما تبقى من الأراضي العامة يقل كثيرا عن المساحات اللازمة ، ولهذا فقد رأى مقدم المشروع النص فيه على ان تقوم الدولة بشراء ما تحتاج اليه من الاراضي الخاصة

---

(٤٤) Cic., Oratio in Toga Candida.

ومعناها خطبة بالتوجا البيضاء ، وذلك لأن شيشيرون ألقاها وهو يرتدي التوجا (الرداء القومي الروماني) البيضاء التي يرتديها المرشحون للوظائف العامة ، والواقع ان ما وصلنا من هذه الخطبة لا يعدو بعض شذرات قليلة .

لتقسيمها الى اقطاعات ثم توزيعها ، كما نص فيه ايضا على وسائل تمويل عملية الشراء هذه وعلى أسلوب التنفيذ . فقد جاء فيه ان تقوم الدولة بشراء كل الاراضي التي آلت اليها في الخارج منذ كان سُلا قنصلا في عام ٨٨ ق . م ، وخول المشروع القائمين على تنفيذه ـ اذا تعذر بيع كل الممتلكات الخارجية ـ فرض ضرائب أو ايجارات على الاراضي التي لاتباع ، ثم اقترح صاحب المشروع فوق ذلك كله أن تضاف الى ميزانيته كل الأموال التي غنمها بومبي من فتوحاته .

واوكلت مهمة التنفيذ الى لجنة مؤلفة من عشرة افراد، على أن يتمتعوا طوال خمس سنوات بسلطة بروبرايتورية لفض أي نزاع يثار حول ملكية الاراضي .

وبعد ، فان كل هذا الذي تضمنه القانون ، يكشف بوضوح حقيقة نوايا مقدمه ، أو الذين دفعوه الى تقديمه : فقد أُريد له ان يصبح نافذا في شهر يناير عام ٦٣ ق . م . فلماذا هذه العجلة الشديدة التي لا مبرر لها ؟ ثم لماذا تمنح اللجنة التنفيذيه العشرية هذه السلطات الواسعة طيلة أعوام خمسة مع منحها هذه الموارد الهائلة ؟

لسوف يعود بومبي من الشرق عما قريب ومعه قرابة اربعة آلاف جندي ، ولن يجد بعد تنفيذ المشروع أية مساحات من الاراضي لتوزيعها عليهم ، فواضح إذاً ان تقديم هذا المشروع ومحاولة تنفيذه بهذه السرعة ، كان محاولة جديدة من كراسوس وقيصر للظفر بمزيد من التاييد والقوة داخل روما قبل أن يعود اليها بومبي ووضعه في موقف حرج أمام جنده العائدين معه .

وادرك شيشرون الأهداف الحقيقية للمشروع فانبرى ومعه الفرسان والنبلاء لمعارضته ، وقد القى في هذا الصدد اربع خطب لم تصلنا منها سوى ثلاث (٤٥) ، اما الأولى فقد القاها على مسامع رجال السناتو في اليوم الاول من شهر يناير ، واما الثانية والثالثة فقد ألقاهما في الجمعية القبلية ، وكانت أولى هاتين الخطبتين الأخيرتين هي التي أثارت العامة إثارة بالغة ، وجعلتهم يقفون ضد المشروع وقفة عنيفة الى درجة ان روللوس اضطر لسحبه قبل التصويت عليه (٤٦) ، فقد أفهمهم شيشيرون ان روللوس ليس الا اداة في يد أعداء بومبي ، وأن هذه السلطات والموارد التي منحت للجنة العشرة ، انما منحت لهم ليملؤا جيوبهم بالاموال ، ولعلهم يشترون اراضي مجدبة غير صالحة للزراعة من المقربين اليهم ثم يوزعونها على الفقراء فيعجز هؤلاء عن زراعتها واستثمارها . (٤٧)

---

(٤٥) تعرف هذه الخطب الأربع باسم (Delege Agraria) ، راجع عنها : Hietland, Rom. Rep. III, pp. 86—87

(٤٦) E.G. Hardy, Some Problems of Roman History, pp. 68 ff.

(٤٧) استطاع شيشرون ان يؤثر على الشعب ، واذ يشعل حماسهم لرفض المشروع اذ افهمهم ان صاحبه ليس الا اداة يحركها غيره من يريدون الكيد لبومبي ، فضلا عن كون الموافقة عليه تعني خروج العامة من روما التي يعيشون فيها حياة سهلة راغدة ، ويتمتعون بمناعم حفلاتها ويبهر حاناتها العامرة وملاهيها الحافلة ، ويحصلون فيها على القمح بلا ثمن ، يحرمون من كل ذلك ويطلقون الى حياة الريف حيث الكد والتعب في فلاحة الأرض التي ربما تكون من النوع المجدب الذي لا خير فيه .

هكذا فشل كراسوس وقيصر مرة اخرى في تحقيق اهدافهما ، وكانت تلك اخر محاولاتهما للكيدلبومبي اثناء غيابه عن روما ، فقد باتت عودته وشيكة ، ومن الحكمة ان يكفا عن القيام بأي عمل يوغر صدره ويدفعه الى استعمال القوة ضدهما .

قيصر برايتورا وكاهنا اعظم :

ومع ذلك فان قيصر ـ رغم هذه الهزيمة التي مني بها مع زميله كراسوس ـ لم يكف عن التفكير في توطيد مركزه في روما قبل ان يصل اليها بومبي ، فانتهز فرصة وفاة الكاهن الاعظم ـ ميتيللوس ليوس ـ في شتاء عام ٦٤ ـ ٦٣ ق . م . ، وعقد العزم على الظفر بهذا المنصب الذي يتمتع به شاغله مدى حياته مع اختصاصات واسعة تهيء له مكانة بارزة في الحياة العامة . لكن احد تشريعات سُلا كان يقضي بأن الجماعات الدينية وحدها هي التي تختار اعضاءها ، فلابد اذا من ان يصبح قيصر اولا عضوا في جماعة الكهنة حتى يمكن ترشيحه لمنصب الكاهن الاعظم ، وذلك امر مستبعد ، ولهذا فقد اتفق قيصر مع احد ترابنة العامة ـ وهو تيتوس اتيوس لابينوس كي يتقدم بمشروع قانون ينسخ تشريع سُلا ، ويقضي بالعودة الى طريقة الانتخاب الشعبي العام لاختيار اعضاء الجماعات الدينية ، وقد تم ذلك فعلا ، وصدر القانون المطلوب ، وتم اختيار قيصر عضوا في جماعة الكهنة ، وبذلك اصبح مؤهلا لترشيح نفسه لمنصب الكاهن الاعظم .

ورشح قيصر نفسه ، وكان ينافسه قنصلان سابقان ، لكنه اكتسحهما في عملية الانتخاب وظفر بالمنصب بفضل الرشاوي الكبيرة التي وزعها في سخاء ، وما لبث بعد ذلك ان رشح نفسه لوظيفة البرايتورية لعام ٦٢ ق . م . وظفر بها هي الاخرى ، وهكذا اصبح قيصر كاهنا اعظم وبرايتورا[٤٨] .

مؤامرة كاتيلينا[٤٩] :

هدأ قيصر بعد هذا النصر الذي احرزه ، لكن كاتيلينا لم يهدأ منذ فشل في انتخابات القنصلية لعام ٦٣ ق . م . فقد تراكمت عليه الديون ، وتخلى عنه كراسوس تحسبا لعودة بومبي الوشيكة . لذلك رشح نفسه لقنصلية عام ٦٢ ق . م . واعلن في دعايته الانتخابية انه اذا فاز بالمنصب فسوف يلغي كافة

(٤٨) Dio Cass., XXXVII, 37; Plut., Caes., VII

(٤٩) Cic., In Cat., I — IV; Dio Cass., XXXVII, 30 — 42; Sallust., XX ff., Plut., Cic., XIV — XXII; Caes., VII — VIII; Hietland, Rom. Rep., III, pp. 93ff.; Holmes, Rom. Rep., I pp. 455ff.

الدبون ، وهدفه هو اجتذاب اصوات النبلاء المفلسين ، وكذلك اصوات الفلاحين الذين رهنوا اراضيهم .

لكن شيشيرون قنصل عام ٦٣ ق . م قام بدعاية مضادة ، وحذر جماهير الغاضبين من اساليب العنف التي اشتهر بها كاتيلينا ، ومن سياسة التطرف الشديد التي يمارسها . وانضم الى شيشيرون في موقف المعارضة الكثيرون من رجال السناتو الذين اعتبروا كاتيلينا خطرا كبيرا على النظام الجمهوري ، فاذا به يفشل في الانتخابات مرة اخرى(٥٠) ، ففقد صوابه واخذ يدبر مؤامرة للاستيلاء على مقاليد الحكم في روما بالقوة(٥١) .

وكان شيشيرون بخطبه النارية هو السبب الرئيسي في سقوط كاتيلينا في الانتخابات ، ولهذا فقد قرر كاتيلينا قتله ، وقتل اعضاء السناتو الذين اعربوا عن تأييدهم له . لكن الشكوك بدأت تساور شيشيرون حين علم ان كاتيلينا يكثر من عقد اجتماعات سرية مع اعوانه ، وما لبثت هذه الشكوك ان اصبحت يقينا حين ضعف احد المتآمرين ـ وهو المدعو كوينتوس كوريوس) امام محظيته فولفيا (Fulvia) ، فأفضى اليها بتفاصيل المؤامرة ، فانزعجت غاية الانزعاج ، وهالها الامر ، وما كان منها الا ان اتصلت بشيشيرون وابلغته كل شيء عرفته ، فكافأها مكافأة سخية وطلب اليها مداومة الاتصال به وابلاغه كل جديد يصل الى علمها عن المؤامرة والمتآمرين .

وعرف شيشيرون منها ان المتآمرين كانوا اخلاطا من العبيد المحررين ، وبعض اعضاء السناتو ، وعددا من الفرسان ، وكذلك بعض ضباط سلا القدماء ، وعلى رأسهم مانليوس الذي كلف بتجهيز جند سُلا القدامى الذين منحوا اقطاعات في اترووريا ، على ان يتجمع هؤلاء في برانيستي في السابع والعشرين من اكتوبر للزحف على روما ليلا ومفاجأة سكانها في صباح اليوم التالي ، ومن ثم القبض على اعداء كاتيلينا واعدامهم وتسلم زمام الحكم في الدولة .

وبعد ، فتلك معلومات بالغة الدقة وقف عليها شيشيرون ، لكنه كان لا يستطيع ان يقوم بأي اجراء ايجابي دون الحصول من السناتو على « قراره النهائي » ، وهذا لا يصدره السناتو الا بعد الحصول على ادلة قوية دامغة . . وسرعان ما جاء الدليل القاطع حين ايقظ كراسوس شيشيرون في احدى ليالي النصف الثاني من شهر اكتوبر واعطاه مجموعة من الرسائل سلمها اليه شخص مجهول ، فاذا بها كلها موجهة الى بعض أعضاء السناتو ، ومتضمنة تحذيرا من مذبحة توشك ان تقع في العاصمة ، ثم تنصحهم بالفرار من روما طلبا للنجاة .

---

(٥٠) Plut., Cic., XIV, Dio Cass., XXXVII, 29, Sallust., B C., XXIV — XXV; C.A.H., IX, pp. 491 — 494

(٥١) Cf L. Huchinson, The Conspiracy of Cataline, 1967

وايا كانت الحقيقة في هذا كله ، فقد استند اليها شيشيرون ودعا السناتو للانعقاد في اليوم التالي ، وافضى الى اعضائه بكل ما لديه من معلومات ، قائلا ان المذبحة المشار اليها في الرسائل سوف تنفذ في اليوم الثامن والعشرين من شهر اكتوبر . وقد طلب اليه السناتو القيام بمزيد من التحريات لتقصي الحقيقة .

وبعد يومين آخرين ، ابلغ شيشيرون مجلس السناتو ان مانليوس ـ وهو احد الضالعين في المؤامرة ـ بدأ يتحرك بقواته في اتروريا استعدادا للهجوم على روما في اليوم السابع والعشرين من اكتوبر ، وقد ايده في ذلك احد اعضاء السناتو بناء على معلومات وصلته هو الآخر عن تلك المؤامرة .

وبعد ان استمع المجلس الى تلك الاقوال اصدر « قراره النهائي » الى شيشيرون لمواجهة الكارثة وحماية الدولة ، وعلى الفور بدأ هذا بحشد قواته العسكرية للتصدي للمتآمرين ، وشكل حرسا خاصا لحماية روما وبرايتسق ، وهكذا خيب شيشيرون آمال كاتيلينا الذي آثر التريث ، لكنه لم يستطع القبض عليه لافتقاره الى الادلة التي تدينه وتثبت انه المدبر لهذه المؤامرة . وانقضى الثامن والعشرون من اكتوبر في هدوء .

لكن شيشيرون عاد فجمع السناتو في الثامن من نوفمبر من نفس العام (٦٣ ق . م) اي بعد عشرة ايام فقط من اليوم الذي كان محددا لتنفيذ المؤامرة ، وادلى للاعضاء بمعلومات جديدة تجمعت لديه ، ذلك ان فولفيا ابلغته بنبأ خطة جديدة رسمها كاتيلينا مع اعوانه بعد فشل خطتهم الاولى ، وذلك في اجتماع عقده هؤلاء الاعوان مع زعيمهم في اليوم السادس من شهر نوفمبر ، وكانت الخطة هذه المرة تقضي باشعال ثورة جامحة في العاصمة تبدأ بقتل شيشيرون في منزله ، ثم اضرام النيران في انحاء متفرقة من روما في وقت واحد ، ثم اطلاق العبيد للقيام باعمال السلب والنهب ، وبعد ذلك يقود كاتيلينا القوات الموجودة في شمال اتروريا ويزحف بها على روما .

وحين اجتمع السناتو القى شيشيرون على اعضائه خطبته الشهيرة التي عرفت باسم « الخطبة الاولى ضد كاتيلينا » ، والغريب ان كاتيلينا شهد الاجتماع واستمع الى شيشيرون وهو يشرح خطة المتآمرين ، ويهاجم كاتيلينا بأعنف العبارات ، ثم توجه إليه في اخر الخطبة طالبا منه ان يريحه هو شخصيا وان يريح روما كلها ويرحل الى جيشه الثائر في اتروريا !! والغريب ايضا ان كاتيلينا استجاب لهذا المطلب وسافر فعلا الى اتروريا لتنظيم قواته الثائرة هناك ، وهي القوات التي كان يقودها مانليوس ، وحين علم السناتو بذلك اصدر قراره باعتبار الرجلين عدوين للدولة .

وقبل ذلك كان شيشيرون قد القى « الخطبة الثانية ضد كاتيلينا » في اجتماع عام للمواطنين بهدف

بث الطمأنينة في نفوسهم معلنا للمتآمرين انه سوف ينزل اشد انواع العقاب بكل من تحدثه نفسه بالقيام باي عمل من اعمال العنف والشغب .

وطال الانتظار برجال كاتيلينا في العاصمة ، اذ طالت غيبته في اتروريا ، فرأوا البدء بتنفيذ المؤامرة دون انتظار لعودة زعيمهم ، وذلك باشعال النيران في انحاء العاصمة ، واطلاق العبيد للقيام باعمال السلب والنهب وقتل شيشيرون وعدد من مؤيديه من رجال السناتو ، ثم فتح ابواب العاصمة ليدخلها كاتيلينا بقواته دون عناء .

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، ذلك ان بعض سكان ولاية بلاد الغال عبر الالب ، ارسلوا سفراءهم الى السناتو يشكون مما ينزله بهم المرابون الرومان ، لكن احدا لم يستمع اليهم ، فيئسوا وهموا بالرجوع الى بلدهم ، وهنا انتهز المتآمرون الفرصة ، فاتصلوا بهم ووعدوهم بحل مشكلتهم اذا هم زودوا جيش كاتيلينا بفرقة من فرسانهم ، فما كان منهم الا ان اتصلوا بشيشيرون وابلغوه بما كان من المتآمرين ، فطلب هذا اليهم التظاهر بالموافقة شريطة ان يعطيهم المتآمرون وثيقة مكتوبة وعليها اختام زعمائهم وكاتيلينا نفسه . . . ووقع المتآمرون في الشرك فحرروا الوثيقة المطلوبة وعليها اختام كاتيلينا وزعماء المؤامرة ، فما كان من شيشيرون الا ان قبض على الموقعين على الوثيقة .

وفي اوائل ديسمبر اجتمع السناتو واستمع اعضاؤه الى القصة كاملة من افواه السفراء ، واعترف المتآمرون امامهم بصحة اختامهم التي على الوثيقة ، فقرر السناتو تحديد اقامتهم في منازل بعض الشخصيات البارزة ، كان قيصر واحدا منهم ـ ثم القى شيشيرون الخطبة الثالثة ضد كاتيلينا ليفهم العامة انه بالعمل الذي قام به قد انقذ فقراء العامة من حرق منازلهم وان العناية الالهية هي التي وفقته في كل ما قام به .

وفي الخامس من ديسمبر اجتمع السناتو مرة اخرى لاتخاذ قرار في شأن المحتجزين من المتآمرين ، وبعد مناقشة حامية ـ شارك فيها قيصر ـ صدر القرار باعدامهم ، وكان ذلك هو الرأي الذي تحمس له ونادى به التريبون ماركوس كاتو ، ونفذ شيشيرون القرار على الفور ، ووجد قيصر نفسه في موقف لا يحسد عليه ، لانه خطب خطبة طويلة في السناتو تحذر من اعدامهم وتكتفي بنفيهم ومصادرة ممتلكاتهم مراعاة للقواعد الدستورية وهكذا وقعت الخصومة بينه وبين التريبون كاتو ، وهي خصومة سوف نرى لها اثرا كبيرا في السياسة الرومانية عما قليل ـ وكاتو هذا هو ابن حفيد كاتو الكبير الذي شهد الحرب البونية الثانية وصاحب العبارة الشهيرة ـ لابد من تدمير قرطاجنة ـ وقد ورث عن جده الاكبر الكثير من صفاته ـ اما شيشيرون فقد اغدق عليه السناتو لقب « ابو الوطن » (Pater Patriae) .

وبعد ذلك ، وعندما تولى الترابنة الجدد مناصبهم في العاشر من شهر ديسمبر عام ٦٣ ق . م . ندد واحد منهم - وهو المدعو نيبوس - بمسلك شيشيرون المجافي للدستور ، وتقدم بمشروع قانون لاستدعاء بومبي وتكليفه مهمة القضاء على كاتيلينا الذي كان لا يزال مع قواته في اتروريا بل وانقاذ الدستور من استبداد شيشيرون (الذي كانت لا تزال امامه فترة تزيد على اسبوعين حتى تنتهي مدة قنصليته) . وانتهز قيصر هذه الفرصة للتقرب من بومبي وكسب وده ، فأيد المشروع ، لكن احد زملاء نيبوس عارضه بشدة ، وثار شغب شديد في العاصمة فأصدر السناتو « قراره النهائي » لحماية الدولة ، وهنا اضطر نيبوس الى الفرار من روما فغادرها ولجأ الى بومبي في الشرق ، وفي خلال هذه الازمة انتهت قنصلية شيشيرون[٥٢] .

ودب اليأس في قلوب اعوان كاتيلينا فاخذوا ينفضون من حوله ، ولما فقد كل امل في دخول روما حاول شق طريقه الى ولاية بلاد الغال عبر الالب ، لكن القوات الحكومية تصدت له وسدت عليه كل السبل واخيرا اكره على خوض معركة يائسة مع هذه القوات عند بيستوريا (بالقرب من فلورنسا) حيث لقي مصرعه في اوائل يناير من عام ٦٢ ق . م .[٥٣] .

الوفاق بين النبلاء والفرسان :

وهكذا خلصت روما من شر مستطير بالقضاء على كاتيلينا ومؤامراته ، وادرك ان ضربا من التفاهم والوفاق قد تم بين طبقتي الفرسان والنبلاء ، اذ دفن رجال الطبقتين ما بينهما من حقد وبغضاء ، وتعاونا معا لدفع اخطار المؤامرة ، فرأى ان استمرار هذا الوفاق يكفل دون ريب قيام حكومة قادرة على حماية النظام الجمهوري ، وعلى نشر الهدوء والاستقرار ، وتوفير الحياة الآمنة الكريمة للرومان[٥٤] .

ولتحقيق هذا الهدف ، رأى شيشيرون انه بحاجة الى كسب ود قائد كبير ليتعاون معه في هذا الصدد ، فيحمي مثل هذه الحكومة بعد تشكيلها ولو باستخدام القوة اذا لزم الامر . ولم يكن هناك من يفضل بومبي للقيام بهذه المهمة ومن ثم حاول كسبه الى جانبه لاقامة الوفاق المنشود ، لكن بومبي لم يكن صافي النية تجاه شيشيرون لانه انفرد بالقضاء على مؤامرة كاتيلينا دون ان يستعين بالقائد المظفر بومبي ، ولانه بالغ في التحدث عن نفسه كمنقذ لروما من خطر ماحق كان يتهددها ، كأنما يريد ان يجعل من نفسه ندا لبومبي .

(٥٢) Dio Cass., XXXVII, 43; Plu., Cic., XXIII

(٥٣) Sallust., B.C., LVI — LXI, Dio Cass, XXXVII, 39 — 41

(٥٤) J.R.S., 1954, pp 1ff ; Class. Quart., 1960, pp46 ff.

لذلك جاء رد بومبي على الرسالة التي بعث بها اليه شيشيرون بشأن الوفاق ، مخيبا تماما لكل آمال هذا الاخير الذي لاذ بالصمت ، ثم قضى النبلاء بعد ذلك على كل ذرة امل في نجاح الفكرة بالموقف المتعنت الذي اتخذوه لانفسهم تجاه بومبي حين عاد من الشرق على نحو ما سوف نرى .

بومبي يعود من الشرق :

عاد بومبي من الشرق في اواخر عام ٦٢ ق . م . فأذهل الجميع بمسلكه ، ذلك انه حين نزل بميناء برنديزي سرّح قواته كلها ولم يستبق منها غير حرس قليل العدد احتفظ به الى حين الاحتفال بانتصاراته ، وكان النبلاء بخاصة يعتقدون انه سوف يحتفظ باكامل قواته لعله ـ استنادا اليها ـ يفعل ما فعله من قبل ـ استاذه سُلا باعدائه .

ويبدو ان بومبي لم يكن يتطلع حينذاك الى انهاء نظام الحكم الجمهوري واقامة حكم فردي ، فتلك مغامرة محفوفة بالمخاطر غير مأمونة العواقب ، انما كان يعتقد انه اصبح الرجل الوحيد الذي يستطيع انقاذ روما من اي مخاطر او ازمات تتعرض لها وان مقاليد الامور في الدولة سوف تؤول اليه بطريقة شرعية ودون عناء بعد كل الانتصارات التي حققها وبعد المكانة التي وصل اليها . وحين وصل الى العاصمة واجتمع مجلس السناتو ، القى على اعضائه خطابا ابرز فيه احترامه الشديد للنبلاء ورغبته في استرضائهم والتفاهم معهم بل انه حاول ان يرتبط مع كاتو الصغير برباط المصاهرة(**) ، وضرب صفحا عن كل ما قام به كراسوس ضده اثناء غيبته فادخل الاطمئنان في قلبه الى درجة انه عاد بأسرته الى روما وكان قد غادرها خوفا من الانتقام الذي توقع ان ينزله به بومبي .

لقد كان بومبي لا يريد من السناتو اكثر من التصديق على القرارات التي اتخذها لتنظيم الاوضاع في الشرق ومنح جنده الذين عاد بهم وسرحهم فور وصوله الى ميناء برنديزي اقطاعات زراعية وفق القواعد المتبعة ، والحق انه لم يكن في كلا المطلبين اي اسراف ، خصوصا اذا اخذنا في الاعتبار انه اودع خزانة الدولة مبالغ ضخمة من الاموال اثر عودته ، وان فتوحاته ضاعفت او كادت مقدار الجزية السنوية التي تحصل عليها الدولة .

لقد كان حريا برجال السناتو ـ لو انهم اوتوا شيئا من بعد النظر ـ ان ينتهزوا هذه الفرصة التي أتاحها لهم بومبي على غير توقع منهم فيستجيبوا لمطالبه المعقولة وبالتالي يكسبونه كحليف قوي ومن ثم يصبح سندا لهم يدفعون به اي شر يراد بالنظام الجمهوري لكنهم كانوا قصيري النظر الى حد بعيد ويبدو انهم

(**) Plut., Cato Minor, XXX; Pomp., XLIV,1.

لم يستطيعوا نسيان ما فعله بهم بومبي من قبل ، حين أرغمهم على السماح له بتولي القنصلية في عام ٧٠ ق . م ، وحين استغل سلطاته كقنصل وقوض دعائم دستور سُلا ، وحين سخر اثنين من ترابنه العامة في عامي ٦٧ ، ٦٦ ق . م ، ليظفر بسلطات هائلة لم يسبق ان منحت لأحد من قبل ، بينما تناسوا تماما انه سرح قواته فور عودته من الشرق ووصوله الى شواطيء ايطاليا مع انه كان يستطيع الاحتفاظ بهم واملاء ارادته عليهم .

لذلك صمم رجال السناتو على مناقشة كل التنظيمات التي اجراها في الشرق مناقشة تفصيلية وماطلوا في منح جنده المسرحين الاقطاعات الزراعية التي طلبها لهم حتى لقد انتهى عام ٦١ ق م . دون تحقيق شيء من مطالب بومبي ، وهكذا ظن النبلاء انهم قد انتصروا عليه واظهروه بمظهر العجز امام جنده لكنهم كانوا واهمين . !

عودة قيصر من اسبانيا :

ذكرنا من قبل ان قيصر شغل منصب البرايتور في عام ٦٢ ق م . وبعد ذلك تولى حكم ولاية اسبانيا القاصية بوصفه برايتورا سابقا - في عام ٦١ ق م . واستطاع وهو يمارس الحكم هناك ان يقوم ببعض الحملات الناجحة على حدود الولاية فتهيأت له فرصة جمع الاموال اللازمة لتسديد الديون التي تراكمت عليه .

وعاد بعد ذلك الى روما في شهر يونيه عام ٦٠ ق . م . فوجد النزاع محتدما بين بومبي والنبلاء ، وتقدم للسناتو قبل ان يدخل العاصمة بمطلبين هما اقامة موكب للانتصارات التي احرزها ، وترشيح نفسه لمنصب القنصلية لعام ٥٩ ق . م . لكن السناتو ماطل في الاستجابة لمطلب دخوله العاصمة في موكب رسمي ، ولم يوافق على ترشيحه للقنصلية وهو غائب عن العاصمة فما كان منه الا ان تنازل عن اقامة الموكب وتخطى سياج مدينة روما وقدم ترشيحه لمنصب القنصلية بنفسه فلما اجريت الانتخابات فاز فوزا كبيرا بفضل التأييد الذي لقيه من كراسوس وبومبي وانصارهما وفاز معه بالمنصب الثاني مرشح الحزب الارستقراطي وهو بيبولوس (M.Bibulus) زوج ابنة كاتو .

ولقد كان في وسع السناتو في هذه الظروف الحرجة - لو اصطنع رجاله قدرا من الحكمة واتبعوا سياسة عملية - ان يستجيبوا لرغبة قيصر في ترشيح نفسه للقنصلية وهو غائب خارج العاصمة (In Absentia) ، فلذلك سوابق معروفة ، لكنهم ركبوا رؤوسهم فرفضوا بهدف اضاعة فرصة الترشيح عليه !

وهكذا جر النبلاء على انفسهم كل البلاء فقد اغضبوا بحمقهم ونزقهم كلا من بومبي وقيصر اذ رفضوا مطالبهم ، كما اغضبوا من قبل كراسوس ومعه طبقة الفرسان على نحو ما اوضحنا ، واعتقدوا انهم انتصروا على اعدائهم جميعا وان الامور قد استتبت لهم .

التحالف الثلاثي وبداية انهيار النظام الجمهوري[*٦] :

كان طبيعيا ان يدفع موقف النبلاء المتعنت كلا من بومبي وقيصر وكراسوس الى الارتماء في احضان العامة ، ولقد شكل هؤلاء الثلاثة تحالفا (غير رسمي) يجمع بينهم ، وهو التحالف الذي يطلق عليه بعض الباحثين اسم « الحكومة الثلاثية الاولى » تمييزا له عن التحالف الرسمي الذي ابرم في عام ٤٣ ق . م ، بين اوكتافيوس وانطونيوس وليبيدوس ، والذي صدر بتشكيله قانون خاص ، وتألفت بموجبه « الحكومة الثلاثية الثانية » .

ويطلق الكتاب القدامى على التحالف الذي بدأ سريا بين بومبي وزميليه اسم « تحالف القوة » احيانا ، كما يطلقون عليه اسم « المؤامرة » او « الطغيان » احيانا اخرى ، وسبب ذلك ان المتحالفين الثلاثة سرعان ما لجأوا الى القوة المسلحة او الى التهديد باستخدامها لتحقيق اهدافهم وفرض ارادتهم على الدولة ، بل ولتحطيم السناتو وارهاب الجمعيات الشعبية وتسخير الترابنة لتنفيذ ما يريدون .

لقد بات كل شيء في الدولة رهنا بمشيئتهم ولذلك تعتبر قيام هذا التحالف بمثابة البداية الفعلية لانهيار النظام الجمهوري .

واغلب الظن ان صاحب فكرة قيام هذا التحالف كان قيصر الذي لم يجد صعوبة في التفاهم مع كل من بومبي وكراسوس ، فبفضل التحالف بينهم سوف يستطيع الاول تحقيق مطلبيه اللذين رفضهما السناتو على نحو ما اوضحنا وسوف يتمكن الثاني من اعادة النظر في عقد شركة جباة الضرائب الذين التزموا بجبايتها من ولاية اسيا . اما قيصر ـ صاحب الفكرة ـ فلسوف يفيد من مكانة بومبي الرفيعة ومن كراسوس العريض لتحقيق الاهداف الخاصة التي رسمها لنفسه . واذا كان قيصر هو صاحب الفكرة ، الا انه ارضاء لغرور بومبي ، اوهمه بانه هو صاحب الكلمة الاولى والاخيرة في التحالف ، بينما كان قيصر في واقع الامر هو العقل المدبر في التحالف ورئيسه الفعلي . ولقد حاول قيصر امعانا في توطيد اركان التحالف ان يضم اليه شيشرون للافادة من مواهبه الخطابية العالية ومن مكانته السامية

(*٦) عن هذا التحالف السري الذي يسمى احيانا الحكومة الثلاثية الاولى ، راجع .
Hietland, Rom. Rep., III, pp 123 — 124, J. Balsdon, J.R.S., 1939, pp. 180ff., C.A.H., IX, pp. 512 — 515

بين الايطاليين عموما ، لكنه عجز عن تحقيق ذلك لتمسك شيشيرون الشديد بالقواعد الدستورية ولولائه واخلاصه الكاملين للنظام الجمهوري(٥٧) .

قانون قيصر للاراضي ينفذ بالقوة :

وما ان تولى قيصر منصب القنصلية في عام ٥٩ ق . م حتى تقدم بمشروع قانون للاراضي (Lex Julia Agraria) ، يقضي بتوزيع اقطاعات من الاراضي الصالحة للزراعة على جنـد بومبي المسرحين والمواطنين المعدمين ، على ان ينفق جانب من الاموال التي عاد بها بومبي من الشرق لشراء مساحات من الاراضي الخاصة ، تكفي لتنفيذ المشروع الذي انيط بهيئة مكونة من عشرين شخصا ليس بينهم قيصر(٥٨) .

لكن كاتو عارض المشروع بكل قوته ، وأيده النبلاء في السناتو ، فما كان من قيصر الا ان تقدم بمشروعه للجمعية القبلية ، ولم يتقدم بعد ذلك بأي مشروع من مشروعاته الى السناتو على الاطلاق ، واضاف للمشروع بندا يقضي بنفي اي عضو من اعضاء السناتو لا يقسم ـ خلال فترة معينة ـ على احترام المشروع بعد ان يصبح قانونا نافذا في حالة موافقة الجمعية القبلية عليه .

وهنا انبرى بيبولوس ـ زميل قيصر في القنصلية ـ وكذلك كاتو ومعهما بعض الترابنة ، لمعـارضة المشروع بكل عنف ، فما كان من قيصر الا أن اتفق مع بومبي على ان يحشد جنده المسرحين يـوم التصويت على المشروع لطرد المعارضين بالقوة من السوق العامة حيث كان الاجتماع ، وامام هذه القوة العسكرية ذابت المعارضة ، واتخذت الاصوات فتمت الموافقة على المشروع واصبح قانونا نافذا رغم انف السناتو والمعارضين جميعا ، ولم يجرؤ احد من اعضاء السناتو على عدم حلف اليمين المنصوص عليه في القانون(٥٩) .

وقد تبينت اللجنة المكلفة بتنفيذ القانون ان الاراضي المنصوص عليها فيه لا تفي بالحاجة ، فاقترح قيصر في شهر مايو من نفس عام قنصليته ، مشروعا تكميليا يقضي بتوزيع الاراضي العامة في كمبانيا على فقراء المواطنين ، وقد صودق على هذا المشروع واصبح قانونا (Lex Julia &Campana) ، ووزعت الاراضي على الاسر التي بها ثلاثة ابناء على قيد الحياة(٦٠) ويحدثنا سوتيونيوس ان هذه الاسر

---

(٥٧) Cic., ad Att., II, 18,3.;Plut., Cic.,XXX,9 — 12

(٥٩) Plut., Caes., XIV, 5;Cato ,inor., XXXII; Dio Cass. XXXVIII.

(٦٠) Dio Cadd., XXXVIII,7,3.

بلغت عشرين الف اسرة[٦١] . اما المؤرخ بلوتارخوس[٦٢] . فيقول ان اراضي كامبانيا قد وزعت بمقتضى هذا القانون على الجنود ، بينما يقول شيشيرون[٦٣] ـ الذي عاصر صدور القانون ـ ان جانبا من هذه الاراضي قد اعطى لجند بومبي المسرحين ، مما يوحي بان جميع جند بومبي المسرحين لم يظفروا بالاراضي بناء على القانون الاول .

قوانين اخرى يوحي بها قيصر :

لقد تحقق بفضل هذين القانونين المكملين لبعضهما المطلب الاول لبومبي ، وهو منح اقطاعات لجنده المسرحين ، وبقي المطلب الثاني ، وهو التصديق على القرارات التي اصدرها لتنظيم الشئون في الشرق ، وكذلك بقي مطلب كراسوس الخاص بتخفيض قيمة الضرائب التي التزم بها الذين رسا عليهم مزاد الجباية في ولاية اسيا . وقد اوصى قيصر الى زميله في التريبونية ـ وكان من اكبر مؤيديه ـ بوبيليوس فاتينيوس باستصدار القوانين التي تحقق هذه المطالب كلها ، واستجاب بوبيليوس فاستصدر مجموعة من القوانين كان احدها خاصا بالتصديق على التنظيمات التي اجراها بومبي في الشرق ، وقضى قانون اخر بتخفيض المبالغ التي تعاقدت عليها شركة جباية ضرائب ولاية آسيا بمقدار الثلث[٦٤] ، اما القانون الثالث فكان يقضي بالاعتراف ببطليموس الثاني عشر (الزمار) ملكا على مصر[٦٥] ، ويقال ان الزمار دفع لقيصر وبومبي رشوة هائلة لقاء هذا الاعتراف ، وانه عجز عن سدادها كاملة قبل وفاته[٦٦] .

وهكذا ارضى قيصر حليفيه تمام الرضى ، وخدم مصالح كل من طبقتي الفرسان والشعبيين ، ولم يبق الا ان يفكر في نفسه ومصالحه هو ، وهكذا انكشف تماما امر التحالف الثلاثي الذي عقد بين اعضائه سرا ، واصبح امره معروفا واضحا .

واوصى قيصر الى زميله بوبيليوس باستصدار قانون من الجمعية القبلية يقضي باسناد حكم ولاية بلاد الغال جنوب الالب (Galia Gisalpina) الى قيصر لمدة خمسة اعوام تبدأ من شهر مارس عام

(٦١) Suet., Div. Jul., XX,3.
(٦٢) Plut., Cic., XXVI,3.
(٦٣) Cic., ad Att., XVI,8,1.
(٦٤) Dio Cass., XXXVIII,7; App., B.C., II,13.
(٦٥) كان الزمار قد اعتلى عرش مصر بعد ابيه في عام ٨٠ ق. م والشيع حينذاك ان ذلك الاب (بطليموس الحادي عشر) قد اورث مصر لروما بوصية لم تثبت صحتها ولم يثبت بطلانها ، ولمس الساتوري السريف في الاعتراف بالزمار ليشبع اعضاؤه جشعهم من رشاوية ، اذ رأوه مسرفا في التكالب على ارضائهم بشتى السبل في سبيل الحصول على الاعتراف به ملكا على مصر ولا سيما بعد ان تقدم واحد من الثراة ـ ابطأ من كراسوس ـ بمشروع لضم مصر الى الممتلكات الرومانية .
(٦٦) Suet., Div. Jul., LIV,3.

٥٩ ق . م . (اي بعد شهرين اثنين فقط من بدء قنصليته !!) وبأن توضع تحت امرته ثلاث فرق عسكرية ، وتطلق يده في اختيار مساعديه دون الرجوع الى السناتو ، وان يكون له الحق في انشاء ما يرى من مستعمرات . وتم ذلك فعلا ، وصدر القانون من الجمعية القبلية لا من السناتو ، ثم انه كان يعطي قيصر حكم الولاية وهو لا يزال قنصلا لا بعد انتهاء عام القنصلية ، ولمدة خمس سنوات متصلة لا لمدة عام واحد يجوز تجديده كما كانت القواعد المتبعة ، وتلك كلها امور تنطوي على خرق فاضح للدستور .

وليس من شك في ان قيصر قد فكر مليا في امر الولاية التي يتطلع الى حكمها بعد انتهاء قنصليته ، وان اختياره وقع على ولاية بلاد الغال جنوب الالب ، فهي ولاية غنية ، وهي اصلح الممتلكات الرومانية لتجنيد القوات العسكرية ، وهي غير بعيدة عن روما . وهكذا كان الظفر بحكم هذه الولاية يتيح لقيصر فرصة تجنيد القوات التي يريدها دون عناء ، كما يتيح له تولي قيادة عسكرية كبيرة على مقربة من العاصمة بحيث يستطيع ان يصل اليها بسرعة ودون اضاعة وقت طويل اذا لزم الامر .

وبعد فترة قصيرة اوعز بومبي الى السناتو اصدار قرار يقضي باسناد حكم ولاية بلاد الغال عبر الالب ايضا الى قيصر الى تولي حاكمها ، على ان يزداد عدد الفرق العسكرية الى اربع (بدلا من ثلاث كما ذكرنا) ، وصدر القرار فعلا ، فاتسع نطاق المهمة التي اوكلت لقيصر ، واعتقد السناتو انه قد يعجز عن ادائها ، فينتهي امره دون عناء[٦٧] . لكن اعتقادهم كان خاطئا ، ولسوف نرى ان اسناد حكم هذه الولاية (غاله عبر الالب) الى قيصر هو الذي هيأ له فرصة بناء جيش قوي عالي التدريب ، ثم هيأ له - تبعا لذلك - بناء مجد عسكري هائل يتضاءل الى جواره المجد الذي حققه بومبي نفسه .

واذا كان قيصر قد استصدر من القوانين ما يحقق امال اعضاء التحالف الثلاثي ، وما يخدم مصالح طبقتي الفرسان والشعبيين ، فمن الانصاف ان نذكر له في هذا الصدد انه استصدر قانونا اخر لم يكن له من ورائه اي هدف غير خدمة المصلحة العامة ، ذلك هو القانون الذي صدر للحيلولة دون ابتزاز الاموال من اهالي الولايات ، وفيه جمع قيصر كل ما صدر قبله في هذا الصدد ، وسد كل ما كان هناك من ثغرات في القوانين السابقة ، فوضع قواعد محددة لمنع التزوير في الحسابات الحكومية الرسمية ، وفرض عقوبات صارمة رادعة على المخالفين ، وهو القانون الذي عرف باسم (Lex Julia de Repetundis)[٦٨] .

---

(٦٧) Dio Cass., XXXVIII.S., Plut., Caes., XIV.6.

(٦٨) Hietland, Rom. Rep., III.p.144

وكذلك قام قيصر بعمل جليل آخر ، وهو ذلك القرار الذي اصدره وكان يقضي بأن تنشر على الشعب يوميا نسخ من القرارات التي يصدرها السناتو او تصدرها الجمعيات الشعبية الاخرى[٦٩] . وواضح ان الهدف كان نشر قرارات السناتو على افراد الشعب ، لأن قرارات الجمعيات الشعبية الأخرى كانت تصدر عن الشعب نفسه ، فهو يعرفها تمام المعرفة ، اما السناتو فكانت قراراته تصدر بتوقيع رئيسه وشهادة بعض أعضائه ، ثم ترسل بعد ذلك الى دار المحفوظات لايداعها هناك دون ان يطلع عليها احد ، الأمر الذي جعل اجراء اي تحريف او تزييف فيها امرا ميسورا . فقرار قيصر اذا كان يعني ايجاد سجل رسمي علني لقرارات السناتو ، او ايجاد ما يمكن ان نسميه بتعبيرنا الحديث « جريدة رسمية » . ولاشك ان هذا القرار قد سبب ضيقا بالغا لاعضاء السناتو ووضعهم امام الشعب في قيد شديد لا يستطيعون معه ممارسة اي تزييف او تغيير في قرارات مجلسهم لما كانوا يفعلون وقد ظل قرار قيصر هذا معمولا به حتى ايام اوغسطس الذي حاول استرضاء رجال السناتو بعد ان ولي الحكم ، فأعفاهم من نشر قراراتهم على الشعب[٧٠] .

وبعد ـ فلقد غدا قيصر قوة هائلة في روما في اواخر عام قنصليته (٥٩ ق . م) فهو يتمتع بسلطة القنصل وسلطة البروقنصل معا ، وذلك وضع يسمح له بالاحتفاظ بقواته العسكرية في اي مكان من شبه الجزيرة الايطالية ما دام خارج سور العاصمة ، وبالتالي يتيح له السيطرة الكاملة على مجريات الامور السياسية في الدولة ، فضلا عن ان منحه السلطة البروقنصلية طيلة اعوام خمسة جعله في مأمن من التعرض للمحاسبة على اي تصرفات غير دستورية قد يقوم بها في خلال عام قنصليته .

والحق ان هذا التحالف الثلاثي قد جعل من اطرافه الثلاثة قوة تعلو على اية هيئة حكومية ، فقد اصبحت الامبراطورية ومقدراتها كلها في قبضتهم ، بل ان هذا التحالف يعتبر ـ كما رأى شيشيرون وكاتو ـ السبب الرئيسي لاشتعال نيران الحرب الاهلية في روما ، ومن ثم انتهاء النظام الجمهوري : فهؤلاء ثلاثة رجال يستندون الى قوة السلاح التي وضعت في قبضة واحد منهم ، هو قيصر ، كما يستندون الى تأييد كاسح من جانب الشعبيين وكثير من الفرسان ، فاستطاعوا ان يحطموا السناتو ، وان يحرموا اصحاب الرأي حرية الكلمة ، بل ويسلبوهم كرامتهم .

قيصر يرتب الأمور قبل ان يبرح روما :

كانت أساليب الحلفاء الثلاثة في البطش بمعارضيهم كفيلة باثارة الكثيرين ، فبدأوا يتهامسون عنهم

---

(٦٩) Suet . Div. Jul . XX. I.

(٧٠) Suet . Div Oug.. XXXVI

وعن تصرفاتهم ، بل ان البعض لم يتحرج من ابداء معارضته علانية في المسرح اثناء العروض ، فاذا بالنظارة من شعبيين وفرسان يصفقون ويهللون لهذه المعارضة(٧١) ، ـ بعد ان كانوا من المؤيدين للحلفاء ـ مما دفع هؤلاء الى تهديد الفرسان بحرمانهم من المقاعد الممتازة المخصصة لهم في المسرح ، كما هددوا الشعبيين بحرمانهم من شراء القمح بالاسعار الحكومية الزهيدة ، فلزم هؤلاء وهؤلاء الصمت واثروا المنافع العاجلة التي كانوا يحصلون عليها(٧٢) .

هكذا كان القلق الشديد هو السمة البارزة للاوضاع في روما ، ويبدو ان مظاهر الاحتجاج هذه قد شغلت بال بومبي ، خصوصا وقد ابدى شيشيرون وكاتو ـ وهما اكبر اعداء التحالف ورجاله الثلاثة ـ اسفهم الشديد على المدى الذي انحدرت اليه الاوضاع في عاصمة الجمهورية(٧٣) .

ورأى قيصر ـ امام هذه الحال ـ ان يتخذ من الخطوات ما يكفل اطمئنانه على الاوضاع اثناء غيابه عن روما ، فزوج ابنته الوحيدة ـ يوليا Julia ـ من بومبي بعد ان فسخ خطبتها التي تمت قبل ذلك الى رجل آخر ، فكان ذلك الزواج سببا في استمرار علاقات الود والتحالف بين قيصر وبومبي الى حين وفاة يوليا في عام ٥٤ ق . م .

وكان الحلفاء الثلاثة قد اتفقوا على ان يتولى القنصلية في عام ٥٨ ق . م كل من جابينيوس ، وهو احد صنائع بومبي الكبار ، وكالبورنيوس بيسو الذي رأى قيصر ان يربطه اليه برباط وثيق حتى يضمن اخلاصه له فتزوج من ابنته كالبورنيا بعد ان فسخت خطبتها المعقودة لرجل آخر(٧٤) .

وبعد ذلك فكر قيصر في خليفة للتريبون فاتينيوس ، معاونه الكبير ، كي يقوم بنفس دور سلفه في تنفيذ اهداف الحلفاء الثلاثة ، فوقع اختياره على شاب عابث يدعى كلوديوس ،(٧٥) كان يضمر حقدا شديدا وكراهية بالغة لشيشيرون الذي يتمنى الحلفاء ان يتخلصوا منه ومن معارضته الشديدة .

وجرت انتخابات القنصلية ففاز مرشحا الحلفاء ، جابينيوس وبيسو ، وكذلك فاز معظم من رشحوهم لمناصب التريبونية وعلى رأسهم كلوديوس الذي رسم له قيصر الخطة التي ينبغي ان يتبعها ،

---

(٧١) Cic., ad Att., II, 18; 19; 20.

(٧٢) C.A.H., IX, p. 520 , Cic., ad Att. , II, 19

(٧٣) Dio Cass., XXXVIII, 10, 4—11.

(٧٤) Suet., Div. Jul., XXI; Plu., Caes. XIV, 4—5 ; Po.p , XLVIi, 6.

(٧٥) كان كلوديوس هذا من الد اعداء شيشرون لأن هذا شهد ضده في قضية اتهم فيها بارتكاب عمل فاضح وبانتهاك الشعائر الدينية ، وكان ينتمي الى طبقة النبلاء ، ولا بد لترشيحه للتريبونية ان يكون منتميا الى العامة ، لهذا سعى قيصر حتى تبنى احد رجال العامة [illegible] ، [illegible] لذلك ، وهكذا امكن ترشيح كلوديوس للتريبونية وفاز بها ، والغريب ان الذي تبناه كان اصغر منه سنا (Cf. Hietland, Rom. Top. III, p.133.)

وافهمه ان القنصلين سوف يكونان عونا له على ان يخصص لهما ولايتي سوريا (لجابينيوس) ومقدونيا (لبيسو) بدلا من الولايتين التافهتين اللتين خصصهما لهما السناتو[٧٦] .

وما ان اعتلى كلوديوس منصب التريبونية حتى استصدر في شهر يناير من عام ٥٨ ق . م . اربعة قوانين كانت كلها تستهدف خدمة مصالح الحلفاء الثلاثة ، وقد حاول شيشيرون ان يعطل صدورها مستعينا بتريبون آخر كان صديقا حميا له ، وهو المدعو كوادراتوس ، لكن هذا سرعان ما تخلى عن التصدي لمشروعات كلوديوس الذي استماله الى جانبه بوعد كاذب بألا يمس شيشيرون بأي سوء[٧٧] .

قوانين كلوديوس :

وكان اول هذه القوانين يقضي بان تتنازل الحكومة عن المبلغ الضئيل الذي كان لابد من دفعه نظير الحصول على الحصة المقررة من الغلال شهريا ، وكان طبيعيا ان يهلل الشعبيون لهذا القانون ، وان يكنوا اعمق العرفان والحب لكلوديوس ، وبالتالي تثبيت مكانته في نفوسهم ، كي تتاح له السيطرة على الموقف في روما ابان غيبة قيصر .

واما القانون الثاني فكان يهدف الى خلق اداة سياسية فعالة يمكن ان يستند اليها كلوديوس للوقوف في وجه معارضيه ، وتفصيل ذلك ان السناتو كان قد اصدر في عام ٦٤ ق . م . قرارا يقضي بحل الجمعيات التي شكلها المتعطلون في روما ووضعوها في خدمة السياسيين الراغبين في اثارة الشغب ، فتسببت هذه الجمعيات بممارساتها الفوضوية في اضطراب شديد في حبل الامن بالعاصمة ، ولذلك تقرر الغاؤها .

وجاء كلوديوس بقانونه الثاني هذا فأباح تكوينها من جديد ، وعلى الفور تشكل عدد كبير منها ، وكلها لا تضم سوى الدهماء والعبيد واسوأ العناصر التي تميل الى اثارة الشغب واحلال الفوضى ، وغدت هذه الجمعيات اداة طيعة في قبضة كلوديوس يحركها كيف يشاء لمصلحته الخاصة ، بل لعلنا نقول انها كانت اداة ارهاب في يده اخضع بها العاصمة لارادته .

وكان القانون الثالث يحرم طرد اي عضو من السناتو الا بعد اجراء فحص دقيق لحالته ، يقوم به الرقيبان (الكنسوران) ، وبعد محاكمته وصدور الحكم عليه بالادانة ، وهدف كلوديوس من هذا القانون كان دون شك ان يضمن لنفسه الاحتفاظ بعضوية السناتو .

---

(٧٦) Plut., Cic., XXX, 1;Caes., XIV,9; Heitland, Rom. Rep., III, pp. 140 ff.

(٧٧) Dio Cass., XXXVIII,13

واما القانون الرابع فكان يقضي بقصر حق فض جلسات الجمعية القبلية او الجمعية المئوية بحجة ظهور طالع نحس ، على الترابنة والعرافين فقط دون بقية الحكام كما كان الحال ولا ريب ان هدف كلوديوس من استصدار هذا القانون كان الحيلولة دون اللجوء الى هذه الحجة لتعطيل مشروع القانون الذي تقدم به بعد ذلك في شهر فبراير (وربما في شهر مارس) من عام ٥٨ ق . م . لنفي كل من اعدم او يعدم مواطنا رومانيا دون محاكمة قانونية ، ولا شك انه كان يقصد نفي شيشرون عدو قيصر اللدود ، الذي فشلت معه كل محاولات هذا الاخير لكسبه الى جانبه يوم عرض عليه عضوية لجنة الاراضي فرفضها[٧٨] كما فشل في ابعاده عن روما يوم عرض عليه تعيينه مساعدا له يصحبه الى الخارج ، فرفض أيضا[٧٩] .

وقد بذل شيشيرون كل ما في وسعه لمنع الموافقة على هذا القانون لادراكه التام انه هو المقصود بالذات لنفيه خارج روما ، والحق انه لقي عطفا واضحا من النبلاء والفرسان والايطاليين عموما ، لكن احدا لم يجرؤ على القيام بعمل ايجابي لانقاذه ، فقيصر بقواته المسلحة لايزال على مقربة من روما ، وكلوديوس موجود في قلبها ، وتحت امرته الجمعيات الفوضوية التي كانت كالعصابات المسلحة ، هذا الى جانب ان كراسوس كان يمقت شيشيرون مقتا عميقا .

اما بومبي ـ وهو صديق لشيشيرون ـ فقد احس بالحرج البالغ تجاه صديقه لعجزه عن مساعدته في هذا المأزق الذي وضع فيه ، لدرجة انه تهرب من مقابلته ؛ واما قيصر فقد نصحه بمغادرة ايطاليا كلها ابقاء على حياته ، وحتى القنصلان لم يقوما بأي عمل على الاطلاق خوفا من قيصر وكلوديوس .

شيشيرون يغادر روما :

واحس شيشيرون بان القانون سوف يصدر لا محالة ، فاستجاب لنصيحة صديقه كاتو وعدد اخر من احبائه المخلصين وخرج من روما بليل ، وفي الصباح التالي لخروجه ، ووفق على المشروع واصبح قانونا واجب النفاذ . . وبعد ايام معدودات استصدر كلوديوس قانونا اخر يحرم على شيشيرون الاقامة في اي مكان لا يبعد عن روما بمسافة تقل عن ثمانمائة كيلومتر[٨٠] .

وهكذا خرج « ابو الوطن » من الوطن منفيا ، وصودرت ممتلكاته ودمرت بيوته ، وبقي في منفاه حتى صيف عام ٥٧ ق . م . ثم استدعي للعودة على نحو ما سوف نرى .

---

(٧٨) Cic., ad Att., IX, 2 a.

(٧٩) Plut., Cic., XXX, 2—3.; Cic., ad Att., II, 18, 3.

(٨٠) Dio Cass., XXXVIII, 13, 3—17; Plut., Cic. XXX—XXXII; Po.p., XLVI; Cato ,inor, XXXV ; App., B.C., II, 15; Cic., ad Att., II, 18—25; III,15,2.

اما كاتو ـ صديق شيشيرون وعدو الحلفاء الثلاثة ـ فكان قد انتخب لوظيفة الكوايستورية ، وانيطت به مهمة اقناع بطلة بيوس حاكم قبرص ـ وهو اخو الزمار ملك مصر بالتنازل عن الجزيرة للشعب الروماني بعد ان استصدر كلوديوس قانونا يقضي بضمها الى الممتلكات الرومانية ، وقد صدر هذا التكليف بقرار من الجمعية القبلية ، فلم يجد كاتو مفرا من الاستجابة لقرار الشعب وقام بالمهمة ، وبذل عناية كبيرة في حصر كنوز الجزيرة ، ولم يعد الى روما قبل عام ٥٦ ق . م[٨١] .

هكذا استصدر كلوديوس ما شاء من قرارات ، وهكذا ايضا اكره شيشيرون على الخروج من روما ، كما افلح في ابعاد كاتو عنها ، فخلا له الجو تماما . واراد بعد ذلك ان يكافيء القنصلين نظير مساعداتهما له ، وتنفيذا لاتفاقه مع قيصر كما ذكرنا ، فاستصدر قانونا باسناد حكم ولاية سوريا الى جابينيوس ، وحكم ولاية مقدونيا الى بيسو بعد انتهاء قنصليتهما (عام ٥٧ ق . م) والحق انه اصبح صاحب الكلمة العليا في الدولة بعد رحيل قيصر بقواته .

وحدث ان شعر بومبي بندم شديد لتخليه عن صديقه شيشيرون وهو في محنته التي تحدثنا عنها ، فبدا يفكر في استدعائه من منفاه ، ولكن كلوديوس احس بذلك ، فما كان منه الا ان دبر هروب تيجرانيس الصغير ابن ملك ارمينيا الذي كان بومبي قد اودعه رهينة لدى البرايتور فلامينيوس ، وقد اثار ذلك التدبير جابينيوس اشد الاثارة واعتبره تحديا صارخا لبومبي ، واخذ كلوديوس عليه مؤاخذة عنيفة فاذا بهذا يكيل الاهانات للقنصل ويحطم شاراته الرسمية ، بل انه لم يتورع عن توجيه الاهانات الى بومبي نفسه على الملأ ، فآثر هذا الاعتكاف في منزله حتى تنتهي تريبونية كلوديوس[٨٢] .

وشهد عام ٥٧ ق . م . بعد انتهاء تريبونية كلوديوس ـ صراعا دمويا عنيفا بين كلوديوس وواحد من الترابنة الجدد ، وهو ميلو ، الذي لم يكن يقل عن سلفه جرأة وتبجحا ، فانتهز بومبي هذه الفرصة وشجعه على مواجهة عنف كلوديوس بعنف مثله ، فاذا بالدماء تسيل ، بين انصار التريبون الحالي والتريبون السابق ، في شوارع العاصمة وسوقها العامة[٨٣] .

عودة شيشيرون :

كذلك شهد نفس العام استدعاء شيشيرون من منفاه ، فقد كان احد القنصلين ـ وهو لينتولوس

---

(٨١) كان هدف كلوديوس هو ابعاد كاتو عن روما ، بعد ان نفى شيشيرون خارجها ، ولهذا كلف هو كاتو القيام بالمهمة ، لكن كاتو رفض ، فاستصدر كلوديوس من الجمعية القبلية قرارا بتكليفه ، ولما لم يستطع كاتو الا ان يستجيب لرغبة الشعب الممثلة في قرار الجمعية القبلية

Cf. Plut., Cat. minor. XXXIV — XL; Dio Cass., XXXIX, 22 — 23; C A H IX, p. 527, Heitland, Rom. Rep., III, pp. 150 ff

(٨٢) Plut., Pomp., XLVIII — XLIX, Dio Cass., XXXVIII, 30

(٨٣) Dio Cass., XXXIX, 6 — 8.

سبنثر ـ واحد التراينة الجدد ـ وهو سستيوس ـ صديقين حميمين لشيشيرون ، وكان بومبي يريد ان يعود صديقه شيشيرون من المنفى ، ولذلك زار جنده المسرحين في كابوا ، ودعاهم لمساعدته اذا لزم الامر ، ثم تقدم سبنثر الى السناتو بمشروع قانون يقضي بالسماح لشيشيرون بالعودة من المنفى ، فوافق اعضاؤه بالاجماع باستثناء كلوديوس وحده بطبيعة الحال ، وبرغم كل التهديدات التي اطلقها كلوديوس ، وبرغم كل اعمال العنف والشغب التي دبرها ، فقد عاد شيشيرون الى روما واستقبل فيها استقبالا حافلا[٨٤] .

واثر عودته ببضعة ايام ، نزلت بروما ازمة غلال شديدة ، دفعت الجموع الى التظاهر حول السناتو وتهديد اعضائه بالقتل واحراق المباني العامة ، فتقدم شيشيرون الى المجلس بمشروع قانون يقضي بتعيين بومبي مشرفا على التموين لسنوات خمس ، مع منحه سلطة بروقنصلية تعطيه حق الرقابة على الاسواق وعلى تجارة القمح في جميع ارجاء الامبراطورية وكذلك سلطة شراء اي كميات من الغلال ، مع توفير السفن اللازمة لنقلها الى روما ، وقد وافق السناتو على المشروع وصدر به قانون من الجمعية المئوية[٨٥] ، وعلى اثر ذلك زار بومبي بنفسه صقلية وسردينيا وولاية افريقيا ، وجمع كميات هائلة من القمح ، ثم نقلها الى روما فقضى على الازمة سريعا[٨٦] .

مؤتمر لوكا :

الواقع ان التحالف الثلاثي بدأ يتصدع بعد خروج قيصر الى ولايته ، ذلك ان كراسوس كان يتطلع الى الظفر لنفسه بمجد عسكري كالذي ظفر به قيصر في بلاد الغال ، كما ملأت نفسه الغيرة من السلطات التي منحت لبومبي لتخليص روما من ازمة الغلال ، فأحس بانه الطرف المهضوم في التحالف ، ونافس بومبي منافسة شديدة للفوز بمهمة اعادة بطليموس الزمار الى عرشه في الاسكندرية بعد ان لجأ الى روما هاربا من شعبه الذي سخط عليه اشد السخط لتنازله عن جزيرة قبرص للرومان . وهكذا بدأت الهوة تتسع بين كراسوس وبومبي ، كذلك كان بومبي غير مرتاح لقيصر وتصرفاته ولا سيما بعد ان ورطه معه في عملية ابعاد شيشيرون عن روما .

على هذا النحو بدأت نذر الاخطار تتجمع في العاصمة ، واحس قيصر بأن التحالف بينه وبين زميليه يوشك ان ينهار ، فدعاهما للاجتماع به في مدينة لوكا الواقعة في شمال اتروريا على الحدود الجنوبية لولاية بلاد الغال القريبة (جنوب الالب) وقد استجاب كلاهما له وسافرا اليه يصحبهما عدد كبير من اعضاء مجلس السناتو ، وكان ذلك في شهر ابريل عام ٥٦ ق . م .

---

(٨٤) Plut., Cic., XXXIII: Cic., ad Att., IV; Liv., Epit., CIV. &

(٨٥) Cic., ad Att., IV,1; Dio Cass., XXXIX.

(٨٦) Plut., Pl.p.L.

وفي هذا المؤتمر الذي جمع الرجال الثلاثة تم التفاهم بينهم على رأب الصدع الذي اصاب تحالفهم ، واتفقوا على ان يرشح بومبي وكراسوس نفسيهما لقنصلية عام ٥٥ ق . م وبعد انتهاء عام القنصلية يتولى بومبي حكم ولايتي اسبانيا (القاصية والدانية) خمسة اعوام ، ويتولى كراسوس حكم ولاية سوريا لخمسة اعوام كذلك ، اما بالنسبة لقيصر فقد اتفقوا على ان يمدد له حكمه في بلاد الغال خمس سنوات ايضا(٨٧) .

بومبي يحتوي شيشيرون :

كان شقيق شيشيرون - وهو المدعو كوينتوس ، يعمل مساعدا لبومبي في مهمة انقاذ روما من ازمة القمح التي نزلت بها ، وقد شهد معه مؤتمر لوكا ، وفي اثناء عودتهما الى روما قال بومبي لكوينتوس انه تعهد لحليفيه باقناع شيشيرون بالكف عن المعارضة الشديدة التي يمارسها ضد سياسة الحلف ، وطلب اليه ان يحذر اخاه من مغبة الاستمرار في مسلكه هذا ، وان يفهمه ان اعادته من المنفى لم تتم الا بعد الحصول على موافقة قيصر الذي اشترط الا يهاجم شيشيرون تشريعاته(٨٨) .

وابلغ كوينتوس اخاه كل ما دار بينه وبين بومبي من حديث ، فأدرك شيشيرون ان هذا الحديث كان بمثابة تحذير له ، كما اصبح واضحا له ان سياسة المعارضة التي يسلكها سوف تعيده الى المنفى مرة اخرى ، فاذا به يتحول الى نصير للحلف بل يصبح من اقوى أنصاره ، واذا هو يلقي في السناتو (في شهر يونيه من عام ٥٦ ق . م) خطبة بالغة القوة ضد محاولة ارسال قائد آخر يتولى بدل قيصر قيادة القوات الرومانية في محاربة الغال(٨٩) . وعندما قدم للمحاكمة كل من فاتينيوس صنيعة قيصر وجابينيوس صنيعة بومبي في عام ٥٤ ق . م انبرى شيشيرون للدفاع عنهما .

هكذا انقلب شيشيرون على عقبيه ، واعطى ظهره للنبلاء الذين طالما شاركهم الدفاع عن النظام الجمهوري ، وتلك كانت نقطة الضعف في اخلاق شيشيرون ، لكنه برر مسلكه البغيض هذا في بعض رسائله التي تنطق بالحزن والمرارة والاسى على تردي الاوضاع السياسية في الدولة ، وتفيض بالتنديد بالنبلاء الذين يبتهجون اشد الابتهاج لاصطراعه مع رجال الحلف الثلاثي ، ثم لا يحركون ساكنا لمساعدته حين تنزل به النوازل على ايدي هؤلاء الرجال(٩٠) .

(٨٧) App., V.C., II, 17, Dio Cass. XXXIX, 27, Plut., Caes., XXI, Pomp., Li, Cato min., XLI; Crass., XIV.
(٨٨) Cic., ad Fam., I,9,8 — 12
(٨٩) Cic., ad Q. frat., II, 6,2
(٩٠) Cic., ad Fam., I,9,10, ad Att., IV,3,2

وقد كافأ قيصر شيشرون على مسلكه الجديد هذا ، فأبدى تقديره لمواهبه النادرة العظيمة ، واستجاب لكل طلباته وتوصياته وفي مقدمتها تعيين شقيقه كوينتوس مساعدا له[٩١] .

بومبي وكراسوس قنصلان للمرة الثانية :

وصل بومبي وكراسوس الى روما بعد انقضاء موعد الترشيح للقنصلية ، لكنهما دبرا الامر لصالحهما ولم يعدما الوسيلة فقد استطاعا اقناع بعض الترابنة بتأجيل عملية الانتخابات وعدم اجرائها في موعدها لظهور طالع نحس ، وتم ذلك فعلا وبدأ عام ٥٥ ق . م . دون انتخاب القنصلين الجديدين ، وتم تعيين حاكم مؤقت لاجراء الانتخابات ، وبناء على ذلك اصبح في وسع بومبي وكراسوس ان يرشحا نفسيهما للمنصب واجريت الانتخابات فظفر كلاهما بمنصب القنصلية ولكن بعد اعمال العنف التي براها ضد مرشح ثالث من اعدائهما حتى لقد اضطر الى الانسحاب من المعركة وما ان اعتلى كل منهما منصبه حتى عملا معا على شغل معظم المناصب الاخرى في الدولة بانصارهما ونجحا في ذلك اللهم الا اذا استثنينا اثنين من الترابنة فقط[٩٢] .

وبعد ذلك تقدم احد الترابنة الموالين لهما وهو المدعو تريبونيوس بمشروع قانون ينص على اسناد الولايات التي اتفق عليها في مؤتمر لوكا لكل من بومبي وكراسوس ووفق عليه ثم استصدرا مجموعة اخرى من القوانين التي تهدف في ظاهرها الى الاصلاح العام ، وفي حقيقتها الى كسر شوكة الارستقراطيين والسناتو[٩٣] .

وبانتهاء عام ٥٥ ق . م . انتهت قنصلية بومبي وكراسوس الثانية ، وكان المفروض بعد ذلك ان تبدأ مدة كل منهما بوصفه بروقنصلا ، ويتجه مباشرة الى ولايته غير ان بومبي لم يغادر روما واناب عنه اثنين من مساعديه في الذهاب الى ولايته ـ وهي اسبانيا كلها ، وبقي هو رابضا على ابواب العاصمة ليرقب سير الامور .

ويعتبر هذا التصرف تحديا صارخا للعرف السائد ، لم يحدث ان قام بمثله اي قنصل سابق حتى هذه اللحظة ، ومع ذلك فان بومبي استطاع تبريره بانه مكلف بالاشراف على تموين روما بالقمح ، ولم تنته بعد المدة المعطاة له للقيام بهذه المهمة ، ثم انه ايضا لم يستكمل حشد القوات اللازمة لاسبانيا . . .

---

(٩١) Cic., ad Q. Frat., II, 10,4,5.

(٩٢) Dio Cass., XXXIX, 27 — 32; App., B C., II,17; Plut., Cato Jmr., XLI — XLII, Crass., XV.

(٩٣) Plut., Pomp., Lz; Crass., XV,5, App., B.C., II, 18, Cic., ad Att., VII, 7,16

(٩٤) C A H. IX,p 615,p 618

بيد ان هذه الامور التي تعلل بها لم تكن خافية على النبلاء ، والذي حدث هو ان بومبي لم ينتقل اطلاقا الى ولايته واكتفى بوجود مساعديه هناك . . . لقد سلك مسلكا بالغ الخطورة نستطيع ان نرى فيه انتقالا من النظام الجمهوري الى نظام حكم الفرد الذي يقيم في العاصمة بينما يقوم نوابه ومساعدوه بحكم الولايات باسمه .

وشهد العام التالي (٥٤ ق . م) احداثا اخرى شديدة الخطورة فقد انتشرت الفوضى بصورة تفوق كل الحدود واضطربت شئون العاصمة اضطرابا هائلا لدرجة ان العام انتهى ايضا دون انتخاب قنصلين جديدين للعام الذي يليه واشيع حينذاك ان بومبي هو الذي دبر ذلك كله لانه يريد ان يعلن نفسه دكتاتورا[٩٥] .

وفي نفس العام توفيت يوليا ابنة قيصر وزوجة حليفه بومبي فكانت تلك الوفاة ايذانا بانتهاء رابطة الود بين الحليفين المتنافسين اللذين كان ذلك منهما يرقب تصرفات زميله بمنتهى الحذر والشك وسرعان ما احتدم النزاع بين انصار الرجلين[٩٦] . وقد حاول قيصر من جانبه ان يصل من حبل الود الذي كان يربط بينهما ، وذلك بالاصهار اليه من جديد ، لكن بومبي رفض عرض الزواج من حفيدة اخت قيصر[٩٧] . وتزوج في العام التالي مباشرة (٥٣ ق . م) من سيدة تنتمي الى اسرة نبيلة[٩٨] .

وهكذا اتضحت تماما احاسيس بومبي تجاه قيصر ، واستبانت رغبته في الاعراض عنه والتقرب من النبلاء لعلهم يدعمون موقفه تجاه حليفه الخطير .

وبعد ـ فقد كان عام ٥٤ ق . م عام مناورات سياسية واضحة الاتجاه ، وعام اضطراب شديد ادى الى انتهائه دون انتخاب حكام جدد لعام ٥٣ ق . م باستثناء ترابنة العامة . واخذ الاضطراب يتزايد والشغب يتفاقم مع مرور الايام والشهور حتى لقد اقبل شهر يوليو من عام ٥٣ ق . م دون ان تتاح الفرصة لانتخاب الحكام ، وامام هذا الموقف لم يجد السناتو مفرا من استدعاء بومبي الذي كان واقفا على ابواب روما بقواته العسكرية ، والسماح له بدخول العاصمة ، ومنحه سلطة استثنائية لانقاذ الموقف ورد الامور الى نصابها .

---

(٩٥) Cic., ad Q. Frat., III,8,4—6
(٩٦) Plut., Pomp., LIII
(٩٧) Suet., Div. Jul., XXVII,1
(٩٨) Dio Cass., XL, 51,3.
كانت هذه السيدة هي كورنليا ابنة ميتلوس سكيبو .

وقد استجاب بومبي على الفور ، وقام بالمهمة على خير وجه ، فأجريت عملية الانتخابات لقنصلين جديدين ، كما اتخذت الاجراءات اللازمة لانتخاب الحكام الاخرين للمدة الباقية من عام ٥٣ ق . م[٩٩] .

وهكذا تغير مسلك بومبي تغييرا جذريا ، وبدا كمنقذ للسناتو والنبلاء ، وكان ذلك يعني هز دعائم تحالفه مع قيصر هزا عنيفا فضلا عما سبق ذكره من اصهار بومبي الى احدى الاسر النبيلة ورفضه الاصهار الى حليفه قيصر .

اما الحليف الثالث ، ونعني به كراسوس - فقد لقي مصرعه في منتصف عام ٥٣ ق . م اثناء قتاله مع البارثيين (١٠٠) ، فكان ذلك هو القضاء المبرم على التحالف الثلاثي ، واصبح وقوع الصراع السافر بين بومبي وقيصر امرا لا مفر منه .

وانتهى عام ٥٣ ق . م . ايضا دون ان يتم انتخاب الحكام الجدد للعام التالي ، واخذت الفوضى تستشري في كافة انحاء المدينة حتى غدت كالحمى الخبيثة التي لا يهدأ لها اوار ، وحوالي منتصف يناير من عام ٥٢ ق . م وقع اشتباك دموي عنيف بين عصابات كلوديوس وعصابات ميلو المسلحة ، ولقي كلوديوس مصرعه فاذا باتباعه ورجال عصاباته يعيثون في العاصمة فسادا ، ويشعلون النيران في دار السناتو ، فما كان من رجاله الا ان اجتمعوا على الفور ، واصدروا «قرارهم النهائي» (S.C.U) للحاكم المؤقت وللترابنة ولبومبي بالعمل على حماية الدولة ، مع منح هذا الاخير الحق في حشد قوات جديدة يضيفها الى قواته التي بامرته[١٠١] .

بومبي قنصلا منفردا :

هكذا اصبح بومبي سيد الموقف وصاحب الكلمة العليا ، وكانت روما لا تزال بغير حكام[١٠٢] ، ومع ذلك فان بومبي لم يحاول اتخاذ اية خطوات لاجراء ، الانتخابات ، وبدأ الناس يتحدثون عن اقامته دكتاتورا او انتخابه هو وقيصر قنصلين ، وكلا الامرين لا يريح النبلاء ، واخيرا استقر الرأي على

---

(٩٩) Plut . Pomp., Liv. App . B C . II, 19 — 20

(١٠٠) كان كراسوس ، القنصل قانون تريبونيوس الذي صدر في اوائل عام ٥٥ ق . م . قد اعطى القنصلين بعد انتهاء عام قنصليتهما ، حق اعلان الحرب وابرام السلم وجمع القوات العسكرية من ايطاليا ومن الولايات ، وبناء على ذلك جمع ما استطاع جمعه من فرق عسكرية وتوجه بها الى سوريا وقد عقد العزم على ان يغزو بارثيا ليظفر لنفسه بمجد عسكري ، لكنه مني بهزيمة قاسية وقتل ومعظم رجال جيشه .

(١٠١) Dio Cass . 40 — 50, 1, App . B.C., II, 21

(١٠٢) لم تجر انتخابات الحكام لعام ٥٢ ق . م بسبب تجدد اعمال العنف والشغب وسفك الدماء بين عصابات الحزبين المتنافسين كلوديوس وميلو ، فلما انتهى عام ٥٣ ق . م دون اجراء الانتخابات عينوا حاكما مؤقتا (Interrex)

الاخذ باقتراح بيبولوس وكاتو باختيار بومبي قنصلا منفردا (Cinsul Sobus) ، فذلك اهون الشرور من وجهة نظر النبلاء الذين يرون في قيصر اكبر خطر عليهم وعلى النظام الجمهوري كله ، والذين يعرفون تماما ان بومبي اذا كان يحب لنفسه المجد الا انه لم يحاول ان يستند الى السلطات الاستثنائية التي منحت له كي يقيم نفسه دكتورا .

وانتخب بومبي قنصلا منفردا ، وهو امر لم يسبق ان حدث على الاطلاق ، ويعتبر خرقا فاضحا للدستور الجمهوري الذي يقرر مبدأ الازدواج لا في وظيفة القنصلية وحدها ، وانما في جميع الوظائف العامة الكبيرة ، فضلا عن ان بومبي لم يكن قد امضى فترة السنوات العشر التي ينبغي ان تنقضي على شغله لوظيفة القنصلية في عام ٥٥ ق . م .

هكذا غدا بومبي حاكم روما المطلق دون منازع ، وبموافقة النبلاء ورضاهم ، لكنه لم يلبث ان اشرك معه في القنصلية والد زوجته سكيبيو[١٠٣] .

وعلم قيصر وهو في غاله ان انصاره من التراينة يدعون الى اقامه زميلا لبومبي في القنصلية فطلب اليهم الكف عن ذلك حتى ينتهي من فتح بلاد الغال ، لكنه اوصاهم بالعمل على استصدار قانون يسمح له بترشيح نفسه للقنصلية بعد انتهاء بروقنصليته وهو لا يزال غائبا عن روما . . . وبذلك ينهي فتح بلاد الغال كلها ، وتنقضي ايضا مدة السنوات العشر التي لا بد من انقضائها على قنصليته السابقة . وقد استجاب له التراينة فقدموا مشروع قانون يحقق له رغباته ووافق بومبي عليه ، وايده شيشيرون[١٠٤] ، فووفق عليه نهائيا واصبح قانونا نافذا[١٠٥] .

بومبي يضع العراقيل لقيصر :

أصدر بومبي قانونين هامين لوقف اعمال العنف والشغب التي لقيت منها روما اشد البلاء ، ولمكافحة داء الرشوة في الانتخابات[١٠٦] ، كما اصدر قانونا خاصا بتنظيم تولي الحكم في الولايات[١٠٧] ، وكان هذا القانون يقضي بألا يتولى القناصل حكم الولايات الا بعد انقضاء خمس سنوات على انتهاء عام قنصليتهم ، وتطبيقا لهذا القانون يصبح في وسع السناتو تعيين من يشاء حاكما على ولايتي قيصر بمجرد انتهاء حكمه فيها في اول شهر مارس عام ٤٩ ق . م ، بينماكان القانون

(١٠٣) Plut., Pomp., LIV — LV, App., B.C., II, 23; Doi Cass., XL, 50,3 — 51.
(١٠٤) Cic., ad Fam., VI,6,5; ad Att., VII,1,4
(١٠٥) App., B.C., II,25; Liv., Epit., 107
(١٠٦) Dio Cass., XL, 52; Plut., Pomp., LV.
(١٠٧) dio Cass., XL, 56.1.

القديم(١٠٨) لا يسمح بان يخلفه احد في الولايتين الا بعد انقضاء عام ٤٩ ق . م بتمامه حين يكون قد ظفر بالقنصلية وفقا للخطة التي رسمها لنفسه ، وبالتالي يصبح في مأمن من تعريض نفسه للمحاكمة . اما اذا طبق القانون الجديد الذي اصدره بومبي فان قيصر يصبح في مأزق شديد ، فأما ان ينفي نفسه بنفسه بحيث لا يذهب الى العاصمة ويتعرض للمحاكمة ، واما ان يحمل سلاحه ويزحف على روما بقواته .

ونحن لا نستبعد ان يكون بومبي قد استصدر هذا القانون ليوقع قيصر في اشد الحرج ولسوف نرى خصوم قيصر يستخدمون هذا القانون ضده ولسوف نرى ان بومبي كان راضيا مرتاحا لذلك .

والغريب ان السناتو قرر ان يسند الى بومبي حكم ولايتي اسبانيا لخمسة اعوام عقب انتهاء قنصليته مباشرة ، ولم يخجل بومبي من قبول هذا القرار مع انه يهدم القانون الذي استصدره هو بنفسه(١٠٩) . وظل بومبي يمارس حكم اسبانيا دون ان ينتقل اليها ، وانما ظل مقيما في ايطاليا واكتفى بانابة مساعديه عنه كما فعل في بروقنصليته السابقة .

ونحن نلاحظ هنا ان السناتو قد منح بومبي سلطة بروقنصلية لخمس سنوات ابتداء من عام ٥٢ ق . م ، بينما لم يمدد بروقنصلية قيصر لمدة مماثلة وهذا يعني ان توازن القوى بين الرجلين سوف يختل ، وهو توازن اتفقا على الحفاظ عليه في لوكا . وتصرف السناتو على هذا النحو يدل دلالة قاطعة على مدى التقارب الشديد الذي حدث بين بومبي والسناتو ، وهو تقارب يعني حدوث تباعد شديد بين بومبي وقيصر ، مع ان هذا الاخير كان في مسيس الحاجة لتعاون بومبي معه كي يطيل له مدة بروقنصليته في احدى ولايتيه ولو لبضعة اشهر فقط حتى يتم انتخابه قنصلا في غيبته كما كان يريد .

وعلى اية حال ، فان الهدوء الذي ساد روما في خلال عام ٥٢ ق . م ، سمح باجراء الانتخابات لحكام عام ٥١ ق . م ، فظفر بالقنصلية روفوس الفقيه القانوني البارز ، الذي عمل على تفادي الازمة التي توشك ان تنزل بروما ، وزميل له يدعى ماركيللوس ، وكان رجلا نبيلا خلوقا ، يتمسك بالنظام الجمهوري الى اقصى الحدود ، لكنه كان في نفس الوقت متحمسا الى درجة الاندفاع ، تنقصه الايجابية في التصرف(١١٠) .

وقبل ان نمضي في تحليل الاحداث التي شهدتها روما في خلال عامي ٥١ ، ٥٠ ق . م ، وانتهت

---

(١٠٨) كان القانون القديم هو ذلك الذي استصدره جايوس جراكوس ، وكان يقضي بأن يعلن السناتو سنويا اسمي الولايتين اللتين سيؤول حكمهما الى القنصلين الجديدين ، وذلك قبل انتخابهما ومعرفة شخصيتهما ، وكذلك كان يحرم على التريبون استخدام الفيتو ضد قرار السناتو بعد صدوره في هذا الصدد .

(١٠٩) Dio Cass., XL,56,2; Tacit., Ann.,III,28,1

(١١٠) Liv., Epit., 108;Dio Cass., XL,58

بانهيار التحالف الثلاثي تماما ثم اشتعال نيران الحرب الاهلية ينبغي ان نتناول ـ في ايجاز ـ الامجاد العسكرية التي حققها قيصر في حروبه ، والتي اوغرت عليه صدر بومبي ، كما اوغرت صدور النبلاء الارستقراطيين وجعلتهم يرتعدون خوفا مما يحتمل ان يعمله عند عودته الى روما ، فباتوا يديرون امورهم لتجريده من كل سلطان ومن اية قوة عسكرية .

فتح بلاد الغال (١١١) :

ذكرنا ان قانون فاتينيوس الذي صدر في خلال قنصلية قيصر عام ٥٩ ق . م . كان يقضي بمنحه حكم ولاية غاله القريبة (جنوب الألب) والليريا ، وان السناتو اضاف اليه حكم ولاية غاله البعيدة (عبر الالب) ايضا ، وقد اختار قيصر ولاية غاله القريبة ليكون وهو فيها قريبا من روما ، فضلا عن كونها مليئة بالرجال الاشداء الصالحين للتجنيد ، اما غاله البعيدة فكانت تقع وراء جبال الالب وتشمل المنطقة الساحلية حتى جبال البرانس ، وكذلك المنطقة الواقعة بين الالب ونهر الرون حتى بحيرة جنيف شمالا ، ومن هذه المنطقة شن قيصر حملاته على بقية بلاد الغال التي نعرفها اليوم باسم فرنسا .

الهلفيتي :

فلما انتهى عام قنصلية قيصر لم يبرح روما الى ولاياته ، وانما بقي بها ليحشد القوات اللازمة له كما قال ، والواقع انه كان يريد البقاء في العاصمة حتى يستصدر كلوديوس التشريعات التي اتفق معه عليها ، لكنه اضطر الى التحرك حوالي منتصف شهر مارس عام ٥٨ ق . م حين وصل الى علمه ان بعض قبائل الغال قد احتشدت على الضفة اليمنى من نهر الرون تجاه جنيف الحديثة ، فأسرع الى مكان بالقرب من هذه المدينة ، وعرف ان هذه القبائل ـ وعلى رأسها الهلفيتي ـ قد خربت ديارها واحرقت منازلها ، تريد ان تهجر موطنها نتيجة لضغط قبائل الجرمان عليها ، وأنها لا تطلب اكثر من السماح لها بالمرور عبر الولاية الرومانية ، لكن قيصر رفض ذلك لأن استقرار هذه القبائل في بلاد الغال سوف

(١١١) ان المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن هذا الموضوع هو ما كتبه قيصر نفسه عن الحرب الغالية باسم « مذكرات عن حرب الغال » Gallico Commentarii de Bello وتقع هذه المذكرات في سبعة اجزاء ، ثم قام احد ضباطه ـ وهو الشاعر اولوس هرتيوس ـ فأضاف لها جزءا ثامنا ، ويتناول قيصر في كل جزء من اجزاء مذكراته السبعة احداث عام واحد من اعوام القتال ، بينما يتناول الجزء الثامن الذي اضافه هرتيوس احداث عامي ٥١ ، ٥٠ ق . م . وهناك اجماع على ان المذكرات جاءت مستندة الى التقارير السنوية التي كان قيصر يرسلها كل عام الى السناتو . وقد استخدم قيصر في مذكراته اسلوبا ادبيا رفيعا ورصينا يدل على انه كان صاحب كفاية ادبية عالية كما كان صاحب كفاية عسكرية رفيعة ، وقد التزم جانب الامانة في سرد الوقائع ، لكنه كان دون شك يبرر تصرفاته بدوافع تحتاج الى التمحيص ، والتدقيق ، كما يبدو انه كان يبالغ في اعداد القوات المعادية .

اما اهم المراجع في موضوع حرب الغال فهي :

T. Rice Holmes, Caesar's Conquest of Gaul, 1911; C.A.H , IX,pp. 550 — 573, O. Dorgan, Roman Gaul. (1953).

يؤدي الى اضطرابات وقلاقل شديدة تهدد مركز روما في المنطقة كلها ، وامام هذا الرفض لجأ الهلفيتي الى قبائل السيكواني ـ وهم شعب مستقل ـ فسمحوا لهم بالمرور ، غير ان قيصر عزم على منعهم بالقوة وساعده على ذلك انهم كانوا قد عبروا نهر الساءون ، ودخلوا اراضي قبائل (الايدوي) الموالين للرومان ، وقد استنجد هؤلاء بقيصر فأسرع اليهم بجيشه واشتبك مع جيش قبائل الهلفيتي وانزل بهم هزيمة قاسية اضطروا معها الى الفرار من وجهه ، لكنه اتصل بمن بقي منهم على قيد الحياة وسمح لبعضهم بالعودة الى موطنهم الاصلي كما سمح للبعض الآخر بالاقامة في بلاد الايدوي .

الجرمان :

وقد ابتهجت قبائل الغال الوسطى لهذا النصر الذي احرزه قيصر ، وأرسلت اليه وفودها لتهنئته ، ولتطلب منه المساعدة ضد زعيم قبائل الجرمان المقيمين عبر الراين ـ وهو المدعو آريوفيستوس (Ariovistus) ـ الذي اعان قبيلة السيكواني على التخلص من سيادة الايدوي عليهم ، وكان ازدياد قوة هذا الزعيم الجرماني قد بدأ يقلق قيصر ويثير الذعر في بلاد الغال كلها .

لهذا قرر قيصر معالجة الموقف بحزم ، ولما لم يكن يستطيع محاربته لان السناتو كان قد اعترف به ملكا وصديقا للرومان في عام ٥٩ ق . م . بايعاز من قيصر نفسه ، فانه لجأ الى مفاوضته وطلب منه وقف هجرة الجرمان من وراء الراين ، والكف عن سوء معاملة جيرانه . ولكن اريوفيستوس رفض هذه المطالب واعتبرها انذارا له ، فقرر قيصر الهجوم بقواته على الفور ، وقد فزع جنوده فزعا شديدا من مواجهة الجرمان ، لكنه سيطر عليهم سريعا وبث في قلوبهم السكينة ، ثم دارت المعركة في شهر سبتمبر عام ٥٨ ق . م ، فنزلت بالجرمان هزيمة منكرة ، وتمكن زعيمهم من الفرار مع بعض رجاله الى وطنهم شرقي الراين ، ومع ذلك فقد ظل حتى وفاته في اوائل عام ٥٣ ق . م مصدر قلق لقيصر(١١٢) .

البلجيك :

أثار تدخل قيصر في بلاد الغال الوسطى تذمر زعماء القبائل الاخرى ، فعقدوا العزم على مقاومته ، وكان اكثر هذه القبائل تذمرا هم البلجيك الذين قرروا الوقوف في وجهه وصده . وكان هو قد امضى الشتاء في ولاية غاله القريبة ، فلما سمع بما ينتويه البلجيك ، عزز جيشه بفرقتين جديدتين وزحف به شمالا قبل ان يستكمل البلجيك استعدادهم ، فاستسلمت له احدى قبائلهم بل وامدته بالمساعدة . وبعد ذلك عهد الى حلفائه الايدوي بتخريب اراضي الاعداء ، فقاموا بذلك خير قيام حتى تمزقت

(١١٢) Caes., B.G.,V,29

قوات هؤلاء الاعداء ولاذوا بالفرار ، وما لبثت القبائل الاخرى ان استسلمت ، ومما يذكر هنا ان كراسوس الصغير ابن كراسوس عضو التحالف الثلاثي قد قام بدور بارز في هذه الحروب[١١٣] ، واعتقد الجميع ان بلاد الغال الشمالية والوسطى قد خضعت تماما لقيصر ، لكن قيصر نفسه كان يدرك تماما ان السيادة الرومانية الكاملة على بلاد الغال لم ترتكز بعد على قواعد واسس مكينة .

الفينيق :

وجاء عام ٥٦ ق . م . فذهب قيصر للاجتماع بحليفيه في مؤتمر لوكا على نحو ما اوضحنا ، وبعد انتهاء المؤتمر قفل راجعا ، وعبر الألب من جديد ليواجه اول ثورة اشعلها الغال ضد الرومان : فقد نقض البريتاني والنورماندي تحالفهم معه وبدأوا يؤججون نيران الثورة ضد روما وقيصرها . وتزعمت هذه الثورة قبائل الفينيق (Veneti)[١١٤] وهي قبائل بحرية كانت تسيطر على التجارة مع بريطانيا ، فأحسوا بأن الرومان ينافسونهم في هذا المجال ، وأثار مخاوفهم الشديدة قيام كراسوس الصغير برحلة استطلاعية الى شواطيء بريطانيا الجنوبية ، فاذا بهم يلقون القبض على بعض الضباط الرومان ، وانضم اليهم في هذه الثورة بعد ذلك النورماندي والبريتاني .

وتولى قيصر بنفسه امر الفينيق والبريتاني ، بينما اوكل الى مساعديه مهمة اخضاع البريتاني والنورماندي وصد الغزوة التي يعتزم الجرمان القيام بها ، ولكي يضمن لنفسه النصر ، ويقضي على القوة البحرية للفينيق ، فانه امضى شتاء عام ٥٧/٥٦ ق . م . في بناء اسطول يقف امام اسطول اعدائه ، وبمجرد وصول هذا الاسطول الى ساحة المعركة ونجاحه في تحطيم بعض سفن العدو ، استسلم الفينيق والبريتاني ، وسيطر الرومان على البحر من خليج بسكاي الى القنال الانجليزي ، ثم أنزل قيصر عقابه الصارم بأعدائه ، فأعدم زعماءهم ، وباع الاهالي في سوق النخاسة ، ثم توجه الى غاله القريبة ليقضي شتاء عام ٥٦/٥٥ ق . م .

الجرمان مرة أخرى :

وفي نفس هذا الشتاء عبرت قبيلتان من قبائل الجرمان نهر الراين الادنى في اعداد هائلة ، قدرها قيصر في مذكراته عن حرب الغال بنحو ٤٣٠٠٠٠ نسمة ، ثم تقدم فريق من هؤلاء حتى اصبح على مقربة من مدينة ليبج الحديثة ، فخشي قيصر ان تنضم هذه الجموع الحاشدة الى الغال الناقمين عليه

---

(١١٣) استسلمت لكراسوس الصغير قبائل النورماندي والبريتاني

(١١٤) كانت هذه القبائل قد استسلمت له بعد انتصاره على البلجيك

وعلى روما ، فأسرع في عام ٥٥ ق . م الى غاليا كوماتا [١١٥] واجتمع بزعمائها وحصل منهم على مساعدات كثيرة ، ثم بدأ زحفه نحو هذه الآلاف المؤلفة من الجرمان ، وفي الطريق جاءه سفراؤهم يطلبون السماح لهم بالبقاء في بلاد الغال ، لكنه رفض ذلك واقترح ان يعطيهم موطنا خاصا شرقي نهر الراين ، وانتهت المفاوضات في ذلك الموضوع بهدنة قصيرة لدراسة اقتراح قيصر .

وفي اثناء الهدنة واصل قيصر زحفه شمالا نحو قواته الرئيسية ، وفجأة تعرض بعض فرسانه المتقدمين لهجمات بعض الوحدات الجرمانية ، فبادر زعماء الجرمان في اليوم التالي مباشرة بالذهاب الى قيصر والاعتذار له عما حدث ، لكن قيصر لم يطمئن اليهم ، فالقى القبض عليهم ثم اسرع الى قواتهم التي كانت تنتظر عودتهم ، فأخذها على غرة وبدد شملها ، فولت الادبار وجد هو في اثرها حتى لحق بها ، ودارت مجزرة مروعة ، اهلك فيها قيصر ٤٠٠٠٠٠ من هؤلاء الجرمان الفارين ، بينما لم يتكبد هو غير عدد قليل من الجرحى كما يقول في مذكراته[١١٦] . وبعد ذلك عبر الراين الى قبائل الجرمان الاخرى ليلقي في قلوب رجالها الرعب حتى لا يفكروا في غزو بلاد الغال ، فأنزل بهم الهزيمة ، ثم قفل راجعا الى غاله بعد ان حطم الجسر الذي كان قد شيده ليعبر عليه الراين .

غزو بريطانيا : [١١٧]

بعد عودة قيصر كان صيف عام ٥٥ ق م قد انتهى تقريبا ، وهو موسم القتال ، لكنه برغم ذلك جهز حملة صغيرة للاستطلاع في بريطانيا تمهيدا لغزوة كبيرة يقوم بها في العام التالي .

والواقع ان غزو بريطانيا بحجة منع اهلها من معاونة الغال الناقمين على الرومان ، لم يكن ضروريا : فبعد هزيمة الفينيقي اصبح الرومان اصحاب السيادة على البحر من خليج بسكاي الى القنال الانجليزي ، ثم ان مد الحدود الرومانية الى ما وراء ارض القارة الاوروبية كان يلقي على روما تبعات جسام دون ان تفيد شيئا سياسيا او عسكريا . لكن الذي لاشك فيه هو ان غزو بريطانيا كان يخدم اهداف قيصر الشخصية ، فقد بولغ كثيرا فيما تحتويه من ثروات ، ولم تكن حتى ذلك الوقت معروفة للرومان ، وبالتالي فان غزوها سوف يكون له وقع اكبر من وقع فتوحاته في بلاد الغال ، بل ان هذا الغزو سوف يغطي على الانتصارات التي احرزها بومبي في الشرق .

---

(١١٥) اي بلاد الغال التي يسكنها اصحاب الشعور الطويلة ، وهي منطقة فسيحة تشمل على وجه التقريب فرنسا وسويسرا وبلجيكا .

(١١٦) لقد ارتكب قيصر جريمة وحشية مروعة بقتله كل هذه الآلاف المؤلفة دون ما جريرة سيما بعد ان اعطى له زعماؤهم ... ولقد حاول ان يبرر فعلته هذه في مذكراته فقال انه كان يريد تجنيب الرومان خطر هذه الجموع الحاشدة من المهاجرين . لكن ما اقترفه كان دون شك عملا غير انساني يخالف كل الاعراف . ولقد انتهز خصمه كاتو هذه الفرصة فهاجمه مهاجمة بالغة العنف والقسوة ، غير ان السناتو لم يأبه لما قاله كاتو واصدر قرارا باقامة صلوات الشكر للآلهة طيلة عشرين يوما .

(١١٧) من مراجع فتح بلاد الغال انظر ايضا :

T. Rice Holmes, Ancient Britain and the Invasion of Caesar, 1935.

لهذا نرجح ان السبب الحقيقي لغزو بريطانيا كان رغبة قيصر الشخصية في الظفر بانتصارات تفوق انتصارات بومبي ، وبالتالي تكسبه هالة من المجد والجلال لم يكتسب مثلها احد قبله ، وتعطيه في نفوس الرومان مكانة اسمى وارفع من مكانة كل منافسيه وحساده .

وفي اغسطس من عام ٥٥ ق . م حشد اسطوله وعبر به مضيق دوفر ، ونزل بساحل كنت بعد مقاومة لقيها من البريطانيين ، لكن زعماء المنطقة اتوه مستسلمين ، فرأى الاكتفاء بذلك لضآلة قواته وسوء الاحوال الجوية وعاد الى القارة في شهر سبتمبر واخذ يستعد لغزوة ثانية تحقق له اهدافه اذ ان غزوته الاولى هذه لم تحقق شيئا يذكر .

تدل الاستعدادات التي قام بها قيصر في شتاء عام ٥٥/٥٤ ق . م على انه كان يريد فتح كل الجزيرة البريطانية[١١٨] ، فلما اقلع ابحر بقوة ضخمة من المشاة والفرسان[١١٩] ونزل على ساحل كنت دون مقاومة هذه المرة ، ثم زحف غربا والتقى بقوات كنت عند كانتربوري (Canterbury) وأنزل بها هزيمة قاسية ، لكن عاصفة هبت على الساحل ودمرت عددا كبيرا من سفن اسطوله فآثر العودة لانقاذ السفن الباقية بسحبها الى البر ، وقد استغرقت هذه العملية وقتا اتاح للبريطانيين تنظيم صفوفهم .

وبعد عودته من هذه المهمة التقى بالقائد البريطاني الذي امره اهل الجزيرة على جيشهم ، فأنزل به هزيمة فادحة وفرض عليه تسليم عدد من الرهائن ودفع الجزية للرومان ، ثم قفل راجعا الى بلاد الغال دون ان يترك وراءه حاميات في بريطانيا ويبدو ان السبب في ذلك كان ما بلغ مسامعه من انباء عن تجدد الاضطرابات في بلاد الغال .

والواقع ان بلاد الغال بدأت تموج بالثورة في خريف عام ٥٤ ق . م ، نتيجة لضيقهم بالسيطرة الرومانية ، ولعمليات السلب والاستنزاف والاستعباد التي نزلت بهم لكن قيصر افلح في القضاء على هذه الثورة التي استمرت مشتعلة الاوار حتى اغسطس من عام ٥١ ق . م .

وقضى قيصر بعد ذلك بقية هذا العام ثم صيف العام الذي يليه في تنظيم فتوحاته ومحاولة استرضاء الغال ليذعنوا للحكم الروماني ويتقبلوه غير ناقمين ولا ساخطين ، فوفق في ذلك توفيقا كبيرا ، وساد السلام في بلاد الغال سنين عديدة .

وبعد فليس من شك في ان غزو بلاد الغال كان امرا بالغ الاهمية بالنسبة لروما ولقيصر ولتلك البلاد نفسها . . . فقد انقذها من القبائل الجرمانية المتوحشة ، فنعمت بالهدوء ، وانتشرت في انحائها

---

(١١٨) مما تجدر الاشارة اليه هنا ان كراسوس كان في نفس الوقت يعد العدة لغزو بارثيا دون اي مبرر ، اللهم الا رغبته في الحصول على مجد عسكري يقارن به مجد قيصر .
(١١٩) كانت الحملة تضم حوالي ثلاثين الف مقاتل من المشاة والفين من فرسان الغال .

الحضارة الرومانية . ولقد اضاف قيصر ـ بفتحه بلاد الغال ـ للممتلكات الرومانية ارضا فسيحة خصبة هي التي نعرفها اليوم باسم فرنسا ، والتي اعتبرت جوهرة غالية بل اغلى جوهرة في تاج الامبراطورية الرومانية ، وأدت الى مضاعفة موارد الدولة وازدياد قوتها ، وان كان الدفاع عن حدود الراين قد فرض على روما اعباء ضخمة .

أما بالنسبة لقيصر فان فتح بلاد الغال اتاح له تنمية مواهبه العسكرية ، كما اتاح له بناء جيش كبير حسن التدريب يدين له وحده بالولاء ، هذا فضلا عن الاموال الطائلة التي حصل عليها من الاسلاب والغنائم والتي مكنته فيما بعد من كسب الانصار والمؤيدين في روما في النضال السياسي والعسكري الذي سوف يخوضه .

ولقد امضى قيصر تسع سنوات في هذه الحروب ـ مع انه لم يكن يتمتع بصحة جيدة ـ لتحقيق الاهداف التي رسمها لنفسه ، وهي السيطرة الكاملة على شئون الدولة ومن ثم اقامة حكومة حازمة رشيدة تقبض على ناصية الامور تستطيع ان تحقق المصالح الوطنية العليا ، واذا كان سلا قد واتته الفرصة فأخفق في اقتناصها لعنفه وبطشه الشديدين واذا كان بومبي قد اخفق ايضا لقلة خبرته السياسية فاذا هو يسرح قواته العسكرية عقب عودته من فتوحاته فان يوليوس قيصر لم يدع الفرصة تفلت من قبضته وانما اغتنمها على الفور .

وعاد قيصر الى غاله القريبة في صيف عام ٥٠ ق . م بعد ان استقرت الامور تماما في بلاد الغال كلها ليكون على مقربة من مجريات الأحداث في روما . . .

احداث عام ٥١ ق . م .

ونعود الان ـ بعد الفراغ من الحديث عن فتوحات قيصر ـ الى مواصلة تحليل الاحداث التي شهدتها روما في عام ٥١ ق . م ، وهو العام الذي ظفر به بالقنصلية كل من روفوس وماركيللوس كما ذكرنا ، ثم شهد التحول الواضح في موقف بومبي من قيصر .

لقد طلب قيصر في بداية عام ٥١ ق . م ، تمديد فترة بروقنصليته في ولايته او في احداهما كي يتم انتخابه قنصلا في غيبته ، ولكن السناتو رفض هذا الطلب ، ولم يحاول بومبي ان يتدخل في هذا الموضوع[١٢٠] مع ان قيصر كان يتوقع منه المعاونة ـ كما ذكرنا ـ لتحقيق هذا الهدف . وكان موقف بومبي السلبي هذا بمثابة ذريعة تذرع بها النبلاء لمواصلة العمل على كسر شوكة قيصر ، حتى اذا عاد الى روما لم يستطع ان يقف في وجههم .

(١٢٠) App., D.C., II,25; Plut., Caes., SSIX,1.

وتقدم القنصل ماركيللوس للسناتو باقتراح يقضي بانهاء بروقنصلية قيصر قبل موعد انتهائها الرسمي ، وهو اول مارس من عام ٤٩ ق . م . متذرعا بأن الحرب في بلاد الغال قد انتهت ، ومن حق رجال جيشه ان يسرحوا ، وباقتراح آخر يقضي بعدم السماح له بترشيح نفسه للقنصلية الا اذا حضر هو شخصيا ، لأن القانون المعمول به والذي استصدره بومبي في هذا الصدد قد نسخ قانون الترابنة العشرة الذي تحدثنا عنه . ولكن بعض ترابنة عام ٥١ ق م . عارضوا هذا الاقتراح كما عارضه زميل ماركيللوس في القنصلية ـ وهو روفوس ـ مستندا الى عدم جواز استدعاء اي حاكم من ولايته قبل انتهاء مدة حكمه منها طالما لم يرتكب اي عمل يستدعي هذا الاستدعاء(١٢١) . بل لقد عارض الاقتراح بومبي نفسه(١٢٢) لاحبا في قيصر كما قد يبدو ، وانما لأن اقتراح ماركيللوس كان يعني الغاء القانون الذي استصدره بومبي وكراسوس بتمديد بروقنصلية قيصر خمس سنوات اخرى ، وربما ايضا لأن رأي بومبي لم يكن قد استقر بعد على ما ينوي عمله تجاه قيصر .

وفي اواخر سبتمبر من عام ٥١ ق . م اصدر السناتو قرارا بتكليف قنصلي عام ٥٠ ق . م بأن يعرضا عليه موضوع الولايات القنصلية في اول مارس من عام قنصليتهما ، على ان يصدر المجلس فيه قرارا سريعا ، وقد ووفق على هذا القرار دون اعتراض الترابنة .

لكن بعض هؤلاء الترابنة اعترضوا في آخر شهر سبتمبر على ثلاثة قرارات اصدرها السناتو بناء على اقتراحات ماركيللوس ، وكان احدها يلزم السناتو بالنظر في حق جند قيصر في التسريح والمكافأة ، والثاني يقضي بأن استخدام حق الفيتو ضد اي قرار للسناتو يعتبر امرا ضد مصالح الدولة ، والثالث يقضي بجعل كيليكيا (وهي الولاية القنصلية التي كان يحكمها شيشيرون مع قبرص) ولاية برايتورية (لا قنصلية) مع ثماني ولايات اخرى(١٢٣) .

ولا شك ان القرار الاول كان يهدف الى احداث وقيعة بين قيصر وجنوده اذ يغريهم بالمطالبة بالتسريح والمكافأة ، وقيصر يريدهم بسلاحهم تحت امرته ، اما الثاني فكان هدفه حرمان الترابنة من حقهم في الفيتو وبذلك يستطيع خصوم قيصر ان يفعلوا به ما يشاؤ ون دون خوف من اي اعتراض ، واما الثالث فكان يعطي السناتو الحق في مناقشة حكم قيصر في ولايته لأن ولايات روما كلها كانت اربع عشرة ولاية وقد اصبحت تسع منها برايتورية وبقيت خمس فقط قنصلية وهي غاله بقسميها واسبانيا بقسميها وسوريا ، وقد اسندت اسبانيا منذ وقت قريب لبومبي فلم يعد باقيا الا غاله بقسميها (وهذه

(١٢١) Dio Cass., XL, 59, 1 — 2; Liv., Epit., 108; Hirt., B.G., VIII,53.

(١٢٢) Cic., ad Att., VIII,3,3.

(١٢٣) كانت هذه الولايات هي : صقلية وسردينيا ومعها كورسيكا ومقدونيا ومعها آخايا وآسيا وافريقيا وكريت وبيثينيا وقوريه .

يحكمها قيصر) وسوريا ، وطبقا للقرار ينبغي ان تثار مسألة هذه الولايات الثلاث في اول مارس عام ٥٠ ق . م . والهدف بطبيعة الحال هو تعيين خلف لقيصر في ولايته وبالتالي يصبح ملزما بالتخلي عنها بمجرد انتهاء مدة بروقنصليته وقبل ان يتم انتخابه قنصلا وحينذاك يصبح امام خيارين لا ثالث لهما فاما ان يعود الى روما مواطنا عاديا بلا قوات عسكرية فتتاح الفرصة لخصومه من النبلاء كي يقدمونه للمحاكمة وبالتالي لا يتولى منصب القنصلية الذي يتطلع اليه واما ان يذهب بنفسه الى المنفى ليتجنب هذا الموقف .

هكذا وضحت الاتجاهات السياسية في روما من جانب النبلاء وجانب بومبي ايضا ضد قيصر ، افهل فات هؤلاء ان رجلا من طرزه وهو السياسي الداهية ، والقائد المظفر الذي يتحكم في جيش ضخم مدرب ، يمكن ان يسلم نفسه الى خصومه بهذه السهولة ليقضوا على مستقبله السياسي قضاء مبرما وهل فاتهم ايضا انه لن يتردد ـ دفاعا عن النفس ـ في ان يسلك المسلك ، الذي سبقه اليه سلا ؟!!

وأراد السناتو ان يقرر على الفور تعيين خليفة لقيصر ، لكن بومبي احجم عن المشاركة في هذه المسألة قبل ان تنتهي بروقنصلية قيصر في اول مارس ، وعندئذ ـ كما قال ـ يكون في حل من التصرف[١٢٤] . ولعله اراد بهذا الموقف ان يبدو منصفا فيحافظ على وعده لقيصر بأن يظل في ولايته حتى تنتهي مدة بروقنصليته تطبيقا للقانون الذي استصدره هو وحليفه كراسوس في هذا الصدد ، لكنه في نفس الوقت كان على استعداد للتصرف بعد ذلك وفق ما تمليه المصلحة العامة ، وهذا يوحي ـ دون شك ـ بأنه لن يسمح لقيصر بتولي القنصلية مرة اخرى . . . لقد كشف بومبي عن نيته دون ادنى مواربة وافهم النبلاء ـ ضمنا ـ انهم يستطيعون الاعتماد عليه في وقفتهم ضد قيصر .

احداث عام ٥٠ ق . م .

جرت انتخابات التريبونية لعام ٥٠ ق . م . فاذا بمعظم الفائزين من انصار قيصر ، لكن تبين ان واحدا منهم كان مرتشيا ، فألغي انتخابه ، وظفر بمكانه شاب يدعى كوريو (Curio)[١٢٥] ، وكان هذا الشاب متلافا غارقا في الديون لاخلاق له ، ومعروفا بعدائه الشديد لقيصر ـ كما كان والده قبله ـ وتشيعه الواضح للنبلاء ، وقد دخل المعركة الانتخابية معلنا انه من انصار الحزب الارستقراطي ، لكن قيصر استطاع ان يشتريه ويجتذبه الى صفه حين سدد عنه كل ديونه[١٢٦] .

(١٢٤) App., B.C , II,26, Hirt., B.G , VIII,53

(١٢٥) كان والد هذا الشاب عدوا لدودا لقيصر ، وكان من خطباء روما البارزين ، والقائد كان كوريو نفسه .

(١٢٦) Dio Cass., XL, 60; App., B.C.,II26, Plut., Pomp., LVIII,1.

ولم يكشف كوريو عن تحوله هذا دفعة واحدة(١٢٧) . بل انه ظل يخالط النبلاء ويشاركهم السخط على قيصر ومهاجمته بعنف شديد ، حتى اذا ولي منصبه رسميا ، تقدم بعدد من مشروعات القوانين(١٢٨) ، وهو على يقين تام من ان السناتو وبومبي لن يوافقوا عليها ، لما حدث ذلك اعلن عن غضبه من النبلاء والجمهوريين ، وجاهر بتأييده لقيصر واعتراضه على القرارات التي اصدرها السناتو ضده .

وانتخب للقنصلية لعام ٥٠ ق . م . كل من جايوس ماركيللوس (ابن عم قنصل سنة ٥١ ق . م) ولوكيوس باوللوس ، وكانا من ألد خصوم قيصر ، لكنه استطاع ان يستقطب هذا الاخير ـ كما فعل مع كوريو من قبل ـ وان يشتري ذمته(١٢٩) .

وفي اول مارس اصدر السناتو قرارا بانهاء بروقنصلية قيصر اعتبارا من اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر ، لكن كوريو استخدم الفيتو ضد هذا القرار لما ينطوي عليه من عسف ظاهر ، ولأنه يكشف عن رغبة النبلاء الجامحة في ان يترك قيصر ولايته قبل اول مارس عام ٤٩ ق . م .

وأمام هذا الاعتراض ، اعاد السناتو النظر في الموضوع مرة ثانية في شهر ابريل ، فقام كوريو بمناورة سياسية بارعة ليوهم النبلاء بانه من اقوى انصار الجمهورية ، وان كل هدفه هو تحرير السناتو من الشعور بالخوف من القوة العسكرية ، فأعلن ان خير سبيل للخروج من هذه الازمة التي تهدد سلامة الدولة من جراء تنافس البروقنصلين ـ بومبي وقيصر ـ مع وجود قوات عسكرية كبيرة تحت امرة كل منهما ، هو ان يقوما في وقت واحد بالتخلي عن بروقنصليتهما وتسريح قواتهما .

وقوبل اقتراح كوريو هذا بتهليل كبير من الجماهير التي احست من صاحبه الاخلاص الشديد للجمهورية والعمل على ما فيه مصلحتها غير مبال بما سوف يجره عليه موقفه هذا من نقمة بومبي وقيصر معا ، بل ان الكثيرين من النبلاء فرحوا بالاقتراح ورحبوا به اشد الترحيب لأنهم رأوا فيه ما يجنب الدولة شرور اندلاع حرب اهلية بين بومبي وقيصر .

ولقد حاول بومبي ان يحبط هذا الاقتراح بينما مضى كوريو الى حد المطالبة باصدار قرار باعتبار بومبي وقيصر عدوين للدولة اذا امتنعا عن تنفيذ قرار تخليهما عن سلطتهما وتسريح جيشيهما ، ومع ذلك

---

(١٢٧) Dio Cass., XL, 16 — 62

(١٢٨) كانت مشروعات القوانين التي تقدم بها تهدف الى اظهاره بمظهر الزعيم الشعبي ، منها ما كان يقضي بتوزيع اقطاعات زراعية على الفقراء ، ومنها ما كان يقضي ببيع القمح لهم بأسعار زهيدة جدا .

(١٢٩) Cael., in Cic., ad Fam., VIII,11,3 كان كايليوس من اصدقاء شيشرون ، وقد وصلتنا مجموعة من الرسائل التي بعث بها لصديقه شيشرون .

فان اعضاء السناتو ، وهم يتوقعون كل الشر من قيصر ، لم يوافقوا على اقتراح كوريو ، الذي قد ينفذه بومبي بعد الموافقة عليه ، بينما يرفض قيصر تنفيذه[١٣٠] ، فيصبح صاحب القوة الوحيد في الدولة .

وكانت مدة تريبونية كوريو ـ صديق قيصر والساهر على رعاية مصالحه وتحقيق اهدافه ـ تنتهي في التاسع من شهر ديسمبر عام ٥٠ ق . م ، واجريت انتخابات القنصلية لعام ٤٩ ق . م ، فظفر بها عدوان من ألد اعداء قيصر ، هما لوكيوس لنتولوس ، وجايوس ماركيللوس (ابن عم قنصل عام ٥٠ ق . م . وسميه) ، وبدا ان الموقف كله يتحول ضد قيصر ، لكن كان له صديق حميم ، هو الكوايستور ماركوس انطونيوس ، وفي وسع هذا الصديق اذا واتته الفرصة ان يقوم بنفس دور كوريو ، ولذلك عمل قيصر كل ما في وسعه ليظفر انطونيوس بأحد مناصب التريبونية لعام ٤٩ ق . م .[١٣١] .

وكان قيصر قد ارسل فرقتين من جيشه الى روما في خريف عام ٥٠ ق . م . استجابة لطلب السناتو الذي قرر ارسالها الى بيبولوس حاكم سوريا ، الذي كان يتوقع غزو البارثيين لولايته . لكن خطر هؤلاء زال واستبقى السناتو الفرقتين في كابوا طوال الشتاء ، واذا بضباط هاتين الفرقتين يروجون الشائعات بأن جنود قيصر قد ضاقوا بتصرفاته ذرعا ، وانهم يخشون ان يعلن نفسه ملكا على روما ، وانهم يودون الانضمام الى جيش بومبي والعمل تحت قيادته .

وصدق بومبي هذه الشائعات ، بل انها ملأته غرورا ، فاهمل تجنيد المزيد من القوات[١٣٢] ، بل لعلها ايضا كانت السبب في عزوفه عن الوصول الى حل وسط مع قيصر وتفضيله الدخول معه في حرب اهلية . هذا بينما كان قيصر يعمل جاهدا على تنظيم قواته في ولايتيه ، وتوزيع وحداتها بين قادته[١٣٣] .

ووصل شيشيرون الى ايطاليا في اواخر شهر نوفمبر من عام ٥٠ ق . م ، ولم يدخل روما انتظارا لقرار السناتو بمنحه حق اقامة موكب نصر لنفسه ، لكنه عرف تماما دقائق الموقف بين قيصر وبومبي كما يتضح من مجموعة الرسائل التي بعث بها الى صديقه اتيكوس ، وهي تدل على انه توقع الا يقبل قيصر الا الحل الذي يرضيه ، والا فلا مفر من نشوب حرب اهلية يجب تفاديها بكل السبل[١٣٤] . ويقول المؤرخ بلوتارخوس في هذا الصدد ان شيشيرون حاول بكل جهده الاصلاح والتوفيق بين القائدين

(١٣٠) App., B.C., II, 27 — 29; Plut., Pomp., LVIII.

(١٣١) Plut., Anton., V, 1 — 2; Hirt., B.G., VIII, 50

(١٣٢) App., B.C., II, 29; Dio Cass., XL, 65 — 66; Plut., Caes., XXIX, 3 — 5; Pomp., LVII, 4 — 5.

(١٣٣) Hirt., B.G., VIII, 51 — 55.

(١٣٤) Cic., ad Att., VII, 2 — 9

حتى لا يشعلا نيران حرب اهلية مدمرة تكتوي روما بنيرانها ، ثم ينصب المنتصر فيها نفسه طاغية على الدولة(١٣٥) .

وبعد ـ فان الطلبات التي تقدم بها قيصر يريد موافقة السناتو عليها ، لم تكن تجافي العرف او تجافي الدستور : فبقاؤه في ولايته حتى اخر عام ٤٩ ق . م كان متفقا مع قانون جايوس جراكوس الذي كان لا يزال ساريا حين منح قيصر البروقنصلية ، وحين مددت هذه البروقنصلية خمس سنوات اخرى . وانتخابه قنصلا وهو غائب عن روما لم يكن امرا جديدا ولا غريبا ، فقد سبق ان انتخب ماريوس للقنصلية غيابيا عدة مرات ، كما صدر قانون خاص باعفاء قيصر من ترشيح نفسه حضوريا وقد وافق بومبي نفسه على هذا القانون ، فلما صدر قانون جديد يحتم حضور المرشح كي يقدم ترشيحه بنفسه ، وافق بومبي على استثناء قيصر من ذلك .

هذا فضلا عن ان قيصر قد تولى الوظائف العامة جميعا طبقا للقانون الذي ينظم تولي هذه الوظائف ، ورغبته في تولي القنصلية ثانية كانت رغبة متفقة مع هذا القانون لأنه في عام ٤٨ ق . م . تكون قد انقضت عشر سنوات على انتهاء قنصليته الاولى في عام ٥٩ ق . م

هكذا يتبين لنا ان الاوضاع كلها كانت سليمة ولا غبار عليها من الناحية القانونية بالنسبة لمطالب قيصر . اما بالنسبة لبومبي ـ عضو التحالف الثلاثي مع قيصر ثم خصيمه الاكبر الان ـ فنحن نعرف انه تولى قنصليته الاولى في ام ٧٠ ق . م . دون ان يكون قد تولى قبل ذلك الكوايستورية والبرايتورية ، وتلك مخالفة صريحة لقانون تنظيم تولي الوظائف العامة . وحين تولى القنصلية لثالث مرة في عام ٥٢ ق . م لم تكن قد انتهت السنوات العشر التي لابد من انقضائها على قنصليته الثانية التي تولاها في عام ٥٥ ق . م .

اما النبلاء والسناتو فاذا كانوا قد منحوا بومبي قنصلية عام ٧٠ ق . م . مرغمين كارهين ، فان السناتو هو الذي خرق القواعد الدستورية ، وهو الذي قوض دعائم النظام الجمهوري حين اقام بومبي قنصلا وحيدا في عام ٥٢ ق . م . كما ولاه في نفس هذا العام حكم ولايتي اسبانيا قبل انقضاء السنوات الخمس التي فرضها قانون اصدره بومبي نفسه .

فأي فرق شاسع بين الرجلين ؟! وان طلب قيصر ليبدو لنا غاية في التواضع اذا هو قورن بما منح لبومبي من استثناءات كانت كلها خروجا صارخا على الدستور والتقاليد معا .

---

(١٣٥) Plut., Caes., XXXI.

من هنا يتضح ان معارضة بومبي والمهوريين لقيصر لم تكن بدافع من الحفاظ على القواعد الدستورية او الروح الجمهورية ، وانما كان الدافع هو الخوف والفزع من عودة قيصر الى روما قنصلا ، الامر الذي يتيح له السيطرة الكاملة على كل مقدرات الدولة ، وبالتالي تتلاشى كل سلطة لبومبي ، وكل سيطرة للسناتو . . . فالصراع كله كان دائرا حول السلطة ومن يظفر بها .

وبذل قيصر كل جهد ممكن للحصول على اكبر تأييد لمطلبه برغم غيابه عن روما ، فانفق الاموال عن سعة لتقديم الهدايا والقروض ، ونجحت جهوده الى حد كبير في اجتذاب الكثيرين من رجال السياسة ومن اعضاء السناتو بل حتى من انصار بومبي . ويقول شيشيرون في احد خطاباته ان كل المجرمين والشبان الفاسدين ودهماء المدينة قد وقفوا جميعا الى جانب قيصر ، وكذلك كل ترابنة العامة وكل المفلسين .

ولم يهمل قيصر الجانب المعنوي في دعايته فبث عملاءه في صفوف عامة الشعب يفهمونهم استعداده للتفاهم ورغبته الاكيدة في يتفادي وقوع حرب اهلية ، ولعله - كما سنرى - كان صادقا في ذلك .

وأصبح الشعب يعتبر قيصر بطله المنتظر ، يتوقع عودته ليرد الحياة الى الجمعيات الشعبية التي وأدها بومبي حين كان قنصلا منفردا(١٣٦) .

واجتمع السناتو في اول ديسمبر من عام ٥٠ ق . م .(١٣٧) . ووقف القنصل ماركيللوس يكيل التهم للقيصر ، ويصفه بأنه قاطع طريق ، ويطلب الى السناتو اعتباره عدوا للدولة اذا لم يتخل عن ولايته وجيشه ، لكن كوريو تدخل وقال ان الحل العادل الوحيد هو ان يتخلى كل من بومبي وقيصر عن بروقنصليتهما ويسرحا جيشيهما ، وتقدم فعلا باقتراح رسمي بذلك وطلب التصويب عليه ، وكانت المفاجأة حين وافق المجلس على الاقتراح بأغلبية ٣٧٠ صوتا ضد ٢٢ صوتا فقط(١٣٨) . وهنا لم يجد تريبون العامة فورنيوس - الموالي لبومبي - الا ان يعترض على القرار فأبطله .

وراجت شائعات كاذبة تقول ان قيصر بدأ زحفه على روما ، فانتهز ماركيللوس الفرصة ، وقام بمحاولة اخيرة ليرغم السناتو ، على الوقوف في وجهه وقفة حازمة ، فاقترح اسناد قيادة الفرقتين المرابطتين في كابوا الى بومبي ليتولى الدفاع عن روما وايطاليا ، لكن كوريو اعترض على هذا الاقتراح وابطله . وهنا اعلن ماركيللوس انه سوف يتصدى بنفسه لهذا الخطر الذي يتهدد الدولة بوصفه

---

(١٣٦) Plut., Caes., XXIX., 2 — 3 ; Pomp., LVIII; Cic., ad Att., 3,3; App., B.C., II, 30

(١٣٧) C.A.H., IX,p.635

(١٣٨) App., B.C., II, 30; Plut., Pomp., LVIII, 3 — 5

قنصلا[١٣٩] ، وذهب مع القنصلين المرشحين للعام التالي لمقابلة بومبي خارج روما ، وفوضوه مهمة الدفاع عن الجمهورية ضد قيصر .

وبرغم ان السناتو لم يوافق على منحه هذا التفويض غير الدستوري الا ان بومبي قبله واستجاب لاداء المهمة[١٤٠] ، وهكذا بدا كأنه هو البادىء بالعدوان ، واتاح لقيصر فرصة القاء تبعة اشتعال نيران الحرب الاهلية على كاهله ، ولاسيما حين اعلن انه على استعداد للتفاهم ، وقبول اي حل وسط ، وانه لا يمانع في تسريح جيشه اذا سرح بومبي جيشه . لكن قوات بومبي كانت عند ذاك قد طوقت اسوار العاصمة فشلت يد السناتو ، ولم يستمع رجاله الى ما ابداه قيصر من رغبة في التفاهم والقاء السلاح .

قيصر يبرىء نفسه قبل الزحف على روما :

حين زار شيشيرون بومبي في العاشر من شهر ديسمبر ، اكد له هذا ان الحرب واقعة لا محالة[١٤١] . وفي خطاب من شيشيرون لصديقه اتيكوس يقول ان بومبي ادرك ان فئات الشعب الروماني لن تهب للدفاع عن الدستور ، فالسناتو لم يجرؤ على اتخاذ قرار حاسم ، والفرسان لا تعنيهم غير مصالحهم المالية ، وكلهم يؤيدون قيصر ، اما المزارعون فكل همهم هو تجنب نشوب حرب اهلية بأي ثمن ، وموقفهم هذا هو موقف شيشيرون نفسه[١٤٢] .

وفي اواخر ديسمبر ذهب كوريو الى قيصر واطلعه على مجريات الاحداث في روما ، واستحثه على الزحف بقواته نحوها على الفور ، لكن قيصر آثر التمهل وحمل كوريو رسالة الى السناتو يعرض فيها حلا وسطا للأزمة ، لكن السناتو كان قد وقع تحت تأثير المتطرفين من رجاله الذين اعتقدوا ان عرض قيصر انما دفعه اليه شعوره بضعف مركزه[١٤٣] ، وكذلك اعتقد بومبي ايضا ، اذ صدق - كما قلنا - الشائعات التي روجها بعض ضباط قيصر في كابوا ، ومن ثم اصبح واضحا انه لا يريد التفاهم مع خصمه وانه يصر على محاربته[١٤٤] .

---

(١٣٩) Plut., Pomp., LXIII, 6; App., B.C., II,31.
(١٤٠) App., Loc. cit.; Plut., Pomp., LVIII, 6 — LIX; Dio Cass., XL, 64,2; 66.
(١٤١) Cic., ad Att., VII,4.
(١٤٢) Cic., loc. cit., 5,4; 715
(١٤٣) App., B.C., II, 32; Plut., Caes., XXXI, 1; Caes., B.C.,I, 7 — 8
(١٤٤) Cic., Ad Att., VII,8.

وكانت رسالة قيصر التي حملها كوريو الى السناتو تتضمن دفاعه عن نفسه وعن حقوق الشعب الروماني ، وقد اسهب في الحديث عن الخدمات التي اداها للدولة ، ثم عرض في نهايتها استعداده للتخلي عن بروقنصليته وان يسرح جيشه شريطة ان يفعل بومبي نفس الشيء وفي نفس الوقت ، والا فانه سوف يجد نفسه مضطرا للدفاع عن حقوقه وحقوق الشعب(١٤٥) .

واجتمع السناتو في اول يناير من عام ٤٩ ق . م ، وتليت على اعضائه رسالة قيصر ، ولكن دون جدوى ، واخيرا قدم اقتراحا بانهاء بروقنصلية قيصر قبل يوم محدد ، فاذا رفض تنفيذ ذلك اعتبر عدوا للدولة ، لكن التريبونين انطونيوس ولونجينوس اعترضا على هذا الاقتراح ، فغضب المتطرفون من رجال السناتو اشد الغضب وطردوا التريبونين من المجلس .

واخيرا وفي اليوم السابع من يناير اصدر السناتو « قراره النهائي » (S.C.V) الذي ينص على تخويل القنصلين والبرايتورس والبروقنصلين الموجودين في ايطاليا (يقصد القرار بومبي وشيشيرون) ، تخويل هؤلاء جميعا التصدي للخطر وحماية الدولة من الخطر الذي يوشك ان ينزل بها ، وهنا انسحب انطونيوس ولونجينوس واسرعا ومعهما كوريو الى مقابلة قيصر لاخباره بكل ما حدث .

وهكذا وقع المحظور وانطلقت نيران الحرب الاهلية بين بومبي وقيصر الذي الهب مشاعر جنده اذ قدم اليهم الوفد الثلاثي الذي جاءه من روما فقصوا على الجند ما حدث ، ثم اختلى هو بنفسه فترة قصيرة ليتخذ قراره وكان القرار هو اصدار اوامره للفرقة الثالثة عشرة بعبور نهر روبيكون الذي يفصل بين ولاية غاله الغربية وايطاليا(١٤٦) .

وعلى هذا النحو بدأت الحرب الاهلية ، فهل كان قيصر هو المسئول عن اشعال نيرانها ؟ ام ان بومبي هو الذي يعتبر مسئولا عن ذلك ؟

لقد تعاقبت الازمات السياسية بسرعة مذهلة خلال عام ٥١ ، ٥٠ ق . م . ثم انتهت كما رأينا بذلك الموقف المتطرف الذي اتخذه رجال السناتو كما اتخذته طبقة النبلاء الجمهوريين تجاه قيصر ، فلم يجد هذا بدا من اصدار اوامره الى احدى فرقه العسكرية بعبور نهر روبيكون والزحف نحو روما :

واذا فان قيصر هو الذي بدأ الحرب ، لكنه اضطر الى ذلك اضطرارا واكره عليه اكراها ، وهؤلاء الذين اكرهوه على بدء الحرب لا بد ان يشاركوه المسئولية ويتحملوها معه .

(١٤٥) App., B.C II, 32; Plut., Caes., XXX, Pomp., LIX; Caes., B.C., I, 9ff.
(١٤٦) Dio Cass., XLI, 3—4; Pp., XXXI — XXXIII; Po..., LiX; Anton., V — VI

لقد ادعوا انهم انما اتخذوا موقفهم دفاعا عن النظم الدستورية وحفاظا على النظام الجمهوري ، لكننا نراهم في ادعائهم هذا غير صادقين : لقد رفضوا باصرار كل الحلول الوسط التي عرضها قيصر كما ذكرنا ، واصروا كل الاصرار على استدعائه من ولايته قبل انتخابه قنصلا ، وكانت استجابته لهم تعني انهم وضعوه امام خيارين لا ثالث لهما ، فاما ان يضحي بمستقبله السياسي او على قوله هو بكرامته (dignitas) لانه فور عودته كمواطن عادي لا سلطة له سوف يصبح هدفا لاتهاماتهم ، وبالتالي يقدم للمحاكمة ، واما الا يستجيب ويحافظ على كرامته ، وهذا يعني ان يمتشق الحسام ليحقق اهدافه بالقوة .

وقيصر بعد كل الامجاد التي حققها بانتصاراته في بلاد الغال وفي بريطانيا ، وبعد كل السوابق التي شهدتها الدولة يوم استولى سلا على روما بالقوة ، ويوم فعل ركنا نفس الشيء ، نقول ان قيصر لم يكن من السذاجة بحيث يسلم نفسه لأعدائه دون عناء .

ولقد شرحنا من قبل كيف كانت مطالب قيصر متواضعة ولها سوابق عديدة ، بل وتستند احيانا على القوانين التي استصدرها مؤيدوه لصالحه ، بينما ظفر بومبي بمعظم ما ظفر به خرقا للدستور وعلى يد رجال السناتو انفسهم .

لكل ذلك نرى ان فئة النبلاء ، ومعها بومبي ، لم تكن في اصرارها على استدعاء قيصر من ولايته قبل انتهاء مدة بروبرانيوريته ، وفي تمسكها بألا يرشح نفسه للقنصلية الا حضوريا ، لم تكن في الحقيقة تداف عن الدستور او عن النظام الجمهوري بقدر ما كانت تنفث احقادها ضده ، وبقدر ما كانت تعمل على اصطياده مجردا من كل قوة وسلطان لتفعل به ما تشاء .

ان السناتو نفسه هو الذي اقام بومبي قنصلا منفردا وذلك ـ دون شك ـ اعتداء صارخ على الدستور بقدر ما هو قتل لروح النظام الجمهوري ، والسناتو هو الذي اتخذ « قراره النهائي » ضد قيصر بحجة اعتدائه على الدستور ، وكان هذا القرار النهائي هو الذي اشعل لهيب الحرب الاهلية .

ان مطالب قيصر لم تكن غريبة ولا كانت شاذة بالقياس الى مطالب بومبي ، وحسبنا في هذا الصدد ان نشير الى القرار الذي صدر بتمديد مدة قيادة هذا الاخير في اسبانيا خمس سنوات اخرى .

واذا كان قيصر قد عبر نهر الروبيكون على رأس جيشه زاحفا نحو روما ، فقد كان ذلك الزحف ـ كما يقول هو ـ ضد السناتو الذي حالف بومبي ضده ، وضد جماعة الارستقراطيين المتقلبين الذين اتحدت كلمتهم مرة ضد بومبي ومرة اخرى ضده هو وضد بومبي معا ، واخيرا ضده وحده بهدف القضاء عليه والتخلص منه .

لقد وضعوا قيصر في مركز بالغ الحرج ، تماما كما وضعوا سلا قبله في عام ٨٣ ق . م ، فاما ان يدافع عن نفسه ويحمي مستقبله ، واما ان يستسلم لجلاديه ، وليس من المعقول ان يسعى الى حتفه بظلفه ، وكان عليه ان يحرر نفسه ويحرر الشعب ايضا ، ـ كما قال هو ـ من طغيان الاقلية[١٤٧] .

ولو ان السناتو استجاب لداعي العقل ، ووافق على عرض قيصر بتبني الحل الوسط ـ الذي ذكرناه ـ حين عرضه قيصر ، لجنب روما ويلات الحرب الاهلية . . لقد كانت خصومتهم مع قيصر ورغبتهم في القضاء عليه نهائيا هي هدفهم الاسمى الذي يعلو على مصلحة الدولة .

من ذلك يتبين لنا ان قيصر لا يمكن ان يكون مسئولا عن اشعال نيران الحرب الاهلية بقدر ما كان اعداؤه مسئولين عنها .

لقد كانت التطورات السياسية التي حدثت في خلال الاعوام القليلة التي سبقت الحرب الاهلية ، ارهاصا قويا بقرب نهاية النظام الجمهوري ، كما كانت مقدمات واضحة لنتائج حتمية لابد ان تعقبها . ولكن الطبقة الارستقراطية عميت عن هذه الارهاصات وغفلت تلك المقدمات عن النتائج التي لابد ان تأتي في اثرها ، ولم تر الا عداءها لقيصر ووجوب الخلاص منه . ولو انها كانت اوسع افقا ، واحسن تقديرا للموقف ، واكثر شجاعة ، لكان في الوسع تجنب هذه الحرب الاهلية التي اتسع نطاقها فشملت كل حوض البحر الابيض المتوسط تقريبا ، والتي انتهت بمصرع بومبي غدرا في مصر ، ومن ثم انفرا قيصر بالسلطة المطلقة في الدولة الرومانية .

والواقع انه لم يعد باقيا من النظام الجمهوري الا اسمه فقط ، ولسوف يتمحي هذا الاسم ايضا حين ينجح اوغسطس في اقامة نظام حكم المواطن الاول .

***

(١٤٧) Caes., B.C., I, 22,5

المصادر الكلاسيكية لمسرح شكسبير

"دراسة في مقومات الكتابة الدرامية إبان العصر الاليزابيثي"

أحمد عتمان

أستاذ مساعد بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة
والمعهد العالي للفنون المسرحية بالكويت

لا تزال علاقة الشاعر الانجليزى الكبير وليام شكسبير (١٥٦٤ ـ ١٦١٦) بمصادره الكلاسيكية مسألة خلافية تثير الكثير من الجدل بين العلماء المتخصصين . على أن ذلك الجدل لا يثير الشكوك حول حقيقة تأثر شكسبير بالتراث الاغريقى الرومانى ، فهذه حقيقة لا ترقى اليها الظنون ولا يمارى فيهاأحد . وانما يدور الجدل بين الدارسين المدققين والعلماء المحققين حول مدى هذا التأثر وكيفية وقوعه . فأى المؤلفين الكلاسيكيين قرأ شكسبير ؟ وهل كان المامه باللغة الاغريقية واللاتينية يمكنه من الاتصال المباشر مع نصوص هاتين اللغتين ؟ أم تراه إكتفى بقراءة المترجمات ؟ ثم يأتى السؤال الأهم وهو : مادور الثقافة الكلاسيكية فى تكوين شكسبير ، تلك العبقرية الدرامية النادرة ؟

وبادىء ذى بدء نعترف بأن محاولتنا للاجابة على تلك الأسئلة المطروحة مغامرة محفوفة بالمحاذير والمخاطر . فحتى لو استطعنا أن نتعقب النصوص الاغريقية واللاتينية التى ترجمت أو أعيد طبعها قبل عصر شكسبير وأثناء حياته ـ وتلك مهمة شاقة للغاية ـ فاننا لا نستطيع تحديد موقف شكسبير بالضبط من تلك الطبعات والترجمات ، ذلك أننا لا نملك من وثائق حياته الشخصية والتعليمية ما يمكننا من الاجابة على كل تساؤلاتنا المطروحة بطريقة قاطعة مانعة لكل الشكوك . اذ سيبقى الباب مفتوحا ـ والحال هكذا ـ أمام التخمينات التوفيقية والحلول التصفية . ومع ذلك فان الدراسات الأدبية الجادة لا تستسلم أمام الصعوبات وتشق طريقها مهما كان الأمر .

ويكفي بالنسبة لموضوعنا أننا نملك وثيقة تفوق في قيمتها آلاف الوثائق ، ونعني نصوص شكسبير نفسها اذ لا بد أن تكون مرجعنا الأول والأخير . ان التوفر على تلك النصوص وتحليلها تحليلا دقيقا ، ونقدها بأسلوب أكاديمي ، فيه الكثير من التأني والوعي ، سيضع أيدينا على دلائل داخلية لا حصر لها ، وأقل ما يقال عنها أنها أقرب الى الصحة من الدلائل الخارجية حول ثقافة شكسبير الكلاسيكية . وسواء قلنا أن نشاط حركة احياء التراث الاغريقي الروماني قد جعل الزاد الثقافي لعصر شكسبير زادا كلاسيكيا بالدرجة الأولى وأن ذلك أثر على كل انتاج ذلك العصر ، أو قلنا أن شكسبير نفسه كان مغرما بالحضارة الكلاسيكية فتعمق في دراستها ـ وهو أمر لا يمكن التدليل على صحته من خارج نصوص المؤلف كما رأينا ـ فاننا سنصل الى نفس النتيجة ، ألا وهي أن مسرحيات شكسبير مثقلة بثمار الثقافة الكلاسيكية الشائعة في عصر النهضة الأوروبية .

●●●

١ ـ لاتينية قليلة واغريقية أقل :

وينبغي أن لا ننسى ـ ونحن نشرع في دراسة مصادر شكسبير الكلاسيكية ـ حقيقة أن الجزيرة البريطانية كانت يوما ما جزءا من الامبراطورية الرومانية ، مما يعطيها الحق في اقتسام التركة الكلاسيكية مع بقية القارة الأوروبية . ففي عام ٥٥ ق . م . قام يوليوس قيصر بغزو بريطانيا . في العام التالي تمكنت حملة رومانية قوامها خمس فرق بقيادة نفس القائد المشهور من التمركز في مكان يقع بين دوفر وساندويتش . ثم عبرت فيما بعد نهر التيمز . ولكن يوليوس قيصر اضطر للعودة الى بلاد الغال (تقابل فرنسا الحالية تقريبا) لاخماد بعض الاضطرابات التي وقعت فيها أثناء غيابه . ولم تتكرر هذه المحاولة الجريئة لضم الجزيرة البريطانية الى الامبراطورية الرومانية منذ ذلك التاريخ الا في عصر الامبراطور كلاوديوس وبالتحديد عام ٤٣ م . اذ قاد أولوس بلاوتيوس أربع فرق رومانية وقوات أخرى مساعدة واستطاع أن يتمركز في روتوبياى Rutu — piae وتقابل الآن Richborough)وأن يحرز نصرا حاسما في موقعة ميدوى (Medway) . ثم جاء الامبراطور كلاوديوس نفسه بعد ذلك على رأس امدادات عسكرية ضخمة تقدم بها في أراضي الجزيرة حتى كولشيستر (Colchester) فأسرعت كثير من القبائل لتقسم يمين الطاعة والولاء له . وبعد عودة الامبراطور كلاوديوس الى روما صار أولوس بلاوتيوس سالف الذكر أول حاكم على الولايات الرومانية التي أنشئت فوق الجزيرة البريطانية ، التي تكونت من الأراضي التي تم فتحها حتى ذلك الحين . وكانت مهمة هذا الوالي الروماني الأساسية أن يواصل غزو بقية الأراضي البريطانية . وتوالى الحكام الرومان على بريطانيا وتوالت أحداث الحروب التوسعية على حساب القبائل المحلية واستمر الحكم الروماني لبريطانيا حتى عام ٤٢٩ م . ولا تزال توجد بعض

الآثار الرومانية فى بريطانيا الى يومنا هذا . وأهم تلك الآثار بقايا سور هادريان ـ الامبراطور الرومانى من ١١٧ ـ ١٣٨ م ـ وكذلك الطرق الرومانية التى برع فى شقها وتعبيدها الرومان . كما تزال كثير من المدن البريطانية تحمل نفس الأسماء اللاتينية ـ كما هى أو معدلة بعض الشيء ـ التى اتخذتها منذ تأسيسها فى عصر الرومان . وأهم من ذلك أن الجزيرة البريطانية تدين للاحتلال الرومانى بفكرة تأسيس المدن التى لم يسبق لها عهد بها من قبل ، حيث اقتصرت المجتمعات فيها على قرى بيوتها لا تتعدى الأكواخ البدائية . فلما جاء الرومان وأقاموا فيها كان لا بد من تخطيط المدن الكبيرة واقامتها مع توفير شبكات الطرق الطويلة والمستقيمة . فتلك ملامح أساسية فى الحضارة الرومانية التى يغلب عليها الطابع العملى والعمرانى .

وحتى القرن الأول الميلادى كان الرومان قد أنشأوا على أرض الجزيرة البريطانية عدة مدن هى بمثابة عواصم للقبائل المحلية التى كانت من قبل متفرقة . ومن بين هذه المدن نذكر فينتا بلجاروم (Venta Belgarum) وتقابل الآن وينشيستر (Winchester) ونوفيوماجوس (Noviomagus) وتقف مكانها الآن مدينة تشيشيستر (Chichester) وكورينيوم (Corinium) ومكانها الآن سيرينسيستر (Cirencester) ودورنوفاريا (Durnovaria) وتحمل الآن اسم دورتشيستر (Dorchester) . وأقام الرومان كذلك بعض المستعمرات (coloniae) مثل كامولودونوم (Camulodunum) وتقابل الآن مدينة كولتشيستر (Colchester) وليندوم (Lindum) وهى الآن لينكولن (Lincoln) . أما لونديniوم (Londinium) فهى المستعمرة التى أصبح اسمها الآن لندن (London)[1] . ولقد صارت العاصمة فى تاريخ لا يمكن تحديده بدقة تامة ولكن يمكن القول بصفة عامة أن ذلك وقع ابان عصر الأباطرة الأنطونيين نسبة الى أولهم أنطونينوس بيوس (Antoninus Pius) (١٣٨ ـ ١٦١ م) أما آخرهم فكان كومودوس الذى حكم من ١٨٠ ـ ١٩٢ م حيث قتل .

كانت المدن والمستعمرات الرومانية فى الجزيرة البريطانية اذن مراكز حضارية متقدمة ضمت المنازل الكبيرة والشوارع المستقيمة والسوق الرومانية المعروفة (فوروم Forum) وكذلك الحمامات العامة والمسارح . وفى ظل الحكم الرومانى راجت التجارة وتقدمت الصناعة نتيجة لاستتباب الأمن والاستقرار بفضل شبكة الطرق المعبدة . وأدخل البلجيكيون المهاجرون فن سك العملات الى الجزيرة البريطانية . وعلى أيدى الرومان دخلت العبادات الشرقية مثل عبادة ميثراس (Mithras) وايزيس وسيرابيس وغيرهم . وهكذا احتضنت بريطانيا أبان العصر الرومانى العبادات الكلتية والشرقية جنبا الى جنب مع العبادات الاغريقية والرومانية . ومن المرجح أن المسيحية لم تدخل الجزيرة البريطانية الا حوالى القرن الثانى الميلادى ، ولكنها لم تصبح الديانة الرئيسية الا فى القرن الرابع .

---

(١) عن تفسير آخر لأصل اسم العاصمة البريطانية راجع حاشية رقم ٥٩

ومما قدمنا يستفاد أن بريطانيا مرتبطة تاريخيا وحضاريا بالرومان ولغتهم اللاتينية أكثر من ارتباطها بالاغريقية . فلا غرو أن تكون اللغة اللاتينية هي اللغة الأكثر شيوعا بين الانجليز أبان عصر النهضة . أضف الى ذلك أن اللاتينية كانت لغة الكنيسة الغربية التي كانت انجلترا تتبعها الى أن حدث الانقسام بينها وبين البابا في عهد هنري الثامن (١٥٠٩ ـ ١٥٤٧) وهو والد الملكة إليزابيث (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣) . ولا يعني هذا أن اللغة الاغريقية كانت مهملة أو مجهولة تماما آنذاك في انجلترا . فلقد توسع الانسانيون أصحاب حركة احياء التراث الكلاسيكي في دراسة هذه اللغة وآدابها بالجامعات . ان علية القوم كانوا ينظرون الى اللغة الاغريقية ـ لا اللاتينية ـ على انها سمة من سمات الرفعة والجاه . ولكن هذه الحقيقة في حد ذاتها تشهد ضمنيا بغلبة اللغة اللاتينية وانتشارها والتي أصبحت في الواقع منذ نهايات القرن الخامس عشر لغة العلم والثقافة والدين . ليس فقط في انجلترا بل في سائر أنحاء القارة الأوروبية أيضا .

هذا بالنسبة لبريطانيا عصر النهضة . أما بالنسبة لشكسبير فيرى بعض العلماء أن محصوله من اللغتين الاغريقية واللاتينية ضئيل هزيل لا يمكنه من قراءة نصوصهما . ويرى هذا الفريق من العلماء أن من يقرأ مسرحيات شكسبير لا يواجه مواطن كثيرة أو قليلة تستوجب معرفة المؤلف بهاتين اللغتين معرفة واسعة . والجدير بالذكر أن مثل هؤلاء العلماء لا يشكون في معرفة شكسبير بالايطالية والاسبانية وفرنسية العصور الوسطى قدر شكهم بالنسبة للاغريقية واللاتينية . وهم يرجحون أن يكون شكسبير قد قرأ بوكاشيو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥) مترجما الى الفرنسية ولكنهم في نفس الوقت يؤكدون أنه قرأ أجزاء من مؤلف جيرالدي (G. Giraldi) الملقب بالشينثيو (IlCinthio ١٥٠٤ ـ ١٥٧٣) « المائة اسطورة » (Hecatommithi) . ويؤكد هؤلاء العلماء أيضا أن شكسبير قرأ مسرحيات ايطالية كثيرة . وسيتضح من الصفحات التالية في دراستنا أن لنا تحفظات على مثل تلك الآراء ، فنحن نرى أن شكسبير قد عاد كثيرا الى الأصول الكلاسيكية بلغتها الأصلية ، ولا سيما بالطبع اللاتينية منها ، وان كان ذلك لا ينفي أنه اعتمد في أغلب الأحيان على الترجمات .

ولقد حاول بولدوين T. W. Baldwin في كتابه القيم بعنوان « لاتينية وليام شكسبير القليلة واغريقيته الأقل » (William Shakespeare's Small Latine and Lesse Greeke) أن يحلل النظام التعليمي السائد أيام طفولة وصبي شكسبير ، وقرن ذلك بمسرحياته ، وحاول أن يصل الى الكتب التي من المحتمل أن يكون الشاعر الانجليزي قد قرأها . وتوصل بولدوين الى أن شكسبير قد قرأ كتاب القواعد اللاتينية ذا المستوى العالي ، والذي الفه اثنان من أبرز معلمي عصر النهضة . أحدهما جون كوليت John Colet (١٤٦٧ ـ ١٥١٩) وهو من أبرز رجالات الحركة الانسانية ، حتى أنه عندما ألقى محاضراته عن « العهد الجديد » في جامعة اكسفورد من ١٤٩٦ ـ ١٥٠٤ كان ارازموس أكثر علماء الكلاسيكيات تأثيرا في أوروبا (١٤٦٦ ـ ١٥٣٦) من بين مستمعيه . اما الثاني فهو ويليام ليلي William Llily (١٤٦٨ ـ ١٥٢٢) وهو

أيضا من مشاهير علماء الكلاسيكيات في عصره . ويقتطف شكسبير من كتاب القواعد اللاتينية سالف الذكر ويقلده في اكثر من موضع . اذ أن هذا الكتاب تضمن مقتطفات كثيرة من المؤلفين الكلاسيكيين ، فعلى سبيل المثال يقول الخادم بارمينو لسيده في مسرحية ترنتيوس (١٩٥/ ١٨٥ ـ ١٥٩ ق . م) « الخصي » (Eunuchus) أنه وقد وقع في الحب أسيرا فلا مفر من أن يفدى نفسه بأقل ثمن ممكن . ولقد أورد كوليت وليل بيتا من هذه المسرحية في كتابها يوجز هذا المعنى ويوضح طريقة استخدام الأداة اللاتينية **quam** مع صيغة أفضل التفضيل للتعبير عن معنى « أقصى بامكن » . وها هو البيت :

« quid agas ? nisi ut te redimas captum quam queas / minumo »

« ماذا عليك أن تفعل ؟ لاشيء اللهم الا اذا استطعت أن تفتدى نفسك أيها الأسير (في الحب) بأقل ثمن ممكن » (ف ١ م ١ ب ٢٩) [١] . وفي مسرحية « ترويض النمرة » [٢] يقتطف الخادم ترانيو هذا البيت وهو يتحدث الى سيده فيقول (ف ١ م ١ ب ١٦٦) :

If love have touched you ; nought remains but so
redime te captum ; quam queas minimo

« ان كان الحب قد مسك فلم يعد أمامك حل سوى مايلي :

« افتد نفسك أيها الأسير (في الحب) بأقل ثمن ممكن » .

وفي مسرحية « تيتوس أندرونيكوس » (ف ٤ م ٢ ب ٢٠) توجد أسلحة عليها نقش لاتيني يقول :

Integer vitae scelerisque purus
Non eget Mauris iaculis neque arcu

« ان المستقيم في حياته ، البريء من كل جريمة لا يحتاج الى السهام المغربية ولا الى القوس » . وعندما يقرأ أحد شخصيات المسرحية هذا النقش اللاتيني بصوت عال يرد عليه الآخر بقوله :

O! 'tis a verse in Horace ; I know it well ;
I read it in the grammar long ago

« أوه ! ... انه بيت من هوراس (أى هوراتيوس) انني أعرفه جيدا .

---

(١) ف = فصل ، م= مشهد ، ب = بيت
وبالنسبة لنص ترنتيوس المشار اليه فقد رجعنا في الطبعة التالية :
S.G. Ashmore, The Comedies of Terence (Oxford University Press 1908) p.105.

(٢) فيا يخص نصوص مسرحيات شكسبير اعتمدنا على طبعة آردن :
The Arden Shakespeare Paperbacks (Methuen)

لقد قرأته في كتاب القواعد (اللاتينية) منذ أمد طويل » .

فهنا يتحدث شكسبير على لسان أحد شخصياته عن دروس اللاتينية التي تلقاها في المدارس وكيف أفادته لانه قرأ فيها هوراتيوس . وجدير بالذكر أن البيتين المذكورين يردان بالفعل عند الشاعر اللاتيني المذكور(Odés i,22,1 — 2)[٤]

ويمكننا الآن أن نفسر بعض الفقرات الشكسبيرية التي كان من العسير تفسيرها في السابق . فمثلا أثبت بولدوين أن شكسبير قد قرأ ـ بين النصوص اللاتينية الأخرى ـ مجموعة قصائد رعوية كان قد جمعها بابتيستا سبانيولي Baptista Spagnuoli والمعروف باسم مانتوان أو مانتوانوس (Mantuan us ١٤٤٨ ـ ١٥١٦) . فنجد هذه القرأءة في تلك القصائد الرعوية اللاتينية صداها في بيت يقتطفه ناظر المدرسة هولوفيرنيس في مسرحية « خاب سعي العشاق » (ف ٤ م٢ ب ٩٦ وما يليه) اذ ينتهز الشاعر هذه الفرصة ليثني على صاحب تلك القصائد . وفي مسرحية « هاملت » (ف ٥ ب ٢٣٨ وما يليه) ينطق لا ارتيس بكلمات رائعة هي بمثابة شاهد قبر لأوفيليا اذ يقول :

Lay her i' the earth

And from her fair and unpolluted flesh

May violets spring !

« ادفنوها في الأرض ومن جسدها الجميل غير الدنس لتنبت أزهار البنفسج » . ولا بد من أن تذكرنا هذه الفقرة بأخرى مماثلة لها عند الشاعر اللاتيني الهجاء بيرسيوس Persius (٢٤ ـ ٦٢ م) يقول فيها(9 — 38 i) :

nunc non e tumulo fortunataque favilla

nascentur violae ?

وتقول ترجمتها الانجليزية :

Now from his tomb and beatifice ashes

won' t violets grow ?

« والآن الن تولد من قبره وجمرات حرقه (أي الرماد المتبقي من حرق الميت) المحظوظة زهرات البنفسج ؟ » .

---

(٤) بالنسبة للنصوص الاغريقية واللاتينية المشار اليها في هذه الدراسة اعتمدنا في الغالب على طبعة لويب The Loeb Classical Library وفي حالات الرجوع الى طبعات اخرى سنوضح ذلك في الحواشي .

ويستبعد النقاد أن يكون شكسبير قد قرأ وفهم نص هذا الشاعر الشاب صعب الاسلوب ، ولكن بولدوين أثبت أن هذه الفقرة مقتطفة من نصه ووارده فعلا فى الحواشى الشارحة لمجموعة قصائد مانتوانوس الرعوية التى من المؤكد أن شكسبير قد قرأها وبعضها . (٥)

لقد كانت المدارس المعروفة باسم مدارس الأجرومية (Grammer School) كتلك التى تعلم فيها شكسبير بقريته ستراتفورد تحرص على أن تزود طلابها بنصيب لا بأس به من اللغة اللاتينية لغة الدين فى الكنائس الغربية فى مقابل اللغة الاغريقية التى كانت تستخدمها الكنائس الشرقية . وهذا يعنى أن الاهتمام باللغة اللاتينية فى المدارس الانجليزية كان يفوق الاهتمام باللغة الاغريقية . والجدير بالذكر أن مدرسى اللاتينية من رجال الدين ظلوا على تشددهم فى تدريسها بمدارسهم الى ما بعد قيام حركة الاصلاح الدينى على يد مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) بزمن طويل . لقد كان برنامج الدراسة فى مدارس الأجرومية يتضمن طرفا من اللغة اللاتينية ، مع قراءة مقتطفات من شيشرون وفرجيليوس وهوراتيوس وأوفيديوس وغيرهم . وكان التلاميذ يقومون بتمثيل بعض المشاهد من مسرحيات بلاوتوس وترنتيوس وسينيكا . الا انهم لا يدرسون من الاغريقية سوى ما يعينهم فى قضاء الأغراض الدينية الضيقة .

ومن المعروف أن الأديب العالم بن جونسون (١٥٧٣ ـ ١٦٣٧) معاصر شكسبير هو الذى قال بأن المام الأخير باللاتينية كان بسيطا متواضعا وأما معرفته بالاغريقية فهى أقل من ذلك ولكنه ـ أى شكسبير كان موفور الحظ من لغة الطبيعة . (٦) وشهادة بن جونسون هذه لا يستهان بها لأنه قد عرف شكسبير عن قرب ، ولأنه ، من ناحية أخرى ، عالم وناقد دقيق الملاحظة . ومع ذلك فمن المحتمل أن يكون بن جونسون قد عنى أن يغبن معرفة شكسبير باللغتين الاغريقية واللاتينية الى علمه هو وأقرانه من الفقهاء المتوفرين عليها . وهنا تجدر الاشارة الى أن معرفة بن جونسون باللغة اللاتينية بلغت حد الاتقان التام ، حتى أنه كان يترجم أعمال اللورد فرنسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦) المكتوبة باللاتينية الى اللغة الانجليزية ، والأعمال المكتوبة بالانجليزية كان أيضا ينقلها الى اللغة اللاتينية . ومن ثم فان شهادة بن جونسون عن ضآلة وضحالة معرفة شكسبير باللغة اللاتينية والاغريقية يمكن أن تؤخذ لصالح شكسبير وثقافته الكلاسيكية كمؤلف مسرحى مبدع لا كدارس وباحث متفقه .

---

(٥) T.W. Baldwin, William Shakespeare's Small Latine and Lesse Greeke (Urbanna, Ill. 1944) I p.649;cf.G. Highet, The Classical Tradition. Greek and Roman Influences on Western Literature(Oxford at the Clarendon Press 1949) p.626n. 96,cf.K. Mulr, Shakespeare's Sources, I Comedies and Tragedies (Methuen&Co., Ltd. London 1957 repr. 1965) p. 1—7.

(٦) جاءت عبارة بن جونسون عن لاتينية شكسبير القليلة واغريقيته الاقل فى ثنايا قصيدة له وردت فى الفوليو الاول (First Folio) ويقول سبينجارن ان بن جونسون اقتطف هذه العبارة من كتاب « فن الشعر » لمينتورنو (Minturno, Arte Poetica, p.158) حيث وردت العبارة كما يلى :

poco del latino pochissimo del greco

J.E. Spingarn, Literary Criticism in the Renaissance (New York 1899) p.89n.

علينا اذن أن نفعل ما فعله هيجيت (G . Highet) أى أن نقبل حكم بن جونسون ونعتبره صحيحا . فشكسبير لم يكن ضليعا فى اللغة اللاتينية أما الاغريقية فكانت معرفته بها يسيرة جدا . بل أن الدراسة المتأنية للفقرات اللاتينية المقتطفة من المؤلفات الكلاسيكية فى مسرحيات شكسبير تثبت ذلك . لأنه يتعامل مع تلك المقتطفات لا تعامل العالم المتمكن وإنما باحساس المؤلف الخلاق والشاعر الفنان [٧]. كان على بن جونسون فقط ـ ان اراد أن ينصف شكسبير ـ أن يضيف القول بأن الشاعر الانجليزى الفذ كان مغرما بالأدب الاغريقى اللاتينى منذ بدأ يتصفح بعض مؤلفاته فى المدرسة . وظل يتذكر النصوص اللاتينية ـ وربما الاغريقية ـ التى قرأها فى المدرسة ويستزيد منها بالاطلاع على الترجمات المختلفة ، دون أن يكون هناك ما يمنع الاعتقاد بأنه قد أعاد قراءة بعضها فى نصوصها الأصلية اذا اقتضى الأمر . المهم أنه استغل كل تلك القراءات الكلاسيكية أروع الاستغلال .

ومع أننا سنعود الى موضوع المسرحيات الاغريقية والرومانية لشكسبير الا أننا سنتعرض لها الآن للاشارة بأن شكسبير يعرف ويحس بكل ما هو رومانى لا تبنى أكثر من معرفته واحساسه بما هو اغريقى . ومن ثم نلاحظ أن مسرحيات شكسبير الرومانية تقترب من الروح الرومانية بدرجة تفوق اقتراب مسرحياته الاغريقية من الروح الاغريقية . وهذا أمر واضح جدا فى تعامل شكسبير مع بلوتارخوس الذى أخذ من « سيره المقارنة لكبار الشخصيات الرومانية » مادة لبعض مسرحياته . فالذى حدث هو أن شكسبير لم يحفل الا بالشخصيات الرومانية وتجاهل الشخصيات الاغريقية المقابلة ، فنجده لا يكاد يعرف منها سوى الكيبياديس وتيمون .

ومن العجيب ان شكسبير فى مسرحية « تيمون الاثينى » الاغريقية فى موضوعها كما هو بين حتى من عنوانها يستخدم اسمين أو ثلاثة فقط من أصل اغريقى أما بقية الأسماء فهى لا تينية مثل فارو Varro وايسيدور Isidore وهى أسماء لا تتناسب بأصلها اللاتينى مع ملابسات موضوع المسرحية . وفى هذا الصدد نلاحظ اهمالا واضحا من جانب شكسبير فى مواءمة المادة المأخوذة من بلوتارخوس ، ومثال ذلك المشهد الختامى فى المسرحية التى نتحدث عنها (ف ٥ م ٤ ب ٧٠ وما يليه) فهنا نرى الكيبياديس يقرأ ما هو مفترض أن يكون شاهد قبر تيمون الأثينى الذى كتبه بنفسه ليوضع على قبره . ولكن الحقيقة هى أن شكسبير يدمج شاهدى قبر مختلفين ومكتوبين فى زمنين متباعدين . فأحدهما كتبه تيمون نفسه ، والثانى نظمه كاليماخوس زعيم الشعر السكندرى (٣٠٥ ـ ٢٤٠ ق . م تقريبا) . هذا ما ينقله لنا بلوتارخوس ولكن شكسبير لم يهتم بالتحقق من مصدره وأدمج قصيدتين ـ لا يمكن أصلا الجمع بينهما ـ فى قصيدة واحدة .

---

(٧) ـــ Highet, op.cit., p.200—201
وقارن : عباس محمود العقاد : التعريف بشكسبير (دار المعارف بمصر . الطبعة الثالثة ١٩٧٦) ص١٢٥ ـ ١٢٦ و ص١٩٩ .
د . لويس عوض : البحث عن شكسبير (دار المعارف بمصر ١٩٦٨) ص٢٠٤ ـ ٢٠٦ .

وللتدليل على احتفال شكسبير بكل ما هو رومانى على حساب التراث الاغريقى نذكر بأن شكسبير فى المسرحية نفسها يتحدث عن أثينا الدولة فينسب اليها « أعضاء مجلس الشيوخ » (senators) مما يوحى بأنه يتصور دولة أثينا جمهورية رومانية (respublica) لها « مجلس شيوخ » (senatus) وليست دولة ـ مدينة (polis) تتمتع بمجلس الشعب (ecclesia) . ولا يخفى أن تلك التفرقة الاولية التى افتقدها شكسبير هى قوام الفهم الصحيح للحضارة الاغريقية فى مقابل الحضارة الرومانية .

وفى مسرحية « ترويلوس وكريسيدا » الاغريقية الموضوع أيضا يستعير شكسبير بعض الشىء من « الياذة » هوميروس مثال ذلك المبارزة بين هيكتور وأياس وحديث أوديسيوس (ف ١ م٣ ب ٧٨ ومايليه) وكذلك شخصية ثيرسيتيس (Thersites) التى لم تظهر فى الروايات الشائعة للحرب الطروادية أبان العصور الوسطى ،وهذا ما سنتناوله بالتفصيل فى حينه . يهمنا الآن أن نشير الى أن كل الدلائل تثبت أن شكسبير قد قرأ ترجمة تشابمان للالياذة ولا سيما الكتاب الأول والثانى ، والكتب من السابع الى الحادى عشر حيث ظهرت عام ١٥٩٨ ومع ذلك نجد مسرحية « ترويلوس وكريسيدا » ليست فقط منافية لروح البطولة الاغريقية ، ولكنها تمثل كاريكاتيرا غير مقنع لبلاد الاغريق وحضارتهم .

أما المسرحيات الرومانية فتظهر تفاصيلا أكثر دقة وواقعية فى مقابل المسرحيات الاغريقية التى تخطىء حتى فى المسائل الثانوية البسيطة مثل الملابس والأثاث ويظهر فيها الخلط الزمنى anachronism كعيب واضح لا تخطئه العين الفاحصة . فهيكتور مثلا فى مسرحية « ترويلوس وكريسيدا » (ف ٢ م ٢ ب ١٦٦) يقتطف من أرسطو . وهيكتور هذا هو أحد أبطال الحرب الطروادية ومن المفروض أنه عاش حوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد وتفصله عن ارسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق . م) حوالى ثمانية قرون ! ويتحدث باندراوس فى نفس مسرحية شكسبير (ف ١ م ١ ب ٨١) عن « الجمعة » و « الأحد » ! والاخوان أنتيفولوس فى « كوميديا الأخطاء » هما ابنان تائهان منذ أمد طويل من أبيهما « القسيس » (abbess ف ٥ م ١) ففى ذلك خلط زمنى واضح بين جو المسرحية الاغريقى الوثنى والمعتقدات المسيحية السارية فى عصر شكسبير .

ومعروف أن شكسبير يقدم انطونيوس فى مسرحية « انطونى وكليوبترا » فى صورة أفضل مما هى عليه فى بلوتارخوس وغيره من المصادر القديمة . لقد استخدم شكسبير حقه كمؤلف درامى فى اعادة خلق الشخصية التاريخية فجعله بطلا عظيما لا يخلو من بعض الأخطاء والعيوب . وبذلك حقق الشاعر الانجليزى نجاحا ملموسا فى رسم شخصية هذا البطل الرومانى . ولكنه عندما تناول الكيباديس الاغريقى فى « تيمون الأثينى » وهو ما هو فى المصادر الكلاسيكية شخصية مركبة ذات امكانات درامية هائلة ، تعثر ولم يحقق نفس النجاح الذى حققه مع انطونيوس . ان شكسبير لم يفهم الاغريق بالدرجة التى تتيح له تصوير الشخصيات الاغريقية بالصورة

المناسبة . في حين انه يتمتع بهيمنة ظاهرة على الموضوعات الرومانية . ونحن نرجع السبب الى عاملين متصلين الأول أن عصر النهضة في انجلترا وبقية الدول الأوروبية كان في بدايته رومانيا لاتينيا أكثر منه اغريقيا . أما العامل الثاني في هذا التفاوت بين رومانيات واغريقيات شكسبير فهو أنه اتصل مباشرة ببعض المؤلفات اللاتينية في نصوصها الأصلية ، في حين أنه لم يكن قادرا على أن يفعل ذلك بالنسبة للمؤلفات الاغريقية على الأرجح .

يستخدم شكسبير ثلاث أو أربع كلمات فقط من الاغريقية مثل cacodemon (شيطان أو روح شريرة من kakodaimon) في مسرحية « ريتشارد الثالث » (ف ١ م ٣ ب ١٤٤) وكلمة « anthropophagi » (= آكلي لحم البشر) في مسرحية « عطيل » (ف ١ م ٣ ب ١٤٤) وكلمة « misanthropos » (= كاره البشر) في « تيمون الأثيني » (ف ٤ م ٣ ب ٥٣) . وجاءت الكلمة الأخيرة من حاشية في ترجمة نورث لسير بلوتارخوس [٨] . ويورد شكسبير كلمات وعبارات لاتينية في مسرحياته أكثر من الكلمات والعبارات الاغريقية ، ولكنها أقل من الكلمات والعبارات والمقتطفات التي يوردها معاصروه في مؤلفاتهم . لا شك أن ذلك يرجع الى أن اطمئنان شكسبير الى اللغتين الاغريقية واللاتينية كان أقل من اطمئنان أقرانه ، بل ان اطمئنانه للغة اللاتينية التي يعرفها أكثر من الاغريقية لم يكن على نفس مستوى اطمئنانه للغات أخرى مثل الايطالية والفرنسية .

كثيرة هي المقتطفات اللاتينية التي ترد في مؤلفات ميلتون (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤) وبن جونسون ورونسار (١٥٢٤ ـ ١٥٨٥) وغيرهم من شعراء عصر النهضة الأوروبية . وقليلة تلك الكلمات والعبارات اللاتينية التي يستخدمها شكسبير والتي ترد في مسرحياته المبكرة . ففي مسرحية « خاب سعي العشاق » يوجد مدرس مثير للضحك يتحدث باللاتينية لكنه ، مثل بقية المتحدثين باللاتينية في مسرح شكسبير ، ليس ضليعا في هذه اللغة . ومع ذلك فمن الملاحظ أن شكسبير كثيرا ما يفضل الكلمات الانجليزية المشتقة من اللغة اللاتينية ، وكأنه حريص على أن يحيطنا علما بمدى معرفته بهذه اللغة ومشتقاتها . فهو يستخدم كلمة juvenal (من الكلمة اللاتينية iuvenis) بدلا من youngster بمعنى « شاب » . ولكن هذا كله لا يهم ما دام شكسبير أساسا شاعرا انجليزيا يكتب بالانجليزية لا اللاتينية . ويقول موير (K.,Muir) أن غياب المقتطفات اللاتينية في مسرحيات شكسبير المتأخرة قد يدل على أن الشاعر اكتشف في النهاية أن جزءا من جمهوره قد لا يقدر قيمة هذه المقتطفات أو لا يفهمها ، كما أنها قد تكون بلا فائدة درامية تخدم أهدافه .[٩]

وفي الحقيقة كان اقتطاف مقطوعات من الشعر اللاتيني بلغته الأصلية أو مترجما أمرا شائعا تماما كتقليد هذه المقطوعات أو اعادة صياغتها ، ولم يكن ذلك بالنسبة لأدباء وشعراء عصر النهضة ضربا من التحذلق ، بل

---

(٨) انظر اسفله

(٩) ..... Muir, op.cit., p.5

وسيلة لاضفاء شيء من الجمال والأهمية على مؤلفاتهم . ولا يخفى شيوع هذه الظاهرة أن ذوق وثقافة كل شاعر على حدة هي التي حددت اسلوبه في استغلال هذه المقطوعات وكيفية اعادة صياغتها بعد هضمها . ولا يوجد من ينازع أو يضارع ميلتون في ذلك فلقد زين مؤلفاته بجواهر ثمينة أخذها من الآخرين . ويعد بن جونسون أكثر مؤلفي عصر النهضة الدراميين ثقافة وعلما ، فهو المترجم الماهر والمقتطف بغزارة من المصادر الكلاسيكية ، حتى أن أجزاء هامة من الحوار في مسرحياته تعد ترجمات حصيفة لفقرات من المؤرخين الرومان الذين نهل منهم موضوعاته وحبكاته . فاذا قارنا شكسبير بميلتون وبن جونسون وجدناه نادرا ما يقتطف من الأدب اللاتيني . أما اذا وضعناه الى جانب راسين (١٦٣٩ ـ ١٦٩٩) مثلا وجدناه يقتطف بكثرة وحرية .

على أية حال هناك أدلة كثيرة في مسرحيات شكسبير تشير الى أن الشاعر الانجليزي قد عاد بالفعل الى النص اللاتيني[١٠] في بعض الأحيان .فمثلا يرد في الكتاب الثاني من « اينيادة » فرجيليوس البيت (رقم ٩٨) التالي :

constitit atque oculis Phrygia agmina circumspexit

« عندما وقف ساكنا وأدار ناظريه حول الحشود الفريجية (أي الطروادية) »[١١] .وفي قصيدة « اغتصاب لوكريس » بيت ١٥٠٢ يستخدم شكسبير لفظة Phrygian بمعنى « الطروادي » . فاذا علمنا أن فاير (Phaer) قد حذف هذه اللفظة في ترجمته للأينيادة لتبينا أن شكسبير قد عاد بالفعل للنص اللاتيني .

وهناك بعض العلماء ممن يستدلون على عمق معرفة شكسبير باللاتينية من قدرته الفائقة على نحت كلمات انجليزية جديدة من اشتقاق لاتيني . فهو مثلا يستخدم orifix بدلا من orifice بمعنى« فتحة أو فوهة أو ثقب » . ومثل هذه القدرة لم يتمتع بها شخص آخر في العصر الاليزابيثي سوى تشابمان نفسه . ولقد منح شكسبير لنفسه حرية واسعة في هجاء الأسماء الكلاسيكية ، ولا سيما الاعلام ، فهو مثلا يستخدم Collatium بدلا من Collatia وهي مدينة تقع في سهل لا تيوم . ولكن مثل هذه الحرية لم ينفرد بها شكسبير دون بقية كتاب العصر الاليزابيثي الذين لا يشك في لا تينيتهم أحد . وعلى رأسهم جولدنج A. Golding (١٥٣٦ ؟ ـ ١٦٠٥ ؟) الذي يستخدم أشكالا غريبة في بعض الأحيان لأسماء الاعلام في مترجماته عن اللاتينية . ومن ثم فان استخدام شكسبير للفظة triumpherate بدلا من triumvir بمعنى « حكومة الائتلاف الثلاثي » في روما لا يدل بالضرورة على جهله بالكلمة اللاتينية واشتقاقها . ولو أن هذه الكلمة الشكسبيرية بالذات تخلق لنا مشكلة محيرة ، لأننا غير قادرين على تفسير استخدامه لها . والجدير بالذكر أن معظم كتاب ذلك العصر قد لتموا بحرية

(١٠) Thomas Baynes, What Shakespeare Learned at School (Fraser Magazine, New Series vol.21) 1903 passim.

(١١) فرجيليوس « الانيادة » الجزء الاول (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١) الكتاب الثاني ترجمة الدكتور عبد المعطي شعراوي .

واسعة فى الهجاء حتى أن مارستون J. Marston (١٥٧٥ ـ ١٦٣٤) الذي كان بمقدوره أن يؤلف باللاتينية يستخدم scilence بدلا من silence بمعنى « السكوت » أو « الصمت » .

واذا تجاوزنا عن الأخطاء اللغوية فى لاتينية شكسبير بحجة أن أهل ذلك العصر قد تمتعوا بحرية كبيرة فى الهجاء وجدنا فى شكسبير أخطاء اسطورية أخرى ولو أنها قليلة نسبيا . فهو مثلا جعل انطونيوس يتحدث عن أينياس وديدو كمشبلين فى العالم الآخر ، بينما الكتاب السادس من اينيادة فرجيليوس يجعل ديدو تتجنب الحديث مع حبيبها السابق وتؤنبه تأنيبا عنيفا .(١٢) ومع ذلك فمن الخطأ أن نجزم بناء على ما تقدم أن شكسبير لم يقرأ الكتاب السادس من الاينيادة ، أو انه كان قد نسيه وهو ينظم « انطوني وكليوباترا » المسرحية التى وردت فيها تلك الاشارة الاسطورية . وينبغى أن نتذكر أن استعمال شكسبير للأساطير استعمال خلاق فيه اضافة . كما يجب أن نضع فى اعتبارنا وجود مصادر أخرى لأساطير جاءت من العصور الوسطى جنبا الى جنب مع المصادر الكلاسيكية . الا أننا على أية حال نجد شكسبير يخلط فى « ترويلوس وكريسيدا » (ف ٥ م ٢ ب ١٥٢) بين كل من أراخنى (Arachne) التى تحدت الربة أثينة فى النسيج وكانت تنسج على منوالها غراميات الآلهة وأريادنى (Ariadne) التى أنقذت عشيقها ثيسيوس وأخرجته من قصور التيه فى كنوسوس بواسطة خيط يقود طريقه عبر متاهات القصور التى فيها كان أبوها قد حبسه . ومن الممكن أن لانعتبر الاسم الذى يستخدمه شكسبير وهو أرياخنى (Ariachne) خطأ (١٣) فربما أراد الشاعر أن يذكرنا بالشخصيتين والاسطورتين معا باستخدام اسم يجمع بينهما

لقد عرف شكسبير اذن من اللاتينية القدر الذى يمكنه لا أن يكون عالما فقيها ولا حتى أن يقرأ كل نصوص هذه اللغة بسهولة ويسر ، بل بالقدر الذى حببه فى التراث اللاتينى ، ومكنه من تذوق آدابه وأشعاره وتواريخه ، وجعله يعايش بعض مؤلفيه ويعقد معهم صلة مباشرة . كما أن شكسبير قد عاش فى جو ثقافى عام مفعم بالكلاسيكية فتعلم من المناقشات الدائرة حوله والدراسات المنشورة تباعا . ومما لاشك فيه أنه ظل طوال حياته

---

(١٢) نفس المرجع الكتاب السادس ترجمة الدكتور احمد عتمان .

(١٣) ومن الاخطاء الاسطورية الاخرى بمسرحيات شكسبير نذكر على سبيل المثال الارتباك الواضح في اشارته الى التايا (Althaea) ام ملياجروس في مسرحية « هنري الرابع ، الجزء الثاني » (ف١م٢ب٩٢ و٩٠) . كذلك يذكر شكسبير في مسرحية « خاب سعي العشاق » (ف٥م٢ب٥٩٢) ان هرقل قتل ـ لا اسر او جلب ـ الكلب كيربيروس حارس العالم السفلي . ومعروف اسطوريا ان الهسبيريديس (Hesperides) من « بنات الليل » اللاتي يحرسن شجرة او غابة تحمل « التفاحات الذهبية » اما شكسبير فيتحدث عنهن كما لو كن هن الحديقة ؛ وكذلك يقول ان هرقل هو الذي جمع التفاحات الذهبية بنفسه في حين ان الاسطورة الاغريقية تروي ان هرقل حمل السماء بدلا من اطلس وطلب من الاخير ان يجمع له التفاحات الذهبية (راجع « خاب سعي العشاق » ف٤م٣ب٣٤١ و« بريكليس امير صور » ف١م١ب٢٧ و« كوريولانوس » ف٤م٦ب٩٩) . أنظر « هرقل فوق جبل أويتا » لسينيكا ترجمة د . احمد عتمان (من المسرح العالمي . الكويت مارس ١٩٨٦) ص ٣٢ ـ ٣٦ ، ٢٥٦ ـ ١٤٢ . والجدير بالذكر ان شكسبير يشير في مسرحية « كما تهواها » (ف١م٣ب٧٧) الى « اوز جونو » وهذه هي هيرا زوجة رب الارباب جوبيتر (اي زيوس) . وهذه الآلهة لا ترتبط بالاوز في الاساطير مطلقا وانما الذي له علاقة وثيقة بالاوز هو زوجها رب الارباب نفسه الذي تنكر في صورة الاوز ليصل الى معشوقته ليدا ؛ والغريب هنا ان شكسبير في مسرحية « قصة الشتاء » (ف٣م٢ب٢) يتحدث عن ذلك كما لو كانت جونو !

الأدبية يقرأ ويستخدم مترجمات عن الاغريقية واللاتينية . واذا كان الأدب الاغريقى اللاتينى قد أمد كتاب عصر النهضة بالزاد الثقافى والخيال الابداعى فان احدا منهم لم يتفوق فى الهضم والتأثر بهما ببراعة وعبقرية على ذلك الشاعر الفذ الذى كانت لا تينيته قليلة واغريقيته أقل ! وفى النهاية يكتفى كواحد من المتخصصين فى الدراسات اليونانية واللاتينية أن أهمس فى اذن زملائى وأساتذتى وغيرهم بأنه لا يعيب شكسبير أن يكون قد قرأ النصوص اللاتينية والاغريقية مترجمة دون أن يرجع الى الأصول ـ أحيانا ـ لأن علماء هذه الدراسات فى وقتنا الحاضر يستخدمون طبعة لويب (Loeb Classical Library) وطبعة جمعية بديه G. Bude (Societe d'edition Les Belles Lettres)اللتين توردان النص الاغريقى أو اللاتينى على صفحة ، والترجمة الانجليزية أو الفرنسية على الصفحة الأخرى . ولا يتحرج جهابذة الكلاسيكيات فى أيامنا هذه من النظر فى الصفحة التى تحمل الترجمة للاستشارة أو للاستنارة بها فى فهم ما هو على الصفحة الأخرى . وبالطبع فاننا نعيب على أولئك الذين يقفون عند النظر فى صفحة الترجمة فقط ويعتمدون عليها كلية حتى وهم يترجمون تلك النصوص الى اللغة العربية مثلا !

•••

٢ ـ جولة عامة فى كلاسيكيات شكسبير :

قد يكون من المفيد أن نميز بين الكتاب الكلاسيكيين الذين عرفهم شكسبير حق المعرفة وهضم كتاباتهم هضما مجديا ومثمرا وبين أولئك الذين ألم ببعض مؤلفاتهم وتوسط اليهم **بوسائط مختلفة ولم يعقد معهم صلة مباشرة** . على أنه ليس من السهل تحقيق محاولة التمييز هذه التى ندعو اليها . فأى مؤلف مثقف يهضم ما يقرأ ويمثله غذاء روحيا يصبح جزءا لا يتجزء من تركيبته الفكرية والشخصية ويتعذر علينا نحن الدارسين أن نفصل ما بين أفكاره الخاصة والأفكار التى نقلها عن غيره . فما بالنا بشكسبير الشاعر العبقرى والمبدع الكبير وقد عاش فى عصر تعددت فيه روافد الثقافة ، ونعنى العصر الاليزابيثى ، العصر الذهبى للأدب الانجليزى . علاوة على ذلك ينبغى أن نتسلح بكثير من الحرص والحيطة منذ البداية فعندما نجد عند شكسبير فقرة ما أو فكرة معينة تتشابه مع مثيلة لها عند أى مؤلف كلاسيكى لا يصح أن نهتف فرحين بما وجدنا قائلين : ها قد عثرنا على شىء مأخوذ من هذا المؤلف أو ذاك لا تينيا كان أم اغريقيا . فنحن مثلا نعرف تمام المعرفة تقريبا أن شكسبير لم يقرأ أيسخولوس خالق التراجيديا الاغريقية ، فماذا نحن قائلون عندما نجد أفكارا أيسخولية عند شكسبير ؟ هناك أكثر من تفسير بالطبع فقد تكون هذه الأفكار وصلت الى عصر شكسبير عن طريق غير مباشر من مؤلفات كاتب مثل سينيكا أو غيره . كما أن النقاد قد لا حظوا بصفة عامة أن الكتاب العظام وان عاشوا فى أمكنة متفرقة أو أزمنة متباعدة غالبا ما يفكرون نفس التفكير تقريبا ، فتتشابه كتاباتهم دون أن تتطابق على أية حال .

ومن ثم فانه عندما تتشابه بعض الفقرات بين كاتبين معينين ينبغي أن نتحقق عن طريق الدلائل الخارجية على أن أحدهما قد قرأ الآخر كما أنه ينبغي أساسا التدقيق في عملية اثبات سمات التشابه بين هذه الفقرات ، فبعد التدقيق والتحقيق قد لانجد تشابها جوهريا بالمعنى الصحيح ، وقد لايعدو الأمر مجرد توارد أفكار وخواطر أو تشابه ظاهري ليس الا . وبعبارة أخرى يجب أن نضع في الاعتبار ترتيب الأفكار وتركيب الجملة ووضع الكلمات . وجدير بالملاحظة أيضا أن الدراسة المقارنة بين كاتبين هي أيضا في بعض جوانبها دراسة مقارنة لعصريهما . اذ ينبغي أن نلم بملابسات الجو الثقافي المحيط بكل منهما ، ولا سيما الكاتب المتأخر والمتلقي منهما . ففي حالة شكسبير بالذات لا يمكن أن نهمل المناقشات التي دارت في عصره ، ولا حركة أحياء التراث الكلاسيكي التي نشطت في أيامه ، ولا يمكن أن نغفل صلته الوثيقة بكاتب وعالم قدير مثل بن جونسون ، فمن المرجح أن تكون بعض التأثيرات الكلاسيكية قد وصلت الى مسرحيات شكسبير عبر هذه القنوات غير المباشرة .

ولقد انتقد فولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) شكسبير مرارا في « رسائله الفلسفية » Lettres philosophiques التي نشرت عام ١٧٣٤ وناقش فيها مختلف أوجه الحياة الانجليزية وقارنها بنظيرتها الفرنسية . وكان نقده لشكسبير أكثر وضوحا في « رسالة الى الأكاديمية » Lettre a l'academie المنشورة عام ١٧٧٦ فيها يأخذ على الشاعر الانجليزي الفقر في التذوق الأدبي والجهل بأصول الدراما الكلاسيكية . وقال فولتير عن شكسبير أيضا أنه عديم الفن والنسق ولكنه لم يستطع أن ينكر عليه العبقرية الدفاقة ، والدراية بكل ما هو طبيعي وطليق . لقد عاب فولتير اذن على شكسبير نقص الالتزام بالقواعد الكلاسيكية للكتابة الدرامية مما أدى ـ في رأيه ـ الى خلط الضعة والخسة بالعظمة والفخامة ومزج الهزلي الساخر بالتراجيدي الجاد . وحكم فولتير هذا يعكس نظريات اتباع الدراما الكلاسيكية الجديدة في فرنسا ، والتي لم تر غضاضة في أن يأخذ المؤلف الحديث موضوع مسرحياته وشخوصها أو حوادثها من النماذج الكلاسيكية القديمة أو حتى مقلديها[١٨] . وجدير بالذكر أن أصحاب هذا الاتجاه كانوا يقلدون شعراء المسرح الاغريقي ابان القرن الخامس قبل الميلاد في تبنيهم هذا المسلك . نريد أن نقول أنهم كانوا يعالجون موضوعات وأحداثا عالجها من قبلهم مؤلفون محدثون تماما ، كما فعل ايسخولوس وسوفوكليس ويوريبيديس اذ كتبوا في موضوعات مشتركة وأحداث أو أساطير واحدة ، ولكن نتاج كل منهم التراجيدي جاء متفردا متميزا عن نتاج الآخر بما خلع عليه المؤلف من شخصيته وعبقريته . ومما لا شك فيه أن هذا المفهوم للاصالة في الكتابة الدرامية ابان القرن الخامس قبل الميلاد وفي عصر النهضة الأوروبية كان له أكبر الأثر في تدعيم استقلالية التأليف المسرحي وكفاية هذا الفن بذاته ، بمعنى أن يكون العمل المسرحي المعروض معتمدا على أسلوب عرضه وأدائه فقط ولا يستمد أهميته وحيويته من مصدره التاريخي أو الاسطوري ، وانما من كيانه الجديد . ولكن هذا الاتجاه نفسه هو الذي قاد مؤلفي

(١٨) د. علي درويش . دراسات في الأدب العربي (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣) ص٣٢٩ ـ ص٣٥١ « شكسبير والفرنسيون » .

عصر النهضة الى الخروج على القواعد الكلاسيكية فى الكتابة الدرامية وهى القواعد التى استعبدت عقول وأقلام معظم كتاب القرنين السادس عشر والسابع عشر . وكانت أبرز هذه القواعد الوحدات الثلاث وحدة الزمان والمكان والحدث الدرامى . لقد أدرك المؤلفون فيما بعد أن ما صلح للعرض المسرحى واستولى على لب النظارة ليس بحاجة الى أن يلتزم بهذه الوحدات ، ولا حرج فى أن تكسر وحدة الزمان ووحدة المكان ، فلتتفرق مواقع الأحداث وأوقاتها ما دام من الممكن جمعها فى الاطار المسرحى المعقول بحيلة من الحيل التى لم تك ميسورة فى تمثيل المسرحيات الاغريقية اللاتينية . وكان لكفاية الفن المسرحى بذاته أكبر الأثر أيضا فى اباحة التصرف بترتيب الحوادث التاريخية وترتيب أماكنها وأوقاتها أو بعبارة أخرى فى اخضاع التاريخ للمسرح ومقتضيات التمثيل .[١٥] ولهذا أجاز شكسبير وغيره من المؤلفين لأنفسهم مخالفة التاريخ مع علمهم بحقائقه ودقائقه فى كثير من الحالات وفعلوا ما يفعله المصور الفنان الذى يختار الموقع الذى يلتقط منه ما أومن يصوره .

والعصر الذى عاش فيه شكسبير هو عصر اليقظة الوطنية فى الجزر البريطانية حيث اتقدت الحماسة الوطنية واتجهت الى مطاولة أمجاد الامبراطورية الرومانية القديمة فى السيادة واتساع السلطان . ونادى الناس باستقلال الكنيسة الوطنية عن السلطة الدينية المطلقة لرجال الدين فى روما ، وكان مارتن لوثر قد أحدث صدعا فى بنيان البابوية الرومانية الشامخ منذ مطلع القرن السادس عشر . كما أصبح الاستقلال فخرا وطنيا أيضا ، ونزعة نفسية تمتزج بالأنفة وحب المعرفة . فتعصف ببقيات التقاليد والعرف بعنف شديد كلما اعترضت سبيلها . وظهر فى تلك الفترة الناقد النابه فرنسيس ميريز (١٥٦٥ ـ ١٦٤٧) مؤلف كتاب « كنز العبقرى » (Wit's Treasury (Palladis Tamia) الصادر عام ١٥٩٨ ، وفيه استعرض ميريز كل النتاج الأدبى منذ عصر تشوسر (١٣٤٥ ـ ١٤٠٠) حتى أيامه مقارنا كل كاتب انجليزى بقرينه من الأدب الاغريقى أو اللاتينى أو الايطالى . وضم هذا الكتاب ١٢٥ مؤلفا انجليزيا كان شكسبير من بينهم وقال عنه « اذا كان بلاوتوس وسينيكا أبرع الكتاب اللاتينيين فى الكوميديا والتراجيديا فان شكسبير هو أبرع من كتب للمسرح فى هذين الفنين » . وهذه الشهادة من ناقد معاصر تدل على استحسان النزعة الاستقلالية فى التأليف الدرامى وعدم التقيد تماما بأصول المسرح الكلاسيكى القديم ، أو بعبارة أخرى أكثر تحديدا اهمال القواعد الأرسطية ولا سيما الوحدات الثلاث . وجدير بالذكر أن الكاتب الدرامى والناقد الالمانى النابه ليسينج (١٧٢٩ ـ ١٧٨١) اعتبر أن شكسبير أقرب الى المؤلفين الاغريق والرومان من كورنى (١٦٠٦ ـ ١٦٨٤) الذى التزم التزاما متزمتا بالشكل الكلاسيكى . على

---

(١٥) عن المفهوم السائد ابان عصر النهضة عن التاريخ وعلاقته بفن المسرح راجع :
Lily B. Campbell, Shakespeare's Histories Mirror of Elizabethan Policy (Methuen 3rd ed. 1963 repr. 1968) pp. 23—27, 28, 33—41, 85 ff.
Tom F. Driver, The sense of History in Greek and Shakespearean Drama (Columbia University press 1960 repr. 1967) ,passim ,

أية حال فلقد بلغ هذا الاتجاه الاستقلالي ذروته في الجيل التالي لشكسبير والذي ظهر فيه درايدن (١٦٣١ ـ ١٧٠٠) والذي قال ما معناه أن أرسطو لم يشاهد من التمثيل غير مسرح بلاده ، ولو أنه شاهد مسرحياتنا لغير وعدل في آرائه .

ولعل فكرة الصلة الوثيقة بين النظام في الكون والسلام الاجتماعي هي من أهم القضايا التي شغلت مفكري وأدباء العصر الاليزابيثي . فلقد اعتقدوا بوجود علائق وشيجة بين قوانين الكون الفسيح والهيئة الاجتماعية من ناحية ، وبين الاثنين والانسان نفسه من ناحية أخرى بحيث أنه اذا اختل النظام في أحد هذه الكيانات الثلاث : الكون والمجتمع والفرد فسد الحال في الكيانين الآخرين . ويرجع هذا الاعتقاد الى الايمان الراسخ بأن كل ما في الكون من أحياء وأشياء يتدرج في سلسلة واحدة ضخمة عديدة الحلقات تبدأ من تحت عتبات العرش الالهي هابطة حتى أدنى الجمادات . وفكرة النظام الكوني هذه كانت تستمد أسباب الوجود والقوة من عقيدة لها ما يشبه الحماسة الدينية ولكنها تقوم على مقومات اجتماعية وتنطوي على ايحاءات سياسية . فقد كان لفكرة الترابط والتماسك في المجتمع من الضرورة الملحة واللزمة ما كان لفكرة تدرج جميع المخلوقات الكونية في سلسلة الخلق الضخمة . وساد الاعتقاد بناء على ذلك بأن أي اضطراب في نظام الحكم أو في السلام الاجتماعي لم يكن لينحصر في اطار الدولة وحدها ، بل كان ليمتد بتأثيراته المباشرة والفورية الى النظام الكوني نفسه . فأية خلخلة في تركيبة المجتمع كانت تعنى اذن الارتداد بالكون كله الى نوع من الفوضى الشاملة على شاكلة الفوضى الكبرى (Chaos) التي سبقت عملية الخلق . والأمثلة كثيرة في أدب العصر الاليزابيثي بصفة عامة [١٦] ومسرحيات شكسبير بصفة خاصة ولكننا فقط سنكتفي بالاشارة الى ما قاله قيصر في مسرحية « انطوني وكليوبترا » فور سماعه لنبأ موت انطونيوس ، ففي كلماته ربط واضح بين حدث انساني مفجع واضطراب كوني موازله . قال قيصر « ان وقوع مثل هذا الحادث الجلل كان كفيلا بأن يحدث هزة أعنف ، فكان على الكون أن يقذف بالأسود الى شوارع المدينة ، وبالمواطنين الى عرائن الأسود . فليس موت انطونيوس كارثة واحدة اذ يحمل اسمه نصف العالم » (ف ٥ م ١ ب ١٤ ـ ١٩) . وتتمثل الفوضى الكونية هنا في هزة أرضية عنيفة وفي تبادل السكنى واسلوب الحياة بين الوحوش الضارية والبشر المسالمين الآمنين . ويرد هذه الفوضى الكونية أن من يحمل اسمه نصف العالم ـ أي من يحكم نصف الامبراطورية الرومانية الشرقي ـ قد اختفى وترك فراغا هائلا في النظام الاجتماعي والكوني على حد سواء .

وبشيء من البحث والتأمل سنرى أن فكرة ربط الأحداث الآدمية بالظواهر الكونية تعود الى المعتقدات الاغريقية الاسطورية التي انعكست في نصوص الأدب ولا سيما المسرح . فما الطاعون والوباء الذي سمم الهواء وحرم الأرض من الخضرة وأحالها جدباء لا زرع فيها ولا ضرع ، وأتى على كل مظاهر الحياة في مدينة طيبة ، الا

---

(١٦) انظر ، آ . م . تيليارد . الأدب في عصر شكسبير . ترجمة نبيل حلمي (دار المعارف بمصر ١٩٧٦) ص٦٣ ـ ص١٦٩ .

نتيجة لخطأ فى السلوك الآدمى ترتب عليه وقوع خلخلة فى تركيبة المجتمع ونظام الحكم . نعم فلقد قتل الملك لايوس على يد ابنه أوديب ، وحتى وقوع الطاعون لم تكن حقيقة القاتل قد اكتشفت بعد ، ولم يسع أحد الى معرفتها ، وبالتالى لم يكن ليتم الانتقام لمقتل الملك لايوس لولا حدوث الطاعون الذى جاء استجابة للخلخلة التى أصابت مجتمع طيبة من ناحية ، وليصحح الاوضاع المرتبكة ويتدارك تدهورها المستمر من ناحية أخرى . هذا أمر واضح فى مسرحية سوفوكليس « أوديب ملكا » . لقد حدث نفس الشىء فى مسرحيته الأخرى « أنتيجونى » فوقع طاعون مماثل عندما رفض الملك كريون أن يدفن بولينيكيس ، لأنه هاجم موطنه ومدينته ، أى طيبة . والأمثلة على هذه الفكرة فى المسرح الاغريقى كثيرة ولا حصر لها ، ولكننا نكتفى بهذه الاشارة البسيطة ليتسنى لنا الانتقال الى الشاعر الفيلسوف الرومانى سينيكا الذى يربط دائما فى كتاباته النثرية ومسرحياته الشعرية ما بين الحالة النفسية للانسان وعواطفه وأحداث حياته من جهة ، والظواهر الطبيعية والاجرام السماوية من جهة اخرى . فهو مثلا ، وبوحى من آرائه الرواقية ، يؤمن بأن فساد الحاكم لا يستتبع خللا فى بنية المجتمع فحسب بل فى الطبيعة ذاتها ، التى غالبا ما تتجاوب مع الأحداث الآدمية العنيفة ، وذلك بالأعاصير المدمرة أو الفيضانات الجارفة أو الزلازل والبراكين الحارقة التى لا تبقى ولا تذر . فعلى سبيل المثال بعد أن ارتدى هرقل (هيراكليس) الرداء المسموم واقتربت نهايته تغنى الجوقة فى مسرحية « هرقل فوق جبل أويتا » فتقول « توا سيحل على العالم يوم تدفن فيه القرائن وستهوى فيه السماء الجنوبية على كل ما يقع عبر ليبيا ويملكه الجارامنتيون . أما السماء الشمالية فسوف تدمر كل ما يقع تحت قطبها وكل ما تهب عليه الرياح الجنوبية الجافة . ومن السماء المفقودة ستروع الشمس خائفة فتطرد النهار . وسيجر سقوط ملكة السماء معه الى الهاوية الشرق والغرب وسيعم نوع من الموت والفوضى كل الآلهة على حد سواء ... فأى مكان عندئذ سيستقبل الدنيا » (أبيات ١١٠٠ ـ ١١١٨) . ومن ثم فاننا لا نجانب الصواب ولا نبالغ حين نقول بأن ما ساد فى العصر الاليزابيثى وانعكس فى مسرحيات شكسبير من أفكار تربط بين الاضطراب فى الكيان الانسانى أو البنيان الاجتماعى من جهة ، والفوضى فى النظام الكونى من جهة أخرى ، هى أفكار كلاسيكية الأصل ظهرت فى كتابات المؤلفين الاغريق ولكنها تبلورت فى مؤلفات سينيكا النثرية ومسرحياته الشعرية ذات الصبغة الرواقية .[١٧]

ومن الجدير بالذكر أن شكسبير قد أغرم بصورة الشمس الغاربة أو المختفية أثناء ساعات النهار ، ويحلو له الحديث كثيرا عن « انطفاء مصباح السماء » . وليس الأمر مقتصرا على مجرد صورة شعرية جذابة فلها مغزى أعمق وأعرض من ذلك . فاذا كان الملك هو سيد المجتمع فان الشمس هى مليكة السماء وسيدة الكواكب . ومن

(١٧) Ahmed M. Etman, The Problem of Heracles' Apotheosis in the 'Trachiniae' of Sophocles and in' Hercules Oetaeus' of Seneca. A Comparative Study of the Tragic and Stoic Meaning of the Myth (A Thesis for the Ph. D. degree, Athens 1974, in Greek with Summary in English) p.289—302

البديهي ، وفقا لقواعد الصلة الوثيقة بين الكون والهيئة الاجتماعية ، أن يشحب وجه الشمس حين يغرب أو يغيب نظيرها على سطح الأرض . وسنرى أن فكرة الشمس الحاكمة التي تقوم ما انحرف من أوضاع الكواكب الأخرى من رعاياها وتنظم علاقاتها مع الانسان وتأمر وتنهى كالملوك فكرة كلاسيكية أيضا . ولكنها بلغت ذروة الرسوخ والنضوج في كتابات الفلاسفة الرواقيين وإبان العصر الامبراطوري الروماني حيث اعتبرت الشمس الها لا يقهر (Sol Invictus) محررا (Helios Eleutherotes) خالقا ومنقذا للأرواح (Demiourgos kai Soter ton Psychon) مهيمنا على كل شيء (Pantokrator) حاكما للكون (Kosmokrator) وسيد الأرباب (rector deum) . واستتبع شيوع هذه الفكرة بين الرومان أنذاك أن حرص كل امبراطور روماني على أن يربط نفسه بالشمس وعبادتها لكي يتسنى له بعد الموت أن يضمن تأليها شمسيا . فقيل مثلا أنه عند موت يوليوس قيصر وبعد تأليهه ظهرت هالة (halo, corona) حول قرص الشمس ثم ظهر يوليوس قيصر المؤله نفسه بعد ذلك كنجم (Iulium sidus, Caesaris astrum) . وأبان القرن الثالث الميلادي اعتبر الناس امبراطورهم سليل الشمس التي بدورها أعلنت عام ٢٧٤م سيدة الامبراطورية الرومانية المتربعة على عرشها (Sol Dominus Imperil Romani)[١٨] . والجدير بالذكر أننا نلمس صدى هذه الأفكار والمعتقدات في الأدب اللاتيني بصفة عامة وفي كتابات سينيكا الفيلسوف بصفة خاصة . كما أنها تجد لنفسها مكانا في سير بلوتارخوس التي كانت شائعة ومحبوبة أبان عصر النهضة الأوروبية . وهكذا تسربت هذه الأفكار والمعتقدات الكلاسيكية الى مسرحيات شكسبير عبر روافد عديدة .

ومن بين الأفكار الأخرى التي ورثها عصر اليزابيث في انجلترا عن الحضارة الكلاسيكية فاستمسك بها وأفاد منها الأدباء فكرة العناصر التي يتألف منها جسم الانسان . وفي البداية عبر هيسيودوس (حوالى القرن الثامن ق . م) عن اعتقاده بأن العالم يتكون من قوى إلهية تنتمي الى أسرة واحدة جاءت جزئيا من الفوضى (Chaos) وأساسا من الأرض(Gaia) ثم جاء فلاسفة الطبيعة (أو الكوزمولوجيا) الايونيون ورأى بعضهم مثل ثاليس أو طاليس (ولد حوالى ٦٢٤ ق . م .) ـ أحد الحكماء السبعة ـ وأناكسيمينيس (حوالى القرن السادس ق . م) وهيراكليتوس (ازدهر حوالى عام ٥٠٠ ق . م) أن العالم مكون من مادة الهية واحدة لا يمكن توليدها ولكنها خالدة ! واعتبر ثاليس أن هذه المادة الاولية هي الماء . أما أناكسيمينيس فرأى أنها الهواء . أما هيراكليتوس فقد اعتقد بأن النار أصل كل شيء ، كما أنه آمن بمبدأ هام كان له أكبر الأثر في الفكر الاغريقي وهو أن كل الأشياء تتحرك أو تتغيرpanta rhei .واعتبر بارمينيديس من ايليا (ولد حوالى ٥١٠ ق . م) أن العالم الحقيقي شيء واحد لا يرى ولكنه خالد ولا يتغير وهو الهدف الأوحد للمعرفة . أما التغير والهالك والظواهر المختلفة مثل الحركة فهي أوهام لا يمكن معرفتها الا عن طريق التخمين . ورأى بارمينيديس أن الطبيعة نتاج

(١٨) Ibidem, p.271—288 .....

المزج بنسب متفاوتة بين شكلين (morphai) متطابقين هما الضوء والليل أو النور والظلام . وهذان العنصران موجودان مثل الطبيعة الحقيقية في الاعتقاد فقط . ولكنهما يتحولان الى مادة إلهية مسيطرة هي البداية (arche) .وكان امبيدوكليس فيلسوف وعالم أكراجاس الصقلية (ولد في الربع الأول من القرن الخامس ق . م) هو الذى تبلورت على يديه فكرة العناصر الأربعة rhizomataأى الأرض والماء والنار والهواء و قال أنها عناصر لا تتغير . وباتحادها وانفصالها تتشكل الأشياء المتغيرة في هذا العالم . ويتم هذا الاتحاد أو الانفصال بفعل قوتين متضاربتين هما الحب والكراهية . فهما دائما أبدا يبنيان الأشياء ثم يدمرانها ليعيدا بناءها من جديد وهكذا دواليك . ولن نمضى أكثر من ذلك في تتبع هذه الفكرة في التراث الاغريقى الرومانى ونكتفى فقط بالاشارة الى أنها تركت بصماتها على كتابات الفلاسفة الرواقيين والأبيقوريين على حد سواء .

ولقد ساد الاعتقاد أبان العصور الوسطى بأن بنية الانسان تتشكل من عناصر أربعة هى التراب والماء والنار والهواء ،وهى ذاتها مكونات الكون الأولية . كذلك شاعت فكرة قيام جسم الانسان بافراز أخلاط أربعة توازى وتقارب العناصر الأربعة التى تتشكل منها بنيته . كذلك كان الناس عموما يعرفون بأن الصعود الى أعلى في خط مستقيم من خواص النار والهواء . أما التراب والماء فكانت سمتها المشتركة الهبوط الى أسفل . وكانت النار ـ في نظر أهل العصر الاليزابيثى كما كان الحال عند الرواقيين ـ هى أسمى العناصر وأخفها وأرقها . وكانوا يعتقدون أن عنصر النار كان يتخذ له موقعا عاما أسفل مدار القمر فيغلف اطار الهواء الدائرى الذى يحيط بالماء والتراب . وكانت النار في اعتقادهم عنصرا ساخنا جافا مصفى من الشوائب خفيا عن عيون البشر ، فضلا عن أنه يمثل مرحلة ملائمة للانتقال الى الممالك الأبدية في عالم الكواكب . وبعبارة أخرى فان التحول الى النار بعد الموت يمثل ضربا من ضروب التأليه . وهذ فكرة وثنية كلاسيكية بصفة عامة ورواقية رومانية بصفة خاصة . فلقد تم حرق هرقل فوق جبل أويتا لكى يصعد بعد ذلك الى السماء . وكانت طقوس تأليه الأباطرة الرومان تقوم أساسا على حرقهم فوق محرقة هرمية الشكل (pyra) تطير بعدها أرواحهم الى السماء[١٩] . وبناء على كل ما أسلفنا عن فكرة العناصر وارتباطها بعقيدة التأليه يمكن أن نفهم عبارة كليوباترا في مسرحية « انطونى وكليوباترا » لشكسبير . وتعنى انها عندما أشرفت على الموت قالت « ها أنذا من نار وهواء أما بقية عناصرى فأهبها للحياة السفلى » (ف ٥ م ٢ ب ٢٨٨ ـ ٢٨٩) . فهى تعنى انها استحالت هواء ونارا ، صفاء وروحا خالصة من أثقال الجسد وأدران المادة ، وبعبارة أخرى تألهت بفضل التفانى في الحب .

وفى ظل هذا الاطار الكونى تأتلف المتناقضات فيجتمع الساخن بالبارد ، والجاف بالرطب ، والثقيل بالخفيف ، والعظيم بالصغير ، والسامى النبيل بالسافل الوضيع . وتتألف الأشياء والأحياء من العناصر الأربعة ، وتختلف بعضها عن بعض بتفاوت النسب بين العناصر المكونة . وفى ظل هذا النظام الكونى أيضا تتدرج سلسلة

---

(١٩) Ibidem, passim .

المخلوقات لا فى مملكة السموات فحسب بل وعلى ظهر الأرض أيضا ، فكما تتدرج سلسلة الملائكة يرتقى الانسان على الانسان ، ويسيد حيوان على حيوان ، وطير على طير . وهكذا لا يوجد مخلوق واحد إلا وكان أرقى أو أدنى من مخلوق آخر ، ولا يوجد كائن قط لا تضمه سلسلة الخلق . ولكن أرقى الكائنات الأرضية تحتاج الى أحطها شأنا ، ومن ثم نجد جيوش السماء الملائكية تتولى بنفسها خدمة أحقر الكائنات التى خلت من كل حس . وهكذا ترتبط الكائنات بعضها البعض ارتباطا وثيقا يجعل بقاءها مستحيلا دون تعاونها المستمر وتعايشها جنبا الى جنب . وبالتالى صارت الأسرة الملكية فى العصر الاليزابيثى جزءا لا يتجزء من نظام الكون نفسه ، وأصبح وجودها أمرا حيويا لا يمكن الاستغناء عنه ، والا وقع خلل فى هذا النظام الاجتماعى قد يترتب عليه اضطراب كونى . وهذه فكرة وثيقة الصلة بعقد علاقة وطيدة بين الملك والشمس سيدة الأفلاك المهيمنة . فذلك يعنى أنه لا يمكن للبشر أن يستغنوا عن ملكهم ، كما لا يمكن للطبيعة ونظامها الكونى أن تستغنى عن الشمس . وهكذا شاركت السياسة الاليزابيثية أدب ذلك العصر فى الافادة من التراث الاسطورى الكلاسيكى .[٢٠]

وتتطلب منا مسرحيات شكسبير باستمرار أن نتذكر الحكمة الاغريقية الشهيرة « اعرف نفسك » .فليس لنا أن ننسى أبدا حقيقة أن مفكرى العصر الاليزابيثى بصفة عامة قد دأبوا على الربط بين عدم القدرة على الفهم وسقوط الانسان فى هاوية الشقاء . ومن ثم نجد أبطال شكسبير يتسمون بظمأ طبيعى الى المعرفة وتحرق ظاهر للفهم . ولكنهم يجهلون الوسائل السليمة لبلوغها . وغالبا ما يضلون السبيل الى الحكمة أو تحبط القوى المعاكسة مساعيهم الحثيثة فتقع المأساة . ولكن القصور فى الادراك يبلغ ذروته فى مسرحيات شكسبير - كما هو الحال فى المسرح الاغريقى بصفة عامة و« أوديب ملكا » لسوفوكليس بصفة خاصة [٢١] - عندما تكون المعرفة المطلوبة هى معرفة النفس . فالانسان مهما أوتى من قوة وقدرة ، ذكاء وفطنة لا يستطيع الوصول الى كنه ذاته وهنا يكمن سر مأساته .

وأوديب سوفوكليس هو أوضح مثل على ذلك . فلقد عرف أشياء كثيرة وبلغ به الذكاء الى حد حل الالغاز المستعصية التى عجز بقية البشر عن فك طلاسمها . ومع ذلك فقد كان يجهل نسبه ولم يعرف من قتل فى طريقه الى طيبة ، بل لم يعرف حقيقة من تزوج . نعم لقد جهل أوديب أنه قاتل الأب وزوج الأم والرجس الذى ينبغى أن تتطهر منه طيبة . ذلكم هو أوديب أكثر الناس ذكاء وفطنة وقوة وقدرة ! فاذا انتقلنا الى شكسبير وجدناه فى مسرحية « الملك لير » على سبيل المثال يشير كثيرا الى القصور فى الفهم والادراك ، حتى أنه عندما قسم الملك لير مملكته تحاوره ابنتاه جونريل وريجال فتشير الاولى الى « ملكة التمييز الضعيفة » فى شخصية أبيها وتضيف الثانية قائلة بأنه « فى حياته لم يعرف نفسه الا أقل المعرفة » . هكذا كان موقف البنتين الكبريين للملك ، أما

---

(٢٠) Lily B. Campbell, Shakespeare's Tragic Heroes, Slaves of Passion (Methuen 1961 repr. 1977) pp.51 ff.

(٢١) راجع د . احمد عتمان . المصادر الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكيم . دراسة مقارنة (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨) ص٥٨ - ص٩١ .

البنت الصغرى كورديليا فلقد لاحظ النقاد تشابها واضحا فى موقفها أزاء أبيها مع موقف انتيجونى من أبيها الملك أوديب الأعمى المنفى من بلده والهائم على وجهه . ففى كلتا الحالتين نجد ابنة صغيرة رزينة وجادة تتفانى فى خدمة أبيها والبر به فى حالته اليائسة كما تصدقه القول دون مبالغة أو نفاق . ومع ذلك فنحن لا نملك دليلا خارجيا قاطعا على أن شكسبير يقلد سوفوكليس فى مسرحية « الملك لير » أو حتى أنه قرأ مسرحية « أوديب فى كولونوس » . يضاف الى ذلك أن ثنائى الأب البائس والابنة البارة موضوع شائع فى كل الآداب ولا يقتصر على الأدب الاغريقى بل وقد يكون من الأمور التى تحدث كل يوم فى حياتنا ـ أو حياة شكسبير ـ ومن ثم فليس من الضرورى أن يكون موروثا أدبيا . ولكن هناك حقيقة أخرى كفيلة بأن تجعلنا نراجع موقفنا هذا وهى أن شكسبير قد قرأ ترجمة مسرحيات سينيكا ومن بينها مسرحية « أوديب ملكا » ومن ثم كان على علم تام بتفاصيل قصة أوديب وهو ينظم مسرحية « الملك لير » .

ويتردد فى أدب العصر الاليزابيثى بصفة عامة وفى مسرحيات شكسبير **بصفة خاصة ذكر « عجلة الحظ » Wheel of fortune** فلنسمع للممثل الأول فى التمثيلية الداخلية بمسرحية « **هاملت** » **وهو يقول** « أيتها البغى فورتونا (Fortuna = ربة الحظ) سحقا لك ! أيتها الآلهة جميعا ليقر قراركم بالاجماع على حرمانها من سلطانها ، حطموا كل برامق عجلتها وهشموا اطارها ، وطوحوا بمركزها المستدير من أعالى السماء الى أسفل سافلين » (ف ٢ م ٢ ب ٥٠١ ـ ٥٠٥) . أما كليوباترا فتخاطب أنطونيوس وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فى « أنطونى وكليوباترا » قائلة : « دعنى أسب ربة الحظ تلك البغى الخئون علها تستشيط غضبا فتحطم عجلتها » (ف ٤ م ١٥ ب ٤٣ ـ ٤٥) . ومما لا شك فيه أن صورة عجلة الحظ الدوارة هى احياء لعجلة الحظ الاغريقية (trochos tes tuches) التى تولدت عن مبدأ أن « كل الأشياء تتحرك » المشار اليه سابقا . ويذكر سوفوكليس « عجلة الحظ » هذه فى احدى شذراته (رقم ٥٧٥ Pearson) اذ يقول بالحرف أن الحظ يدور كعجلة (kuklei tuche) وفى شذرة أخرى (٨٧١) يربط نفس الشاعر بين عجلة الحظ ودورات القمر ومراحل نموه . وفى أغنية دخول الجوقة (البارودوس) بمسرحيته « بنات تراخيس » (أبيات ٩٤ ـ ١٤٠) تربط الجوقة « عجلة الحظ » ودورانها بتعاقب الليل والنهار ، العسر واليسر ، الحزن والفرح ، الالم والراحة . وجدير بالذكر أن هذه الفكرة لم تفلت من يراع سينيكا الفيلسوف فهو يشير الى عجلة الحظ فى احدى رسائله (٢٤ ، ٢٦) قائلا : « لانهاية لأى شىء ، فجميع الأشياء متصلة بعجلة تلف بها فى دورانها فالليل يسابق النهار ، والنهار يلاحق الليل ، والصيف ينتهى بالخريف الذى تتبعه الشتاء ، والأخيرة تستسلم بدورها للربيع ، كل الأشياء هكذا تذهب لتعود . انى لا أسمع شيئا جديدا ، ولا أرى شيئا جديدا ، فآجلا أو عاجلا سيصاب المرء نفسه بالدوران أيضا » . وفضلا عن ذلك فان ابطال تراجيديات سينيكا الرواقيون فى صراع حتمى مع ربة الحظ بصفتهم يصارعون أقدارهم ويصرعون العاطفة فى نفوسهم بقوة العقل والمنطق .

وهكذا يلاحظ أن شكسبير يذكرنا بالكثير من المؤلفين الكلاسيكيين فى مسرحياته دون أن يقتطف منهم أو يقلدهم تقليدا أعمى . ففى حين نجد بن جونسون وغيره من معاصرى شكسبير قد أفعموا مؤلفاتهم بالكثير من المقتطفات والعديد من علامات التنصيص نجد شكسبير الشاعر المبدع يتميز بحب عميق للكلاسيكيات ، وأذن حساسة وذاكرة قوية وقدرة فائقة على الهضم ، وهو يخلق لنا مما يقتبس شيئا جديدا ولذلك نجد شخصياته المسرحية تتحدث فى سلاسة ، بينما شخصيات الآخرين من معاصريه تتعثر بسبب كثرة ما تستشهد به من فقرات كلاسيكية . ان كل شخصيات شكسبير - فيما عدا الحمقى منهم - يذكروننا فى أحاديثهم بالجمال والرشاقة الاغريقيين ومع ذلك فان شكسبير لم يكن سجين الكتب الصفراء ولكنه انطلق الى الأرض والسماء ، الى الحياة والطبيعة ، الى الحيوانات وسائر المخلوقات يستمد منها تشبيهاته وصوره الشعرية وبعد ذلك تأتى الثقافة فتلونها وتصقلها . وهكذا تحتل تشبيهاته وصوره الشعرية المأخوذة من مصادر ثقافية المرتبة الثانية بعد تلك المستوحاة من التجربة العملية والحياة اليومية . كان شكسبير يعرف الأساطير الكلاسيكية أكثر من التاريخ ، بل أكثر من الانجيل ، ولكن رموزه الاسطورية أقل عددا من رموز مارلو . فالثقافة بالنسبة لشكسبير لا تعنى شيئا ان لم تكن قابلة للاحياء وقادرة على العيش فى عالم الدفء والتفاعل المستمر . وهكذا لم تعق كلاسيكيات شكسبير تدفقه الشعرى بل أصبحت رافدا من روافده وجزءا من تجربته الابداعية حتى أن أحب وأرق العشيقات فى مسرحه وتعنى جولييت ترى الشمس مندفعة ناحية الغروب لتحثها على الاسراع حتى ولو كان ذلك على حساب تدمير العالم وتقول « كما قد يسوقك فايثون بالسوط ناحية الغرب هيا أحضرى فى الحال ليلة غائمة ! » (« روميو وجولييت » ف ٣ م ٢ ب ٣ - ٤) فهى بذلك تشير الى اسطورة فايثون بن أبوللو الذى قاد عربة الشمس بأسرع مما ينبغى فاحترق . وهى اسطورة وردت عند أفيديوس وسينيكا [٢٢] المعروفين لشكسبير . المهم أن هذه الاشارة الاسطورية جاءت طبيعية ولم تفسد الصورة الشعرية الرائعة فى حديث جولييت .

ولقد تكررت أسماء بعض المؤلفين الكلاسيكيين فى ثنايا دراستنا حتى الآن مما يثير سؤالا منطقيا حول كلاسيكيات شكسبير ، وبالتحديد أى المؤلفين الكلاسيكيين عرف شكسبير ؟ وفى محاولتنا للاجابة على هذا السؤال ينبغى أن نميز بين المؤلفين الكلاسيكيين الذين عرفهم الشاعر الانجليزى معرفة جيدة واتصل بهم صلة مباشرة وأولئك الذين عرف بعض كتاباتهم وآخرين لم يعرف عنهم إلا بعض المقتطفات أو سمع عنهم فقط . فشكسبير لم يعرف بلاوتوس ! لا بصفة جزئية ولكنه استمد منه موضوع احدى كوميدياته وتعلم على يديه فن التاليف الدرامى . وبالمثل لم تكن معرفة شكسبير بفرجيليوس كاملة ، ولكنه نقل عنه الكثير من الاساطير والأفكار والتشبيهات والصور الشعرية وهذا شأن شكسبير مع مؤلفين كلاسيكيين آخرين كثيرى العدد ، لم يلم بكتاباتهم الماما كافيا ولكنه يأخذ منهم الكثير لأنه كان يعى كل مايسمع من حوله ويهضم كل ما يقرأ ، وكان

(٢٢) Ovidius, Metamph. i 748&ii, 238;cf. Seneca, Hercules Oetaeus 677ff., Hipolytus 1090

عصره ـ كما رأينا ـ عصر إحياء للكلاسيكيات . الا ان شكسبير التصق التصاقا متينا بمؤلفين ثلاثة عرفهم حق المعرفة وترسم خطاهم فى كل ما يكتب ، انهم أوفيدوس ، وسينيكا ، وبلوتارخوس .

وقبل أن نتعرض للحديث عن صلة شكسبير بهؤلاء الكتاب الثلاثة دعنا نطوف به مع المؤلفين الآخرين الذين عرفهم لماما . ولنبدأ بشاعر الكوميديا العبقرى الرومانى بلاوتوس(حوالى ٢٥٤ ـ ١٨٤ ق . م) فلقد استمد منه شكسبير موضوع مسرحية « كوميديا الأخطاء » ونلاحظ من البداية أن لا تينية شكسبير ، وان كانت بالفعل تمكنه من قراءة مسرحيات بلاوتوس واستيعابها ، لم تكن على المستوى الذى يسمح للشاعر الانجليزى بتذوق لغة بلاوتوس الدرامية . فبلاوتوس شاعر مطبوع وحواره يتدفق مليئا بالتلميحات مفعما باللمزات والغمزات ، وهو مغرم باللعب بالكلمات على نحو رشيق ومقبول ويتميز كذلك بقدرته الفائقة على اثارة الضحك أوما يسمونه القوة الكوميديةvis comica .وبلاوتوس لا يباريه أحد فى ذلك ولا يمكن أن يجاريه منافس أومقلد ويستطيع أى امرىء أوتى القدرة على مطالعة مسرحياته فى يسر أن يتذوق موسيقى الكلمة الكوميدية وعذوبة التعبير المثير للضحك والتفكير فى آن واحد . أما شكسبير الذى لم يستطع حتى أن يأخذ اسم الميناء أيدامنوس Epidamnusالوارد فى مسرحية بلاوتوس « التوأمان مينايخموس Menaechmi بطريقة صحيحة فقد فشل فى أن ينقل المهارة اللفظية البلاوتية الى مسرحيته « كوميديا الأخطاء » . ولكننا مع ذلك نعترف لشكسبير بالهيمنة الكاملة على حبكته الدرامية وتفوقه على بلاوتوس فى فن رسم الشخصيات . كما أن لشكسبير بلاغته الدرامية الخاصة وليس لنا أن نأسف لافتقاده قدرة بلاوتوس اللغوية . لقد غير شكسبير فى أسماء الشخصيات وغير المكان من ميناء غير مشهور بعض الشىء الى مدينة معروفة وجعل الأخوين التوأم يمتلكان خادمين توأم ، مما ضاعف من فرص وقوع الأخطاء وحدوث الارتباك . وجعل شكسبير الأخ ـ الغريب الوافد ـ يقع فى حب اخت زوجة شقيقه التوأم المقيم . ومن المرجح أن يكون شكسبير مخترع معظم هذه التغييرات دون أن يكون من المستبعد أنه أخذ بعضها من أعمال أدبية أخرى سبقته الى تقليد هذه الكوميدية البلاوتية . ومن المؤكد كذلك أن شكسبير استفاد من مسرحية بلاوتوس الأخرى « أمفيتريون » فمزج المسرحيتين فى وحدة عضوية ليخلق منها مسرحية جديدة أكثر ثراء من كل منهما على حدة . ولم تك مسرحية « أمفيتريون » قد ترجمت بعد الى الانجليزية ولن تترجم قبل موت شكسبير . وبعبارة أخرى نريد القول بأنه حتى عام ١٥٩٥ ـ أى بعد بضع سنين من التاريخ المقبول لمسرحية « كوميديا الأخطاء » وهو ما بين ١٥٨٩ و١٥٩٣ ـ لم تكن هناك أية ترجمة لمسرحيات بلاوتوس فيما عدا « التوأمان مينايخموس » مما يجعلنا نقطع فى شبه اليقين بأن شكسبير قد عاد الى الأصل اللاتينى للمسرحيات الأخرى . اللهم الا اذا أخذنا بالرأى القائل بأن بعض مسرحيات بلاوتوس كانت قد ترجمت الى الانجليزية دون أن تنشر . فمسرحية « التوأمان مينايخموس » التى نشرها كريد Creede تنسب الى من لا نعرفه الا بالحروف الأولى أى و . و(W. W.)والذى قد يكون وليام وارنر William Warner الذى قيل أنه ترجم مسرحيات أخرى لبلاوتوس خصيصا من أجل دائرة أصدقائه الذين تبادلوها فيما بينهم . ومن المحتمل أن يكون شكسبير

واحدا منهم . وتزداد الظنون حول طبيعة العلاقة بين شكسبير وبلاوتوس من حقيقة أخرى وهى أن شكسبير قد عرف مسرحية ثالثة من مسرحيات بلاوتوس هى « الأشباح » (Mostellaria)لأن أسماء الخدم ترانيو Tranio وجروميو Grumio فى مسرحية « ترويض النمرة » تذكرنا بها كما أن هناك حوادث أخرى يرجح أنها مأخوذة من كوميدية بلاوتوس المذكورة . ولكن شكسبير كعادته يخلق مما يستعير شيئا جديدا متميزا حتى أن مسرحيته « كوميديا الأخطاء » تفوق فى بعض النواحى النموذج اللاتينى .

ولقد قرأ شكسبير بعض المقطوعات المنتخبة من أعمال فرجيليوس (٧٠ ـ ١٩ ق . م) فى المدرسة ولا يزال التلاميذ فى بعض المدارس بأوروبا يفعلون ذلك . فوصف سقوط طروادة الذى يرد فى قصيدة « اغتصاب لوكريس » (ب ١٣٦٦ وما يليه)وفى مسرحية « هاملت » (ف ٢ م ٢ ب ٤٨١ وما يليه) مأخوذ من الوصف الذى يرد على لسان اينياس فى الكتاب الثانى من ملحمة « الاينيادة » مع شىء من التغيير نحو المبالغة والتهويل . ومن ناحية أخرى فان البيت الذى يبدأ به اينياس وصفه المذكور فى « الاينيادة » (الكتاب الثانى ب ٣) يقول :

. Infandum , regina , iubes renovare dolorem

« انك أيتها الملكة تأمرين بتجديد ألم لا يمكن التحدث عنه (أو ينبغى أن لا أتحدث عنه) » فيجد هذا البيت صدى له فى بداية « كوميديا الأخطاء » (ف ١ م ١ ب ٣١) حيث يرد البيتان التاليان :

A heavier task could not have been imposed

than I to speak my griefs unspeakable

« ما من عمل يمكن أن يفرض على أشق من أن أتحدث عن آلامى التى لايمكن التحدث عنها »

ومن الشعراء الرومان الذين عرفهم شكسبير بروبرتيوس (حوالى ٥٠ ـ ١٦ ق . م) شاعر الاليجيات المشهور . لأن حديث هيلينا فى مسرحية « حلم منتصف ليلة صيف »(ف ١ م١ ب ٢٣٤ وما يليه) يذكرنا باحدى قصائده (8 — 1 . 12 , 11) ولا شك أن شكسبير عرف كذلك الشاعر الغنائى هوراتيوس (٦٥ ـ ٨ ق .م) لأن شايلوك يقول لجيسيكا فى « تاجر البندقية » (ف ٢ م٥ ب ٢٩ ومايليه) :

when you heare the drum.

and the vile squealing the wry — neckte fife ,

Clamber not yot up to the casements then ,

nor thrust your head into the publque streete

« فاذا سمعت الطبالين والزمارين ذوى الرقاب الملتوية فلا تتسلقى الى النافذة ولا تطلى برأسك على الشارع العام »*

فهذه كلمات تذكرنا مباشرة بما يقوله هوراتيوس لاحدى الفتيات (odes III,7,29-30)

Prima nocte domum claude neque in vias
Sub cantu querulae despice tibiae

« أغلقى (باب) المنزل فى أول الليل (حرفيا فى الليل الأول) ولا تطلى من عل الى الطرقات تحت تأثير نغم الفلوت (المزمار) الشجى » . ويماثل بأمر الملك الفرنسى شارل السادس فى « هنرى الخامس » النبلاء قائلا (ف ٣ م ٥ ب ٥٠ ـ ٥٢)

Rush on his hoast,as doth the melted snow
upon the valleyes , whose low vassal seat ,
the Alpes does spit , and void his rhewme upon ,,

« انقضوا على جيشه ، كما ينقض الثلج الذائب على الأودية المنخفضة التى تبصق عليها جبال الالب سيولها فتغمرها »** فيذكرنا بقول هوراتيوس (Sat. ii,5) عن ماركوس فوريوس منقذ روما ومخلصها من الغزاة :

Furius hibernas cana nive conspuit Alpes

« ويبصق فوريوس على جبال الالب الشتوية بثلجها الأبيض »

وعندما يسأل بولونيوس هاملت فى المسرحية المسماة باسم الأخير عن الكتاب الذى يقرأ يجيب هاملت بالقول التالى (ف ٢ م ٢ ب ١٩٦ ـ ٢٠٠)

Slanders, sir:for the satirical rogue says here that old men have grey beards, that their faces are wrinkled, their eyes purging thick amber and plum-tre gum, and that they have a plentiful lack of wit, togeter with most weak hams

« فضائح يا سيدى اللورد فان هذا « الوغد الساخر » يقول هنا أن الشيوخ لهم لحى وأن وجوههم مغضنة وعيونهم تفرز صمغا كثيفا أصفر كصمغ الشجرة وأنهم يفتقرون افتقارا شديدا الى الذكاء وأن أفخاذهم فى غاية الضعف »*** . فالهجاء الوغد أو « الوغد الهجائى » ـ كما يمكن أن نترجمها ـ الوحيد المعروف لنا ولشكسبير من التراث الكلاسيكى هو جوفيناليس (ولد فيما بين ٦٠ و ٧٠ م . ولا نعرف تاريخ مماته بالضبط وان ظل يكتب حتى

---

* ترجمة د . مختار الوكيل . مسرحيات شكسبير المجلد السابع دار المعارف / جامعة الدول العربية .

** ترجمة . محمد عوض محمد . مسرحيات شكسبير المجلد التاسع ـ دار المعارف جامعة الدول العربية .

*** ترجمة د . عبد القادر القط . سلسلة من المسرح العالمى . وزارة الاعلام ـ الكويت

عام ١٢٧ م) . وتحتوى هجائيته العاشرة على وصف مخيف لمتاعب الشيخوخة ومساوىء هذه الفترة المرذولة من الحياة الآدمية ـ ومع أننا لا نملك الدليل القاطع على شكسبير قد قرأ هذه الهجائية في أصلها اللاتيني أو في ترجمة انجليزية ، الا أنه ينبغي أن نتذكر أن هذه الهجائية أثارت اعجاب تشوسر وظهرت لها أصداء واضحة في قصيدته « ترويلوس وكريسيد » (IV.— 197) .ومن المحتمل أن يكون جوفيناليس مقروءا محبوبا بين أهل العصر الاليزابيثي . على أية حال فان الفقرة المقتطفة من « هاملت » والتى تذكرنا بهجائية جوفيناليس العاشرة ضمت اضافات أدخلها شكسبير ـ كعادته في تعامله مع الكلاسيكيات ـ ولكن هذه الاضافات نفسها جاءت مفعمة بروح جوفيناليس نفسه فهي أيضا مستوحاة من هديه ولا شك ان « الهجاء الوغد » أو « الوغد الهجائي » كان سيسر كثيرا لو أتيحت له فرصة قراءة مقطوعة شكسبير !

واذا أردنا أن نتحسس الدلائل على معرفة شكسبير ببعض المؤرخين الرومان فاننا نشير الى ما يقوله بروتوس عندما تحين ساعة النهاية في مسرحية « يوليوس قيصر » (ف ٥ م ٣ ب ٩٤ وما يليه) :

o Julius Caesar , thou art mighty yet !
Thy spirit walks abroad , and turns our swords
In our own proper entrails

« أي يوليوس قيصر ! أنت مازلت شديد البأس !
ان روحك طليق يتجول ويرد سيوفنا الى صميم أحشائنا * » .

ففي هذه الأبيات تتجلى فكرة أن الميت يقتل الحي وهي فكرة اغريقية كلاسيكية نجدها عند ايسخولوس مثلا في ثلاثيته الرائعة « الاوريستيا »[٣٣] ولكن ليس هذا مايشغلنا الآن . وانما الذي نود الاشارة اليه أن هذه الابيات تردد معنى وصدى الأبيات الاولى من ملحمة الشاعر الروماني لوكانوس (٣٩ ـ ٦٥ م) عن الحروب الرومانية الاهلية وعنوانها الأكثر شهرة هو « فرساليا » (Pharsalia) نسبة الى فرسالوس (أو فرساليا) وهي المدينة (أو المنطقة) التى كانت مسرح الحرب بين يوليوس قيصر وبومبي الأكبر عام ٤٨ ق . م .وجدير بالذكر أن العنوان الأصلي للملحمة كما يرد في المخطوطات هو « عن الحرب الأهلية » (De Bello Civili) . أما مطلع الملحمة الذى تأثر به شكسبير فهو كما يلي :

... populumque potentem
in sua victrici conversum viscera dextra

« (انى أروى كيف أن) شعبا قادرا قد ادار يمناه المنتصرة ضد أحشائه هو نفسه » .

.(De Bello Civili I, 2-3)

---

* (ترجمة عبد الحق فاضل ، مصطفى طه حبيب . مسرحيات شكسبير ـ المجلد العاشر . دار المعارف بمصر ، جامعة الدول العربية) .

(٣٣) د . احمد عتمان : المصادر الكلاسيكية ص٢٢٨ ـ ص٢٥٩ .

ومن المؤرخين الرومان عرف شكسبير تيتوس ليفيوس (٥٩ ق . م ـ ١٧ م) فعلى أقل تقدير قرأ شكسبير الكتاب الأول من تاريخه وفيه وجد قصة تاركوينيوس ولوكريس . ولا يشك أحد في أن شكسبير قرأ مقتطفات من « الحرب الغالية » (Bellum Gallicum) ليوليوس قيصر (١٠٢ ق . م ـ ٤٤ ق . م) ولا سيا الجزء الخاص بغزوته البريطانية .فاسلوب يوليوس قيصر اللاتيني ـ مثل اسلوب افلاطون في الاغريقية ـ هو أبسط وانقى أساليب المؤلفين وبالتالي فهو الأسهل والأنسب شكلا ومضمونا ليتصدر مقررات الدراسة في المدارس الانجليزية وقراءات المبتدئين في اللغة اللاتينية بصفة عامة . والجدير بالذكر أن احدى شخصيات مسرحية « هنري السادس » (ق ٤ م ٧ ب ٦٥) تقتطف القول التالي :

Kent , in the [٢٤]Commentaries , Caesar writ
is termed the civil' st place of all this isle

« توصف كنت في « التعليقات » (أو « المذكرات ») التي كتبها قيصر بأنها أكثر الأماكن تمدينا في هذه الجزيرة قاطبة »

وبالفعل يرد عند يوليوس قيصر في « الحرب الغالية » (v , 14 . 1) مايلي :

ex eis omnibus longe humanissimi qui
Cantium incolunt

« ومن بين أولئك الناس جميعا فان من يسكنون كانتيوم (= كنت) هم الاكثر انسانية (تمدينا) بمراحل » .

أما عن المؤلفين الاغريق فقد عرف شكسبير عددا أقل مما عرف من المؤلفين الرومان كما أنه لم يتصل بهم مباشرة عن طريق النصوص الاصلية وانما عن طريق ما تيسر من المترجمات . ومن ثم فيمكن القول بصفة عامة أن معرفة شكسبير بالتراث الاغريقي أقل عمقا وأصغر حجما من معرفته بالتراث اللاتيني . ومع ذلك كان يهضم كل ما كان يقع تحت يديه من التراث الاغريقي المترجم . فمما لا شك فيه أنه قرأ ترجمة تشابمان (George Chapman ١٥٥٩ ـ ١٦٣٤) لهوميروس ونستدل على ذلك من أن شكسبير يورد أحداثا من الحرب الطروادية ـ مثل حادثة ثيرسيتيس ـ لا ترد عند سابقيه مثل تشوسر وليد جيت وكاكستون وهذا ما سنتحدث عنه عند تناولنا لمصادر « ترويلوس وكريسيدا » . وقد الم شكسبير بشيء ما عن أيسخولوس وكذلك افلاطون صاحب فكرة الموسيقا الكونية ، التي غالبا ما يتحدث عنها شكسبير في مسرحياته . ولكننا لا نزعم بأن شكسبير قرأ هذين الكاتبين . وفيا عدا ذلك لا تظهر من نصوص شكسبير أية معرفة بالكتاب الاغريق الآخرين وان كان بعض الدارسين يحاولون اثبات اطلاع شكسبير على نصوص مؤلفي الدراما الاغريقية في ترجمات

(٢٤) كتب يوليوس قيصر « مذكرات عن الحرب الغالية » (Commentarii de bello Gallico) تعرف عادة باسم « الحرب الغالية » و « مذكرات عن الحرب الاهلية » (Commentarii de bello Civili) تعرف عادة باسم « الحرب الاهلية » . والمؤلف الاول يتناول حملات قيصر في الغال من ٥٨ ـ ٥٢ق .م والثاني يعنى بالحرب الاهلية حتى موقعة فرسالوس عام ٤٨ق .م .

لاتينية . والجدير بالملاحظة أن شكسبير في اشاراته الاسطورية لا يشير الى نسب الآلهة وعلاقات القربى بينهم وهو أمر بارز في أشعار سبنسر وميلتون وفي ذلك ما يدل على أن شكسبير لم يعرف هسيودوس (القرن الثامن ق . م) وقصيدته « أنساب الآلهة » (Theogonia) .

●●●

٣ ـ أوفيديوس ... ينبوع الأساطير :

لا زالت ترجمة جولدنج (Arthur Golding ١٥٣٦ ـ ١٦٠٥ ؟) للقصائد المعروفة باسم « التناسخات » Metamorphoses للشاعر أوفيديوس (٤٣ ق . م ـ ١٨ م) التي ظهرت فيما بين ١٥٦٥ و١٥٦٧ تقرأ الى يومنا هذا والفضل في ذلك يرجع الى الاعتقاد المسلم به أي أنها كانت من القراءات المفضلة لدى شكسبير . ولا يجب الشاعر الانجليزي أن يكون قد قرأ « التناسخات » مترجمة لأن ذلك لا يمنع أنه ربما عاد الى النص الأصل اللاتيني . بل أنه من المؤكد الذي لا يرقى اليه الشك الآن أنه قد اطلع على الأصل اللاتيني في المدرسة التي تعلم فيها ، فهناك نسخة من « التناسخات » بالشرف يحمل توقيع شكسبير عليها ولا تزال موجودة حتى الآن . أضف الى ذلك أن أصدقاء شكسبير ومعاصريه قد عرفوا عنه حبه وتفضيله لأوفيديوس ، ولا حظوا تقليده له في كل مؤلفاته المبكرة والمتأخرة . ها هو فرنسيس ميريز يكتب عام ١٥٩٨ في عرضه للأدب الانجليزي أبان عصره قائلا « وكما كان يعتقد بأن روح يوفوربوس (Euphorbus) قد تقمصت بيثاجوراس [٢٥] فان روح أوفيديوس العذبة والمليحة تعيش في شكسبير المعسول في انسيابه (mellifluous) ولسانه (honey — tongued) والدليل على ذلك « فينوس وأدونيس » و« لوكريس » و« سونيتاته » الحلوة »[٢٦] . بل ان شكسبير صدر أول ما نظم ونشر أي « فينوس وأدونيس » بمقتطف اتخذه لنفسه شعارا وأخذه من « غراميات » (Amores,i,15. 35 — 6) أوفيديوس وهما البيتان التاليان :

Vilia miretur vulgus ; mihi flavus Apollo
pocula Castalia plena ministret aqua

---

(٢٥) جاء في الاساطير أن يوفوربوس هو الذي جرح باتروكلوس صديق بطل الاغريق اخيليوس (راجع « الالياذة » الكتاب ١٦ بيت ٨٠٨ وما يليه) . وأن منيلاوس قتله فيما بعد (نفس المرجع الكتاب ١٧ بيت ٤٥ وما يليه) . وعرف عن فيثاغوراس (Pythagoras) ... كما نسبه في الفلسفة ـ فيثاغوروس (٥٨٠ ـ ... ق م تقريبا) انه آمن بتناسخ الارواح وتنقلها في صورة الانسان والحيوان والنبات . وقيل انه هو نفسه تعرف على التقمصات التي اتخذتها روحه من قبل أن تحل في جسده فاعتقد بأن روحه هذه كانت متجسدة في يوفوربوس سالف الذكر وبلغ الامر بفيثاغوراس انه تعرف على درع صاحب روحه الاسبق هذا (راجع Horatius, Odes, I 28. 9ff) .

(٢٦) F. Meres, Paladis Tamia : Wit's Treasury, p. 280.

« دع الأشياء الرخيصة تذهل عامة الناس أما أنا فدع أبوللو الوضاء يقدم لى كئوسا مترعة من نبع كاستاليا »(٢٧)

وكان الطابع الدرامى لقصائد أوفيديوس رسائل « البطلات » (Heroides)هو الذى أغرى شكسبير بقراءتها والاغتراف منها . ولا شك ان اشارته الى أريادنى وليدا وحلم هيكوبا الذى رأت فيه أنها تلد جمرة تدل على أنه كان على دراية بهذه القصائد . بل أن شكسبير يورد مقتطفا لاتينيا فى مسرحيته « ترويض النمرة » (ف ٣ م ١ ب ٢٨) مأخوذا من القصيدة الأولى فى رسائل « البطلات » (4 — 33 i) . وبات فى حكم المؤكد أن شكسبير استمد من قصيدة « الأعياد » أو « التقويم » (Fasti)الكثير من مادة « اغتصاب لوكريس » . والى نفس المصدر (Fasti , ii . 83 ff.) تعود الاشارة الى « أريون (Arion) يمتطى ظهر الدولفين » فى مسرحيته « الليلة الثانية عشر » (ف ١ م ٢ ب ١٥) . ولعل عبارة جولييت « يقولون أن جوبيتر يسخر ضاحكا من ايمان العشاق غير المرعية »(« روميو وجولييت » ف ٢ م ٢ ب٩٢ ـ ٩٣) هى خير دليل على اطلاع شكسبير على قصيدة « فن الهوى » Ars Amatoria.أما دليلنا الوحيد على معرفة شكسبير بقصيدة « الاحزان » (Tristia) فهى الاشارة الى ميديا وأبسيرتوس (Absyrtus) فى الجزء الثانى من « هنرى السادس » (ف ٥ م ٢ ب ٥٩) .

ولعله من المفيد هنا أن نلقى نظرة مقارنة على علاقة شكسبير بكل من فرجيليوس وأوفيدوس لنوضح أنه كان أكثر تعلقا بالأخير . فمن الملاحظ أن الاشارات الاسطورية المأخوذة من فرجيليوس قليلة وضيقة الأفق فى مقابل الكثرة والاتساع فى تلك المأخوذة من أوفيديوس . وربما يرجع السبب فى تلك الظاهرة الى أن أحكام ودقة فن فرجيليوس لم يتناسبا مع العصر الاليزابيثى . ويبدو أن هناك ثلاثة أحداث فقط من « الاينيادة » هى التى فرضت نفسها فرضا على شكسبير . وهى وصف سقوط طروادة بحيلة « حصان طروادة » المشهورة ، وخدعة سينون الكملة وهى الحادثة التى وردت فى أول الكتاب الثانى من « لاينيادة » (قارن هوميروس « الأوديسيا » الكتاب الرابع بيت ٢٧١ والكتاب الثامن بيت ٤٩٢ والكتاب الحادى عشر بيت ٥٢٣) . أما الحادث الثانى فهو موت برياموس ملك طروادة (قارن « هاملت » ف ٢ م ٢ ب ٤٦٩ ـ ٥٤١ و « الاينيادة » الكتاب الثانى بيت ٤٣٨ ـ ٥٥٨) . أما الحدث الثالث فهو حزن ديدو بعد أن هجرها حبيبها اينياس . ويمكن أن نضيف وصف العالم الآخر فى الكتاب السادس من « الاينيادة » الى الأشياء التى أعجب بها شكسبير بصفة خاصة من بين مؤلفات فرجيليوس . ولكن شكسبير لا يكتفى بالاشارة الاسطورية بل يستغلها بما يتلاءم مع

---

(٢٧) يستطيع اى سائح أن يرى نبع كاستاليا الذى يقع عند سفح التل الذى اقيم عليه معبد ابوللو فى دلفى . فهناك تتدفق المياه المتدفقة من النبع صافية عذبة من بطن الصخرة المقدسة لدى الاغريق . اما الاساطير فتقول ان كاستاليا كانت عروس البحر التى هام بعشقها الاله ابوللو فأخذ يلاحقها حتى القت بنفسها فى نبع فوق جبل البرناسوس الى الشمال من دلفى (ارتفاعه ٨ آلاف قدما) . على اية حال فان نبع كاستاليا مقدس لدى أبوللو وربات الفنون (Mousai) ويرمز الى الالهام فى الفن بصفة عامة .

أهدافه الدرامية ويخلق مما يشير اليه من أساطير شيئا جديدا . فعلى الرغم من أنه أخذ قصة ديدو من فرجيليوس الا أننا لا نجد في « الاينيادة » ما يقابل ذلك المنظر الرائع الذى يحدثنا عنه شكسبير في « تاجر البندقية »(ف ٥ م ١ ب ٩ -١٢) حيث يقول لورنزو : « القمر يضيء اضاءة ساطعة ... في مثل هذه الليلة كانت ديدو وبيدها غصن صفصاف واقفة على شاطيء البحر تنادى عشيقها (أينياس) وتشير اليه أن يعود الى قرطاجة » . ويقول رووت (R. K. Root) ان هذه الصورة التى يظن أنها من « الاينيادة » غير فرجيلية الطابع لأنها في الواقع منقولة من الرسالة العاشرة من « بطلات » أوفيديوس حيث اكتشفت أريادنى هروب تيسيوس فلجئت في ضوء القمر الى الشاطيء الصخرى وبعد أن ناجت حبيبها عبثا ربطت وشاحها الأبيض الى غصن طويل » ولوحت به من فوق رأسها اذ ربما يراها بعينيه على الأقل ما دام أنه لم يعد يسمعها »[٢٨] ولقد وام تشويش هذه الابيات الأوفيدية في ثنايا روايته لاسطورة أريادنى[٢٩] ومن المحتمل أن يكون شكسبير قد اطلع على الاسطورة عنده ومع ذلك فان تبنيه لهذه الصورة الشعرية الرائعة ينهض دليلا على اعجابه الشديد بأوفيديوس وتفضيله على فرجيليوس .

« أما التناسخات » الأوفيدية فكانت بالنسبة لشكسبير وسائر مؤلفى عصر النهضة بصفة عامة الينبوع الحقيقى للأساطير ، فكلما نهلوا منه ازدادوا شغفا به . وكانت ترجمة جولدنج للتناسخات جافة لا تتفق مع رشاقة وعضوية الأصل اللاتينى ، ولكن كان بوسع شكسبير أن يعود الى ذلك الأصل كلما شعر بضرورة ذلك . ومن ناحية أخرى فان شكسبير قد تمتع بموهبة لم يتمتع بها غيره وهى -كما يقول ت . س . اليوت ، القدرة على أن يستخلص أقصى ما يمكن استخلاصه من الترجمة .[٣٠] ومن ثم فهناك فقرات شكسبيرية عديدة رائعة الجمال كان النقاد يعتبرونها من بنات أفكاره ولكن الدراسات المقارنة أثبتت أنها مستعارة أو على الأقل مستوحاة من ترجمة جولدنج للتناسخات . مثال ذلك الفقرة التالية من السونيتة رقم ٦ .

" Like as the waves make towards the pebbled shore
So do our minutes hasten to their end ;
Each changing place with that which goes before
In sequent toil all forwards to contend "

---

(٢٨) R.K.Root, Classical Mythology in Shakespeare, (PH.D. Thesis, Yale Studies in English, New York Henry Holt &Company 1903) pp.56—58

(٢٩) Chaucer, Legend of Good Women, 2189ff.,cf. Root, op.cit. pp.56—58 & cf.pp.40—41

(٣٠) T.S.Eliot, The Classics and the Man of Letters (London & New York 1943) passim

« ان دقائق حياتنا تسرع الى نهايتها كما تفعل الأمواج تجاه الشاطىء ذى الحصى كل واحدة منها تأخذ مكان الأخرى التى سبقتها وكلها تتسابق فى جهد متصل للسير نحو الأمام » .

ولقد جاءت هذه الفقرة الشكسبيرية من وحى ترجمة جولدنج التالية :

" As every wave drives others forth, and that which comes behind
Both thrusteth and is thrust himself; even so the times by kind
Do fly and follow both at once, and evermore renew "

والأصل اللاتينى يرد عند أوفيديوس (Metamph. xv 181 ff.) كما يلى :

ut unda impellitur unda
urgeturque prior veniente urtgeque priorem
tempora sic fugiunt pariter pariterque sequuntur
et nova sunt semper

ونترجم هذه الفقرة الى العربية كما يلى :

« كما تساق الموجة بالموجة
وتدفع الموجة السابقة بالموجة الآتية ولكنها بدورها تدفع الأسبق
هكذا الأزمان تمضى هاربة فى وقت واحد ومتتابعة بالتساوى
وهى دوما متجددة »

ولعل استخدام شكسبير للصفة sequent يدل على أنه قد عاد للأصل اللاتينى (sequuntur) لأن جولدنج يستخدم الفعل follow . كما يلاحظ أن الموجات عند أوفيديوس هى موجات النهر المتدفقة والمتغيرة وهى الصورة التى تحدث عنها الفلاسفة الاغريق وهم يشرحون مبدأ أن كل الأشياء تتغير وتتحرك (panta rhei) اذ قالوا القولة المشهورة وهى أنك عندما تنزل النهر مرتين فانك فى المرة الثانية لا تنزل نفس النهر الذى نزلته فى المرة الأولى . أما شكسبير فيتحدث عن أمواج البحر والشاطىء ذى الحصى والسبب فى ذلك هو أن أنهار انجلترا لا تعرف الأمواج الهائجة المائجة . على أية حال فان هذه الفكرة تدخل فى نطاق الفكرة الأكبر وهى أن كل شىء يتحرك ومع ذلك فلا شىء يندثر وهى فكرة وردت كثيرا فى أشعار كل من أوفيديوس وشكسبير .[٣١]

(٣١) Highet, op.cit., p.205......

ومن حديث بروسبيرو في « العاصفة » لشكسبير عن السحر (ف ٥ م ١ ب ٣٣ ـ ٥٠) يمكن أن نثبت أنه عاد للنص اللاتيني لحديث ميديا عن قوة السحر في « تناسخات » أوفيديوس (Metamph. vii 197 ff.) . ولم يكتف بقراءة ترجمة جولدنج له[٣٦] . هذا بالرغم من أن شكسبير يستخدم نفس الكلمات التي وجدها في

---

(٣٦) نكتفي بذكر الابيات التالية من الاصل اللاتيني عند أوفيديوس :

Auraeque et venti, montesque, amnesque, lacusque
Vivaque saxa, sua convulsaque robora terra,
Et silvas moveo, iubeoque tremescere montes,...etc.

ولكننا رأينا أن نورد ترجمة جولدنج لتلك الفقرة كاملة . تقول ميديا الساحرة :

"Ye Ayres and windes, ye Elves of Hilles, of brookes, of woods alone,
of standing Lakes, and of the Night approche ye every One
Through helpe of whom (the crooked bankes much wondering at the thing)
I have compelled streames to run cleave backward to their spring
By charmes I make the calme seas rough, and make ye rough seas plaine.
And cover all the Skie with Cloudes, and chase them thence againe.
By charmes I rayse and lay the windes, and burst the Vipers Jaw,
And from the bowels of the Earth both stones and trees doe drawe
Whole Woods and Forestes I remove: I make the Mountains shake,
And even the earth it selfe to grone and fearfully to quake
I call up dead men from their graves, and thee O lighte some Moone
I darken oft, though beaten brasse abate thy perill soone
Our Sorcerie dimmes the Morning faire, and darkes ye Sun at Noone"

والقرع إلى جانب ترجمة جولدنج هذه للاصل اللاتيني حديث بروسبيرو في « العاصفة » (ف ٥ م ١ ب ٣٣ ـ ٥٠) حيث يقول شكسبير على لسان بطله عن قوة السحر :

Ye elves of hills, brooks, standing lakes, and groves
And ye, that on the sands with printless foot
Do chase the ebbing Neptune and do fly him
When he comes back, you demi—puppets, that
By moonshine do the green sour ringlets make
Whereof the ewe not bites, and you, whose pastime
Is to make midnight mushrooms, that rejoice
To hear the solemn curfew, by whose aid —
Weak masters though ye be — I have bedimmed
The noontide sun, called forth the mutinous winds
And,twixt the green sea and the azured vault
Set roaring war:to the dread — rattling thunder
Have I given fire, and rifted Jove's stout oak
With his own bolt, the strong— based promontory
Have I made shake, and by the spurs plucked up

ترجمة جولدنج كلما وجد ذلك مناسبا . والدليل على أنه عاد للنص اللاتيني أنه يستخدم « pluck'd up » التي تعطى معنى الكلمة اللاتينية convulsa الواردة في نص أوفيديوس على نحو أكثر أمانة ودقة من ترجمة جولدنج لها بـ doe drawe . وبالمثل يستخدم شكسبير الصفة stout التي تشير الى معنى آخر للكلمة اللاتينية robora غير الذي يورده جولدنج فالأخير اكتفى بذكر trees (الأشجار) في حين أن الكلمة اللاتينية قد تعنى « أشجار البلوط المتينة » المقدسة لدى جوبيتر ومن هنا جاء كلام شكسبير (Jove's stout oak) .

وبمناسبة الحديث عن السحر والسحرة فان بعض مكونات اناء الساحرات في « ماكبث » (ف ٤ م ١ ب ١ وما يليه) جاء من منظر تحضير المواد السحرية (pharmakopoeia) في « تناسخات » أوفيديوس (Metamph. vii 262 ff.) وإن كانت له مصادر كلاسيكية أخرى .(٣٣)

وهناك مقتطفات من أوفيديوس نثرها شكسبير كما تنثر الورود في ثنايا مسرحياته ففى « ترويض النمرة » على سبيل المثال يقف لوسنتيو مدرس اللغة اللاتينية معلنا الحب على بيانكا فيدور بينهما الحوار التالى (ف ٣ م١ ب ٢٦ ومايليه) :

Bianca : Where left we last ?

Lucentio : Here, madam:

Hac ibat Simois hacc, est Sigeia tellus,
Hic steterat Priami regia

The pine and cedar, graves at my Command
Have waked their sleepers, oped, and let them forth
By my so potent art ...... etc.

ويترجم الاستاذ محمد عوض ابراهيم هذه الفقرة الشكسبيرية كما يلي (في طبعة دار المعارف بمصر) : « ايتها الجنيات اللواتي تسكن التلال والجواري المائية ، والبحيرات الراكدة والآجام ، ويا ايتها اللواتي تطأن الرمال ولا تؤثرن فيها بأقدامكن ، وتصدن المد والجزر في البحار ، ويأيتها اللواتي تتقمصن اشباه الشخاص « الفرفور » وتصنعن حلقات كريهة على المراعي فتعاف الشاه فيها الاغنام ، ويا ايتها اللواتي تصنعن الفطر (على التراب) في منتصف الليل واللواتي يسرهن سماع جرس الغروب ، بمعاونتكن جميعا اظلمت شمس النهار (الظهر) واثرت الرياح العاتية واثبت حربا شعواء بين البحر والسماء ، وهيجت الرعد ذا الصوت المزعج ، وشققت شجرة بلوط جوبيتر بصاعقة وزلزلت اركان الارض المستقرة واقتلعت اشجار الصنوبر والارز من جذورها وايقظت القبور بأمري جثثها وفتحت واخرجتها بسحري القوي في تأثيره .. الخ » ويترجم فقرة اوفيديوس اللاتينية ـ في ضوء ترجمة جولدنج الانجليزية ـ كما يلي : « ايها النسيم ويا ايتها الرياح ، ايتها الجبال والنهيرات ويا ايتها البحيرات يا كل آلهة الاجام ، يا كل آلهة الليل ، اقتربا بجانبي الذي يا من بمعونتكم وبمشيئتي عادت مياه النهيرات امراجها الى الوراء ، الى منابعها الاصلية بينما الشطآن في ذهول ، فأنا بتعويذتي السحرية اوقف البحار الهائجة واقلب تلك الساكنة رأسا على عقب ، ابدد السحاب او اجلبها وانره الرياح او استدعيها ، بكلماتي والتعاويذ السحرية احطم فك الثعابين واحرك الاحجار الحية واقتلع الشجر البلوط والغابات من جذورها في الارض . انا امرت الجبال اهتزت وإذا امرت الارض زمجرت والاشباح امرتها فتخرج من قبورها . وانت ايضا ياديانا (آلهة القمر اي القمر) ألم اسحبك رغم ان القرعات على قطع النحاس التيميسي (نسبة الى مدينة تيميسا المشهورة بالنحاس) تحاول ان تخفف من متاعبك (الاشارة هنا الى عادة احداث ضوضاء بقرع النحاس او الطبول لازعاج وطرد الارواح الشريرة التي تسببت في وقوع الخسوف القمري وهي عادة لا تزال تمارس حتى يومنا هذا) . وحتى عربة جدي الشمس (هيليوس هو الجد الاسطوري لميديا التي جاءت هذه الابيات على لسانها) شحب لونها بفعل اغنياتي السحرية وكذلك امتقع لون اورورا (آلهة الفجر اي الفجر) من اثر سمومي السحرية ».

(٣٣) Cf. Muir, op.cit., pp. 3ff, Highet, op.cit., p.206

Bianca : construe them
Lucentio : Hac ibat, as I told you before, Simois,

I am Lucentio, hic est, so unto Vicentio.
of Pisa. Sigeia tellus, disguised thus to get
your love ; Hic steterat,and that Lucentio
that comes a — wooing Priami, is my man
Tranio,regia, bearing support, celsa
senis, that we might beguile the old pantaloon »

•••

« بيانكا : أين وقفنا آخر مرة ؟

لوسنشيو : هنا يا سيدتي : (بالاتينية ما معناه) « هنا كان يتسرب سيمويس ، وهذه تكون الأرض السيجية[٣٤] ، وهنا كان قد وقف شامخا قصر برياموس العجوز »

بيانكا : وما معنى هذه الالفاظ ؟

لوسنشيو : هنا كان يتسرب : أي كما قلت لك من قبل

سيموئس : إني لوسنشيو

وهذه تكون : بن فنشيو من بيزا

الأرض السيجية : قد تنكرت هكذا لأظفر بحبك

وهنا كان قد وقف شامخا : وهذا المدعي لوسنشيو الذي أتاك خاطبا

برياموس : هو خادمي ترانيو

قصر : ترباري وبمثل دوري

(٣٤) سيمويس هو مجرى مائي صغير يصب في نهر سكامندروس بمنطقة طروادة . اما الارض السيجية فالمقصود بها رأس الارض والميناء بطروادة وهناك كان يقع قبر اخيليوس

العجوز: حتى تخدع العجوز السخيف »[٣٥]

وان بحثت فى أدب عصر النهضة كله لن تجد مقتبسا يتقن فن الاقتباس واستغلال المقتطفات مثل شكسبير فى هذه الفترة . فهو هنا يوظف اللفظة اللاتينية لخدمة الموقف الدرامي وسبر أغوار الشخصية . والمقتطف الذى انتخبه لوسنشيو مدرس اللاتينية مأخوذ من رسائل « البطلات » أو على وجه التحديد رسالة بينيلوبى (Heroides i 33 — 4) . وهناك مقتطف آخر من قصائد أوفيديوس هذه أى رسائل « البطلات » يرد فى « هنرى السادس » (ف ١ م ٣ ب ٤٨ وقارن Heroides II. 66) أما المقتطفات من « التناسخات » فهى كثيرة ونشير منها الى مايرد فى « تيتوس أندرونيكوس » (ف ٤ م ٣ ب ٤ وقارن Metamph I, 150) .

والجدير بالذكر أن أوفيديوس ، البعيد بطبعه عن التفلسف ، يعد شاعر الحب والجنس المفضل لدى أهل عصر النهضة . كما أن شكسبير قد شغل كثيرا بموضوع الحب والجنس فى أشعاره ومسرحياته . فقصيدته « فينوس وأدونيس » مستوحاة من « تناسخات » أوفيديوس وموضوعها الرئيسى هو الحب الذى لايقاوم . وان كان سكسبير قد صور أدونيس ـ على غير ما وجده عند أوفيديوس ـ باردا يعرض عن الحب ويصد المحب مما يدل على أن شكسبير قد أخذ هذا العنصر من قصة أخرى هى بدورها أوفيدية أيضا وفى « التناسخات » ، ولكن فى مكان آخر (iv 285 — 388) غير مكان القصة الرئيسية التى استوحيت منها القصيدة ككل (x 519 — 559 & 705 — 739) . نريد أن نقول بأن عنصر العزوف عن الحب فى شخصية أدونيس سكسبير متصل بقصة هيرما أفروديتوس وسلماكيس ، فالأول هو ابن الاله هيرميس من أفروديتى وقد عشقته

---

(٣٥) ترجم الدكتورة سهير القلماوى (فى سلسلة مسرحيات شكسبير ، دار المعارف بمصر ، جامعة الدول العربية) هذه الفقرة كما يلى :-
« بيانكا : ـ اين وقفنا آخر مرة ؟
لوسنشيو : هنا يا سيدتى :
« هيك ايبات سيموس (والصحيح سيمويس) هيك است سيجيا تلوس هيك ستيترات برياني ريجيا سلسا (والصحيح كلسا) سينيس » (وهذه الكلمات هى نقل البيتين اللاتينيين كما هما الى الحرف العربى)
بيانكا : ترجم هذه الالفاظ
لوسنشيو : هيك ايبات = كما قلت لك من قبل
سيموس = انى لوسنشيو
هيك است = ابن فنسنشيو من بيزا
سيجيا تلوس = قد تنكرت هكذا لاظفر بحبك
هيك ستيترات : وهذا المدعى لوسنشيو الذى اتاك خاطبا
برياني = هو خادمى ترانيو
ريجيا = انما يرى ويقلد دورى
سلسا سينيس = حتى تخدع العجوز السخيف »
وقد رأينا ان نترجمها كما اسلفنا فى المتن فى محاولة للوصول الى معنى ما من المقتطف اللاتينى المشوه فى هذه الفقرة الشكسبيرية صعبة الترجمة لأن ترجمة الدكتورة سهير القلماوى لا تعطى معنى على الاطلاق . وقد يكون من الأفضل وضع المقتطف اللاتينى كما هو بلغته .

عروس النبع الذي كان يسبح فيه ، فلما صدها تضرعت الى الآلهة أن تصنع منهما معا جسدا واحدا ، فاستجابت الآلهة لدعائها (ومن هنا جاءت الكلمة الانجليزية hermaphrodite بمعنى الشخص الذي يجمع جسده بين العنصر الذكري والانثوي) . وجدير بالذكر أن هناك قصيدة انجليزية بعنوان « سلماكيس وهيرما أفروديتوس » نشرت عام ١٦٠٢ وهي مجهولة المؤلف وان كانت تنسب أحيانا الى فرنسيس بومونت (Francis Beaumont ١٥٨٤ ـ ١٦١٦) .

وعندما رسم شكسبير شخصية كليوباترا العاشقة في « انطوني وكليوباترا » نجده يتأثر بصورة الملكة القرطاجية ديدو عند أوفيديوس ولا سيما رسالتها الى عشيقها اينياس (Heroides VII) حيث يرد البيت البليغ التالي (رقم ١٣٩) :

" Sed iubet ire deus, vellem vetuisset adire ! "

« ولكن الاله يأمرك بالذهاب، ياليته كان قد منعك من الحضور! »

فنجد لهذا البيت صدى مسموعا في حديث كليوباترا التي تؤنب عشيقها أنطونيوس وتسخر منه قائلة (ف ١ م ٣ ب ٢١) :

" Would she had never given you leave to come ! "

فهي تتحدث عن فولفيا زوجة أنطونيوس الرومانية الشرعية المعروفة بتسلطها وقوة شخصيتها وتقول « ليتها ما سمحت لك بالمجيء الى هنا ! » وهو ما يستفز أنطونيوس بالطبع .

يقول الباحث رووت أن من قرأ أوفيديوس (وفرجيليوس) يستطيع أن يخرج بكل الاشارات الأسطورية الواردة عند شكسبير ، أو على الأقل بغالبيتها العظمى . ويقول نفس البحاثة أن تأثيرات أوفيديوس على شكسبير تبلغ أربعة أضعاف تأثير فرجيليوس ، بحيث يمكن القول بصفة عامة أن أساطير شكسبير أوفيدية الطابع . ولكن رووت يوصي دارسي شكسبير بالتفريق بين الاشارات الاسطورية العابرة في مسرحيات شكسبير والتي لا تدل على معرفة عميقة بالاسطورة المشار اليها ، وبين الاشارات الاسطورية التفصيلية الدالة على الاستيعاب التام والتعمق بالدراسة المتأنية للاسطورة وتمثلها . فمثل هذه الأساطير المدروسة قد أصبحت جزءا أساسيا من المكونات الثقافية للمؤلف . ويضرب رووت المثل على هذه الاشارات الاسطورية المتعمقة بتلك التي ترد في مسرحيات شكسبير عن اسطورة هرقل . فمما لاشك فيه أن الشاعر الانجليزي قد اطلع على تفاصيل هذه الاسطورة عند أوفيديوس (وسينيكا) . ومن الملاحظ أن بعض شخصيات شكسبير قد أصبحت هرقلية الأبعاد في النهاية ، ومثال ذلك يوليوس قيصر ذلك البطل العملاق الذي تضاءلت الى جواره بقية الشخصيات في المسرحية التي تحمل اسمه عنوانا . على أية حال فان رووت نفسه يعترف بأن الاشارات الاسطورية المتعمقة في

مسرح سكسبير قليلة العدد نسبيا اذا قيست بالاشارات العابرة ولكن هذه الاشارات القليلة هي التي تضع أيدينا على المصادر الحقيقية لفكر وخيال الشاعر الانجليزى .[٣٦] هذا ونعتقد أن دراسة الاشارات ا لاسطورية السكسبيريه دراسة أكاديمية دقيقة تضع فى الاعتبار تطور طريقة المؤلف الانجليزى فى استخدام هذه الاشارات من مسرحية الى اخرى وتربط هذه الاشارات بمصدرها الكلاسيكى الصحيح ستساعد كثيرا فى حل بعض المشكلات القائمة حول نسبة بعض المسرحيات الى شكسبير . فلو تفهمنا اسلوب الشاعر الانجليزى فى استغلال هذه الاساطير وتطورهذا الاسلوب على مدى فترة النتاجه المسرحى واستطعنا أن نحدد بدقة علاقته بكل من المؤلفين الكلاسيكيين لتمكنا من التمييز بين ما هو سكسبيرى أو غير سكسبيرى من الاشارات الاسطورية وبالتالى من المسرحيات التي تضمها .

●●●

٤ ـ سينيكا ... وبصماته المأساوية

كان سكسبير يرى أن الحياة معركة ملحمية بين قوى الخير وجيوش الشر ، بين النظام والفوضى . وهى معركة تدور رحاها كل يوم حول الانسان فى كل مكان ولكنها تحتدم داخل نفسه أيضا . فبروتوس يتحدث عن نفسه فى مطلع مسرحية « يوليوس قيصر » فيقول « ان بروتوس المسكين وهو فى حرب مع نفسه ... » (ف ١ م ٢ ب ٤٦) . وكان النصر عموما فى هذا المعركة ينعقد لقوى الخير على قوى الشر التى من طبيعتها أن تنطوى على عوامل هزيمتها . لكن انتصار الخير لم يكن ليتم بغير دفع الثمن الذى قد يصل فى بعض الحالات الى ضريبة الموت . وبالتالى فان الميت المنتصر يحقق انتصارا أخلاقيا ومعنويا لا ماديا على الشر الذى قد يظل حيا . والمعركة التى تدور رحاها داخل النفس الانسانية لا يستطيع المرء أن يتجاوزها بنجاح أو يصيب فيها فوزا أن لم يتسلح بسلاح الوعى الكامل والتعقل الشديد ، فهى فى الحقيقة معركة بين الارادة والعقل من جهة والعاطفة والأهواء من جهه أخرى . وهكذا تتضح معالم الصراع التراجيدى فى مسرح سكسبير كعراك ساخن وصدام عنيف بين العقل والعاطفة داخل نفس الانسان . ولكن شكسبير يبعث روحا جديدة فى قالب هذا الصراع التراجيدى التقليدى حين يسلط الأضواء الساطعة على الهمزة الواصلة بين الانسان من ناحية ، والحيوان أو الملاك من ناحية أخرى . فان ذلك يوحى بأن شكسبير يدرك تمام الادراك الأهمية القصوى فى هذا الوجود للانسان الذى يحتل موقع المركز المحورى فى نطاق سلسلة الخلق العظيمة . فمسرحية « هاملت » تتمتع بثراء وحيوية ظاهرتين بفضل وعى شكسبير الباطن بأن الانسان ملاك فى عمله وفعله واله فى وعيه وادراكه ولكنه مع ذلك قادر على اتيان أحقر أنواع السلوك كما أنه معرض للهبوط فى مستنقع أدنأ المخلوقات . يقول هاملت عن أمه التى تعجلت الزواج بعمه « يا أيتها السماء ، ان الحيوان الذى لا يدرك لغة العقل كان يمكن أن يحزن فترة أطول » (ف ١ م ٢ ب ١٥٠ ـ

---

(٣٦) Root, op.cit., pp. 2—13 & passim.

١٥١) فهنا نجد الانسان المتمتع بميزة سماوية ، هي العقل والفهم ، ينحط ويتدهور الى مرتبة أدنأ من مرتبة الحيوان نفسه . وجدير بالذكر أن أم هاملت ـ جيرترود ـ بفعلتها هذه لم ترتكب معصية في حق اللياقة والحشمة الملكيتين ، أو في حق الاسرة والمجتمع فحسب ، بل في حق طبقات الخلائق كلها ، لأنها على الأقل سوت بين نفسها كانسان ، وبين أرذل الحيوان ، فأفسدت التدرج الطبيعي في سلسلة الخلق ، وتسببت في حدوث خلل بالنظام الكوني . هذا ما يفهم من مأساة « هاملت » في إطار خلفيتها الفكرية أي مفاهيم العصر الاليزابيثي حول الانسان والحياة .

ولكننا هنا ينبغي أن نذكر بأن المعركة بين العاطفة والعقل داخل النفس الانسانية كمنبع للمأساوية فكرة موروثة عن الفيلسوف الرواقي سينيكا (حوالي ٤ق.م ـ ٦٥م) الذي يعتبره ت.س.إليوت صاحب أعمق وأوسع تأثير على عقلية العصر الاليزابيثي بصفة عامة وعلى شكل ومضمون التراجيديا في ذلك العصر بصفة خاصة.[٣٧] نعم فلم يلق أي مؤلف لا تيني ـ أو الاغريقي ـ تقديرا واعجابا مثلما لاقى سينيكا آنذاك . فبدت مسرحياته بفلسفتها الرواقية ومبادئها الأخلاقية أكثر اغراء لرجال عصر النهضة من أي وقت سابق أو لاحق . فنهل منها كل أدباء وشعراء العصر الاليزابيثي قدر طاقتهم ، حتى أنه يمكن القول بأن نصف الأشياء المألوفة اليهم ـ وهو النصف الأكثر شيوعاً ـ يرجع في أصوله الى كتابات سينيكا النثرية وتراجيدياته الشعرية . وهذا قول ينسجم مع الحقيقة المعروفة وفحواها أن النهضة الأوروبية بصفة عامة لاتينية الطابع أكثر منها اغريقية . فالأقوال القصيرة التي تأخذ شكل المأثورات أو الحكم (sententiae) والتي ينثر سينيكا فيضا وافرا منها في كل مسرحياته لاقت قبولا هائلا لدى أهل العصر الاليزابيثي ، وذلك قبل أن يتنبهوا الى الحكم الأخلاقية التي يمكن استخلاصها من شعراء المسرح الاغريقي . ويولد المبدأ الأخلاقي في مسرحيات سينيكا من موقف حاسم ، وكان الموت في الأغلب هو ذلك الموقف الذي يعطي الشخصية البطولية فرصة ذهبية لاظهار الفضائل الرواقية وطرح أكبر كمية ممكنة من الأقوال القصيرة التي تذهب مذهب الأمثال . ولقد تلقف كتاب المسرح الاليزابيثي هذا القالب التراجيدي الرواقي من سينيكا بصدر رحب واستحسان نشط مسر ، كما يبدو من انتاجهم الأدبي .

ومن الملاحظ أن تأثيرات سينيكا على المسرح الاليزابيثي سارت في اتجاهات ثلاثة : يتمثل **الاتجاه الأول** في التراجيديا الاليزابيثية الشعبية والثاني في ما يمكن أن نسميه المسرح السينيكاري أو الكلاسيكي الجديد والذي قامت على انشائه وتدعيمه وعرضه صفوة مختارة من المثقفين لم تكن على وئام مع الدراما الشعبية الموجودة أنذاك فقدرت نفسها لمقاومتها . أما **الاتجاه الثالث** فيتمثل في تراجيديات بن جونسون (١٥٧٢ ـ ١٦٣٧) الرومانية ولاسيما « سيجانوس ، سقوطه » (Sejanus, his Fall) التي عرضت عام ١٦٠٣ ولعب شكسبير نفسه أحد

(٣٧) T.S. Eliot, Seneca in Elizabethan Translation,1927 (reprinted in Selected Essays. London 1948 — 9) pp. 65—105
Idem,Shakespeare and the stoicism of Seneca (in Selected Essays) pp.126—140

أدوارها . فبن جونسون مؤلف هذه المسرحية يحاول التوفيق بين الاتجاهين السابقين بهدف تطوير الدراما الشعبية في ضوء الافادة من تراجيديات سينيكا لا عن طريق التقليد الأعمى وانما بالاقتداء به والاقتباس الواعي منه . وبعبارة أخرى كان بن جونسون يميل الى جعل الدراما الشعبية عملا أدبيا صقيلا عن طريق تمريرها عبر مدرسة المسرح الكلاسيكي الجديد . والجدير بالذكر أن بعض تأثيرات سينيكا لم تصل الى المسرح الاليزابيثي فى الجزيرة البريطانية الا عن طريق المسرح الايطالى والفرنسى حيث التصق كتابها بالمؤلف اللاتينى التصاقا متينا . ولقد كان سينيكا جزءا من برنامج الدراسة فى مدارس الدول الأوروبية الناهضة فى وقت كانت فيه التراجيديات الاغريقية شبه مجهولة ، فهى لن تعرف الا بفضل مسرحيات هذا المؤلف اللاتينى . لقد كان الصبية فى المدارس يحفظون بعض أبيات سينيكا المأثورة والتى ربما وجدوا لها صدى فى الدراما الشعبية وسائر الانتاج المسرحى والأدبى لذلك العصر . ومن ثم فاننا عندما نجد أصداء لأقوال سينيكا وأفكاره فى مختلف مسرحيات شكسبير ينبغى أن نرجع أكثرها الى الزاد الثقافى المتداول آنذاك . والذى أجاد الشاعر الانجليزى هضمه وتمثله . المهم أنه مستمد من مائدة سينيكا التراجيدية والروافد التى استضافت معظم كتاب عصر النهضة .

ويتفق جميع النقاد على أن تقسيم المسرحيات الأوروبية إبان عصر النهضة الى خمسة فصول يدين بالفضل لسينيكا . ذلك أن التراجيديا الاغريقية لم تعرف الا الابيسوديا (epeisodia) وهى الأجزاء الحوارية الواقعة بين أغانى الجوقة المستقرة فى الأوركسترا (وتسمى هذه الأغانى ستاسيما stasima وهى غير أغنية الدخول أى البارودوس parodos وأغنية الخروج الاكسودوس exodos) وكان عدد هذه الأبيسوديا متفاوتا غير مستقر من مسرحية الى أخرى من مسرحيات شعراء التراجيديا الاغريق . أما التقسيم الى خمسة فصول فقد اخترعه فارو (١١٦ ـ ٢٧ق.م) الكاتب اللاتينى الموسوعى وقننه الشاعر هوراتيوس (٦٥ ـ ٨ق.م) فى رسالته النقدية المعروفة باسم « فن الشعر » (Ars Poetica أما عنوانها الأصل فهو « رسالة الى أبناء بيسو » (منتصف ١٥ ق . م) Epistula ad Pisones) لقد وضع هوراتيوس التقسيم الى خمسة فصول قاعدة نظرية يجب أن يتبعها كل من يشرع فى كتابة التراجيديا . وترجم كتابه « فن الشعر » الى اللغات الأوروبية الحديثة ، وظهرت مؤلفات عديدة أبان عصر النهضة تقلده أو تقتبس منه . ولقد نقله الى الانجليزية بن جونسون والى الفرنسية بوالو (١٦٣٦ ـ ١٧١١) . ولكن تطبيقات سينيكا ـ لا نظريات هوراتيوس ـ هى التى كان لها أكبر الأثر لأنه قسم الحدث الدرامى فى تراجيدياته الى خمس مراحل تفصل بينها أغانى الجوقة التى لم تعد مرتبطة ارتباطا عضويا بالأحداث كما هو الحال فى التراجيديات الاغريقية . ومن ثم جاءت هذه الأغانى الجوقية بمثابة فواصل بين المراحل الخمس للحدث الدرامى وهو التقسيم الذى أخذت به التراجيديا الأوروبية أبان عصر النهضة .

وفى التسعينات من القرن السادس عشر كان توماس ناش Th. Nashe (١٥٦٧ ـ ١٦٠١) يسخر من

الكتاب الذى ينسخون من سينيكا « المقروء على ضوء الشموع مسرحيات كاملة عن هاملت (Hamlets) متكئين على أحاديثه المأساوية » . جاء ذلك فى معرض حديثه عن رواية « مينافون » (Menaphon) لروبرت جرين R. Greene (١٥٦٠ ـ ١٥٩٢) فى مقال طويل بعنوان « تشريح السخافة » (Anatomie of Absurditie) المنشورة عام ١٥٨٩ عند ظهور هذه الرواية الرومانسية النثرية . ولا شك أن ناش كان يشير الى البصمات المشينة لمسرح سينيكا على عصر النهضة وهى بروز وشيوع « تراجيديا الدم » أو ما يسمونه « مملكة العنف الدموى » . فسينيكا هو المسئول الأول عن مناظرها المرعبة وفظائعها المروعة التى تعد وصمة فنية فى جبين المسرح الاليزابيثى بصفة خاصة . فمن المعروف أن سينيكا لم يراع بدقة المألوف الاغريقى الذى سجله أرسطو وصاغه هوراتيوس كقاعدة ونعنى عدم اراقة الدماء وارتكاب سائر أعمال العنف أمام المشاهدين (coram populo) . ومن المحتمل أن تكون ملابسات عصر الامبراطور نيرون (٥٤ ـ ٦٨ م) التى عاشها سينيكا وخاض غمار مخاطرها الدموية وتورط فى مؤامراتها ودسائسها هى التى انعكست فى مشاهد الرعب بتراجيدياته خروجا على القاعدة الفنية التى وضعها هوراتيوس . وقد تكون حالة المسرح الرومانى نفسه وميل جمهوره الى العنف وراء ابراز هذه المشاهد الدموية على المسرح . لكن المدهش أن سينيكا يحافظ على القاعدة مرة ويخالفها مرات ، ويبدو أنه فعل هذا أو ذاك وفقا لما تقتضيه أحداث كل مسرحية على حدة . فيوكاستى فى مسرحية « أوديب » (أبيات ١٠٢٤ ـ ١٠٣٩) وفايدرا فى مسرحية « هيبوليتوس » (أبيات ١١٥٩ ـ ١٢٠٠) تقتل كل منها نفسها أمام ناظرينا . وتقتل ميديا فى المسرحية التى تحمل اسمها (أبيات ٩٧٠ ـ ٩٧٧ و ٩٩٧ ـ ١٠٠١ و ١٠٠٦ ـ ١٠٠٨ ـ و ١٠١٨ ـ ١٠٢٥) ولديها ، وتلقى بجثتيهما الى زوجها ووالدهما من فوق عربتها السحرية ، ويحدث كل ذلك علنا على المسرح وأمام المشاهدين . ولكن أوديب فى المسرحية المعنونة باسمه لا يفقأ عينيه أمام النظارة (أبيات ٩١٥ ـ ٩٧٩) . وفى مسرحية واحدة هى « هرقل مجنونا » يقتل البطل أبناءه أمام الجمهور . ولكنه يبعث بزوجته ميجارا وعدوه ليكوس الى عالم الموتى من وراء الكواليس (أبيات ٩٨٧ ـ ١٠٠٢ وقارن ١٠١٨ و ١٠٢٤ ـ ١٠٢٦) . ولكننا الى جانب هذه المشاهد الدموية فى مسرح سينيكا نلاحظ أن المؤلف بصفة عامة تعمد استخدام الفاظ العنف وما شابهها وتجانس معها من تعبيرات وتشبيهات وصور شعرية . بل تعمد إختيار موضوعات تقوم على العنف والانتقام وما الى ذلك من الأعمال الغريبة والعلائق الشاذة كأن يقتل الابن أمه أو يتزوج منها وينجب أو يتغذى الأب على لحم أطفاله ؛ وكان الهدف الرئيسى لسينيكا هو احداث صدمة أخلاقية لدى المتفرج تمهد الطريق لتلقينه الدرس الرواقى المناسب .[٣٨]

وظهرت بوادر الاعجاب بمسرح سينيكا الحافل بالدم والانتقام منذ بداية عصر النهضة فى ايطاليا ، مرورا بالمسرح الاسبانى والفرنسى ، حيث نجد أصداء خفيفة لهذا الميل نحو العنف ، ولكن مملكة مسرح الدم والانتقام

---

(٣٨) Etman, The Problem of Heracles Apotheosis, pp.320—343

ازدهرت فى العصر الاليزابيثى . ولعل أفضل درة فى تاج هذه المملكة الدموية هى مسرحية « المأساة الاسبانية » (The Spanish Tragedy) لتوماس كيد (١٥٥٨ ؟ ـ ١٥٩٤ ؟) والتى عرضت عام ١٥٩٢ وطبعت عام ١٥٩٤ . ولكنها من ناحية أخرى تعتبر المسرحية التى دعمت فن التراجيديا على خشبة المسرح الشعبى ابان العصر الاليزابيثى ، فهى بحق فاتحة عهد جديد لهذا الفن ، كما أنها أكثر مسرحيات العصر تأثرا بسينيكا وتشيعابروحه .[٣٩] وتبدأ هذه المسرحية وتنتهى بظهور شبح القتيل أندريا والانتقام (Revenge) مجسدا . اذ لايرتاح لهما بال طوال الحدث الدرامى الا بعد موت كل الأبطال الرئيسيين فى المسرحية ـ بالقتل أو الانتحار ـ فيبلغ عدد الموتى فى النهاية حوالى تسعة ضحايا ، يتساقط الواحد منهم بعد الآخر أمام الجمهور على خشبة المسرح ! ولكن « الانتقام » لم يكتف بهذا العدد المكدس من الجثث ، ولا يأبه الدم التى سالت فيختتم المسرحية مهددا أعداءه القتلى قائلا « وسأبدأ هناك مآساتهم الحقيقية الى مالانهاية » !

ويتحمل سينيكا مسئولية تقديم هذه المشاهد البشعة على خشبة المسرح وتقع عليه أيضا مسئولية الطنطنة الخطابية الموجودة فى أسلوب مؤلفى المسرح الاليزابيثى . نقول ذلك مع أننا نضع فى الاعتبار تحذيرات ت.س. اليوت من الاسراف فى تأكيد أو إنكار هذه المسئولية بصفة مطلقة .[٤٠] لقد جمعت الكونتيسة بيمبروك (١٥٦١ ـ ١٦٢١) أخت السير فيليب سيدنى حولها زمرة من رجالات الأدب الذين تأثروا بروبير جارنييه (١٥٣٤ ـ ١٥٩٠) حامل لقب « سينيكا الفرنسى » لدى النقاد ، فترجمت هى نفسها تراجيديته بعنوان « مارك انطوان » (Marc Antoine) المعروضة فى فرنسا عام ١٥٧٨ وأعطتها عنوان « انطونيوس » (Antonius) وعرضت بانجلترا عام ١٥٩٠ . وعاش فى ظل حماية الكونتيسة بيمبروك ورعايتها كل من صمويل دانيل (١٥٦٢ ـ ١٦١٩) ونيكولاس بريتون (١٥٤٥ ؟ ـ ١٦٢٦ ؟) وبن جونسون وتوماس كيد وغيرهم . وبعد أن قدم الأخير مسرحية « المأساة الاسبانية » التى أسلفنا الحديث عنها وعن أهميتها فى تطوير الفن الدرامى أبان العصر الاليزابيثى قام باعداد مسرحية روبير جارنييه « كورنيليا » (Cornelie) للعرض وهى تراجيدية مأخوذة من التاريخ الرومانى وتدور حول كورنيليا زوجة بومبى الأكبر وظهرت فى فرنسا فيما بعد عام ١٥٦٨ . وتذكرنا هذه التراجيدية بمسرحية سينيكا التاريخية (fabula praetexta) « أوكتافيا » رغم اختلاف الموضوع والشخصيات . وجدير بالذكر أن مسرحية سينيكا هذه هى الوحيدة الباقية من نوعها فى المسرح الرومانى القديم . ولقد راعى جارنييه عند تأليف هذه المسرحية قانون الوحدات الثلاث بدقة متناهية كما أنه حرص على الا تضم هذه المأساة أية لمسة كوميدية بهدف التخفيف أو الترويح . وتلك هى نفس السمات تقريبا التى نجدها فى تراجيديتى صمويل دانيل « كليوباترا » (Cleopatra) المعروضة عام ١٥٩٣ تقريبا ـ

---

(٣٩) C. Ludowyk, Understanding Shakespeare (Cambridge 1964) pp. 65—66.

(٤٠) انظر حاشية رقم ٣٧

والتي ستعود للحديث عنها وعن كل المسرحيات التي ظهرت في عصر النهضة وعالجت شخصية هذه الملكة البطلمية[٤١] ـ « وفيلوتاس » (Philotas) المعروضة فيا بين ١٦٠٠ ـ و ١٦٠٤ والمنشورة عام ١٦٠٥ فهما مسرحيتان مرسومتان على النمط السينيكاوي .

الا اننا نرجح أن تأثيرات سينيكا على شكسبير لا تعود بصفة أساسية الى الدراما الفرنسية الكلاسيكية وانما أصلا الى اتصال الشاعر الانجليزي بالفيلسوف الروماني مباشرة وبدون أي توسط . فمن المؤكد أن شكسبير قد قرأ سينيكا وربما رجع الى الأصل اللاتيني باستمرار ولم يكتف بالترجمة الانجليزية للعشر تراجيديات (Tenne Tragedies) المنسوبة للكاتب الروماني والتي ظهرت مجتمعة في عام ١٥٨١ . وكانت « الطروادبات » (Troades) قد طبعت عام ١٥٥٩ و « ثيستيس » (Thyestes) عام ١٥٦٠ و « هرقل مجنونا » (HerculesFurens) عام ١٥٦١ منقولة الى الشعر الانجليزي مع خمس مسرحيات أخرى للمؤلف الروماني ظهرت ترجمتها متفرقة فيا بين عام ١٥٥٩ و ١٥٦٧ وتعزى ترجمتها جميعا الى جيسبر هيوود (Jasper Heywood) . كما ترجم الكسندر نيفيل (Alexander Nevyle) « أوديب » (Oedipus) عام ١٥٦٠ ونشرت عام ١٥٦٣ وترجم توماس نوس (Thomas Nuce) « أوكتافيا » (Octavia) عام ١٥٦٢ وطبعت عام ١٥٦٦ . وترجم جون ستدلي (John Studley) « ميديا » (Medea) و « أجاممنون » (Agamemnon) أيضا في نفس العام أي ١٥٦٦ . وظهرت « هيبوليتوس » (Hippolytus) عام ١٥٥٦/١٥٥٧ ثم ترجم توماس نيوتون (Thomas Newton) مسرحية « الفينيقيات » (Phoenissae) بعنوان « الطيبية » (Thebais) وضمها الى ترجمة المسرحيات السابقة ونشرها مجتمعة في الطبعة التي أشرنا اليها والتي ظهرت عام ١٥٨١ .

ويورد الدارسون فقرات بعينها من مسرحيات شكسبير على أنها مستعارة من سينيكا . وهي فقرات كثيرة وتتزايد بصفة مستمرة بتكاثر الدراسات . الا أن لوكاس (F.L.Lucas) وهو من أبرز المهتمين بهذا الموضوع يحذر من المبالغة في التركيز على هذه النقطة والشطط في استخراج النتائج وتعميمها[٤٢] . فهو يقول على سبيل المثال أن سينيكا كان فعلا مغرما بالأشباح فأظهرها كثيرا في مسرحه ، فضلا عن أنه سلط الأضواء على أعمال العنف وقدم بعضها امام النظارة كما سبق أن ألمحنا ومع ذلك ـ على حد قول لوكاس ـ فمن غير المنطقي او المعقول أن يهتف المرء باسم سينيكا كلما صادف عنفا أو واجه شبحا على المسرح الاليزابيثي . فلم تكن الاشباح وأعمال العنف في المسرح الكلاسيكي القديم حكرا على سينيكا . فهناك أشباح ظهرت في مسرحيات أيسخولوس

---

(٤١) د كليوباترا وأنطونيوس . دراسة في فن بلوتارخوس وشكسبير وشوقي » عنوان كتاب لنا على وشك الصدور من المركز العربي للبحث والنشر بالقاهرة وفيه نعالج بالتفصيل المقارن المختلفة لمسرحية « أنطوني وكليوباترا » لشكسبير و « مصرع كليوباترا » لأحمد شوقي .

(٤٢) F.L. Lucas, Seneca and Elizabethan Tragedy (Cambridge University Press 1922) pp.122—3

ويوريبيديس وغيرهم . والمسرح الاغريقي ملىء بأعمال العنف ولكنها كانت تروى وتوصف ولا تؤدى أمام المتفرجين . ومع ذلك فان شبح « هاملت » هو بلا جدال من فصيلة أشباح سينيكا وله علاقة وثيقة بشبح تانتالوس في مسرحية « ثيستيس » كما أن علاقته بشبح لايوس في مسرحية « أوديب » وطيدة وواضحة تماما . ولكن ما ينبغى أن نضعه في اعتبارنا ولا ننساه أبدا هو أن هذا الطراز من الاشباح السينيكاوية كان قد أصبح شيئا مألوفا وطبيعيا ، ليس فقط على خشبة المسرح الفرنسى الكلاسيكى الجديد ، وانما أيضا في انجلترا نفسها وعلى خشبة المسرح الاليزابيثى بالذات وابان عصر شكسبير الذى لم يكن بحاجة ماسة لا ستيراده من روما القديمة مباشرة بعد أن صار بضاعة يتداولها جميع المؤلفين الدراميين .

ولكن هذا لايعنى أن شكسبير لم يقرأ النص اللاتينى لسينيكا . ان الشاعر الانجليزى قد قرأ دون شك مسرحيات سلفه اللاتينى في المدرسة ، وحتى لو سلمنا ـ جدلا ـ بأن هذا لم يحدث فمن الطبيعي أن يتجه شكسبير الى ما كان قد أصبح ابان عصر النهضة في ايطاليا وفرنسا وانجلترا الأنموذج الكلاسيكى لكتابة التراجيديا ، ونعنى مسرحيات سينيكا العشر . فلا غرو اذن ان يتبنى شكسبير بعض أساليب سينيكا ، وان يأخذ فقرات بينهاته ، ويستعمل بعض تشبيهاته ويستلهم الأساطير التى وجدها عنده . واذا كانت الاشارات الاسطورية المتكررة تعد سمة مقلقة ومعوقة للتواصل الدرامى الساخن في مسرحيات سينيكا وفي بعض انتاج العصر الاليزابيثى فانها عند شكسبير تذوب في زخم الدراما الدفاقة ، ولا تعوق المشاهد أو القارىء عن متابعة الاحداث وفهم الحوار . ومن الجدير بالذكر هنا أن بطل سينيكا الرواقى الكامل أى هرقل قد فاز بخمسين[٤٣] اشارة شكسبيرية في مختلف المسرحيات ، بل ان الشاعر الانجليزى يشير الى شخصية ثانوية في اسطورته وهى ليخاس الخادم وذلك في مسرحية « تاجر البندقية » (ف ٢ م ١ ب ٣٢) وفي « أنطونى وكليوباترا » (ف ٤م ١٢ ب ٤٣ ـ ٤٥) .

ولكي تثبت للقارىء أهمية الالمام بالخلفية الكلاسيكية بصفة عامة وبمسرحيات سينيكا بصفة خاصة قبل الشروع في دراسة شكسبير نقتطف مْن مسرحية « أنطونى وكليوباترا » فقرة صغيرة وردت على لسان قيصر إذ يخاطب رسوله تيدياس وهو على وشك التوجه الى كليوباترا للتفاوض معها (ف ٣م ١٢ب ٢٩ ـ ٣١) :

"Women are not
In their best fortunes strong but want will perjure
The ne'er touched vestal"

ويترجم الاستاذ محمد عوض ابراهيم (دار المعارف بمصر) هذه الأبيات قائلا « فان النساء عندما يصل بهن الحظ الى القمة لا يكن قويات ولكن الحاجة قد تجعل أقدس القديسين يحنث في أيمانه ويخون عهوده » . ومع أنها

(٤٣) Root, op.cit., pp.71—74

قد تكون ترجمة حرفية الا انها مضللة والسبب ـ في رأينا ـ هو عدم المام المترجم بالخلفية الكلاسيكية للمؤلف ، فمفتاح هذه العبارة كلها يقع في كلمة vestal المشتقة من اللفظة اللاتينية Vesta وتعنى « ربة النار » التي كان مقرها الأول ومعبدها الرئيسي هو « الموقد » داخل كل منزل روماني ، ثم أقيم لها معبد كبير هو بمثابة « موقد الدولة » الذي كانت توقد فيه النار على مدار السنة ليل نهار ، فيما عدا اليوم الأول من مارس ، وهو بداية السنة في التقويم الروماني القديم . وترمز النار هنا الى الحياة والخصوبة والطهارة والخلود ، وكان يقوم على رعايتها عذارى يطلق عليهن لقب vestales أي « عذارى فيستا » والتي جاءت منها اللفظة الانجليزية vestal . وكن في الأصل يمثلن بنات الملك ابان العصر الملكي في روما (٧٥٣ ـ ٥١٠ق.م) وينحدرن من طبقة النبلاء وكان عددهن أربعة أزداد الى تسعة فيما بعد . وكن يقمن في منزل خاص بهن على مقربة من السوق العامة (الفوروم Forum) ويسمى هذا المنزل « دار فيستا » (Atrium Vestae) وكان على عذراوات فيستا أن يبقين هكذا طاهرات دون أن يمسهن رجل طيلة مدة الخدمة ـ أي لمدة ثلاثين عاما ـ فان فقدت احداهن طهارتها وضيعت عذريتها دفنت حية تحت الأرض ! أما اللاتي يحتفظن عذريتهن طوال الثلاثين عاما فكن يقرن في النهاية بالعودة للحياة العامة الطبيعية والتمتع بكل مزاياها . والجدير بالذكر أن بلوتارخوس تحدث عنهن وعن طقوسهن بالتفصيل في ثنايا السيرة التي كتبها للملك الروماني نوما (Numa) الذي أسس طقوس هذه العبادة . وهكذا يتضح أن شكسبير قد أفاد من اطلاعه على اسطورة وطقوس فيستا عند بلوتارخوس أو غيره ليصور مفهوم قيصر عن المرأة . وعلى أية حال فان الترجمة التي أوردناها لاتسبر أغوار شكسبير ولا تجعلنا نلمس الا السطح من أفكاره وأساليبه . وربما تكون ترجمتنا التي نوردها الآن أقرب الى روح شكسبير وهى كما يلي « أن النساء لسن قويات في مقاومتهن ، حتى لو كن في أحسن حالاتهن من الحظ ، ولكن الحاجة قد تدفع أكثر العذارى قدسية وطهرا الى نقض المواثيق الالهية » .

أما عن الصلابة الرومانية والروح الرواقية التي تمكن صاحبها من الوقوف في وجه القدر ومصارعته ، بل والتغلب عليه واحتقاره ، فنجدها فيما يقوله أنطونيوس شكسبير لجنوده الذين يحملونه نصف ميت الى كليوباترا باكين محزونين ، يقول لهم « لا يارفاقي الطيبين لاترضوا غرور القدر القاسي (fate) فيسعد بحزنكم ، أن ترحيبنا بما يأتي لعقابنا يجعلنا نحن المعاقبين له ولا سيما اذا احتقرناه » (« انطوني وكليوباترا » ف ٤ م ١٤ ب ١٣٤ ـ ١٣٧) . وعندما يسأل قيصر بومبي عن سر التغير الذي يطرأ عليه منذ أن ساعده في المرة الأخيرة يقول بومبي « لا أدرى ما خطه القدر القاسي (fortune) على جبيني ولكنه لن يصل قط الى قلبي لكي يستعبده » (نفس المسرحية ف ٢ م ٢ ب ٥٣ ـ ٥٦) . وفكرة انتصار البطل التراجيدي على القدر انتصارا أخلاقيا ، رغم الهزيمة المادية التي يلقاها ظاهريا والمتمثلة في أغلب الأحيان في موته ، هي فكرة رواقية ، فالبطل الرواقي هو الانسان الذي لا يقهر أمام القهر والألم أو حتى أمام الموت والقدر ، لأنه في المقام الأول قهر نفسه وصار سيدها وسيد مصيره وقدره . قد يموت في النهاية ولكن هذا الموت نفسه هو الشهادة التي لا تقبل الانكار على انتصار

البطل الميت الذى قهر الخوف فى نفسه وتغلب على قوى الشر فى نفوس الأحياء . وتقوم مسرحيات سينيكا كلها دون استثناء على هذه الفكرة الرواقية التى اكتسبت بعدا مأساويا جديدا بارتباطها بالشخصيات الاسطورية وأبطال التراجيديا الاغريقية أمثال أوديب وهرقل وفايدرا وغيرهم .

وسيجد الباحث عن العنصر الرواقى فى مسرحيات شكسبير أمثلة كثيرة جدا لا مفر من أن نعتبرها أصداء لأفكار كاتب المأساة الرواقية الاول سينيكا وترديدا لأقوال أبطاله . بل ان العبارات التى اقتطفناها توا من مسرحية « أنطونى وكليوباترا » ـ على سبيل المثال ـ يمكن أن نجد لها نظائر كثيرة فى مسرحيات سينيكا . فلنسمع مثلا لجزء من أغنية الجوقة فى « هرقل فوق جبل أويتا » (ب ١٠٤ ـ ١١١) « انه قرين للآلهة الأعلين ذلك الرجل الذى ملك الحياة والحظ (Fortuna) على حد سواء . أما أولئك الذين تمضى حياتهم ببطء وهم يتألمون فالحياة بالنسبة لهم هى الموت . وكل من يضع الأقدار (Fata) الغدارة تحت قدميه وكذا القارب الذى يبحر فوق النهر البعيد للغاية (الموت) لن يسلم قط يديه أسيرتين للسلاسل ولن يسير كثرة الأسلاب فى موكب نصر (الأعداء) . ليس بائسا قط من تيسرت له سبل الموت » وهذا مثل واحد من أمثلة لا حصر لها فى كل مسرحيات سينيكا تردد نفس المعنى . المهم أن ننتبه للتشابه الواضح بين مثل هذه الأقوال وما يرد على لسان أبطال شكسبير ، وهى مشابهة تكاد تكون حرفية فى بعض الأحيان (وفيها) تتكرر بصفة خاصة كلمات معينة ـ مميزة لمسرح سينيكا ـ مثل « احتقار » أو « هزيمة » « ربة الحظ » أو « ربة القدر » (Fortune ـ Fortuna) وقهر « الأقدار » أو « المقدر » (Fates ـ Fata) . وهنا أيضا ينبغى أن نتذكر ما سبق أن ألمحنا اليه أى فكرة « عجلة الحظ » الاغريقية . فمن المقطوع به أن شكسبير أخذ هذه الفكرة عن سينيكا وليس عن مؤلفى المسرح الاغريقى ، فالكاتب الرومانى كان هو الأكثر شيوعا وتأثيرا فى العصر الاليزابيثى .

هكذا كان سينيكا بالنسبة لكتاب الدراما الاليزابيثية مخزونا لا ينضب معينه من الشخصيات والمواقف والأفكار . وكانت مسرحياته هى النماذج التى ينبغى الاقتداء بها فى تصوير وتجسيد مشاهد الرعب . ولذلك كثر ظهور الأشباح والساحرات فى المسرح الاليزابيثى . وأخذ عن سينيكا أيضا فن الحوار السريع سطرا بسطر أو بيتا ببيت (stichomythia) أو حتى تشطير البيت بين المتحاورين (antilabe) وهذا أمر شديد الوضوح فى مسرحية شكسبير « ريتشارد الثالث » وهى المسرحية التى رسم شكسبير حبكتها الدرامية وبطلها على منوال أبطال سينيكا . واذا كان شكسبير لا يقتطف من كتابات سينيكا سوى فى مسرحية « تيتوس أندرونيكوس » (ف ٢ م ١ ب ١٣٣ وما يليه وقارن مسرحية « فايدرا » لسينيكا ، ب ١١٨٠ . أنظر كذلك ف ٤ م ١ ب ٨١ ـ ٨٢ وقارن نفس المسرحية لسينيكا ب ٦٧١ ـ ٦٧٢) . واذا كان بعض النقاد يتشككون فى نسبة هذه المسرحية لشكسبير فان هذا لا يعنى التقليل من حجم وأهمية تأثير سينيكا على الشاعر الانجليزى . فتأثيره واضح تماما فى

رؤية شكسبير المأساوية للحياة والناس وفى تكنيكه الدرامى . فمن الملاحظ أن القدرية اليائسة تسيطر على أفضل تراجيديات شكسبير وأروعها . وهذا موقف يعد أكثر تشاؤما من الصراعات التطهيرية فى التراجيديا الاغريقية وأقرب الى روح سينيكا . وليست هناك « حكومة كونية » واضحة المعالم فى مسرحيات شكسبير اللهم الا اذا اعتبرناه يشير اليها بابراز حقيقة أن الأشرار فى النهاية يلقون جزاءهم أو أن بعض الأبطال يتحدثون عن الحياة التى يسيرها قدر لا إنسانى ولا راد لحكمه . ولكنه بلا معنى (انظر « ماكبث » ف ٥ م ٥ ب ١٩ وما يليه و« هاملت » ف ٥ م ٤ ب ٢٣٢ وما يليه) . ونرى فى مسرحيات شكسبير دائما شخصيات تصرخ بمرارة ضد شرور البشر ولا سيما من لا يصلحون للحياة (قارن « تيمون الأثينى » ف ٤ م ١ ب ١ وما يليه) . ولكن الصرخات الأكثر اثارة هى تلك التى تصدر ضد الآلهة « الذين يتسلون بقتلنا » (« الملك لير » ف ٤ م ١ ب ٣٦ وما يليه) . ولا يمارى أحد فى أن شكسبير يصدر فى هذه الرؤية المأساوية للحياة عن تجربته الشخصية ووجدانه الذاتى ولكن هذا لا ينفى أنه قد وجد نفسه فى التشاؤم الرواقى المميز لفن سينيكا التراجيدى . ولننظر ماذا يقول سينيكا فى مسرحية « فايدرا » (أو « هيبوليتوس » ب ٩٧٨ ـ ٩٨٢) :

"res humanas ordine nullo
Fortuna regit sparsitque manu
munera caeca , peiora fovens;
vincit sanctos dira libido,
fraus sublimi regnat in aula"

« تحكم ربة الحظ (فورتونا) الأمور الانسانية بلا نظام
وبيد عمياء تبعثر (بين الناس) هداياها
فهى تحنو على الأسوأ
بينما الشهوة الضارية تقهر الأطهار
والجريمة تجلس على عرشها فى عالى القصور »

ولعل مسرحية « ماكبث » هى أكثر مسرحيات شكسبير تشبعا بروح سينيكا فهى مسرحية السحر والنبوءات والأشباح والقتل والجنون . ويمكن أن نتثبت من ذلك اذا قارنا بعض المواقف والأقوال فى هذه المسرحية بأمثالها فى مسرحية « فايدرا » و« هرقل مجنونا » لسينيكا على سبيل المثال .

يقول ماكبث القاتل وقد تلوثت يداه بدماء الملك القتيل :

"Will all great Neptune's ocean wash this blood
Clean from my hand ? No, this my hand will rather
The multitudinous seas incarnadine "

ثم تعود ليدى ماكبث لتردد نفس المعنى قائلة :

" All the perfumes of Arabia will not sweeten this little hand "

(ف ٢ م ٢ ب ٦١ وما يليه ثم ف ٥ م ١ ب ٥٦)

« هل يستطيع محيط نيبتونوس (اله البحر) العظيم أن يغسل هذا الدم ويطهر يدى منه ؟ لا ، بل ان يدى هذه هى التى ستحيل البحار المتكاثرة دموية اللون »

أما كلام ليدى ماكبث فمعناه :

« ان كل العطور العربية لن تقدر على ازالة رائحة الدم من هذه اليد الصغيرة »

ولنضع هذه الأقوال جنبا الى جنب مع صرخات هيبوليتوس الطاهر العفيف عندما حاولت فايدرا زوجة أبيه اغواءه :

" Quis elvet me Tanais aut quae barbaris
Maeotis undis Pontico incumbens mari ?
non ipse toto magnus Oceano pater
tantum expiarit sceleris. "

(سينيكا : « فايدرا » ب ٧١٥ ـ ٧١٨)

« أى تانايس (نهر فى سارماتيا اسمه الحديث « الدون ») سيطهرنى ؟ وأية مايوتيس (بحيرة تسمى الآن بحر آزوف) التى تصب فى بحر بونتوس بأمواجها البربرية تلك ستطهرنى ؟ لا ... ولا الأب العظيم نفسه بكل محيطه يستطيع أن يمحو مثل هذه الجريمة . »

ولا يخفى على القارىء التشابه الواضح بين الفقرتين . ولقد تكرر هذا المعنى كثيرا فى كل مسرحيات سينيكا وللتدليل على ذلك نكتفى بالاشارة الى تلك الفقرة فى « هرقل مجنونا » حيث يقول هرقل بعد أن قتل زوجته وأبناءه فى احدى نوبات جنونه (ب ١٣٢٣ ـ ١٣٢٩) :

" Quis Tanais qut quis Nilus aut quis Persica
violentus unda Tigris aut Rhenus ferox
Tagusve Hibera turbidus gaza fluens
abluere dextram poterit ? Arctoum licet
Maeotis in me gelida transfundat mare
et tota Tethys per meas currat manus,
haerebit altum facinus. "

« أى تانايس وأى نيل وأى دجلة ذلك النهر الجارف بوجته الفارسية ، وأى راين ذلك النهرالمتوحش ، وأى تاجوس (نهر فى لوسيتانيا مازال يحمل نفس الاسم وان كان يسمى أحيانا تيجو Tejo) الذى يتدفق مضطربا بكنزه الاسبانى (أى برماله الصفراء) ، أي من هذه الأنهار يوسعه أن يطهر يداى ؟ أن بحيرة مايوتيس الجليدية نفسها لاتستطيع ذلك وان صبت على بحرها الشمالى ، لا ولا حتى تيثيس (زوجة أوكيانوس وأم كل قوى البحر الربانية) كلها بقادرة على تطهيرى وان جرت بحارها عبر يداى لأن الاثم عالق فى أعماقى » .

وقبل أن نترك هذه الفقرات المقارنة بين سينيكا وشكسبير ينبغى أن ننوه الى أنه من الواضح أن شكسبير قد استعار هذا المعنى وتلك الأقوال من الشاعر اللاتينى ولكنه أدخل عليها من التهذيب والتشذيب الكثير فخلصها من المبالغات التى يتميز بها العصر الفضى فى الأدب اللاتينى وتتجسد فى كل كتابات سينيكا . وهكذا جاء تعبير شكسبير أكثر رشاقة وملاءمة للعمل الدرامى .

وبعد أن انتهى ماكبث من تنفيذ كل جرائمه يقول (ف ٥ م ٣ ب ٢٢ وما يليه) :

" I have lived long enough : my way of life
Is fallen into the sear, the yellow leaf ;
And that which should accompany old age,
As honour, love, obedience, troops of friends,
I must not look to have. "

وفى نفس المشهد يضيف ماكبث (ب ٤٠) متسائلا :

" Canst thou not minister to a mind diseased ? "

« لقد عشت ما فيه الكفاية ، وأدى أسلوبى فى الحياة الى الأوان الجديب ، نحو صفر الأوراق ولكن ينبغى أن لا أطمع فيما يصحب المشيب ، فلا حشود من الأصدقاء حولى ولا شرف ولا حب ولا طاعة لى »

أما التساؤل الاضافى فمعناه :

« وهل تستطيع أن تشفى عقلا مريضا ؟ »

فاذا رجعنا الى سينيكا وجدنا هرقل المجنون عنده يقول بعد أن عاد الى وعيه متندما على جريمة قتله لكل أفراد أسرته (« هرقل مجنونا » ب ١٢٥٨ ـ ١٢٦٢) :

" Cur animam in ista luce detineam amplius
morerque nihil est : cuncta iam amisi bona,

mentem arma famam coniugem gnatos manus,
etiam furorem. nemo polluto queat
animo mederi : morte sanandum est scelus "

« لماذا على أن أحتفظ بروحى لمدة أطول فى ذلك الضوء (أى الحياة الدنيا) فلا شىء يعوقنى ، لقد فقدت كل الأشياء الطيبة بالفعل : العقل ، والسلاح ، السمعة والزوجة ، الأبناء والقوة ، بل حتى الجنون ! فلا أحد يستطيع أن يداوى روحا أصيبت بالتلوث ، وينبغى أن نعالج الجريمة بالموت »[44]

●●●

٥ ـ كلاسيكيات شكسبيرية فى المسرحيات غير الكلاسيكية

هناك ثلاثة اتجاهات رئيسية فى النتاج المسرحى للعصر الاليزابيثى بصفة عامة ولشكسبير بصفة خاصة . الأول هو الاغتراف من زاد الثقافة الشائع بعصر النهضة فى غرب أوروبا . والثانى هو معالجة التاريخ الانجليزى مع التركيز على الحكم الملكى وطبقة النبلاء . أما الاتجاه الثالث وهو الذى يشغلنا بصفة خاصة فهو استلهام التاريخ والأساطير الاغريقية الرومانية . ويضم هذا الاتجاه اثنى عشر عملا من أعمال شكسبير الا اننا سنؤجل الحديث عن هذه الأعمال بعض الوقت لتتسنى لنا فرصة ملاحقة التأثيرات الكلاسيكية فى الأعمال الأخرى .

(٤٤) قارن كذلك ما بين الفقرات التالية :

شكسبير « ماكبث » ف١ ـ م ٧ ب٧ وما يليه وسينيكا « هرقل مجنونا » ب ٧٣٥ ـ ٧٣٦ وكذلك « ماكبث » ف ٤م ٣ ب ٢٠٩ وما يليه مع فايدرا » سينيكا ب ٦٠٧ وهو بيت محبب لدى الاليزابيثيين ونصه كما يلى : ـ

' Curae leves loquuntur, ingentes stupent '

ومعناه « ان المتاعب الخفيفة تتحدث عن نفسها أما الثقالة منها فهى بكماء » .

هذا ونذكر القارىء بأننا أرجأنا الحديث عن تأثير بلوتارخوس على شكسبير بالتفصيل الى أن يصدر كتابنا المشار اليه فى الخاتمة رقم ٤١ ولن كنا سنتعرض لذلك فى ثنايا هذه الدراسة بشىء من الايجاز وعن تأثير سينيكا على مسرح عصر النهضة بصفة عامة والمسرح الاليزابيثى بصفة خاصة نحيل القارىء للمراجع التالية :

John W. Cunliffe, The Influence of Seneca on Elizabethan Tragedy (Archon Books, Hamden — Connecut tucit 1965 repr.) passim
P. Bacquet (et alii), Les Tragedies de Seneque et le Theatre de la Renaissance. Editions du Centre Nationale de la Recherche Scientifique, Seconde edition, Paris 1973, passim.

« . أحمد عتمان : فايدرا . دراسة نقدية مقارنة حول مسرح كل من يوريبيديس وسينيكا وراسين » مجلة الكاتب ، القاهرة عدد رقم ١٨٩ (ديسمبر ١٩٧٦) ص ٦٢ ـ ص ٨٣ وعدد رقم ١٩٠ (يناير ١٩٧٧) ص ٣٦ ـ ص ٤٤ .

فنحن نؤمن بأن الكلاسيكيات المترجمة وغير المترجمة كانت من المنابع الرئيسية التي نهل منها شكسبير وهو يصوغ مسرحياته وأشعاره . كما أن الثقافة الكلاسيكية التي أصبحت في عصره تشكل الغذاء الروحي الرئيسي لرجالات الادب والفكر هي جزء لا يتجزء من تكوينه الذهني والوجداني ، ومن ثم فاننا لو تفحصنا كل انتاجه المسرحي والشعري بدقة لوضعنا أيدينا على تأثيرات كلاسيكية خفية أو ملموسة هنا أو هناك ، حتى في المسرحيات أو الأشعار التي لا تقوم على موضوع كلاسيكي . وبعبارة أخرى فاننا لو سلمنا بحقيقة اعجاب شكسبير بالتراث الاغريقي الروماني ينبغي أن نقبل بالضرورة النتيجة البديهية المترتبة على تلك الحقيقة . وفحواها أنه لا توجد مسرحية واحدة من مسرحيات شكسبير ، ولا قصيدة من قصائده ، الا وقد مسها التأثير الكلاسيكي بصورة أو بأخرى تاركا عليها بصماته . وذلك أن ثقافة المؤلف المسرحي تنسحب آثارها على كل انتاجه ، فلا يمكن الفصل بين عمل وآخر من حيث علاقته بهذه الثقافة . وفي حالة شكسبير بالذات ، ذلك الفنان المبدع الذي يهضم ما يقرأ ويتمثله ثم يفرزه بعد ذلك خلقا جديدا ، نجد أنفسنا في الموقف الصعب فلا نتمكن ـ كما أنه ليس مطلوبا منا ـ أن نرجع كل صغيرة وكبيرة في مسرحياته الى أصولها بدقة وبالتالي فاننا لن نستطيع أن نحصي كل الجزئيات من عبارات وأفكار وصور شكسبير التي تحمل تأثيرات كلاسيكية ، فلسنا بصدد تشريح جسم مادي وانما نحن إزاء نتاج وجداني نتعثر كثيرا في تحليله بحكم تكوينه . صفوة القول أننا سنحاول أن نتعرف على البصمات الكلاسيكية في أعمال شكسبير التي لا تقوم على موضوع كلاسيكي ، واضعين في الاعتبار أنه قد يفوتنا الكثير وقد تخفى علينا أشياء وأشياء الا أنه لا يمكن مقاومة مابهذه المحاولة من اغراء .

لقد استمد شكسبير موضوع بعض المسرحيات التاريخية من الموسوعة التي شرع الناشر ريجنالد وولف في اعدادها وتبويبها للاحاطة بأخبار العالم القديم والجديد ثم مات قبل إتمامها ولم تظهر منها غير الأجزاء الخاصة بالجزر البريطانية أهمها ما كتبه رفائيل هولينشيد (مات حوالي ١٥٨٠) حتى أن هذه الموسوعة التاريخية أو « الحوليات » (Chronicles) عرفت باسمه . وظهر منها « تاريخ انجلترا » (Historie of England) بقلم هولينشيد نفسه ثم « وصف انجلترا » (Description of England) بقلم وليام هاريسون (١٥٣٤ ـ ١٥٩٣ واليه تعزى أيضا ترجمة نسخة بيللندن (Bellenden) الاسكتلندية لكتاب بويس (Boece) وعنوانه « وصف اسكتلندا » (Description of Scotland) والذي ظهر ضمن موسوعة هولينشيد حيث نشرت لأول مرة عام ١٥٧٧ وأعيد طبعها عام ١٥٨٦ . وكان كتاب بويس قد ظهر عام ١٥٢٦ ـ ١٥٢٧ مكتوبا باللغة اللاتينية . فالمؤلف المعروف باسم بويس هو في الحقيقة هيكتور بوائيوس (Hector Boethius ١٤٦٥ ؟ ـ ١٥٣٦) من مواليد دندي (Dundee) وأحد طلاب جامعة باريس حيث أصبح استاذا بها في وقت لاحق . ولقد شمله تاريخ اسكتلندا « الفترة الممتدة من البداية حتى اعتلاء جيمس الثالث (James III) العرش . وضم هذا التاريخ روايات شبه اسطورية كثيرة من بينها قصة ماكبث ودنكان . ومن المؤكد أن بويس قد رجع الى مصادر لاتينية أقدم . أما هولينشيد فيقال أنه رجع الى الترجمة الانجليزية لكتاب

يويس حيث ظهرت عام ١٥٣٦ . المهم أنه من المحتمل أن يكون شكسبير قد عاد الى المصادر اللاتينية القديمة ذاتها وهو يكتب مسرحياته المستمدة من هذه التواريخ .

ومن المؤكد أن بعض مصادر مسرحية « ضجة فارغة » (Much Ado about Nothing) المعروضة عام ١٥٩٨ ـ ١٥٩٩ والمنشورة عام ١٦٠٠ ـ مكتوبة باللغة اللاتينية[٤٥] . أما مسرحية « الليلة الثانية عشر » (Twelfth Night) ـ المعروضة عام ١٦٠٠ ـ ١٦٠١ والمنشورة عام ١٦٢٣ ـ فهي في رأى بولدوين (T. W. Baldwin) مبنية على نمط مسرحية « أندريا » أو « فتاة أندروس » لترنتيوس وتقريعاتها أو تنويعاتها .[٤٦] وترجع أول معالجة أدبية لموضوع مسرحية « صاع بصاع » (Measure for Measure) ـ المعروضة عام ١٦٠٤ والمطبوعة عام ١٦٢٣ ـ الى كلود رويه فيلانيرا (Claude Rouillet Philanira) حيث كتب عام ١٥٥٦ مسرحية لاتينية ترجمت الى الفرنسية عام ١٥٦٣ . وبعد ذلك وبالتحديد فى عام ١٥١٥ ظهرت رواية جيامباتيستاجير الدى (الشينثيو) فى مؤلفه المشهور « المائة اسطورة » (Hecatommithi) فضمت مجموعة الحكايات الشعبية التى استقى منها شكسبير أيضا مسرحية « عطيل » التى سنتحدث عنها بعد قليل . وكانت هناك ترجمة فرنسية لجيرالدى قام بها جابريل شابوى (Gabriel Chappuys) عام ١٥٨٤ . وكان جيرالدى قد كتب أيضا مسرحية بعنوان « أبيتيا » (Epitia) نشرت بعد موته أى عام ١٥٨٣ وتدور حول هذا الموضوع . وتعد مسرحية جورج ويتستون (George Whetstone) التى نشرت عام ١٥٧٨ وتحمل عنوان « بروموس وكاسندرا » (Promos and Cassandra) أهم مصدر لشكسبير وهو ينظم المسرحية التى نتحدث عنها .[٤٧]

وهناك ما يثبت أن شكسبير قد تأثر فى مسرحية « **عطيل مغربى البندقية** » (Othello, the Moor of Venice) المنشورة عام ١٦٠٤ ـ ١٦٠٥ ببعض الصور الشعرية التي وردت في كتاب المؤلف اللاتيني الناثر بلينيوس الأكبر (٢٣ أو ٢٤م ـ ٧٩م) وعنوانه « التاريخ الطبيعى » (Naturalis Historia) الذى كان فيليمون هولاند (Philemon Holland) قد ترجمه عام ١٦٠١ . فمن هذا المصدر بالذات يرى النقاد أن شكسبير أخذ دفاع عطيل عن نفسه ضد تهمة السحر وكذلك حديثه عن بحر بونتوس . ذلك أن بلينيوس يورد قصة جايوس فوريوس كريسينوس (C. Furius Cresinus) التى تتشابه مع قصة عطيل ـ ولا يتعارض ذلك مع معرفتنا بان الشاعر الانجليزى قد استقى موضوعه أساسا من جيامباتيستا جيرالدى (الشينثيو Il Cinthio ١٥٠٤ ـ ١٥٧٣) مؤلف كتاب « المائة اسطورة (III. 7) والذى حاكى به بوكاتشيو (١٣١٣ ـ

---

(٤٥) Muir, op. cit., pp.52—54, cf. C.T. Prouty, The Sources of 'Much Ado about Nothing', 1950.

(٤٦) ــ Muir, op.cit., p.76

(٤٧) ــ Ibidem, pp. 101—109

١٣٧٥) فى كتابه « ديكاميرون » (Decameron) « العشرة أيام » . فمن المعروف أن هذين الكاتبين الايطاليين كانا من رواد النهضة ، ومن ثم فان كتاباتهما تعد احياء للتراث الكلاسيكى بالدرجة الأولى . وهناك من الدارسين من يعلل اسم البطلة فى مسرحية « عطيل » أى « ديزدمونه » (Desdemona) على أنه من الكلمة الاغريقية « Dysdaimon » (ديزدايمون) وتعنى « سيئة حظ » أو « الشقية » . ويرى بعض الدارسين أيضا أن قصة « عطيل مغربى البندقية » هذا ليست الا احدى الصيغ الفولكلورية لاسطورة أطلس (Atlas) الاغريقية . وهو أحد العمالقة الذين ثاروا ضد الآلهة فحكم عليه بأن يرفع السماء على كتفيه الى أبد الآبدين فى مكان يحمل الآن اسم جبل أطلس ، وهو جبل شاهق عند الطرف الشمالى الغربى من القارة الافريقية على ساحل المحيط الأطلسى .[٤٨]

أما قصة هاملت فوجدت فى كتاب المؤرخ الدنركى ساكسو جراماتيكوس Saxo Grammaticus (عاش أبان القرن الثالث عشر) وعنوانه « أعمال الدانركيين » (Gesta Danorum) وهو تاريخ كتب باللغة اللاتينية وضم روايات أسطورية كثيرة من قبيل قصة هاملت . ولقد تمكن شكسبير من الحصول على هذه القصة من مؤلف للشاعر فرانسوا دى بيللفوريه (Francois de Belleforest ١٥٣٠ ـ ١٥٨٣) وعنوانه « تواريخ » أو « روايات تراجيدية » (Histoires Tragiques) وهو فى الأصل مترجم عن المؤلف الايطالى ماتيو بانديللو (Matteo Bandello) (١٤٨٠ ـ ١٥٦٢) ولقد مارس هذا الكتاب تأثيرا كبيرا على المسرح الاليزابيثى وضم بين دفتيه أيضا قصة « روميو وجولييت » .[٤٩] هذا ومن الحقائق المعروفة بين دارسى شكسبير أن مسرحية « هاملت » التى عرضت عام ١٦٠٠ ـ ١٦٠١ تقوم على فكرة الانتقام والعدالة ـ أو بتحديد أكثر « عدالة الانتقام » ـ وهى نفس الفكرة التى قامت عليها ثلاثية ايسخولوس (٥٢٥ ـ ٤٥٦ق.م) ورائعته المشهورة « الأوريستيا » (Oresteia) وهى الثلاثية التى مارست تأثيرا كبيرا على توماس كيد ومسرحيته الرائدة فى فن التراجيديا أبان العصر الاليزابيثى ونعنى « المأساة الاسبانية » . ولكن تأثير ايسخولوس وصل الى مؤلفات ذلك العصر عبر مسرحيات سينيكا .[٥٠]

---

(٤٨) .... Ibidem, PP. 122—140, 262—204

قارن : لويس عوض ، البحث عن شكسبير ، ص ١٥١ ـ ١٥٥

(٤٩) عن مصادر « روميو وجولييت » راجع :

Mary Martha Mulligan, The Souces of ' Romeo and Juliet ' (Unpublished Thesis) Liverpool 1954.

R.A. Law, Shakespeare's Changes of hisSource material in Romeo and Juliet", University of Texas Bulletin, Studies in English 1929.

O. H. Moore, The Legend of Romeo and Juiet, 1950.

(٥٠) .... Muir, op. cit., pp. 110—122

ولقد سبق أن رأينا كيف أن شكسبير قد عاد الى حوليات هولينشيد عندما أراد أن يكتب مسرحية « ماكبث » عام ١٦٠٦ والتى نشرت عام ١٦٢٣ . ولكننا نريد هنا أن نضيف شيئا ، وهو أن شكسبير قد جاءته فكرة المسرحية فى الغالب بعد أن شاهد مسرحية ماثيو جوين (Matthew Gwinn) التى عرضت فى اكسفورد يوم ٢٧ أغسطس عام ١٦٠٥ وعنوانها « السيبيليات الثلاث » (Tres Sibyllae) . وفى هذه المسرحية تتنبأ هؤلاء العرافات الثلاث لخلفاء الملك بانكو (Banquo) الذى قيل أن الملك جيمس الأول جاء من نسله ـ « بمملكة لا نهاية لها » (imperium sine fine) وهى النبوءة التى شدت اهتمام الملك جيمس الأول (١٦٠٤ ـ ١٦٢٥) . وربما قرأ شكسبير تاريخ بوشانان (George Buchanan ١٥٠٦ ـ ١٥٨٢) وعنوانه « تاريخ المسائل الرواقية » (Rerum Stoicarum Historia) الذى صدر عام ١٥٨٢ . وتحمل مسرحية « ماكبث » أيضا تأثيرات واضحة من مؤلف أرازموس (Desiderius Erasmus ١٤٦٦ ـ ١٥٣٦) بعنوان « محاورات » (Colloquia) وظهر عام ١٥١٦ .وسبق أن ألمحنا الى التشابه الكبير بين بعض العبارات فى « هرقل مجنونا » لسينيكا ومسرحية « ماكبث » . وهنا ينبغى أن نشير الى تأثير مسرحية أخرى لسينيكا هى « أجاممنون » على رسم الشخصيات فى « ماكبث » . اذ أن شكسبير اتخذ من كليتمنسترا سينيكا فى « اجاممنون » أنموذجا نسج على منواله شخصية الليدى ماكبث . واذا كانت أغنية الجوقة الاولى فى « أجاممنون » قد وجدت لها صدى فى مسرحية « ريتشارد الثانى » الا أن أصداءها فى « ماكبث » أكثر وضوحا وأقوى تأثيرا . وحتى رؤية ماكبث للخنجر الوهمى بنقاط الدم التى تتساقط منه يمكن أن تكون من وحى رؤى كاسندرا التنبؤية ، وهى فى حالة الهذيان واللاوعى . فلقد سبقت هذه الرؤى مقتل أجاممنون ، كما سبقت أوهام ماكبث مقتل دنكان . ومع ذلك فنحن نميل الى اعتبار أن مسرحية « ماكبث » أقرب الى « هرقل مجنونا » من « أجاممنون » . لأن مسرحية شكسبير أخذت من « هرقل مجنونا » عناصر أكثر مثل فكرة النوم كوسيلة للعلاج النفسى واستيقاظ ضمير البطل القاتل بعد ارتكاب جريمته والاحساس بأن مياه كل المحيطات لن تغسل الدم الذى بيديه ، والمقارنة بين الطاغية الفاسد والملك الطيب . واستنادا الى هذه الدلائل الداخلية المستنبطة من مسرحية « ماكبث » ومقارنتها بمسرحية « هرقل مجنونا » و« أجاممنون » لسينيكا يمكن أن نستنتج أن شكسبير قد قرأ المسرحية الاولى فى نصها اللاتينى أو أنه على الأقل عاد اليه أثناء تأليفه لمسرحية « ماكبث » بينما اكتفى بقراءة ترجمة المسرحية الثانية . المهم أن « ماكبث » مسرحية كلاسيكية المصدر أكثر مما يظن الكثيرون .(٥١)

ومن هذه العجالة يمكن أن يتبين لنا صدق ما سبق أن ألمحنا اليه وهو أن التأثيرات الكلاسيكية لا تنفرد بها مسرحيات شكسبير ذات الموضوع الكلاسيكى وانما تمتد لتشمل كل انتاج الشاعر بلا استثناء ، وانما هى فقط مسألة تفاوت فى نسبة التأثر من مسرحية الى أخرى ، وفق طبيعة موضوعها وظروف تأليفها . فمما لا شك فيه أن

---

(٥١) --- Ibidem, pp. 167—186

التأثيرات الكلاسيكية أكثر وضوحا فى المسرحيات القائمة على موضوعات من الاساطير أو التاريخ الاغريقى الرومانى .

●●●

٦ ـ مسرحيات شكسبير الاغريقية

يقول هيجيت أنه من بين أعمال شكسبير الاربعين ـ بما فى ذلك القصائد القصصية والسونيتات ـ هناك ستة تعالج موضوعات من التاريخ الرومانى ، أربعة منها متصلة بالعصر الجمهورى وهى « لوكريس » و « كوريولانوس » و« يوليوس قيصر » و« أنطونى وكليوباترا » واثنتان متصلتان بالعصر الامبراطورى ، احداهما وهى « سيمبلين » تتحدث عن أوائله ، والثانية وهى « تيتوس أندرونيكوس » تتناول أحداثا من أواخره ، أى من الفترة التى شهدت بدايات الغزو البربرى للامبراطورية الرومانية . وهناك بعض الدارسين يرون أن خلفية « سيمبلين » رومانية فى جزء منها فقط ، أما الجزء الباقى فهو بريطانى مبكر وغامض . وهناك ستة أعمال أخرى ذات خلفية اغريقية وهى « كوميديا الأخطاء » و« تيمون الأثينى » و« فينوس وأدونيس » و« حلم منتصف ليلة صيف » و« بريكليس » . واذا كنا قد رأينا أن التأثير الكلاسيكى لا يقتصر على تلك الاعمال الكلاسيكية الاثنى عشر فاننا نؤكد هنا أيضا عدم قبولنا لتقسيم هيجيت لهذه الاعمال[٤٢] الى « اغريقية » و« رومانية » . فهذا التقسيم تعسفى يهمل حقيقة هامة للغاية وهى أن الحضارة الرومانية تكمل الحضارة الاغريقية ، وتعتبران معا الى حد كبير وحدة حضارية واحدة ، ففى الكثير من الأحيان لا يمكن الفصل بين ما هو رومانى وما هو اغريقى . وان صدق هذا القول فانه يصدق أول ما يصدق على مسرحيات شكسبير الكلاسيكية . فالعناصر الاغريقية والرومانية متداخلة ومتشابكة مع بعضها البعض . فمسرحية . « انطونى وكليوباترا » مثلا لا تتحدث عن أنطونيوس وروما وحدهما بل تتحدث أيضا ، وبنفس الدرجة أو أكثر ، عن كليوباترا ومصر البطلمية ومدينة الاسكندرية الاغريقية . أما مسرحية « كوميديا الأخطاء » فهى وان كانت اغريقية فى خلفية أحداثها وأبطالها الا انها قبل كل شىء تقليد لاحدى مسرحيات بلاوتوس شاعر الكوميديا الرومانى الذى كان بدوره يقلد الكوميديا الأتيكية الحديثة وعلى رأسها مناندروس الشاعر الاغريقى المعروف . ونكتفى بهذا القدر من الأمثلة لنقول أننا مع ذلك سنتحدث عن ما يسمى بالمسرحيات الاغريقية والمسرحيات الرومانية لشكسبير على حدة من باب التنظيم فقط ، ما دمنا قد نبهنا من البداية الى التداخل فيما بينها وهو أمر لاشك سينعكس على دراستنا لها .

وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا أن سونيتات (Sonnets) شكسبير ـ أو الموشحات كما يحلو لعباس محمود العقاد أن يسميها ـ قد تضمنت مقطوعتين عن اله الحب الصغير كيوبيد (ايروس عند الاغريق) وهو ابن فينوس (أى أفروديتى عند الاغريق) ولقد شرع شكسبير فى نظم هذه السونيتات منذ عام ١٥٩٣ وأنجز

---

(٤٢) .... Highet, op.cit., p. 194

معظمها فى عام ١٥٩٦ ، ثم جاء أول شعر قصصى ينظمه المؤلف حاملا عنوان « فينوس وأدونيس » (Venus and Adonis) عام ١٥٩٣ ، وهى قصيدة طويلة تقع فى مقطوعات (Stanzas) سداسية الأبيات وربما تكون أول انتاج على الاطلاق للمؤلف . لقد عشقت فينوس الشاب الجميل أدونيس ، وحاولت أن تثنيه عن مواصلة الصيد وهو هوايته المفضلة وغرامه الأوحد ، وذهبت محاولاتها هباء كما فشلت كل مساعيها من أجل أن تكسب حبه . توسلت اليه ضارعة أن يقابلها فى صبيحة الغد فرفض لأنه كان يبيت النية لمطاردة صيده الثمين الخنزير البرى . وعندئذ وللمرة الأخيرة حاولت فينوس بكل ما أوتيت من مقدرة أن تثنيه عن رحلة الصيد هذه فأبى الا أن يسير فى خطته حتى النهاية . وفى الصباح الباكر سمعت فينوس كلاب صيده تنبح نباح الاستنجاد والاستغاثة فهرعت تبحث عنها وعنه وكلها هلع وفزع . وبالفعل عثرت عليه صريعا مضرجا فى دمائه ، لأن الخنزير البرى كان قد غلبه وافترسه . ولقد بدأ شكسبير فى نظم هذه القصيدة ـ التى وجد أسطورتها عند أوفيديوس(٥٣) ـ وهو لا يزال فى قريته ولذلك جاءت أشعارها وهى تنضح بأنداء الريف . وراجت هذه القصة الشعرية رواجا لم يكن صاحبها نفسه يتوقعه فأعيد طبعها نحو عشر مرات فى غضون عشر سنوات كما أنها هى التى طيرت سمعة الشاعر فى عالم الأدب . وفيها تلمس بذور الفكرة التى نمت وترعرعت فى بقية مسرحياته وتعنى الحذر من الجماح والاسراف فى الحب .

ويرى بعض النقاد أن مسرحية « كوميديا الأخطاء » (The Comedy of Errors) المعروضة عام ١٥٩٤ (وربما ١٥٩٢) ليست الا إعدادا عبقريا ومواءمة ذكية لكوميدية بلاوتوس (٢٥٤ ـ ١٨٤ق.م تقريبا) « التوأمان ميناخموس » (Menaechmi) . هذا مع أننا لا ندرى على وجه اليقين ما اذا كان شكسبير قد قرأ الأصل اللاتينى أم اكتفى بالاطلاع على الترجمة الانجليزية التى قام بها وليام وارنر (١٥٥٨ ـ ١٦٠٩) والتى قد نشرت عام ١٥٩٥ ، والتى من المحتمل أن يكون شكسبير قد حصل عليها مخطوطة عند اللورد هندسون (Hundson) بعد أن قدمها المترجم للاخير حوالى عام ١٥٩٤ أو قبيل ذلك التاريخ . ويعتقد البحاثة موير أن شكسبير قد عاد للمصادر التالية : ـ مسرحيات بلاوتوس الثلاث « « أمفيتريو » (Amphitruo) و « التوأمان » و « الجندى الجعجاع » (Miles Gloriosus) . وعاد شكسبير أيضا الى مسرحية المؤلف الايطالى أريوستو (Ariosto ١٤٧٤ ـ ١٥٣٣) بعنوان « المدعون » (I suppositi) عام ١٥٠٩ بترجمة جاسكوانى George Gascoigne (١٥٢٥ ؟ ـ ١٥٧٧) تحت عنوان (Supposes) وهى أول كوميدية انجليزية نثرية تصلنا وعرضت على المسرح عام ١٥٦٦ . وجدير بالذكر أن شكسبير أفاد من هذه المسرحية فى

(٥٣) Ovidius, Metamph. X 519—559, 705—739 & IV 285—388 (Salmacis and Hermaphrodite). cf. Root, op.cit., pp. 31—33, 114—116, Baynes, op. cit., pp.629—632.

صياغة كوميديته « ترويض النمرة » . يبقى أن نعرف أن مسرحية أريوستو مقتبسة من مسرحية « الأسرى » (Captivi) لبلاوتوس و« الخصى » (Eunuchus) لترنتيوس . ويضيف موير الى مصادر « كوميديا الأخطاء » مسرحية « أندريا » أو « فتاة أندروس » (Andria) لترنتيوس [٤٤] . والجدير بالتنويه هو أنه ، مع تعدد المصادر المحتملة لمسرحية « كوميديا الأخطاء » ، فان الحبكة الرئيسية مأخوذة من مسرحية بلاوتوس « التوأمان » كما أن مسرحية شكسبير جاءت أكثر تعقيدا ، لأن إختراعه للتوأم الاضافى درومبو الى جانب التوأم الأصل خلق فرصا متزايدة لوقوع الأخطاء الكوميدية . وفى مسرحية شكسبير أيضا أصبحت الزوجة شخصية رئيسية لا ثانوية فى حين صارت المومس شخصية صغرى . وينبغى ألا تفوتنا الملامح المسيحية فى المسرحية والمتمثلة فى فكرة قدسية الزواج . صفوة القول أن الشاعر الانجليزى قد أضاف من عندياته عناصر كثيرة هزلية وجادة الى الأصل اللاتينى . وسبق أن أوضحنا ما نذكر به الآن ونحن فى حديثنا عن مسرحية يقال أنها ذات أحداث وخلفية اغريقية تناولتها مصادر ومؤلفات لاتينية .

ان اسم ملكة الفرائس وزوجة أوبيرون Oberon فى مسرحية « حلم منتصف ليلة صيف » (Midsummer Night's Dream) المعروضة عام ١٥٩٥ ـ ١٥٩٦ والمطبوعة عام ١٦٠٠ لم يؤخذ من الاسطورة الكلتية ـ كما هو الحال بالنسبة لاسم زوجها ـ ولكنه اسم اغريقى ـ لاتينى Titania « تيتانيا » ويعنى « بنت » أو « أخت » تيتان أحد أفراد سلالة العمالقة أو المردة الأسطورية . ويرد هذا الاسم عند أوفيديوس فقط ويستخدمه خمس مرات إكلقب من ألقاب ربة الصيد ديانا (= أرتميس عند الاغريق) والساحرة كيركى (Circe) . وبما يرى هيجيت أن الاسم تيتانيا هذا لم يستخدم فى ترجمة جولدنج « للتناسخات » ويستنتج ـ أى هيجيت ـ من ذلك أن شكسبير على الأرجح قد عاد للأصل اللاتينى . أو على الأقل كان يتذكره منذ أيام التلمذة فى المدارس . نجد موير يقول بأن جولدنج قد خلع هذا الاسم على ربة الصيد ديانا بل وعلى أعضاء حاشيتها من الفرائس . على أية حال فان قصة بيراموس (Pyramus) وتيسبى (Thisbe) قد وردت باختصار فى قصائد أوفيديوس وفى روايات متأخرة شاعت ابان العصر الاليزابيثى . ويضاف الى تلك المصادر ترجمة نورث لبلوتارخوس لأنه من المؤكد أن شكسبير قد أخذ مادته بشأن البطل ثيسيوس من سيرته عند بلوتارخوس ومن « قصة الفارس » (Knighte's Tale) لتشوسر [٤٥] .

---

(٤٤) ـــ Muir, op. cit., pp. 18 - 20

(٤٥) عن مصادر « حلم منتصف ليلة صيف » راجع Muir, op. cit., pp. 31—47

وعن أسطورة بيراموس وتيسبى أنظر : Ovidius, Metamph. IV 55—166, Chaucer, Legend of Good Women, 706—923.

راجع : Root, Op.cit. pp.51—56 (Diana), 104

وعندما ترد في مسرحية « حلم منتصف ليلة صيف » (ف ٥ م ٢ ب ٣٤٠ وما يليه) الأبيات التالية :

" O sisters three,
Come, come to me,
With hands, as pale as milke
Lay them in gore,
Since you have shore
with shears this thread of silk "

« أيتها الأخوات الثلاث
تعالين . تعالين الى
وبأيد باهتة كاللبن
اغمسنها في دمائي
مادمتن قد قطعتن بالمقص
خيط حياته الحريري »[٥٦]

لا يمكن فهم هذه الكلمات دون الالمام بالخلفية الاسطورية . فالأخوات الثلاث هن ربات القدر (مويراى Moirai بالاغريقية و Fata أو Parcae باللاتينية) وأسماؤهن كما يلي : كلوتو (Clotho) ولاخيسيس (Lachesis) وأتروبوس (Atropos) وقد تصورهن الناس نساء يقمن بغزل خيوط المقادير والأعمار ولكن خيال الشعراء جعل كلوتو تمسك فلكة المغزل بينا لاخيسيس هي التي تسحب الخيط . أما أتروبوس فعملها أن تقطعه في الوقت المناسب ، أي حين ينتهي أجل كل امرىء .

وعرضت مسرحية شكسبير « ترويلوس وكريسيدا » (Troilus and Cressida) عام ١٦٠١ - ١٦٠٢ . وقد يعني الاسم ترويلوس « الطروادي الصغير » إذ ورد في الروايات الأسطورية الاغريقية على أنه اسم الابن الاصغر لبرياموس ملك طروادة من هيكابى ملكتها . وتقول الأساطير أيضا أنه قد قتل على يد البطل الاغريقي أخيلليوس (أو أخيليس) ، وبغض النظر عن هذه الأساطير الاغريقية الكلاسيكية هناك قصة أخرى شاعت فيما بعد العصر الاغريقي الروماني وتعزى الى الشاعر الفنائي بينوادى سانت مور الذى عاش ابان القرن الثاني عشر تحت رعاية وحماية هنري الثاني ملك انجلترا . اذ كان هذا الشاعر قد ألف « قصة طروادة » (Roman de Troie) معتمدا على داريس الفريجي (Dares Phrygius) - والفريجي تعني الطروادي[٥٧] - وديكتيس كريتينسيس (Dictys Cretensis) أي ديكتيس الكريتي . والاول هو في

(٥٦) الفرد « أنطوني وكليوبترا » (ف ٤ م ١ ب ١٥٠ وما يليه) حيث يشبه شكسبير الآلهة التي ... فراقها زوجة أنطونيوس السابقة ... في الوقت الذي ... لا يتزوج بأخت قيصر ... « ماشي الأرض » (tailors of the earth) .

(٥٧) ... الكتاب الاغريق بعد هوميروس بأن الطرواديين كانوا من سلالة الفريجيين ولكن الأمر غير ذلك عند هوميروس نفسه .

الأصل سخص يرد اسمه فى « الالياذة » (الكتاب الخامس بيت ٩) على أنه كاهن الاله هيفا يستوس فى طروادة . وفى العصور الوسطى نسب اليه وضع عمل لاتينى قيل انه ترجمة للوصف الذى أعطاه هو بنفسه كشاهد عيان لتدمير موطنه طروادة وحمل عنوان « عن الخروج من طروادة » (De Excidio Trojae) . ويرجح بعض الدارسين ظهور هذا المؤلف المترجم الى القرن الخامس الميلادى . أما ديكتيس كريتينسيس (الكريتى) فقد نسب اليه أيضا وضع عمل مماثل يسجل أحداث الحرب الطروادية وكتب باللغة الاغريقية[٤٨] . ثم شاعت ترجمته اللاتينية على يد لوكيوس سبتيميوس (Lucius Septimius) أبان القرن الرابع الميلادى . ولاقت هذه الترجمة قبولا وذيوعا فى العصور الوسطى التى حفظتها من الضياع حتى وصلت الى أيدى الدارسين المحدثين . ومن مقدمة هذه الترجمة علم أن ديكتيس من مواليد مدينة كنوسوس (تسمى الآن هراكليون) بجزيرة كريت وانه هو الذى اصطحب إيدومينيوس ـ حفيد الملك الاسطورى للجزيرة أى مينوس ـ الى الحرب الطروادية .

وهاتان الروايتان الاسطوريتان الشائعتان فى العصور الوسطى أصبحتا المصدر الرئيسى لأى عمل أدبى عن الحرب الطروادية أبان عصر النهضة الأوربية . فعليها اتكأ جويدو داكولونا أو ديللى كولونى (Guido da Colonna أو G. delle Colonne) الكاتب الصقلى الذى عاش أبان القرن الثالث عشر ومؤلف القصص باللغة اللاتينية وصاحب « التاريخ الطروادى » (Historia Trojana) وهى فى الواقع نسخة نثرية لـ « قصة طروادة » للمؤلف السابق بنوادى سانت مورمع أن جويدو نفسه لا يعترف بذلك . ولقد ترجمت قصة جويدو نفسها فيما بعد الى أشعار تنسب الى كل من جون باربور (John Barbour ١٣١٦ ؟ ـ ١٣٩٥) الشاعر الاسكتلندى وجون ليدجيت (Jhon Lydgate ١٣٧٠ ـ ١٤٥١ ؟) راهب بيورى سانت ادموندز (Bury St. Edmonds) فالأول نظم قصيدة « اسطورية طروادة » (Legend of Troy) وقيل انها ترجمة لقصة جويدو التى أصبحت تعرف بعنوان جديد هو « قصة تدمير طروادة » (Historia Destructionis Troiae) . أما الثانى فهو صاحب « كتاب طروادة » (Troy Book) الموضوع فيما بين ١٤١٢ و ١٤٢٠ والمطبوع عام ١٥١٣ وهو فى الواقع عبارة عن قصيدة تقع فى خمسة كتب ، ونظمت بناء على طلب الأمير هنرى ـ أى الملك هنرى الخامس فيما بعد ـ وتقص « القصة العظيمة » (noble storye) لطروادة وتعد بصورة أو بأخرى مدخلا تمهيديا لقصة « الاستعمار » الطروادى لانجلترا

---

(٤٨) H.J.Rose, Outlines of Classical Literature for the Students of English (London — Methuen 1959) pp. 216—217

حيث يذكر المؤلف انه عثر عليها على بردية فى تبتونيس Tebtunis (أى « تيبة » حاليا وتقع فى مصر الوسطى) وتحوى شذرة اغريقية من مؤلف ديكتيس هذا ويرجح ان تاريخها يعود الى القرن الثانى الميلادى .

على يد بروتوس حفيد أينياس الطروادى[٥٩] الذى أسس حفيداه روموليوس وريموس مدينة روما ـ طبقا لما ورد عند جيوفرى من مونموث (Geoffrey of Monmouth) أو باللاتينية جاوفريدوس مونيموتينسيس Gaufridus Monemutensis (١١٠٠ ـ ١١٥٤) فى كتابه « تاريخ ملوك بريطانيا » (Historia Regum Britanniae) .

وفى الكتاب الثالث من قصيدة ليدجيت ، وهو الذى يعالج قصة ترويلوس وكريسيدا ، يقدم الشاعر تحية مسطابة الى استاذه (maister) تشوسر (حوالى ١٣٥٤ ـ ١٤٠٠) الذى سبق أن تناول الموضوع فى قصيدته « ترويلوس وكريسيد » (Troylus and Cryseyde) التى نظمت فى الفترة ما بين عام ١٣٧٢ و ١٣٨٦ والتى يعتبرها الدارسون مرحلة التأثير الايطالى فى انتاج هذا الشاعر الانجليزى القديم . فلقد تأثر تشوسر فى هذه المرحلة بدانتى (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) وبوكاشيو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥) الذى كتب قصيدة بعنوان « فيلوستراتو » (Filostrato) عن قصة ترويلوس وكريسيدا . أما عن الآخرين الذين كتبوا عن ترويلوس وكريسيدا قبل شكسبير فنذكر منهم الشاعر الاسكتلندى الذى يعد من أتباع مدرسة تشوسر فى الشعر ، انه روبرت هنريسون أوهندرسون (Robert Henryson أو R. Henderson) . الذى عاش تقريبا فيما بين ١٤٣٠ و ١٥٠٦ وكتب قصيدة « عهد كريسيد » (Testament of Cresseid) التى كانت تنسب الى تشوسر حتى عام ١٧٢١ بالرغم من أنها كانت مطبوعة تحت اسم مؤلفها هنريسون منذ عام ١٥٩٣ .[٦٠]

(٥٩) حاولت بعض الدول الاوروبية القديمة أن تنهج نهج روما القديمة فتدعى لنفسها نسبا طرواديا . فكما أشاع الرومان ـ واعتقدوا ـ أنهم من نسل أينياس الطروادى حاولت هذه الدول أن تبحث لنفسها عن أصول طروادية . ولم تكن قصة بروتوس أو بروت (Brut) مؤسس السلالة البريطانية موضوعا خياليا صالحا للأدب والفن فحسب بل صارت شبه واقعة تاريخية يؤمن الناس بصحتها . فمثلا ليامون (Layamon) ـ أو لويمون (Lawemon) ويعنى اسمه « رجل القانون » (Lawman) ـ الذى ازدهر حول عام ١٢٠٠ م وألف كتاب « بروت » وهو تاريخ لانجلترا منذ وصول بروتوس الاسطورى الى الجزيرة البريطانية وحتى عهد كادوالادر Cadwalladar (٦٨٩ م) والذى اعتمد المؤلف فيه بصورة مباشرة أو غير مباشرة على نسخة ويس Wace الفرنسية ل « تاريخ ملوك بريطانيا » لجيوفرى من مونموث مع اضافات أخرى . ويتضمن مؤلف ليامون لاول مرة تاريخ ملوك مثل لير وسيمبلين وشخصيات أخرى ظهرت فى الادب الانجليزى بعد ذلك . ولكن قصة بروت (بروتوس) قيلت أيضا كما سبق القول على أنها تاريخ حقيقى الى الحد الذى دفع بيوكانان (Buchanan) فى الكتاب الثانى من مؤلفه « تاريخ الاسكتلنديين » (Historia Scotorum) الى أن ينتقد هذا الاعتقاد بشدة . على أية حال لقد حاول البريطانيون بخلق هذه الاسطورة أن يربطوا نشأة دولتهم بأصل طروادى ضاربين عرض الحائط بالسخرية الفكرية الكامنة فى حقيقة أن اسم البطل الطروادى الذى وقع عليه اختيارهم أى « بروتوس » كان لاتينيا وليس اغريقيا أو طرواديا ! وذهب بعض البريطانيين الى حد أن جعلوا لغة هذا البطل ويلشية (Welsh) وقيل كذلك ان الاسم الاصلى للعاصمة البريطانية هو « طروى نوفانت » أى « طروادة الجديدة » (Troynovant) ولكن هذا الاسم قد يكون مشتقا من الاسم القبلى فى بريطانيا « ترينو بانتيس » (Trinobantes) والذى ورد عند يوليوس قيصر وتاكيتوس . ومما يذكر فى هذا الصدد أن الحرف ب (b) قد يستبدل بسهولة بالحرف ف (V) ابان العصور الوسطى فذلك ما حدث بالنسبة للحرف الاغريقى « بيتا » (B) الذى أصبح ينطق « فيتا » . أما المقطع Tri فمن اليسير تحويره الى Troia وبذلك يصبح اسم العاصمة البريطانية الأصلى هو « طروادة الجديدة » أو « طروى نوفانت » ؛

(٦٠) الجدير بالذكر أن درايدن (١٦٣١ ـ ١٧٠٠) نشر عام ١٦٧٩ مسرحية « ترويلوس وكريسيدا » فانتقدها جورج سينتزبيرى (Saintsbury George) فى كتابه « رجالات الادب الانجليزى » (English Men of Letters) XIII ، « أنه كان من الافضل بكثير ألا يحاول المؤلف تناول هذا الموضوع » . وجدير بالذكر أن درايدن جعل كريسيدا تنتحر عندما أثيرت الشكوك حول اخلاصها لترويلوس أما الاخير فيقتل بدوره على يد أخيلليوس وهذا حل شائع لعقدة القصة

ومن المعروف أن ملحمة هوميروس الخالدة « الالياذة » تتخذ من غضبة أخيلليوس موضوعا رئيسيا لها ، فهذا ما يقوله لنا الشاعر نفسه في البيت الأول من ملحمته . ولقد وقعت غضبة بطل الأبطال الاغريق بسبب الاهانة التي تلقاها من أجاممنون ملك الملوك . ذلك أن طاعونا كان كان قد داهم المعسكر الاغريقي أبان الحرب الطروادية فأعلن العراف كالخاس أنه لا علاج ولا دواء يدرأ هذه الكارثة سوى أن يسلم أجاممنون محظيته العذراء الجميلة خرسيس (Chrysis) الى أبيها كاهن أبوللون . فقبل أجاممنون أن يفعل ذلك على مضض . ويشرط أن تسلم اليه أولا عوضا عن محظيته الجميلة محظية أخيلليوس وتدعى بريسيس (Briseis). ولكن بريسيس هذه أصبحت في قصة جويدو « بريسيدا » (Briseida) بنت العراف كالخاس التي أحبها على التوالي كل من ترويلوس وديوميديس . ثم تحول اسمها في قصيدة بوكاشيو الى جريسيدا (Griseida) الذي ربما نجم عن خلط بين الاسمين بريسيس وخريسيس وعلى يد تشوسر أصبح الاسم كريسيد (Cryseyde).ولقد ضمت قصيدة تشوسر حوالى ٨٢٠٠ بيتا وأثرى المؤلف القصة التي نقلها عن بوكاشيو باضافة عنصر الحيوية والسخرية لشخصية بانداروس (Pandarus) الذي توسط بين ترويلوس وكريسيدا وكذلك بتطوير شخصية الأخيرة فجعلها امرأة رزينة جادة متأنية تضع في عين الاعتبار سمعتها ومصلحتها من ناحية ومتعتها من ناحية أخرى . أما شخصية كريسيدا في مسرحية شكسبير فهي فتاة طائشة مستهترة وأنثى متهورة متقلبة . وقعت في حب ترويلوس وهجرته بعد ذلك دون ما سبب حقيقي . يعالج تشوسر بطلته بلطف وعاطف ظاهرين ويرسمها لنا كأرملة جذابة ومرنة ولكنها تشوبه حياء . وبكياسة بارعة يجنب تشوسر أن يقدم أي شرح أو تفسير مباشر لخيانتها التي وقعت ، ولكنه أوحى لنا أنها تحولت الى حب ديوميديس لا بدافع الشهوة الجسدية الرخيصة ، وانما لأنها شعرت بالوحدة القاتلة والاغتراب القاتل في المعسكر الاغريقي ، انها بطبعها ـ كما نفهم من معطيات تشوسر ـ لا تقوى على المقاومة طويلة النفس أمام مغريات الحب . أما كريسيدا شكسبير فهي امرأة غير متزوجة ، مختاج بطبعها شهوانية في سلوكها ، أي أنها أبعد ما تكون عن براءة كريسيدا تشوسر ونقائها الداخلي فهي عند شكسبير تتورط في الخيانة بدافع الشهوة الجنسية . وهنا ينبغي أن تتذكر حقيقة أن قصيدة تشوسر قد كتبت في عصر الحب البلاطي وفي ظل السلوك الفروسي الذي وضع قالبا أو نمطا مقدسا لكياسة العشاق من الفرسان النبلاء . فساد مبدآن هامان في قانون الحب الفروسي غير المكتوب أولها السرية فعلى العاشق الفارس أن يحفظ سر عشقه في مكنون صدره ولا يسمح له بالخروج من أعماق القلب كيلا يشيع أمره بين الناس ويفضح المحبوبة ويسيء الى سمعتها وتلوك سيرتها كل الالسنة . أما المبدأ الثاني فهو الاخلاص التام أو قل التفاني في المحبوب . ولم يتضمن دستور الحب الفروسي العلاقة الزوجية لأن هذا الحب لم يكن يهدف الى هذه النهاية السعيدة ، فلا أمل للعاشق الفارس سوى أن يفنى في خدمة ورعاية عشيقته ولو لم يحصل منها على مايبغى . نعم قد تقوم علاقة جنسية بين العشيقين الفروسيين ولكن ذلك أمر يرجع في المقام الأول الى المحبوبة ورضاها ، أو هل تعطفها على العاشق الولهان . فالعلاقة الغرامية الفروسية مقضي عليها بالفساد ان تسرب أمرها الى اذن او السنة الناس من ناحية وان داخلها شيء من الشهوانية البذيئة من ناحية أخرى .

أما شكسبير الذى كتب مسرحيته بعد قرنين من الزمان فيخاطب مجتمعا آخر تغيرت فيه الأعراف والتقاليد . فالكاتب الاليزابيى يرى أن النهاية الصحيحة للحب هى الزواج . فاذا وضعنا فى اعتبارنا حقيقة أخرى وهى أن كتاب عصر شكسبير لم يحفلوا كثيرا بالزنا الا فى اطار الكوميديا الهزلية تبينا قدر الصعوبة البالغة التى واجهت شكسبير وهو يعالج قصة ترويلوس وكريسيدا معالجة تراجيدية . كان ترويلوس أنموذج العاشق المخلص من ناحية لكنه لم يتزوج كريسيدا فى أى مصدر من مصادر شكسبير من ناحية أخرى . ولقد استطاع شكسبير على أية حال أن يحتفظ بمبدأ السرية المطلوبة كما عمل على أن لا يثير موضوع الزواج بطريقة مكشوفة قدر الامكان . وذهب بعض النقاد الى اعتبار لقاء العاشقين فى حضرة أحد الشهود نوعا من الزواج ، ولكن هذه الفكرة لا تتمشى مع الانطباع العام الذى نخرج به من المسرحية ككل والتى يحيط بها ـ على أية حال ـ قدر كبير من الغموض . بقى أن نشير الى أن شكسبير وتشوسر كانا أكثر تقاربا وتشابها فى رسمهما لشخصية ترويلوس اذ اتفقا فيما بينهما على القدرة العسكرية لهذا البطل الذى لم يتفوق عليه أى بطل طروادى آخر سوى هيكتور وهو بطل الأبطال الطرواديين ونظير أخيليس الاغريقى . ويتفق الشاعران كذلك فى أن ترويلوس عند كل منهما يتميز بالاخلاص فى الحب الى مالانهاية كما أنه قد حاول أن ينسى حبه أثناء القتال بل وتمنى أن يموت فى ميدان الحرب ليكسب الحب . ومع ذلك فيمكن القول بصفة عامة أن الجو السائد فى مسرحيّة شكسبير جد مختلف عنه فى قصيدة تشوسر . فمسرحية شكسبير بمعطياتها ليست فقط منافية للبطولة (antiheroic) ولكنها الى حد ما تعد كاريكاتيرا جيدا فى روحه عن الروح الاغريقية التى يجهلها أو يتجاهلها .

ولقد سبق لنا أن أشرنا الى ظهور شخصية ثيرسيتيس فى مسرحية شكسبير . ولما كانت هذه الشخصية غير موجودة فى الروايات الشائعة ابان العصور الوسطى كما رأينا فإن دل ذلك على شىء فانه يدل على أن شكسبير قد قرأ ترجمة تشابمان « للالياذة » ولاسيما الكتاب الأول والثانى والكتب من السابع الى الحادى عشر حيث ظهرت عام ١٥٩٧ . وفى الواقع هناك ثلاث أو أربع اشارات اسطورية يمكن ارجاعها الى نفس ذلك المصدر (قارن « ترويلوس وكريسيدا » ف ٣ م ٣ ب ١٩٠ على سبيل المثال) .

هذا ويحدد كل من موير وباللوتسعة مصادر رئيسية لمسرحية « ترويلوس وكريسيدا » وهى كما يلى :

أولا : ترجمة جورج تشابمان لالياذة هوميروس على النحو التالى :

" Ths Seven Bookes of Homers Iliads by George Chapman, 1598 "

" The Iliads of Homer " , 1611

والطبعة الأخيرة تضم كل كتب « الالياذة » ويحتمل أن تكون قد وصلت الى يد شكسبير كمخطوط قبل النشر فى عام ١٦١١ .

ثانيا : « تناسخات » أوفيديوس ترجمة آرثر جولدنج وهى الكتب الثانى عشر والثالث عشر اللذان ظهرا عام ١٥٦٧ .

ثالثا : « تاريخ حصار وتدمير طرواده » بقلم جون ليدجيت عام ١٥١٣

" The Hystorye Sege And Dystruccyon of Troye "
by John Lydgate, 1513

رابعا : « مجموعة قصص طروادة » تأليف راؤول ليفيفر وترجمة وليام كاكستون عام ١٤٧٤ .

" The Recuyell of the Historyes of Troye "
by Raoul Lefevre, transl. by William Caxton 1474

خامسا : « عهد كريسيد » لروبرت هنريسون عام ١٥٩٣

" The Testament of Cresseid " by Robert Henryson, 1593

سادسا : « حبكة ترويلوس وكريسيدا » فى مخطوط معروف بالمتحف البريطانى بالأرقام التالية BM. MS Add 10449

سابعا : ـ « ترويلوس وكريسيد » لتشوسر

ثامنا : ـ « إينيادة » فرجيليوس

تاسعا : ـ ترجمة دى لا لاندى (De la Lande) لرواية ديكتيس الكريتى (٦١)

واستقى شكسبير مادة مسرحيته « تيمون الاثينى » (Timon of Athens) المكتوبة حوالى عام ١٦٠٧ من سير بلوتارخوس بترجمة السير توماس نورث التى سنتحدث عنها عندما نتناول المسرحيات الرومانية . (٦٢) المهم هنا أن ننوه الى أن بلوتارخوس قد أشار فى سيرة أنطونيوس الى قصة تيمون الأثينى . فبعد هزيمة أنطونيوس فى معركة أكتيوم أمام أوكتافيا نوس تشبه القائد المهزوم بهذا البطل الأثينى . فأقام لنفسه منزلا منعزلا قرب البحر بالاسكندرية وسماه « تيمونيون » أى « منزل تيمون » . وفى سيرة الكيبادس تناول بلوتارخوس مرة ثانية الحديث عن قصة تيمون . ومن المؤكد أن شكسبير قد رجع أيضا الى لوكيانوس (حوالى ١١٥م ـ حوالى ٢٠٠م) ذلك الكاتب والفيلسوف المولود فى ساموساتا (Samosata) على ضفاف نهر الفرات .

(٦١) Highet, op.cit., p. 197; Muir, op.cit., pp. 78—96; G. Bullough (ed.), Narrative and Dramatic Sources of Shakespeare, Six volumes (Routledge & Kegan Paul New York, Columbia University Press 1962-1964) vol vi pp.83-221

وانظر أيضا :

R.K. Presson, Shakespeare,s' Troilus and Cressida' and the Legends of Troy (Baldwin, Hillebrand 1953)
Mary F. Bruce, The Middle English Versions of Troy Legend and Shakespeare,s' Troilus and Cressida ', 1948.

(٦٢) راجع حاشية رقم ٤١

ومع أن لغة هذا الكاتب الأصلية لم تك الاغريقية ـ بل على الأرجح الآرامية ـ الا انه تعلمها وأتقنها حتى أصبح خطيبا مفوها ومحاضرا نابها وكاتبا ذا اسلوب اغريقي رشيق. غطت أسفاره بلاد الاغريق وايطاليا وجنوب بلاد الغال سائحا يتكسب من تدريس الخطابة، ثم تقلد منصبا قانونيا بمصر وظل يشغله حتى مات. كتب أكثر من ثمانين عملا أدبيا أغلبها في شكل المحاورات، منها «محاورة الآلهة» و«محاورة الموتى». ويتناول قصة تيمون في محاورة بعنوان «كاره البشر» (Misanthropos) لابد وأن شكسبير قد اطلع عليها أو عرفها بطريقة أو بأخرى. ويرى بالو أن شكسبير قد عاد للترجمة الايطالية هذه المحاورة بقلم دالو نيجو (N. da Lonigo) عام ١٥٣٦. وجدير بالذكر أن هناك مسرحية مجهولة المؤلف تحمل عنوان «تيمون» في مخطوط ديس (Dyce MS) ويؤرخ هذه المسرحية بعام ١٦٠١ وينبغي أن نضمها الى المصادر المحتملة لمسرحية شكسبير. ولكننا لا يمكن أن نجزم بأن الاشارة التي وردت في مسرحيات أرستوفانيس (حوالى ٤٤٨ ـ حوالى ٣٨٠ق.م) الى قصة تيمون كان لها تأثير على شكسبير الذى على الأرجح لم يقرأ هذا الشاعر على الاطلاق. كما أنه من المؤكد أن الشاعر الانجليزى لم يعرف المسرحية التي كتبها شاعر الكوميديا المتوسطة الاغريقي أنتيفانيس (ازدهر حول عام ٣٨٥ق.م) لأنها فقدت ولم تصل الى أيدينا حتى الآن. وهناك مسرحية بعنوان «تيمونى» (Timone) بقلم بوياردو (M. M. Boiardo) ظهرت حوالى عام ١٤٨٧. كما انه لايمكن اغفال «الرواية الثامنة والعشرون» (The Twenty Eighth Novell) من مؤلف بينتر (W. Painter) بعنوان «قصر المتعة» (The Palace of Pleasure) وظهر عام ١٥٦٦. وكذلك «مسرح العالم» (Theatrum Mundi) بقلم بوأى ستوار (P. Boaistuau) ترجمة جون ألداى (John Alday) وظهر عام ١٥٦٦ (٤). ومن المصادر المحتملة أيضا مسرحية «كامباسبى» (Campaspe) بقلم جون ليلي (John Lily) وظهرت عام ١٥٨٤. هذا ويرى موير أن لأساطير «ألف ليلة وليلة» العربية تأثير غير مباشر على «تيمون الأثيني» ولا سيما على تصوير المائدة.[٦٣]

وتعود مصادر مسرحية شكسبير الرومانسية «بريكليس أمير صور» (Pericles, Prince of Tyre) المعروضة حوالى عام ١٦٠٨ الى القصة الاغريقية النثرية مجهولة المؤلف والمعروفة بعنوان «أبوللونيوس الصورى». ولقد اشتهرت هذه القصة أبان العصور الوسطى ويعود أقدم نص موجود لها الى القرن الخامس أو السادس الميلادى ويحمل عنوانا لاتينيا معناه «قصة أبوللونيوس ملك صور» (Historia Apollonii Regis Tyrii) وهناك من الدارسين من يعتقد بأن لهذه القصة أصل اغريقى يعود الى القرن الثانى أو الثالث الميلادى، ولكن فريقا آخر من الدارسين يرى غير ذلك أى أنها كتبت باللاتينية مباشرة. وموضوع هذه القصة ـ ككثير من القصص الأخرى التي شاعت أبان تلك الفترة ـ يدور حول فراق

(٦٣) Bullough, op.cit., vol VI pp. 225—345; Cf. Muir op.cit., p. 260.

عاشقين بسبب ظروف قاسية ومغامرات خطرة تنتهي باللقاء من جديد لمواصلة العيش السعيد . ولقد أورد الشاعر جون جوار (١٣٣٠ ؟ ـ ١٤٠٨) هذه القصة في مؤلفه « اعتراف المحب » (Confessio Amantis) وفي الكتاب الثامن منه على وجه التحديد ولقد ظهر عام ١٥٥٤ . هذا ويورد بالو أربعة مصادر أخرى هي « أنموذج المغامرات المؤلمة » (The Patterne of Painefull Advetures) بقلم لورنس توين (Laurence Twine) في طبعة ١٥٩٤ . وكذلك « أركاديا الكونتيسه بمبروك » (The Countesse of Pembrokes Arcadia) بقلم سير فيليب سيدني وظهر عام ١٥٩٠ . وأهم من ذلك « المغامرات المؤلمة لبريكليس أمير صور » (The Painfull Adventures of Prince of Tyre) بقلم جورج ويلكينز (George Wilkins) وظهر عام ١٦٠٨ . ثم « الخطيب » (The Orator) لألكسندر سيلفاين (Alexander Silvayn) ترجمة لازاروس بيوت (Lazarus Piot) عام ١٥٩٦[٦٤].

●●●

بلوتارخوس... وثلاثية شكسبير الرومانية :ـ

ان الأعمال التي استلهم فيها شكسبير التاريخ الروماني يمكن ترتيبها حسب تاريخ عرضها أو نشرها على النحو التالي : « اغتصاب لوكريس » (The Rape of Lucrece) ونشرت عام ١٥٩٤ « وتيتوس أندرونيكوس » (Titus Andronicus) وعرضت وطبعت عام ١٥٩٤ و« يوليوس قيصر » (Julius Caesar) وعرضت عام ١٥٩٩ وطبعت عام ١٦٢٣ و« انطوني وكليوباترا » (Antony and Cleopatra) وكتبت عام ١٦٠٦ / ١٦٠٧ وطبعت ١٦٢٣ « وكوريولانوس » (Coriolanus) وكتبت عام ١٦٠٨ وطبعت عام ١٦٢٣ . و« سيمبلين » (Cymbeline) وعرضت عام ١٦١٠ / ١٦١١ وطبعت عام ١٦٢٣ . وسيتركز حديثنا في المسرحيات الثلاث « يوليوس قيصر » و« انطوني وكليوباترا » و« كوريولانوس » لأسباب عديدة . ونؤجل الخوض فيها بعض الوقت . وبعد أن نأخذ فكرة سريعة عن الأعمال الثلاثة الأخرى .

« اغتصاب لوكريس » هي القصيدة القصصية الثانية ـ بعد « فينوس وأدونيس » ـ وتدور حول موضوع لواعج الحب أيضا ولكن هذه المرة من جانب الرجل . وتتكون هذه القصيدة من مقطوعات سباعية . أما لوكريس فهي لوكريتيا (Lucretia) زوجة لوكيوس تاركوينيوس كولاتينوس ابن عم تاركوينيوس بريسكوس الملك ـ تزايع في روما . والجدير بالذكر أن التاريخ التقريبي لتأسيس روما هو ٧٥٣ق.م وأنه حكمها سبعة ملوك كان آخرهم

---

(٦٤) Bullough, op.cit., vol. VI pp. 349—548, cf. Muir, op. cit., pp. 15—16

هو تاركوينيوس سوبربوس أى المتغطرس (Tarquinius Superbus) فلما اغتصب ابنه سكستوس معشوقته العفيفة لوكريتيا وذاع الأمر ثار الناس فى مدينة روما وانتهت أحداث هذه الثورة بطرد أسرة تاركوينيوس كلها نهائيا من روما . وبذلك تم القضاء على النظام الملكى وتأسس النظام الجمهورى عام ٥١٠ق.م . ولقد عاشت هذه القصة النصف أسطوريه فى الأدب الانجليزى فرواها تشوسر فى « أسطورة النساء الطيبات » (Legend of Good Women) التى ظهرت فيما بين ١٣٧٢ ـ ١٣٨٦ ووردت عند جون جوار (١٣٣٠ ؟ ـ ١٤٠٨) فى قصيده « اعتراف المحب » (Confessio Amantis) . والجدير بالذكر أن هذه الحادثه الاسطورية كما جاءت عند المؤلفين الرومان وفى قصيده شكسبير « اغتصاب لوكريس » تتشابه فى الموضوع مع مسرحيه المؤلف الاسبانى الأسبرلوبى دى فيجا (١٥٦٢ ـ ١٦٣٥) وعنوانها « فوينتى أوبيخونا » (Fuente Ovejuna) وتعنى « بئر الخراف » وترجمت الى العربيه بعنوان « ثورة فلاحين » . وهى تعد بحق رائعة المسرح الاسبانى ابان عصر النهضه . ولعل مرد التشابه فى الموضوع بين هذه المسرحية وقصيدة شكسبير **هو أن موضوع الشرف ساد أدب عصر النهضة بصفة عامة ، فالى جانب هذين الكاتبين وجد آخرون تناولوا هذا الموضوع نذكر منهم كورنى (١٦٠٦ ـ ١٦٨٤) على سبيل المثال فى مسرحية « السيد » .**

ولقد اختلطت على الباحثين المصادر التى جاءت منها قصيدة شكسبير . فهى أصلا مشتقة من المؤرخ تيتوس ليفيوس (٥٩ق.م ـ ١٧م) الذى ضم تاريخه ١٤٢ كتابا لم تصلنا كلها . ووردت قصة لوكريتيا وسكستوس تاركوينيوس وبروتوس ـ ابن عم تاركوينيوس المتغطرس وهو الذى قاد الثورة ضده وخلص المدينة منه وكان أحد القنصلين الاولين فى روما الجمهورية . وقيل أنه قتل ولديه لأنهما حاولا استعادة امرة تاركوينيوس ـ فى الكتاب الأول (٥٧ ـ ٦٠) . وعاد شكسبير أيضا الى قصيدة « الأعياد » (Fasti) لأوفيديوس حيث ترد القصة فى الكتاب الثانى (أبيات ٧٢١ ـ ٨٥٢) . ويقول هيجيت أنه بما أن هذه القصيدة لم تظهر مترجمة فى انجلترا قبل عام ١٦٤٠ وحيث أن شكسبير يقتطف منها عبارات كاملة فمن المرجح أنه رجع الى الأصل اللاتينى . ويؤكد ذلك ما نجده من تشابه كبير بين العملين فى اللغة والفكر.[٦٥] أما موير فيربط بين هذه القصيدة الشكسبيرية و « تناسخات » أوفيديوس ولا سيما الكتاب الرابع (أبيات ٤٥٨ ـ ٤٥٩ وتعليق ريجيوس Regius عليها) . وكذلك هجائية هوراتيوس (Sermones) الأولى وكتاب « الأقوال المأثورة » (Adagia) لارازموس الذى يقتطف من قصيدة أخرى لهوراتيوس (Odes III, 16) ليربطها بامثولة الرجل الطماع فى الكتاب المقدس (لوقا ١٢ ، ١٥ ـ ٢١) وبتعليق هامشى عليها ورد فى مخطوط جنيف .[٦٦]

وتتشابك الآراء والظنون حول مصادر مسرحية « تيتوس أندرونيكوس » فيقال أنها أخذت من أحدوثة أو حكاية شعبية كانت شائعة فى أوروبا الوسطى عن قائد رومانى عاش أبان العصر الامبراطورى . وعلى هذه

---

(٦٥) Highet, op. cit., p.204

(٦٦) Muir, op. cit., pp. 15—16

الاحدوثة بنيت شتى القصص ورويت مختلف الروايات في جرمانيا وهولندا ثم ضاعت الأصول ولم يبق منها غير النتف التي أدركها شكسبير وأعاد صياغتها في مسرحية متكاملة تدور حول انتقام هذا القائد الروماني تيتوس اندرونيكوس للمعاملة الوحشية التي عوملت بها ابنته لافينيا (Lavinia) وبقية ابنائه والاهانة التي لقيها هو نفسه وكذلك مقتل حبيب ابنته على يد تامورا (Tamora) ملكة القوط وأبنائها وعشيقها عارون المغربي (Aaron the Moor) . وبينما يقول موير أن مصادر هذه المسرحية غير معروفة فانه يؤكد ان مؤلفها لابد أنه قد قرأ مسرحية « ثيستيس » (Thyestes) لسينيكا وقصائد « التناسخات » لاوفيديوس[٦٧] وأما بالللو فيورد خمسة مصادر محتملة لهذه المسرحية الأول هو « قصة تيتوس اندرونيكوس » (The History of Titus Andronicus) وهي مجهولة المؤلف أو « القصة المفجعة والمأساوية لتيتوس اندرونيكوس » (The Lamentable and tragical history of T. Andronicus) وهي اغنية بطولية شعبية (Ballad) . أما المصدر الثاني فهو الكتاب السادس من « التناسخات » لأوفيديوس بترجمة جولدنج وظهر عام ١٥٦٧ . والمصدر الثالث مسرحية « ثيستيس » لسينيكا بترجمة هيوود (Jasper Heywood) وظهرت عام ١٥٦٠ . والمصدر الرابع « أغنية بطولية مفجعة » (A lamentable ballad) مجهولة المؤلف . والمصدر الخامس حياة سكيبيو أفريكانوس في سير بلوتارخوس بترجمة نورث وظهرت عام ١٥٧٩ .[٦٨]

على أية حال فان خلفية المسرحية هي أواخر العصر الامبراطوري الروماني مع بدايات الغزو البربري . وهناك من الدارسين من يقول بأن المكان الحقيقي للأحداث المسرحية هو بيزنطة وأن تيتوس أندرونيكوس هو الامبراطور البيزنطي القوي والعنيف الذي حكم من ١١٨٣ الى ١١٨٥ وأن تامورا Tamora هي تامار (Thamar) من جيورجيا Georgia (١١٨٤ ـ ١٢٢٠) .

أما خلفية « سيمبيلين » فهي أوائل العصر الامبراطوري الروماني وان كان البعض يرى أن هذه الخلفية رومانية في جزء منها فقط . أما الجزء الآخر فهو بريطاني وغامض . وبالفعل تبدو المسرحية كخليط عجيب ليس فقط من التاريخ الروماني والتاريخ البريطاني الاسطوري ولكن أيضا بين روما القديمة وايطاليا عصر النهضة . كما ان هذه المسرحية تعد همزة الوصل بين مسرحيات شكسبير التاريخية وتلك الرومانية من جهة وبين مسرحياته الرعوية الروما نسية وتلك التراجيدية من جهة أخرى .[٦٩]

وستكون وقفتنا مع المسرحيات الرومانية الثلاث « يوليوس قيصر » . و« أنطوني وكليوباترا » و« كوريولانوس » أطول لأننا نعتقد أن دراسة هذه المسرحيات ستعود بالفائدة ليس فقط على المهتمين بمسرح

---

(٦٧) Ibidem, p. 258

(٦٨) Bullough, op. cit., vol VI, pp. 3—79

(٦٩) Muir, op. cit., pp. 231—240

شكسبير وإنما أيضا على المتخصصين في الدراسات الكلاسيكية . اذ ينبغي أن نبدأ من هذا المنطلق ، أي أن دارسي الكلاسيكيات سيعلمون من مسرحيات شكسبير شيئا ما عن روما ، ربما يكون قد فاتهم وهم يعكفون على قراءة المصادر القديمة فقط . كما أن دارسي شكسبير ونقاده سيتمكنون من النفاذ الى أعماق مسرحياته والكشف عن بعض أسرارها بل والاطلاع عن كثب على خبايا الفن الشكسبيري والعصر الاليزابيثي بصفة عامة ان هم وضعوا هذه المسرحيات في اطارها الصحيح وقارنوها بمصادرها القديمة .

وأول ما يلفت النظر في المسرحيات الرومانية الشكسبيرية أنها مسرحيات سياسية بالدرجة الأولى ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أنها أكثر احتفالا وانشغالا بالسياسة من التراجيديات الأخرى . ومما يسترعي الانتباه أيضا أن هذه المسرحيات الرومانية تشكل فيما بينها « ثلاثية » ما بصورة أو بأخرى . فليس من قبيل الصدفة العفوية أن يعود شكسبير بعد كتابة « يوليوس قيصر » بحوالي سبعة أو تسعة أعوام فيكتب مسرحيتين أخريين مأخوذتين أيضا من التاريخ الروماني . وأن هذه المسرحية تتناول فترة الانتقال من العصر الجمهوري الى العصر الامبراطوري في حين أن المسرحيتين التاليتين ـ وهما « أنطوني وكليوباترا » و « كوريولانوس » ـ تعالجان أصول الامبراطورية وبدايات الجمهورية على التوالي . فبهذه الطريقة يمكن للمرء أن يفسر كتابة شكسبير لمسرحية « أنطوني وكليوباترا » فهي على هذا الأساس تبدأ تاريخيا من حيث انتهت الأحداث في « يوليوس قيصر » ، أي أنها تأخذ منها خيط الحدث الدرامي وتتصاعد به ثم تنتهي لنفسها بعد ذلك خطا جديدا . ولكن اختيار شكسبير لموضوع « كوريولانوس » قد أوقع الدارسين في حيرة كبيرة لأن القصة نفسها ليست مشهورة شهرة قصة يوليوس قيصر أو أنطونيوس وكليوباترا . وبعبارة أخرى هي قصة لم تجتذب انتباه أو أقلام الأدباء والفنانين في عصر النهضة . فلم نسمع الا عن الكاتب الفرنسي الكسندر هاردي (Alexandre Hardy ١٥٧٥ ـ ١٦٤١) الذي كان قد كتب مسرحية تسمى « كوريولان » (Coriolan) قبل شكسبير بفترة وجيزة .[٢٠] فمن الملاحظ أن معظم مؤلفي الدراما في عصر شكسبير قد فضلوا الفترة الواقعة عند نهاية العصر الجمهوري وبداية العصر الامبراطوري أي الفترة الانتقالية فيما بين العصرين وهي فترة مليئة بالتوتر والأحداث المثيرة .

ومن ثم يبدو أمرا مميزا لعبقرية شكسبير الدرامية أن يختار فترة البداية المبكرة لعصر الجمهورية في كوريولانوس[٢١] . والجدير بالذكر أن هارولد جودارد (Harold Goddard) قد أظهر نوعا من التردد وهو

---

(٢٠) راجع Bullough, op. cit., vol V pp. 464—476
والجدير بالذكر أن مسرحية قصة كوريولانوس التي قام بها كل من جيمس تومسون James Thomson (١٧٠٠ ـ ١٧٤٨) بعنوان « كوريولانوس » والتي ظهرت عام ١٧٤٩ وكذلك معالجة برتولد بريخت Bertold Brecht (١٨٩٨ ـ ١٩٥٦) بعنوان « كوريولان » (Coriolan) والتي عرضت في لندن عام ١٩٦٥ تبدوان كرنهما عمل مباشرا بتقليد بالمنهج لمسرحية شكسبير ويمكن أن يقال نفس الشيء عن « افتتاحية كوريولان » (Coriolan Overture) بيتهوفن من وضع بيتهوفن (١٧٧٠ ـ ١٨٢٧) وقصيدة ت . س . اليوت (T. S. Eliot) بعنوان كوريولان (Coriolan) .

(٢١) Jan Kott, Shakespeare Our Contemporary (London — Methuen 1965) p. 146, T.J.B. Spencer, Shakespeare and The Eliza bethan Romans, — (Shakespeare Survey. No. 10, (1957) p. 31

يحاول تعليل اختيار موضوع كوريولانوس ، ولم يقل أكثر من أن شكسبير قد تمتع بحس تاريخي نادر ، وأن معظم المسرحية يمكن اعتباره محاولة لتصوير روح روما القديمة في عصرها الباكر وما تميزت به من صرامة . أما جيوفري باللو فيبرر اختيار شكسبير لهذا الموضوع قائلا بأنه حتى عام ١٦٠٧ كان شكسبير قد قدم « يوليوس قيصر » و « انطوني وكليوباترا » وهما دراستان مسرحيتان لروما في نهاية العصر الجمهوري وربما رغب في أن يعرض شيئا ما عن روما في بداية نشأتها فكان عليه أن يلقي نظرة في مؤلفات ليفيوس وفلوروس (عاصر الامبراطور دوميتيانوس ٨١ ـ ٩٦م وهادريانوس ١١٧ ـ ١٣٨م) وبلوتارخوس ليتحقق من أن روما لم تبن بين يوم وليلة وان قصة كوريولانوس تصور حالتها المبكرة .[٧٢] على أية حال فان المسرحيات الثلاث تمثل ثلاثية تاريخية عن صعود وهبوط نجم الجمهورية الرومانية أو هي ثلاثية تراجيدية بطلتها مدينة روما نفسها التي فسدت فيها الجمهورية واضمحلت وسارت الى الهاوية بفضل النجاح الذى حققته والانتصارات التي كسبتها والسيطرة الكاملة على العالم التي أمسكت بزمامها والسلطة الكبيرة التي تمتع بها حكامها .

ولكننا بالفعل تواجه صعوبات لا يستهان بها في سبيل أن نعتبر المسرحيات الرومانية الثلاث ثلاثية متكاملة . ومن أهم هذه الصعوبات مشكلة الانكسار الاستمرارية في شخصية أنطونيوس عندما تنتقل من « يوليوس قيصر » الى « أنطوني وكليوباترا » . وكذلك الفرق الزمني بين نظم مسرحية « يوليوس قيصر » والمسرحيتين الأخريين . ومن ثم فلعله من الافضل ان نركز جهودنا مؤقتا فيما هو شبه مؤكد أي أن « كوريولانوس » و « أنطوني وكليوباترا » تمثلان « ثنائية » رومانية تكمل كل واحدة منهما الثانية . ومن المحتمل ان يكون شكسبير قد خرج بفكرة مسرحية « كوريولانوس » على النحو التالي : بينما كان يقرأ سيرة أنطونيوس لبلوتارخوس صادفته قصة تيمون الاثيني التي بدورها قادته الى سيرة الكيبياديس وهناك وجد ما يقوده الى السيرة المقارنة لكوريولانوس . ومما يسهل علينا الامر فيما يتعلق باعتبار « انطوني وكليوباترا » و « كوريولانوس » ثنائية رومانية أنهما نظمتا في نفس الوقت تقريبا .

وينبغي أن نضع في الاعتبار - اذا شرعنا في قراءة هاتين المسرحيتين - الفروق بين « الجمهورية » و « الامبراطورية » لكـي يتسنى لنا ان نفهم كيف أنه أمر جد مختلف بين ان تكـون رومانيـا في عالم « كوريولانوس » وان تكون رومانيا أو تعيش في عالم « أنطوني وكليوباترا » . فالمسرحية الاولى تمثل روما عندما كانت حدودها لا تمتد كثيرا فيما وراء سورها أما « أنطوني وكليوباترا » فانها تتناول قصة روما عندما وصلت امبراطوريتها أقصى اتساع لها . وهناك فرق قاطع وبون شاسع بين ان تعيش في مدينة صغيرة هي جمهورية ناشئة تناضل من أجل البقاء ضد جيرانها الاعداء الطامعين فيها المغيرين عليها بين الحين والآخر ، ولكنها قد وضعت

---

(٧٢)

Harold Goddard, The Meaning of Shakespeare
(Chicago University Press 1951) p. 595; cf. Bullough,
op. cit., Vol V p. 454.

قدمها على بداية طريقها لكسب القوة والسلطان ، وبين ان تعيش في ظل نظام الحكم الامبراطوري الروماني الذي امتد ليشمل كل اومعظم أرجاء العالم المعروف آنذاك وبلغ القمة في القوة والسؤدد . ان احساس شكسبير بهذه الفروق بين « الجمهورية » و « الامبراطورية » يسود تصويره للخلفية العامة ورسم الشخصيات وبناء الحدث الدرامي بل ويمتد تأثيره الى الاسلوب والصور الشعرية في المسرحيتين موضع الحديث .

وفضلا عن أن ذلك يؤكد فهم شكسبير لظاهرة روما والرومان فانه يسهل مهمتنا في التدليل على أن « أنطوني وكليوباترا » و « كوريولانوس » مسرحيتان متلازمتان متكاملتان . فمن حين الى آخر تصادفنا صور شعرية كثيرة وأفكار معينة ومشاهد كاملة في هاتين المسرحيتين تعمل على نحو تكاملي وكأنها تهدف لعقد مقارنة ذات مغزى بين عالميهما . بل ان قصة حياة كل من كوريولانوس وأنطونيوس تلقي الضوء على الاخرى ، فالبطلان يجسدان خليطين متباينين ومزيجين متفاوتين من الفضائل والرذائل البطولية بحيث ان رذائل احد البطلين تساعد على اظهار وابراز فضائل الآخر بالمغايرة كما ان فضائل أحدهما تجسم وتضخم رذائل الآخر . فبينما يبدو أنطونيوس مذبذبا رغم انه القائد الاعلى والآمر الناهي ، وبسبب هذا التذبذب يضيع الفرص الثمينة فتفلت الواحدة بعد الاخرى من يديه ، نجد كوريولانوس حازما حاسما في اتخاذ القرارات حسما وحزما يقربانه من حدود الاستبداد والحكم الفردي مع انه يعيش في ظل النظام الجمهوري . وبينما تدفع عجرفة كوريولانوس الرجال الذين كسب من اجلهم النصر تلو النصر لأن يطردوه في النهاية وينبذوه ، نجد سخاء أنطونيوس وليبراليته ودفء المشاعر الانسانية في صدره تكسب له التعاطف والتأييد حتى من جانب الرجال الذين قادهم الى الهزيمة المرة . هكذا يقترب شكسبير بشدة من مصدره لأن هم بلوتارخوس الاكبر كان هو عقد مثل هذه المقارنات بين رجالات روما وأبطال اليونان عن طريق « سيره المقارنة » فها هو شكسبير يفعل نفس الشيء مقارنا بين روما الجمهورية وروما الامبراطورية عن طريق مسرحيتين وقصة بطلين .

ولقد ذهب شكسبير الى ما وراء بلوتارخوس وهو يرسم الخلفية السياسية لمسرحياته الرومانية ونضرب مثالين على ذلك : الاول هو الحوار بين التريبيونين (نقيبي العامة) في نهاية المشهد الاول من الفصل الاول بمسرحية « كوريولانوس » والثاني هو المشهد القصير الذي يبدأ به الفصل الثالث في « أنطوني وكليوباترا » . ففي هذين الموضعين يظهر شكسبير فهما عميقا لحقائق ودقائق السياسة الرومانية مما يذكرنا بكاتب مثل ماكيافيللي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) . بل ان هاتين الفقرتين تؤكدان لنا ان الشاعر الانجليزي قد قرأ هذا الكاتب الايطالي ولا سيما « مناقشات حول الكتاب الاول لليفيــوس » (Discourses on Livy Book I ch. xxx) . والفقرة الاولى من « كوريـولانوس » يدور الحوار فيها بين سيكينيـوس (Sicinius) وبروتوس ولا أساس لها عند بلوتارخوس على الاطلاق فهي من اختلاق شكسبير الخالص . أما المشهد بين فينتيديوس القائد التابع لأنطونيوس وأحد الجنود في « أنطوني وكليوباترا » فيقوم على أساس حادثة بسيطة رواها بلوتارخوس بهذا المعنى الذي جاء عند

شكسبير . ولكن الشاعر الانجليزي أولاها عناية فائقة ، وألقى عليها أضواء كاشفة ، متبعا وسائل عدة أولها أنه اختارها هي بالذات بين زخم الحوادث التي رواها بلوتارخوس عن الحملة البارثية . وثانيها انه أطال في سرد تفاصيل هذه الحادثة الصغيرة . ويرى كانتور (P. A. Cantor) ان الموضعين اللذين تتحدث عنهما من « كوريولانوس » و « أنطوني وكليوباترا » لا يساهمان كثيرا في تطوير الحدث الدرامي بل يمكن حذفهما ففيهما وبهما قطع شكسبير حبل التطور الدرامي ليعقد مقارنة بين روما الجمهورية وروما الامبراطورية(٢٣)

ان المشهد الذي نتحدث عنه في « أنطوني وكليوباترا » يقدم صورة غريبة لقائد روماني أي فينتيديوس حقق نجاحات باهرة ولكنه يحجم عن مواصلة انتصاراته العسكرية وهو مدفوع الى ذلك الموقف العجيب لا لأسباب استراتيجية او خطط تكتيكية وانما خضوعا لنوازع محض شخصية تتلخص في حرصه الشديد على ألا يظهر طموحا اكثر من اللازم في ناظري قائده الاعلى أنطونيوس خشية ان يغضب عليه او ينقم نقمة حاسدة لا تحمد عقباها . وهذا يدل دلالة واضحة على ان ما كان يهم القائد الروماني في ميدان الحرب بالدرجة الاولى هو ان يحوز على رضا القائد الاعلى لا ان يفوز بالنصر والأرض لصالح الدولة . تلك هي الخلفية السياسية لروما الامبراطورية . وفي حين كان النظام الجمهوري يحاول التوفيق بين المصلحة الشخصية (res priva) والصالح العام (Res Publica) صار هناك تناقض حاد بينهما ابان العصر الامبراطوري بدليل ان فينتيديوس في المشهد الذي نتحدث عنه لم يذكر - ولو باشارة طفيفة - المصلحة العامة في حديثه . واذا كان بمقدور الفرد ابان العصر الجمهوري ان يصل الى أعلى المناصب أي القنصلية بفضل جهوده وكفاءته وأمجاده فان الوصول الى هذه المناصب والاستمرار في شغلها ابان العصر الامبراطوري كان يقوم بالدرجة الاولى على الدسائس والمؤامرات التي تجري وراء الكواليس . وهكذا اصبح فن التملق والتفوق فيه أجدى من فن الحرب والانتصار في مجاله . كما اصبح الولاء للحكام والقادة يستهدفهم بصفتهم أفرادا لا ممثلين للدولة والمصلحة العامة . ففينتيديوس يدين بالولاء لأنطونيوس اكثر مما يدين بالولاء لروما نفسها ولذلك فهو لا يتحدث الا عن نفسه وعن أنطونيوس الامبراطور . اما كوريولانوس في المسرحية المسماة باسمه (ف ١م ١ب ٢٧١ ، ٢٨٦) فعندما يتطرق الحديث الى علاقته بقائده الاعلى كومينيوس (Cominius) يدخل طرف ثالث هو صوت المجتمع الروماني الذي يسبب الدوار لشدته (giddy censure) وهذا يعني ان الشعب الروماني او المدينة او المصلحة العامة او الجمهورية - فهذه كلها مسميات لشيء واحد - تلعب دور الشريك الكامل في كل الامور والمواقف التي تقع بين المواطنين .

على انه قد دار جدل عنيف بين نقاد شكسبير حول تحديد طبيعة ونظام الحكم الذي يصوره في مسرحيته « كوريولانوس » فمن قائل بانه نظام ارستقراطي الى آخر يقول بأنه ديموقراطي . فاذا وضعنا في الاعتبار بأن

---

(٢٣) Paul A. Cantor, Shakespeare,s Rome. Republic and Empire
(Cornell University Press. Ithaca and London 1976)
pp. 41—2, 43—5.

هناك ثلاثة أنظمة معروفة للحكم في العالم القديم وهو نظام الحكم الفردي المستبد (monarchia) ونظام الحكم الارستقراطي (aristokratia) ونظام الديمقراطية (demokratia) لصار امرا صعبا ان نضع نظام الحكم الذي يصوره شكسبير في « كوريولانوس » تحت راية اي من هذه النظم الثلاث . فنظام الجمهورية الرومانية(Res Publica)هو - كما يقول بعض الكتاب القدامى انفسهم - نظام فريد لا يمكن ان يتطابق مع اي نظام من النظم الثلاث . ويقول المنظرون السياسيون بأنه ينبغي ان نفهم الجمهورية الرومانية على انها نظام رابع للحكم يمكن أن تسميه « النظام المختلط » أو « الحكم المختلط » لانه - على وجه التحديد - يجمع بين الارستقراطية والديمقراطية وليس حكما فرديا[٧٤] . وينطبق هذا المفهوم للجمهورية الرومانية على معطيات مسرحية « كوريولانوس » مما يدل دلالة قاطعة على أن معلومات شكسبير عن روما والتاريخ الروماني تفوق كثيرا معلومات بعض نقاده ودارسيه من ناحية وتفيد المتخصصين في الدراسات الكلاسيكية من ناحية اخرى . فكلما قرأ المرء عن روما وتاريخها قبل ان يعايش شكسبير كلما ازداد اعجابا وانبهارا بتمكن هذا الشاعر المبدع من فهم الجوهر الاساسي للظاهرة الرومانية . ونضيف الى ذلك حقيقة تهم دارسي شكسبير ونقاده بصفة خاصة ، ذلك أن فهم أسس هذا « النظام المختلط » للحكم الجمهوري الروماني هو حجر الزاوية في فهم الحدث الدرامي لمسرحية « كوريولانوس » .

فاذا انتقلنا الى عالم أنطونيوس وجدنا هذا الرجل يمثل اسلوبا جديدا للحياة يقوم على رفض المفاهيم والقيم القديمة عن الفضيلة والنبل . انه أسلوب حياة عصري يقوم على مبدأ اطلاق العنان للحواس وعدم كبت الرغبات او حبس الشهوات . وهكذا نجد أنطونيوس يبني أمجاده الخالدة في ميدان الحب بعكس أجداده الأوائل الذين أقاموا أمجادهم العظيمة الخالدة في مجال الحرب والضرب وعلى أرض المعارك العسكرية الطاحنة لا على الارائك والموائد الفاخرة أو الولائم الماجنة . هكذا يصور كل من كوريولانوس وانطونيوس جانبا من جانبي الطبيعة الانسانية . يناقض كل منهما الآخر من ناحية ويتكامل معه من ناحية اخرى . ويتضح تفسيرنا لهاتين المسرحيتين

---

(٧٤) عن هذا الموضوع راجع :

Kurt von Fritz, The Theory of the Mixed Constitution in Antiquity (New York, Columbia University Press) 1954.

وجدير بالذكر ان أصول هذه الفكرة ترجع الى أرسطو التي أشار اليها في كتابه (Polit. 1293 b — 1294 b) ولكن المؤرخ الاغريقي بوليبيوس (حوالي ٢٠٢ - ١٢٠ ق.م) هو الذي طبق هذه الفكرة النظرية على نظام الحكم في الجمهورية الرومانية (Hist. VI 10—18) ثم أصبحت هذه الفكرة أساسا أقام عليه ماكيا فيللي تفسيره لظاهرة الحكم الروماني

(راجع Machiavelli, Discourses on the First Ten Books of Livy, I ii)

وبعد ذلك سادت هذه الفكرة الكلاسيكية عن « الحكم المختلط » في الكتابات السياسية والنصوص الادبية ابان عصر النهضة الاوربية وكان أول من ربط هذه الفكرة بمسرحيات شكسبير الرومانية هو :

Clifford Chalmers Huffman, " Coriolanus " in Context (Lewisburg, Bucknell University Press 1971) pp. 30—34.

وهذين البطلين لو ألقينا نظرة على تناول شكسبير لموضوع الحب فيهما . فالحب يلعب دورا ضئيلا في مسرحية « كوريولانوس » وحياة بطلها بل يكاد ان لا يكون له دور نهائيا . اذ يمكننا ان ننسى أو نتناسى وجود الثنائي المتزوج كوريولانوس - فيرجيليا ولا سيما أن حبهما لا يجد متنفسا عاطفيا ولا تعبيرا صريحا . بل تتحكمه شكائم قوية تكاد ان تخنقه . أما في « أنطوني وكليوباترا » فالأمر جد مختلف لأن الحب يقع في قلب الحدث الدرامي نفسه ويتمركز في بؤرة اهتمام المؤلف من البداية الى النهاية . وهكذا نجد أحاديث الحب في « كوريولانوس » - اذا سمح لها ان تدور - لا تتعدى حدود العفة ولا تتخطى قوانين الكياسة والطهارة ولا تمس الاديانا ربة العذرية والصيد والطبيعة البكر . أما في « أنطوني وكليوباترا » فحديث الحب هو حديث اللذة والمتعة الجنسية . تلهبه شهوانية فينوس ربة الحب والجمال ويشارك فيه كيوبيد اله الحب الصغير بألاعيبه الصبيانية .

لقد أظهر شكسبير الدستور المدني الروماني في عصر الجمهورية كصالح عام يحتضن تحت جناحيه كل المصالح الفردية المتصارعة في المدينة فيوفق بينها ويجمع شملها ويظلها جميعا بظله الظليل . ولذلك كانت المدينة نفسها - او المصلحة العامة - تلعب دور الوساطة بين الفرقاء من المواطنين . وهذا ما صان للمجتمع الروماني وحدته وحفظه من الانهيار او التفسخ . فالشيء الوحيد الذي يعيد الهدوء والسكينة بعد الهياج والعاصفة في « كوريولانوس » هو تذكير الرومان بالصالح العام . وعندما يحتدم الصراع والنزاع بين المواطنين الرومان فلا علاج الا برفع صولجان المدينة بين المتصارعين . عندئذ ينفض النزاع وتحل جميع المشاكل (ف ٣م ١ب ٢٠٣ - ٢٠٦) . ان الشخصيات التي تقوم بدور الوساطة في « كوريولانوس » ابتداء من مينينيوس (Menenius) في المشهد الافتتاحي الذي يحاول اخماد نار الفتنة وعلاج ثورة الرعاع وانتهاء بدور فولومنيا (Volumnia) التي تحاول اقناع ابنها بعدم الهجوم على مدينة روما . هذه الشخصيات الوسيطة قد نجحت في مهامها وحققت المطلوب لا بفضل الفصاحة والبلاغة التي تميزت بها فقط وانما ايضا لأنها تمثل المدينة روما . ان صوت هذه الشخصيات هو صوت الصالح العام وهذا ما خلع على أحاديثهم صفة البلاغة والاقناع . المنطقية والموضوعية . فحازت القبول ونجحت الوساطة . أما في « أنطوني وكليوباترا » فان الشخصيـات التي تقوم بدور الوساطة - ليبيـدوس وأوكتافيا - قد فشلت فشلا ذريعا وكان لابد ان تفشل . ويمكن اعتبار الحدث الدرامي في المسرحية ككل تصعيدا متصلا لافشال واسقاط كل عوامل التقارب بين البطلين المتصارعين انطونيوس واوكتافيانوس . ولقد التقى الغريمان في النهاية . وانما وجها لوجه . متناطحين على طرفي فجوة شاسعة لا يمكن سدها مهما بذل من جهود . ويكمن السر في فشل أدوار الوساطة في « أنطوني وكليوباترا » في حقيقة واحدة بسيطة فحواها عدم وجود شخص واحد في المسرحية يمثل روما تمثيلا حقيقيا ويتحدث باسمها أي باسم الصالح العام . كل فرد في هذه المسرحية يمثل مصلحته الشخصية ويعبر عن أهوائه الفردية وهي بالضرورة متعارضة ومتناقضة مع مصالح وأهواء الآخرين مما يستوجب ازالة أحد الاطراف .

وسنصل الى نفس النتيجة اذا قارنا علاقة الناس بالآلهة فيا بين المسرحيتين أعني فيا بين العصرين الجمهوري والامبراطوري . فاذا أخذنا موقف فولومنيا بمسرحية « كوريولانوس » عندما هدد ابنها بتدمير روما (ف ٥م ٣ب ١٠٤ - ١١٣) وقارناه بموقف أوكتافيا عندما اصبحت الحرب وشيكة بين زوجها أنطونيوس وأخيها اوكتافيانوس (ف ٣م ٤ب ١٢ - ٢٠) لوجدنا ان فولومنيا ممزقة بين حبها لوطنها - أي للصالح العام - وحبها لابنها . اما اوكتافيا فممزقة بين حبها لزوجها وحبها لاخيها . وهكذا تحول الصراع بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة في « كوريولانوس » الى صراع بين مصلحتين خاصتين . ففولومنيا تصور صراعها على انه صراع بين آلهة المدينة - أي الصالح العام - وآلهة الاسرة - أي الصالح الخاص . أما أوكتافيا فتصوره على انه صراع داخلي فيا بين آلهة المنزل وبعضهم البعض . ولقد استطاعت فولومنيا ان تحسم الصراع داخل نفسها لصالح المدينة ، مغلبة الصالح العام على المصلحة الشخصية ورافضة أن يكون عدو روما هو ابنها (ف ٥م ٣ب ١٧٨ - ١٨٠) أما أوكتافيا فلم ترد لفظة « المدينة » او « الصالح العام » على لسانها مرة واحدة .

ويظهر شكسبير الفارق الاساسي بين المسرحيتين وعالميها منذ افتتاحية كل منها . فمسرحية « كوريولانوس » تبدأ بالحياة اليومية ومتطلباتها البسيطة ونسمع فيها صرخات الجوع . أما في افتتاحية « أنطوني وكليوباترا » فان ابطال المسرحية يشعرون بجوع من نوع آخر غير جوع البطون . فليس ما يعانيه أنطونيوس وكليوباترا - سيدا الشرق - العوز والحاجة وانما يعانيان من التلهف على مزيد من التلذذ بالاسترخاء والتمرغ في رخاء الموائد وسخاء العواطف الحسية قبل الروحية . تبدأ اذن « كوريولانوس » بجو من الاستعجال والالحاح حيث تتهدد المجاعة والثورة مدينة روما . أما « أنطوني وكليوباترا » فتبدأ بالترف والخمول حيث يطرد أنطونيوس حامل الانباء من روما مفضلا أنباء الولائم والحفلات التي ستقام هذه الليلة بالأسكندرية . وهكذا ترسم « كوريولانوس » صورة روما القديمة والاصلية والاصيلة التي لم يفسد رجالها بعد ولم يتحلل سلوكهم بفعل الرخاء والاسترخاء . اما في « أنطوني وكليوباترا » فقد تدهور حال الرومان ووصل بهم الانحلال الى حد السخف مما يبشر روما بالاضمحلال .

ان الحروب الاهلية تمثل نقطة التحول في عالم السياسة الرومانية لأن الروماني بدأ يحارب الروماني من أجل السيطرة على روما نفسها وتلك قمة الفساد . ومنذ عصر يوليوس قيصر - ان لم يكن من قبله - اصبح التاريخ الروماني سجلا للصراع بين الروماني والروماني . في البداية كان بروتوس وكاسيوس ضد الائتلاف الثلاثي (الثاني) وبعد ذلك حارب رجال الائتلاف الثلاثي بعضهم البعض . وفي ظل هذا التفسخ الداخلي تلاشت فرص مواصلة الحياة السياسية مع الاحتفاظ بالكرم والنبل ، وتناقصت كوادر الرجال الشرفاء في عالم السياسة الرومانية بسرعة مذهلة (قارن « يوليوس قيصر » ف ٤م ٣ب ١٧٣ - ١٨٠) وساد شعور بأن سلالة الرومان الحقيقيين قد اندثرت (نفس المسرحية ف ٥م ٣ب ٦٠ - ٦٤ و ٩٨ - ١٠١ ، ف ٥م ٥ب ٦٨) . وهذه الفكرة

نفسها تعد مفتاحا مضمونا الى الفهم الصحيح لأحداث ومضمون مسرحية « أنطوني وكليوباترا » وبعبارة أخرى فان الروح السائدة في « يوليوس قيصر » تبشر بان مبادىء الشرف وقيم النبالة ستغيب عن حلبة الصراع السياسي إبان العصر الامبراطوري . وتلك حقيقة تلمسها في حادثة بسيطة في مسرحية « أنطوني وكليوباترا » . وتعني عرض أنطونيوس اليائس بأن ينازل أوكتافيانوس في مبارزة فردية لحسم الحرب وتقرير مصير الشعوب ! وهكذا لم تعد أمام أي قائد روماني الفرصة لكي يكسب المجد والشرف - لأن الجنود هم الذين يحاربون ويكسبون النصر له - الا اذا نازل القائد المعادي في مبارزة فردية ! أما في روما القديمة ذات الحدود الصغيرة فكان المجال أرحب أمام قوادها ليخوضوا المعارك المجيدة ضد الاعداء الاجانب من أجل أن يوسعوا حدود مدينتهم ويضموا الاراضي الشاسعة اليها . فاذا كان الشرف والمجد يعني احترام الناس لك كما تحترمهم أهلا تفضل منصب القنصلية في عصر الجمهورية الرومانية على عرش الامبراطورية ؟

يصرخ تيتينيوس (Titinius) في « يوليوس قيصر » (ف ٥م ٣ب ٦٣ - ٦٤) عندما يموت كاسيوس فيقول :

" The sun of Rome is set. Our day is gone
Our deeds are done "

« لقد غربت شمس روما .. ذهب نهارنا ... وانتهت أعمالنا »

وتجد هذه الصرخة صدى في « أنطوني وكليوباترا » (ف ٤م ١٤ب ٣٥ - ٣٦) حيث يقول أنطونيوس - بعد أن سمع نبأ موت كليوباترا الكاذب - لايروس :

" ..... the long day's task is done
And we must sleep "

« لقد انتهى عمل اليوم الطويل وينبغي ان تنام »

كما أنه من الملاحظ ان « الشمس الغاربة التي تسقط في الليل » (« يوليوس قيصر » ف ٥م ٣ب ٦٠ - ٦١) هي الصورة الشعرية التي بها يصف شكسبير روما الامبراطورية دائما وان شخصيات هذه الفترة التاريخية يشعرون عند شكسبير بأنهم يعيشون في زمن غير زمنهم . فهذا ما يظهر بصفة خاصة في شخصية أنطونيوس وموقفه تجاه كليوباترا (« أنطوني وكليوباترا » ف ٣م ١٣ب ١١٦ - ١٢٠) حيث يقول انه وجد كليوباترا كالفتات المتبقي من مائدة يوليوس قيصر وجنايوس بومبي مشيرا الى انها قد عاشت مع كل منهما قصة حب معروفة . وهذا من ناحية أخرى يعني ان فكرة الماضي الروماني تفسد على أنطونيوس متعته الحاضرة وتسلب من انتصاراته الحالية - في الحرب وفي الحب - صفة المجد والكرامة . ان أنطونيوس يشعر أنه لا يمكن ان ينافس أسلافه في ميدان الحرب ولا حتى ان يجاريهم في مجال الحب . فحتى كليوباترا وغزو قلبها اذا اعتبرناه نصرا لانطونيوس فانه يأتي في المرتبة الثالثة بعد يوليوس قيصر وجنايوس بومبي . وهذا مبعث ضيق أنطونيوس عندما

يذكره سكستوس بومبي (الاصغر) ان قيصر قد تمتع قبله بكليوباترا (ف ٢م ٦ب ٦٤ - ٧٠) وأكثر من ذلك وأنكى أن منزل أنطونيوس في روما موروث - لا بل مغتصب مستلب - من بومبي الاكبر وهذا ما لم يتركه ابن الاخير سكستوس بومبي فأشار اليه اكثر من مرة (ف ٢م ٦ب ٢٦ - ٢٧ و ف ٢م ٧ب ١٢٦ - ١٢٨) . صفوة القول اذن أننا لا يمكن ان نفهم مسرحية « انطوني وكليوباترا » الا اذا حاولنا ان نفهم اولا كيف كانت روما القديمة - أي في مسرحية « كوريولانوس » - وكيف هي الآن - أي في عصر أنطونيوس - بل ومن قبل ذلك في عصر « يوليوس قيصر » .[٧٥]

ومما يساعدنا على اعتبار المسرحيات الرومانية الثلاث - موضوع حديثنا - ثلاثية متكاملة ان شكسبير وهو ينظمها اعتمد أساسا على سير بلوتارخوس أو بعبارة أخرى أن مصدر المسرحيات الثلاث الرئيسي واحد فانعكس ذلك على شكل ومضمون هذه الثلاثية ككل . اذ كان جاك أميو (١٥١٣ - ١٥٩٣) الفرنسي قد ترجم هذه السير البلوتارخية عام ١٥٥٩ فنقلها سير توماس نورث (١٥٣٥ - ١٦٠٣ ؟) من الفرنسية الى الانجليزية عام ١٥٧٩ .

وكوريولانوس - كما يرد في سيرته عند بلوتارخوس - هوجايوس ماركيوس كوريولانوس مواطن روماني من طبقة الأشراف (patricii) وقائد عسكري نبيل إزدهر في النصف الاول من القرن الخامس قبل الميلاد تقريبا . واكتسب لقب كوريولانوس (Coriolanus) بعد ان استولى على كوريولي (Corioli) من الفولسكيين وهي سلالة إيطالية قديمة . ولكن كوريولانوس نفي بعد ذلك بتهمة أنه كان يخطط سرا لكي يصبح طاغية فوجد نفسه مضطرا للجوء الى أعدائه القدامى الفولسكيين ، بل وقادهم بنفسه في هجوم على موطنه الاصلي روما واحتل بعض المدن في سهل لاتيوم من حولها واصبح على بعد خمسة اميال من المدينة ذاتها . ولكنه في النهاية استجاب لتوسلات وتضرعات أمه فيتوريا (Veturia) وزوجه فولومنيا (Volumnia)[٧٦] وانسحب بالجيش المعادي وعاد الى أنتيوم حيث تم اعدامه على يد الفولسكيين . وسؤالنا الآن : هل اكتفى شكسبير وهو يصوغ مسرحيته « كوريولانوس » بسيرة هذا الرجل عند بلوتارخوس ؟ أم تراه رجع الى مصادر أخرى ؟

ومن بين المصادر التي يوردها باللو لمسرحية « كوريولانوس » التاريخ الروماني لتيتوس ليفيوس بترجمة فيليمون هوللاند عام ١٦٠٠ وكذلك التواريخ الرومانية لفلوروس بترجمة بولتون (E.M.B " olton ") التي لم تطبع الا عام ١٦٢١ . ومن المرجح انه اخذ شيئا ما عن قصة مينينيوس (Menenius) في المسرحية

---

(٧٥) Cantor, op.cit., pp. 9—10, 11—12, 13—15, 23, 48—49, 50—51, 130—131

(٧٦) من الملاحظ ان شكسبير قد جعل اسم زوجة كوريولانوس « فرجيليا » واسم أمه « فولومنيا » . والاسم الاول لايرد عند بلوتارخوس والمصادر الكلاسيكية الاخرى لأن زوجة كوريولانوس اصلا تدعى « فولومنيا » - الاسم الذي أعطاه شكسبير للأم . أما الأم في المصادر القديمة فتحمل اسم « فيتوريا » التي لايرد عند شكسبير .

من « دفاع عن الشعر » لسير فيليب سيدني عام ١٥٩٥ . ومن « بقايا عمل أكبر عن بريطانيا » لوليام كامدن (William Camden) عام ١٦٠٥[٧٧] . وبالفعل نجد ان شكسبير قد استفاد من ليفيوس في بعض التفاصيل كما انه غير في معطيات مصدره الرئيسي بلوتارخوس . فلقد حذف انسحاب الشعب الروماني من المدينة وهو الانسحاب الذي جعله بلوتارخوس المناسبة التي من أجلها اورد قصة مينينيوس اجريبا (Menenius Agrippa) فلقد وافق الشعب الروماني على الرجوع الى المدينة شريطة ان ينتخب من بين صفوفه نقباء العامة (Tribuni) لرعاية مصالحهم وحمايتها . ولكننا نجد شكسبير يعين نقباء العامة في المشهد الاول بالمسرحية . فمن الواضح ان الشاعر الانجليزي كان يهدف من البداية الى الاقلال من حجم الآلام الحقيقية للشعب الروماني ليزداد تعاطفنا مع البطل . ولذلك جعل شكسبير مسألة القنصلية - لا التمرد بسبب القمح - هو سبب نفي كوريولانوس ، كما انه اخترع فكرة سلوك كوريولانوس غير المحتمل اثناء توليه القنصلية وجعله يذهب للنفي باختياره . ولقد طور شكسبير كذلك في شخصية كل من مينينيوس وفولومنيا اذ اقتصرت وظيفة الاول عند بلوتارخوس على تهدئة الشعب . اما فولومنيا فتكاد لا تذكر عند بلوتارخوس اللهم الا عندما ذهبت تتضرع الى كوريولانوس زوجها بأن يكف عن الهجوم عن موطنه . اما في مسرحية شكسبير فان مينينيوس يظهر في ثلاثة عشر مشهدا ويبرز دوره هو وفولومنيا بصورة ملموسة في المسرحية . ولا يحفل بلوتارخوس كثيرا بعلاقة أم كوريولانوس فيتوريا بابنها ولكنها تصبح المنبع الرئيسي للمأساوية في مسرحية شكسبير . ويتضح عدم النضج العاطفي عند كوريولانوس شكسبير من وصف إبنه الصغير وهذا أمر ابتدعه الشاعر الانجليزي ابتداعا . ولكننا في غير ذلك نجد شكسبير يلتصق بمصدره الرئيسي التصاقا واضحا .[٧٨]

ولعل شخصية يوليوس قيصر (حوالي ١٠٢ق.م - ٤٤ق.م) غنية عن التعريف ولكننا فقط نود التنويه الى أن مسرحية شكسبير التي تحمل اسمه عنوانا والمأخوذة أساسا من سير بلوتارخوس لم تك أول مسرحية تكتب عن هذا العاهل الروماني الكبير ابان عصر النهضة . فالشاعر الفرنسي جاك جريفان (Jacques Grevin) ١٥٣٨ - ١٥٧٠) عرض مأساة بعنوان « موت قيصر » (La Mort de Cesar) عام ١٥٦١ أي قبل مسرحية شكسبير بحوالي أربعين عاما . ولا شك ان مؤلفي الدراما في ايطاليا كانوا قد تناولوا هذا الموضوع قبل جاك جريفان الذي تبعه مؤلفون آخرون أيضا ولكننا سنتوقف قليلا عند مسرحيته لأنها تحمل بعض التشابه مع مسرحية شكسبير .

تدور الاحداث في مسرحية « موت قيصر » على النحو التالي : في الفصل الاول يدور حوار بين قيصر وأنطونيوس حول الوسيلة المثلى للحكم فيقف قيصر في صف الشرف والمجد أما أنطونيوس فيدافع عن مبدأ القوة

---

(٧٧) Bullough, op.cit., vol V pp. 453—563

(٧٨) Muir, op.cit., pp. 219—224, 265—276

والعنف . وفي الفصل الثاني تبرز خيوط المؤامرة التي يديرها بروتوس وكاسيوس لاغتيال قيصر في مجلس الشيوخ . وفي الفصل الثالث تتجسد عواطف كالبورنيا زوجة قيصر التي تحذره من الذهاب الى مجلس الشيوخ بسبب أحلام وهواجس تراودها . وكاد قيصر ان يعدل بالفعل عن الخروج لولا أن ديكيموس بروتوس يؤاخذه على الاستسلام لاوهام نسائية ويصطحبه الى مجلس الشيوخ . وفي الفصل الرابع يتم اغتيال قيصر ويصف لنا الرسول تفاصيل الحادثة المروعة . ثم تختتم كالبورنيا الفصل بالبكاء والعويل واللعنات التي تصبها على القتلة . وفي الفصل الخامس يلقى بروتوس خطبة على الشعب ويليه أنطونيوس الذي يعرض على المحاربين القدامى جنود قيصر السابقين عباءة قائدهم وقد مزقتها طعنات الخناجر وضربات السيوف فتلطخت بالدماء فيصرخ الجنود مطالبين بالانتقام . ولقد كتبت هذه المسرحية على نمط تراجيديات سينيكا الفيلسوف . وربما لهذا السبب ولأن كلا من جريفان وشكسبير قد عاد الى بلوتارخوس وأخذ مادته من سيره بصفة أساسية جاءت مسرحيتاهما متشابهتين على الاقل في تركيزهما على احداث عام ٤٤ق.م . وانصافا لشكسبير فانه من الملاحظ انه قد وسع رقعة الاحداث وتعمق في دراسة الشخصيات فجاءت الحبكة الدرامية عنده أكثر ثراء وتعقيدا وأفضل اتقانا من سابقه الفرنسي .

ويورد باللو أربعة عشر مصدرا لمسرحية « يوليوس قيصر » هي كما يلي : « سيرة يوليوس قيصر » عند بلوتارخوس بترجمة نورث عام ١٥٧٩ وكذلك « سيرة ماركوس بروتوس » و « سيرة توليوس شيشرون » بنفس المصدر . ثم تواريخ ساللوستيوس (٨٦ - ٣٥ق.م) بترجمة توماس هيوود (Thomas Heywood) عام ١٦٠٨ . والتاريخ الروماني لفيلليوس باتيركولوس (حوالي ١٩ق.م - ما بعد ٣٠م) ترجمة السير ر. لوجريس (Sir R. Le Grys) التي طبعت عام ١٦٣٢ والكتاب الاول من حوليات كورنيليوس تاكيتوس (حوالي ٥٥م - حوالي ١١٧م) بترجمة جرينوي (R. Grenewey) عام ١٥٩٨ . و « تاريخ القياصرة الاثنى عشر » لسويتونيوس (حوالي ٧٠م - حوالي ١٦٠م) بترجمة فيليمون هوللاند عام ١٦٠٦ و « الحروب الاهلية » لأبيانوس السكندري (ولد فيما بين ٨١ و ٩٦م) بترجمة و .ب .(W. B.) عام ١٥٧٨ و « التواريخ الرومانية » لفلوروس (ازدهر فيما بين ٨١ و ١٣٦م) بترجمة بولتون (E. M. B " olton ") عام ١٦١٩ . و « الحاكم » بقلم : سيرتوماس اليوت (Sir Thomas Elyot) عام ١٥٣١ . و « مرآة الحكام » (جايوس يوليوس قيصر) بقلم : هيجينز (J. Higgins) طبعة ١٥٨٧ . وكذلك « القيصر » تأليف أورلاندو بيسكيتي (Orlando Pescetti) عام ١٥٩٤ . و « قيصر القتول » (Caesar Interfectus) بقلم : ريتشارد ايديس (Richard Eedes) وهي مسرحية مجهولة التاريخ . وأخيرا « انتقام قيصر » (Caesar's Revenge) وهي مسرحية مجهولة المؤلف ، وظهرت عام ١٦٠٦/١٦٠٧ ومثلها طلبة اكسفورد قبل أن تنشر ويبدو أنها كتبت فيما بين عام ١٥٨٧ و ١٥٩٥[٧٩] .

(٧٩) Bullough, op. cit., vol V pp. 3—211; cf. Muir, op.cit., pp. 187—200.

وفي هذه المسرحية الاخيرة نجد العناصر الثلاث الرئيسية التي قامت عليها مسرحية شكسبير « يوليوس قيصر » . وهي أولا : مأساة قيصر القائمة على ارتكابه خطأ تعدي الحدود او تجاوز المعقول وعدم الاعتدال وما نسميه بكلمة اغريقية واحدة« الهيبريس » (hybris) وثانيا : مأساة الانتقام او الدموية المميزة للمسرح الاليزابيثي وتمثلها بصورة خاصة « المأساة الاسبانية » لتوماس كيد (١٥٥٨ - ١٥٩٤) ؛ ثالثا : المعاناة النفسية في شخصية بروتوس . ومن الملاحظ انه بينا يغلب العنصر الثاني على مسرحية « انتقام قيصر » كما هو واضح حتى من عنوانها وذلك على حساب العنصرين الآخرين نجد مسرحية شكسبير تغلب عنصر المعاناة النفسية في شخصية بروتوس على المسرحية ككل . ومن المصادر المحتملة لمسرحية « يوليوس قيصر » الشكسبيرية مسرحية توماس كيد الأخرى « كورنيليا » وهي ترجمة لمأساة روبير جارنييه حامل لقب « سينيكا الفرنسي » . ففي هذه المسرحية ربما وجد شكسبير وصفا شيقا لأهوال الحروب الاهلية ونتائجها ولا سيما عدم دفن جثث الموتى . وبالفعل هناك تشابه بين المسرحيتين .

وتجدر الاشارة هنا الى ان اطلاع شكسبير على بلوتارخوس كان بداية مرحلة جديدة في نتاج الشاعر الانجليزي . لقد فتح له بلوتارخوس عالما جديدا . ولما كانت « يوليوس قيصر » هي أول مسرحيات شكسبير البلوتارخية فانها تعد الانطلاقة الشكسبيرية العظيمة نحو التراجيديا ذات المستوى الرفيع . ولكن هذا لا ينفي ان شكسبير في الكثير من الحالات ذهب في هذه المسرحية الى ما وراء معطيات بلوتارخوس وذلك ما نلاحظه في الخلفية السياسية للاحداث وفي رسم الشخصيات . فشكسبير يؤكد نقاط ضعف قيصر الطبيعية وأولها ارتكابه لخطأ الهيبريس كما سبق أن ألمحنا . ولكن المؤلف ينجح في ان يخرج بصورة لبطله أكثر نبلا وعظمة مما هو عند بلوتارخوس . أما بروتوس فيعطيه شكسبير بعض اللمسات الانسانية غير الموجودة في شخصيته عند بلوتارخوس مثل اهتمامه وقلقه على مصير لوكيوس وثقته التامة في صحة سلوكه بالاضافة الى استبداده في الرأي وخداعه للنفس . اما شخصية كاسكا فتكاد تكون من اختراع شكسبير . وقد يبدو ان الشاعر الانجليزي يلتصق برواية بلوتارخوس ويلتزم بها التزاما حرفيا حتى أنه يتبعه في أخطائه . فلقد ورد في ترجمة نورث أن أسم بروتوس هو كما يلي Decius Brutus والصحيح هو ديكيموس (يونيوس) بروتوس Decimus (Iunius) Brutus الذي كان قنصلا عام ٧٧ق.م. واشترك في مؤامرة كاتيلينا وفي حروب قيصر التالية ثم في المؤامرة على اغتيال ولي نعمته . وهو غير بطل المؤامرة الرئيسي ماركوس (يونيوس) بروتوس Marcus (Iunius) Brutus المولود عام ٨٥ق.م. تقريبا . كذلك اتبع شكسبير مصدره بلوتارخوس وهو يخطىء في ذكر اسم جايوس ليجاريوس Gaius Ligarius فالاسم الصحيح هو كوينتوس ليجاريوس Quintus Ligarius .

ومع ذلك فشكسبير يحذف بعض التفاصيل ويتوسع في بعضها الآخر ويغير ويبدل في رواية بلوتارخوس ويتصرف بحرية في المادة التاريخية الخام ليخلق منها دراما رائعة . فهناك مثلا مدة زمنية عبارة عن أربعة شهور

تقع فيها أحداث كثيرة منها الانتصار المذكور في المشهد الاول بالمسرحية ووليمة أعياد اللوبركاليا (Lupercalia) التى كانت تقام في ١٥ فبراير تكريما للاله فاونوس Faunus الذى كان يعبد تحت لقب لوبيركوس (Lupercus) وهي الاعياد التى حاول فيها أنطونيوس بوصفه قنصلا وأحد المشرفين عليها عام ٤٤ق.م أن يضع تاج الملكية فوق رأس قيصر . ثم حادثة تعرية تماثيل قيصر على يد نقباء العامة . ولكن شكسبير كثف أحداث الاربعة شهور وجعلها تقع جميعا متلاحقة الواحدة بعد الأخرى في يوم واحد . وطبقا لما يرد عند بلوتارخوس فان بروتوس ألقى خطبتين بعد الاغتيال واحدة فوق الكابيتول والثانية في السوق العامة ، أما أنطونيوس فلم يلق كلمته الا في اليوم التالى وبعد قراءة وصية قيصر . ولكن شكسبير جمع خطبتى بروتوس في خطبة واحدة وأعطى لها النجاح والقبول لدى الجمهور الرومانى ، الذى اقتنع بما جاء فيها على نحو يخالف ما جاء في كتب التاريخ . وفي حين تقع خطبة انطونيوس شكسبير بعد خطبة بروتوس مباشرة ويصبح الكشف عن محتويات وصية قيصر جزءا من هذه الخطبة فان التاريخ يقول لنا عكس ذلك . كما إن شكسبير حذف عن عمد خلافات أوكتافيانوس (الذى اصبح اسمه هكذا بعد تبنى قيصر له) ومشاجراته الطويلة مع أنطونيوس قبل أن ينجحا في النهاية في التوصل الى تحالف مؤقت يتم بموجبه تشكيل حكومة الائتلاف الثلاثى الثانى عام ٤٣ق.م.

حقا اننا لو قارنا ترجمة نورث لسيرة يوليوس قيصر عند بلوتارخوس مع مسرحية شكسبير لوجدنا أن الأخير في بعض الاحيان يستغل كل جملة بهذه السيرة التي يبدو أنه هضمها هضما جيدا ولكننا في نفس الوقت نلاحظ أن الشاعر الانجليزي المبدع لايكدس التفاصيل او يشتتها وانما يوزعها توزيعا مدروسا على مراحل تطور الحدث الدرامى وحسب مقتضياته وخط سيره المتصاعد كما أنه يدخل التغييرات اللازمة كلما شعر بالحاجة الى ذلك . ففى حين ان يوليوس قيصر عند بلوتارخوس يتشكك في نوايا كاسيوس ويتخوف من أمره فان قيصر شكسبير البطل الدكتاتور ذا الشخصية الطاغية المهيمنة لا يمكن أن يتشكك او يتخوف دون ان يفعل شيئا ، فاذا أثار كاسيوس الظنون في قلبه كان من السهل عليه ان يتخلص منه او يحمى نفسه ضده أو يحد من خطره . انه قوى كالرخام لاتناسبه عبارات بلوتارخوس عن الغيرة والشك الى حد الخوف . حقا لقد احتفظ شكسبير لقيصر ببعض الشكوك حول كاسيوس ولكنها شكوك لاتثير خوفا أو حقدا فقيصر ـ لابل اسم قيصر ـ غير قابل للتعرض لمثل هذه المشاعر الضعيفة (ف١م٢ب١٩١ وما يليه) . ولقد كان بلوتارخوس هو مبتدع رواية الفأل السيء الناجم عن عدم وجود قلب في جسد الحيوان الذي قدم قربانا قبل خروج قيصر من منزله الى مجلس الشيوخ . ولكن بلوتارخوس لم يقل اكثر من أنه كان امرا غريبا وعجيبا في الطبيعة كيف يعيش حيوان بلا قلب ! اما شكسبير فقد استغل هذه الحكاية الفرعية أحسنَ استغلال متيحا لقيصر أن يرد رده الرائع على الخادم الذي أخبره بحادثة القربان الغريبة هذه وأن الكهنة يرون عدم خروجه من المنزل حيث قال (ف ٢م ٢ب ٤٢ ـ ٤٣) :

" Caesar should be a beast without a heart
If he should stay at home to—day for fear. "

« فليكن قيصر حيوانا بلا قلب اذا هو قبع اليوم في بيته من الذعر »

هكذا أصبح يوليوس قيصر عند شكسبير ـ كما هو الحال عند معظم كتاب عصر النهضة ولا سيما عند مارك أنطوان موريه Marc Antoine Muret في معالجته اللاتينية لنفس الموضوع ـ بطلا هرقليا تراجيديا[٨٠]

وجدير بالذكر ان وصف شكسبير لعلامات الشؤم التي ظهرت للناس قبل اغتيال يوليوس قيصر تذكرنا بما يرد في مسرحية « هاملت » وغيرها من مسرحيات شكسبير . وهو في ذلك يقلد المؤلفين القدامى بالطبع ولكنه حتى في هذا التقليد يظهر قدرة فائقة على التجديد . ففي حين يذكر شكسبير سبعة عشر علامة شؤم ظهرت في « يوليوس قيصر » لاترد عند بلوتارخوس سوى تسعة منها . كما انه في حديث شكسبير عن هذه العلامات نجد اصداء من قصائد اوفيديوس « التناسخات » ولاسيما الكتاب الخامس عشر عنها . ويلاحظ ان بعض علامات الشؤم الواردة عند اوفيديوس وشكسبير لاوجود لها عند بلوتارخوس ومثال ذلك الحرب التي تقع في السماء مما يحيل قطرات المطر دماء ويحدث الزلازل . كما ان الطائر المذكور وجوده فوق الكابيتول هو البومة . ولم يكن بلوتارخوس واوفيديوس وحدهما مصدرا لوصف علامات الشؤم هذه عند شكسبير فعنده يقع أيضا خسوف قمرى كما يحدث عند سينيكا (وأوفيديوس) عندما يتحدث عن نهاية أبطاله التاريخيين والتراجيديين . وفي أشعار فرجيليوس أيضا تحدث زلازل ويقع كسوف للشمس وتظهر الاشباح عندما يموت بطل من أبطاله .[٨١] كما ينبغي ان نتذكر علامات الشؤم التى يصفها لوكانوس على أنها ظهرت عندما عبر يوليوس قيصر نهر الروبيكون معلنا الحرب على روما وفاتحا صفحة جديدة قاتمة في التاريخ الروماني أى صفحة الحروب الاهلية الدموية .[٨٢]

ولا أدل على تحرر شكسبير من بلوتارخوس في بعض المواضع من أنه أخذ بعض مادته في « يوليوس قيصر » من أبيانوس السكندرى سالف الذكر والذى ترجم عمله عام ١٥٧٨ بعنوان « التاريخ القديم وسلسلة الحروب الرومانية الاهلية والخارجية »

" Auncient Historie and exquisite Chronicle of the Romanes warres both Civile and Foren "

---

(٨٠) H.M. Ayres, Shakespeare,s' Julius Ceasar' in The Light of some other Versions, Proceedings and Publications of The Modern Language Association of America, n.s. 18 (1910) pp. 183—227

(٨١) Etman, the Problem of Haracles, Apotheosis, p.275

(٨٢) Muir, op. cit., pp. 196—200

فهناك مثلا دلائل قوية تشير الى أن شكسبير قد استقى من هذا المصدر فكرة مرض قيصر بعد رفضه التاج الملكي مباشرة،وأخذ عنه ايضا فكرةالأداء التمثيلي الذي تميز به أنطونيوس وهو يلقي خطبته.والجدير بالذكر أن شيشرون (١٠٦ـ٤٣ق.م) يتحدث في كتابه «عن الخطيب»(De Oratore)عن خطيبين بليغين أحدهما هو ماركوس أنطونيوس وهو جد مارك أنطوني عشيق كليوباترا وحامل نفس الاسم . وهذا الخطيب الفصيح لم ينشر شيئا من خطبه بل كان حريصا كل الحرص على أن يخفي حقيقة أن فصاحته تستند الى دراسة شاقة متأنية لفن الخطابة والى اعداد جيد لخطبه قبل القائها . ويعتقد روز (H. J. Rose) انه ليس من المستبعد أن صورة انطونيوس الحفيد ـ أي مارك أنطوني ـ كرجل صريح الى حد الفلظة أحيانا في مسرحية « أنطوني وكليوباترا » وكخطيب مفوه يتميز بالكياسة في مسرحية « يوليوس قيصر » قد نجمت عن خلط من جانب شكسبير بين الجد والحفيد .[٨٣] على أية حال فان شخصية أنطونيوس عند أبيانوس هي الأقرب الى شخصيته في « يوليوس قيصر » مما يرد عند بلوتارخوس وشيشرون بشأنها . فعند أبيانوس نجد أنطونيوس مخلصا تمام الاخلاص في ولائه كما أنه يتميز بشخصية الانسان الفنان العاطفي وان كان لايخلو من المكر . ان عملية كشفه عن جثمان قيصر وثوبه المهلهل بسبب الطعنات والضربات كما ترد في مسرحية « يوليوس قيصر » أقرب ما تكون الى ما يرد عند أبيانوس . هذا ومن الملاحظ أن أبيانوس ـ في الترجمة الانجليزية المذكورة ـ يتفق مع شكسبير في ذكر اسم كالبورنيا كما يلي « كالفورنيا » (Calphurnia) وليس كما يرد عند بلوتارخوس بترجمة نورث (Calpurnia) وهذا أمر له دلالته بالطبع .[٨٤]

●●●

ولعل أقصى ما نطمح اليه بهذه الدراسة هو أن نكون قد فتحنا ثغرة جديدة في الدراسات الادبية المقارنة ، وهيأنا مدخلا مناسبا لأبحاث اكثر عمقا وتفصيلا . فاذا استطاعت هذه الدراسة أن تفتح شهية المتخصصين في الدراسات الكلاسيكية الانجليزية المقارنة لمزيد من البحث والتقصي في هذا المجال نكون قد حققنا المراد ونلنا

(٨٣) ــ Rose, op. cit., p.168

(٨٤) E. Shanter (ed.), Shakespeare,s Appian (1956), p. 14; Muir, op.cit., pp. 190—192

أقصى ما نتمنى . فلقد أصبحنا الآن ـ بعد أن أنهينا هذه الدراسة المتواضعة ـ اكثر اقتناعا من ذى قبل بأن الموضوع يحتاج الى موفور الرعاية والعناية من قبل البحاثة والنقاد ، ولكننى أستطيع من الآن أن أطمئن كل من يتصدى لمثل هذه الدراسة المضنية بأن الثمار المرتقبة مضمونة وأن المردود المأمول وافر يغرى بتحمل عناء البحث ومشقة الدرس . نقول ذلك للمتخصصين في الدراسات الكلاسيكية ونقوله ايضا للمهتمين بالدراسات الشكسبيرية التى لن تحل بعض المسائل الخلافية فيها الا بالرجوع للمصادر الكلاسيكية .

***

شخصيات وآراء

فرديناند تونيز
الجماعة المحلية والمجتمع

أحمد أبوزيد

ربما كان فرديناند تونيز Ferdinand Tonnies من اقل علماء الاجتماع الألمان حظا من الشهرة وذيوع الصيت لدى الدارسين في العالم العربي ، مع أن آراءه وأفكاره الرئيسية تشيع شيوعا كبيرا في الكتابات السوسيولوجية والانثربولوجية في الخارج ، ويعتمد عليها الكثيرون من العلماء في تحليلهم للمجتمع الانساني وبخاصة في حالة التغير[٦] . وربما كان السبب الرئيسي في عدم ذيوع اسم تونيز وانصراف معظم الدارسين عن قراءة كتاباته هو صعوبة اسلوبه والطريقة المعقدة التي يعرض بها أفكاره وآراءه ، والتي تجعل من محاولة قراءة اعماله وفهمها عبئا ثقيلا يتطلب قدرا عاليا من القدرة على التركيز ، كما تحتاج الى كثير من الصبر والمثابرة . ومع ان تونيز ينتمي الى فئة المفكرين والعلماء أصحاب « الفكرة الواحدة » على ما يقول سوروكين Sorokin في مقدمته للترجمة الانكليزية عن « الجماعة المحلية والمجتمع » إلا انه في عرض هذه « الفكرة الواحدة » وتحليلها وإبرازها والبرهنة على صحة ما يذهب اليه يعقد المسألة كلها تعقيدا شديدا يؤدي الى نفور الكثيرين من القراء والدارسين . فطريقة تفكير تونيز إذن وأسلوب كتابته وطريقة معالجته للمشكلات والمصطلحات الكثيرة المبهمة التي يستحدثها ويستخدمها في التحليل ،

---

(٦) استعان بنظرية تونيز عدد من الانثربولوجيين المصريين في تحليل المجتمعات التي قاموا بدراستها دراسة حقلية كما أن اسم تونيز معروف بين الانثربولوجيين بوجه خاص رغم أن نظريته لم تستخدم حتى الآن - وبقدر ما أعلم - في أي دراسة سوسيولوجية ميدانية . وربما كانت أول مرة استخدمت فيها نظريته هي في دراستي عن :

The Great Oasis ; A study of Social Institutions
In Kharga, An Oasis in the Southern Desert of Egypt (Un published
D.Phil. Thesis , Oxford 1956)

ثم عرض لها بعض طلاب الانثربولوجيا بعد ذلك في رسائلهم للماجستير أو الدكتوراه من جامعة الاسكندرية .

والفقرات الطويلة الواسعة التي يقفزها في انتقالاته السريعة الفجائية من موضوع لآخر ، والتكرار الذي كثيرا ما يصل الى حد الاملال ، كل ذلك يضع عراقيل وصعوبات أمام القارىء ، وبخاصة القارىء المبتدىء، الذي يجد من العسير عليه تتبع خط تفكيره وسير منطقه . يضاف الى ذلك ان تونيز جاء الى علم الاجتماع من خلفية فلسفية ، اي انه درس الفلسفة قبل ان يتجه الى علم الاجتماع شأنه في ذلك شأن الكثيرين من السوسيولوجيين في القارة الأوربية ، بل انه قام فيا بعد بتدريس الفلسفة في الجامعة[٢] . وفي عام ١٨٦٧ التقى بالفيلسوف وعالم الاخلاق باولسن Paulsen الذي ترك فيه اثرا عميقا بأفكاره وآرائه الفلسفية ، ولفت نظره الى فلسفات هوبز Hobbes وسبينوزا Spinoza وكانت Kant وادم سميث وكارل ماركس ورود برتوس Rodbertus وقد انعكست كل هذه الفلسفات بشكل او بآخر في كتاباته وتحليلاته للعلاقات الاجتماعية وصبغتها بصبغة فلسفية واضحة ، وذلك فضلا عما كان يتصف به تونيز من اتساع الافق وتفرع الاهتمامات الثقافية ، ونتيجة لهذا كله جاءت كتاباته مزيجا عجيبا من النظريات والآراء والمناقشات الفلسفية والسيكولوجية والمنطقية والأخلاقية التي لا تخلف وراءها ـ اذا استبعدت ـ

(٢) نشأ فرديناند تونيز طفولته في بلدة هوسوم Husum في شلزفيج هولشتاين وكانت امه تنتمي الى عائلة مدنية اشتهرت بقساوستها ورجال الدين فيها من اللوثريين ، ولكنه هو نفسه كان (لا أدريا) وان كان ذلك لم يمنعه من الاهتمام بمشاكل الدين ، بحيث انتهى به الامر في أواخر حياته الى الميل الى الاعتقاد بامكان قيام دين عقلي لا يقوم على مجموعة محددة من العقائد الدوارة ، بحيث يكون الاعتقاد أساسا لتوحيد جميع البشر .

وقد ألتحق تونيز بجامعة ستراسبورج ولكنه تنقل كثيرا بين عدد من الجامعات كما كان المتبع حين ذاك ، وبذلك التحق بجامعات يينا Jena وبون ولايبزج Leipzig وتوبنجن Tubingen حيث حصل على الدكتوراة عام ١٨٧٧ في الفيلولوجيا الكلاسيكية . ولكن حتى في ذلك الحين كان اهتمامه قد تحول الى الفلسفة وفلسفة السياسة والمشكلات الاجتماعية ، وواصل دراسة هذه الموضوعات وغيرها في مرحلة ما بعد الدكتوراه . وقد حملته اهتماماته الى جامعة برلين ثم الى جامعة لندن حيث اعطى كثيرا من العناية لدراسة فلسفة (هوبز) وبمواصلة جمع المادة العلمية المتعلقة بالمشكلة التي اصبحت ترتبط باسمه حتى الآن وهي مشكلة التعارض بين « الجماعة المحلية » و « المجتمع » وقد واصل دراسة الموضوع بعد ذلك أثناء عمله بالتدريس في جامعة Kiel ولكن آراءه الاكاديمية واشتغاله بالتدريس لم يكونا ليصرفاه عن عدد من الاهتمامات الأخرى . فقد أعطى جانبا كبيرا من جهده ووقته للكتابة ونشرت مقالاته في كثير من المجلات العلمية بل وايضا المجلات السياسية ، وفيها كان يتعرض لمشكلات عصره . كذلك كان رئيسا للجمعية الألمانية لعلم الاجتماع من سنة ١٩٠٩ حتى سنة ١٩٣٠ ، وقد قام هو نفسه بتكوينها وتأسيسها بالتعاون مع جورج زيمل Georg Simmel وفرنر زومبارت Werner Sombart وماكس فيبر Max Weber كما اشترك في تنظيم « جمعية هوبز » و « جمعية سبينوزا » وغيرها من الجمعيات الاكاديمية والثقافية .

ويعتقد معظم الكتاب الذين كتبوا عنه بأنه كان محافظا بطبعه ، ولكن ذلك لم يمنعه من الاهتمام بالحركات الاشتراكية والنقابات العمالية بل وانشاء التعاونيات وبكثير من الحركات النضالية الأخرى ، كما انه كان يشايع حركات التحرر والاستقلال (ايرلندا وفنلندا) وربما كان هذا هو الذي دفعه بعد الحرب العالمية الاولى الى الالتحاق بالحزب الديمقراطي الاجتماعي والى التنديد بالنازية والحركات المعادية للسامية مما جعل هتلر يقصيه من منصبه كأستاذ متفرغ بالجامعة عام ١٩٣٣ . وتوفي عام ١٩٣٦ وهو في الفاقة والبؤس .

للحصول على معلومات أوفى عن حياة تونيز وتكوينه العلمي يمكن الرجوع الى :

J. Leif, La Sociologie de Tonnies, P. U. F., Paris 1946 ;
Victor Leemans, Tonnies et la Sociologie Contemporaine en Allemagne ; Lib. Felix Alcan, Paris 1933 ; International Encyclopaedia of Social Sciences, " Ferdinand Tonnies " Vol. 16.

سوى قليل من الآراء السوسيولوجية البحتة ، ولكن هذا « القليل » كان له في ذلك شأن كبير جدا في توجيه الكثير من الكتابات والنظريات السوسيولوجية ، وبوجه اخص الدراسات والبحوث الانثربولوجية ، وبالذات تلك التي تهتم بالتغير ، سواء في المجتمعات المحلية او المجتمع القومي او العالم كله .

وعلى العكس من معظم العلماء الذين يعتبرون علم الاجتماع علما مستقلا ومتمايزا ، وله مجاله المحدد وقوانينه الخاصة ، كما هو شأن اميل دور كايم مثلا والمدرسة الفرنسية التي تعرف بوجه عام باسم مدرسة « المجلة السنوية لعلم الاجتماع » L'Année Sociologique فان تونيز يرى ان علم الاجتماع يرتكز بالضرورة على علم النفس . ولذا كان يذهب الى انه يتعين على الباحث قبل دراسة المجتمع او اي علاقة اجتماعية ان يكشف عن الاسس السيكولوجية التي تكمن وراء تلك العلاقة . وسوف نرى فيما بعد انه هو نفسه اقام نظريته الشهيرة عن الجماعة المحلية والمجتمع على اسس سيكولوجية، وهي النظرية التي ضمنها كتابه العميق الذي يحمل نفس التسمية « الجماعة المحلية والمجتمع » Gemeinschaft und Gesellschaft وهو الكتاب الذي يعتبر الآن من أهم الكتب الكلاسيكية في علم الاجتماع والذي يعرف باسم تونيز اكثر من اي كتاب آخر من كتبه[٣] . وهو كتاب صعب ودقيق وعميق ، ومع ان الكثيرين في العالم العربي يشيرون اليه والى النظرية فان القلائل منهم هم الذين قرأوه قراءة متعمقة ، ومن هنا كانت هذه المحاولة لتقديمه للقارىء العربي .

(١)

يتميز القرن التاسع عشر بعدد من الملامح الهامة التي تركت بصماتها على كتابات المفكرين والعلماء واسلوب تفكيرهم وموقفهم من الحياة ونظرتهم الى المستقبل . ولقد جاء القرن التاسع عشر في اعقاب ثلاث ثورات كبرى هي : الثورة الامريكية والثورة الفرنسية ثم ما يعرف عموما باسم « الثورة الصناعية » .

أما الثورة الامريكية فكانت نوعا من التمرد على الدولة الام ،كما يقول ابراهام[٤] ،من شعب كان هو نفسه استعماريا . فقد استعمر المهاجرون الاوربيون امريكا واضطهدوا سكانها الأصليين من الهنود الحمر ، وفرضوا عليهم كل صنوف الاضطهاد والاستعباد والابادة . وقد ادت هذه الثورة الى قيام اول حكم

(٣) ظهر كتاب Gemeinschaft und Gesellschaft عام ١٨٨٧ وقد قام بترجمته الى اللغة الانجليزية مع مقدمة ضافية وكثير من التعليقات القيمة المفيدة الأستاذ تشارلز لوميس Charles P. Loomis وظهرت للكتاب اكثر من طبعة تحت عنوان Community and Association

وقد قام بترجمة الكتاب الى الفرنسية تحت عنوان Communaute et Societe الاستاذ ليف Leif الذي سبقت الاشارة اليه في الحاشية رقم ٢ وفي عام ١٩٣١ كتب تونيز مقالا بنفس عنوان كتابه " Gemeinschaft und Gesellschaft " نشرها في Handworterbuch der Soziologie (Ferdinand Enke Verlag, Stuttgart 1931) وقد نقلها لوميس أيضا الى الانجليزية وظهرت مع ترجمة الكتاب ذاته كملحق لمقدمة له عامة وان المقالة تلقي كثيرا من الضوء على بعض النقاط الغامضة في الكتاب .

(٤) J. H. Abraham, Origins and Growth of Sociology, Pelican 1963, P. 83

جمهوري في العصور الحديثة يقوم على المساواة ويهدف الى تحقيق السعادة البشرية ، ويعتبر هذين المبدأين مثلا أعلى تستند اليه نظرياته وفلسفاته السياسية والاجتماعية . وأما **الثورة الفرنسية** فقد اتسمت كما نعرف جميعا بالعنف ولكنها مع ذلك قامت لتحقيق ثلاثة مبادىء انسانية هامة هي : الحرية والاخاء والمساواة ، وأفلحت في ان تترك اثرها واضحا وعميقا على كل النظم الاجتماعية والسياسية في اوروبا وامريكا ، بل انها اصبحت مثالا لأي ثورة تهدف الى احلال نظام اجتماعي وسياسي محل نظام آخر ، والى هدم الامتيازات التي تتمتع بها طبقة معينة على بقية طبقات وفئات المجتمع .

وأما **الثورة الصناعية** ، فهي تختلف عن الثورتين الاخريين من حيث انها لم تكن تهدف الى التخلص من نظام سياسي معين على ايدي فئة معينة من الناس ، وانما هي ثورة فريدة في نوعها ، لانها ادت الى تغييرات جذرية في البناء الاقتصادي الاساسي والاجتماعي لأوروبا ثم بقية العالم . .

وقد تكون هذه التغييرات حدثت بشكل تدريجي يكاد يكون غير محسوس في اول الامر ، ولكنها تسارعت بعد ذلك واصبحت اكثر اتساعا وشمولا وصحبتها تطورات هائلة في مجالي العلوم والرياضيات ، وما ارتبط بها من اختراع الآلات التي حلت محل الايدي العاملة البشرية والعمل الانساني ، وادت الى ازدياد الانتاج . وكان هذا كله ايذانا بظهور عدد من الكتاب والمفكرين والعلماء الذين اعطوا كثيرا من الاهتمام لدراسة تلك التغييرات التي نجمت عن النسق الاقتصادي الجديد ، او التي ينتظر ان تنجم عنه، وظهرت بذلك أسماء آدم سميث وآدم فيرجسون **Adam Ferguson** وسان سيمون **Saint Simon** وغيرهم[٥] . بل إنه يمكن القول ان علم الاجتماع نفسه نشأ بشكل أو بآخر كنوع من الاستجابة لبعض المواقف العملية الناتجة عن هذه الثورات الثلاث ، ولذا نجد ان حركات الاصلاح الاجتماعي وبخاصة في بريطانيا ، كانت مرتبطة الى حد ما على الاقل بالنظرية السوسيولوجية على الرغم من الاختلاف بين المشكلة « الاجتماعية » **Social** التي تحتاج الى ايجاد حل لها والمشكلة السوسيولوجية **Sociological** التي تحتاج الى الدراسة والفهم والتحليل على اساس من المنطق والنظرية[٦] .

وعلى اية حال فان علم الاجتماع في المانيا ظهر في مرحلة متأخرة نسبيا نظراً لسيادة وتسلط الفكر الفلسفي ، والمكانة العالية التي كانت تحتلها الفلسفة ، بحيث كان الناس يلجأون الى الفلسفة في بحثهم عن اجابات للمشكلات الكبرى التي كانت تواجههم في حياتهم، ويرجع ذلك الى تأثير (كانت **Kant**) بالذات فهو الذي اعطى الفلسفة كل تلك المكانة العالية الراسخة ، وكانت اعماله الفلسفية تتضمن الكثير من الآراء ووجهات النظر في المجتمع والقانون والحياة الاخلاقية وما الى ذلك ، وهي امور

(٥) Ibid, PP. 83 - 4

(٦) Ibid, P. 199

كانت خليقة بان تصبح الاساس النظري لعلم جديد للمجتمع لو امكن تطويرها وتعميقها والاضافة اليها. ولكن الذي حدث هو انه حين مات (كانت) اتجهت الفلسفة في المانيا اتجاهات جديدة بعد ان جاء هجل Hegel وأفلح في حجب فلسفة (كانت) الى حد كبير، وذاع اسمه وصيته واصبح منهجه الفكري ونظرياته هي التي تمثل نقطة الانطلاق في كل نظرية او تفكير نظري عن الانسان والمجتمع. وكانت نظرية هجل عن الدولة بالذات لا تسمح باقامة نظريته عن المجتمع كعملية لها قوانينها الخاصة بها والتي تتبعها، لان الدولة عنده كانت هي النظام السياسي بمعنى الكلمة، ومن هنا لم يكن يميز بين الدولة والمجتمع، بل كانت الدولة هي الاهم بحيث كان يتعين على المجتمع ان يسير ويتلاءم معها، وبذلك فان كل النظم الاجتماعية المهمة والاساسية كانت مستمدة في آخر الامر من الدولة، وليس لها في ذاتها مكانة او معنى او مبرر بغير الدولة. وواضح ان مثل هذا التفكير كان يتعارض مع امكان قيام علم الاجتماع مستقلا ومتمايزا[٧].

ولقد قامت عدة محاولات للتخلص من قبضة فلسفة هجل وسطوتها. وربما كان من اهم هذه المحاولات محاولة لورنس فون شتاين Lorenz Von Stein الذي تمكن من وضع بعض الخطوط العريضة لعلم منهجي للمجتمع. والمهم هنا هو انه في هذه الظروف وفي أواسط القرن التاسع عشر ظهر تونيز. وهي ظروف كانت تتميز بنجاح التصنيع في التأثير في « نظم الدولة البروسية العتيقة » المتأصلة على ما يقول ابراهام[٨] وكانت العلوم الطبيعية بدأت تجذب اليها انتباه الكثير من الدارسين والعلماء والباحثين الجادين الموهوبين، وبدأت حركة هائلة لاحياء (الكانتيه) في جوانبها الامبيريقية وليس في جانبها المثالي، واتخذت هذه الحركة الاحيائية اسم « الكانتيه الجديدة » Neo Kantianism واستتبع ذلك كله ظهور احساس قوي بضرورة قيام نظرة جديدة الى نمط المجتمع الجديد. وفي هذه الظروف ظهر تونيز وكان هو العالم الذي قدم هذه النظرية ووضعها في صيغة أو حكم كلاسيكي، حسب تعبير ابراهام، لا يزال يحتفظ بقوته وصدقه وصحته، ويتمثل ذلك في نفس عنوان اهم كتبه واكثرها شهرة وهو كما قلنا كتاب « الجماعة المحلية والمجتمع » وهو عنوان يشير منذ البداية الى موضوع الكتاب والاتجاه الذي يسيطر عليه[٩]. وعلى الرغم من ان تونيز ليس اكثر علماء الاجتماع شهرة وذيوع صيت فلا شك انه هو الذي اسس علم الاجتماع العام.

وقد عرض تونيز نظريته في علم الاجتماع بعامة وتصوره للمنهج الذي يجب اتباعه في دراسة مظاهر

(٧) راجع أيضا - Ibid, P. 202 H. Stuart Hughes ; Consciousness and Society ; The Reorientation of European Social Thought 1890 - 1930, Harvester Press, 1979, PP. 186 - 188, 190 - 94

(٨) Abraham, op. cit, P. 204

(٩) Loc. cit

الظواهر والعلاقات الاجتماعية في كتابه « مقدمة لعلم الاجتماع » (١٩٣٦).ويعرف توينز موضوع علم الاجتماع بانه « نظرية الحقائق الاجتماعية » ويعني بالحقيقة او« الواقع الاجتماعي » كل الحياة العامة او الحياة المشتركة من حيث انها تؤلف وحدة متماسكة ومتآزرة ، او بقول اخر اكثر وضوحا، انها الحياة الاجتماعية التي يتفاعل فيها افراد المجتمع بعضهم مع بعض مثلما تتفاعل وتتعاون اعضاء الكائن العضوي الحي او اجزاء الكل الواحد . ويرتكز ذلك « التجمع » الذي يكشف عن « وحدة الحياة المشتركة » على روابط سيكولوجية ترتكز بدورها على ارادة الافراد الذين يدخلون في تلك العلاقات . وهذه الروابط السيكولوجية والعلاقات الاجتماعية هي التي يجب اختبارها ودراستها وتحليلها اذا اردنا معرفة « ماهية » الواقع الاجتماعي وطبيعته .

ومع ان توينز يعترف بان منهج علم الاجتماع ، وبخاصة ما يسميه الاجتماع البحت او علم الاجتماع الخالص ، هو منهج استقرائي يقوم على الملاحظة وتصنيف الحقائق او الوقائع الاجتماعية التي يتم جمعها ، ومع انه يبدو متفقا في ذلك مع المذهب الوضعي الذي وضع أسسه في علم الاجتماع اوجست كونت August Comte، ومع ان كثيرا من عباراته تذكرنا بعبارة دور كايم المشهورة التي ذكرها بعد ذلك بسنوات في كتابه « قواعد المنهج في علم الاجتماع » Règles de la Méthode Sociologique من انه « يجب اعتبار الظواهر الاجتماعية على انها اشياء » فان توينز حين يشرع في شرح نظريته وموقفه يغرق نفسه في مناقشات ونظريات فلسفية لا تلبث ان تبعده بحدة عن الموقف الوضعي . وربما كان خير مثال لتوضيح ما نقول هو نوع العلاقات التي اختارها لكي تؤلف موضوع « علم الاجتماع البحت ».فهو يقسم العلاقات التي يمكن ان تنشأ بين الافراد الى نوعين او فئتين : علاقات ايجابية وعلاقات سلبية ، ويذهب الى ان علم الاجتماع البحت يهتم بدراسة العلاقات الايجابية فقط لانها هي وحدها التي تؤدي الى قيام ما يسميه « الوحدة الاجتماعية » وبالتالي قيام وظهور« الواقع الاجتماعي » او« الحقيقة الاجتماعية » وتتمثل هذه العلاقات الايجابية في الحب والصداقة والتبادل والتعاقد وما اليها من روابط تساعد على خلق ونشأة وظهور الجماعات . فالجماعات تظهر في الوجود نتيجة للإرادة وقيام العلاقات الايجابية بين اعضائها .

ونظرا لان هذه العلاقات الايجابية هي علاقات سلام بالضرورة فانه يتعين على عالم الاجتماع ألا يشغل نفسه بعلاقات العداوة والعداء لانها تساعد - في رأيه - على قيام الوحدة الاجتماعية،بل انها تهدم مثل تلك الوحدة ، ولذا كان يجب ترك كل العلاقات السلبية (التي تعتبر علاقات العداء خير مثال لها). بل ان الامر يصل به الى حد ان يناقض نفسه . اذ على الرغم من كل ما يقوله عن الملاحظة والتصنيف فانه لا يلبث ان ينتهي الى التسليم بان علم الاجتماع البحت لا يمكن ان يكون مجرد (فحص) للحقائق او الوقائع ، وبالتالي لا يمكن ان يكتفي بالمنهج الاستقرائي ، والا لما استحق ان يطلق عليه اسم « علم ».فليس ثمة علم حقيقي الا علم الافكار والمفهومات التي تنشأ بفعل العقل البحت او الفكر

الخالص . وعلى ذلك فان ماهية علم الاجتماع عند تونيز تكمن في المحل الاول في اقامة وتشييد المقولات الاساسية للحياة الاجتماعية ، ويمكن فيما بعد تطبيق هذه المقولات على الظواهر الاجتماعية ، وبالتالي تعيين وتحديد المقولة التي تنتمي اليها كل ظاهرة من تلك الظواهر ... وواضح ان هذا هو منهج استنباطي جدلي وليس منهجا استقرائيا كما اراد لنا ان نفهم في اول الامر[١٠] .

(٢)

ومهما يكن من شيء فان النقطة المركزية في فكر تونيز الاجتماعي هي نظريته عن العلاقة الاجتماعية او الكائنات الاجتماعية Soziale Wesenheiten وهي نظرية تقوم على اساس التفرقة بين المفهومين اللذين سبقت الاشارة اليهما وهما مفهوم الجماعة المحلية Gemeinschaft ومفهوم المجتمع Gesellschaft [١١] . وليست هذه الثنائية جديدة في حقيقة الامر على الفكر الاجتماعي . ولم يكن تونيز هو اول من نبه اليها ، وانما نجد ما يماثلها لدى عدد كبير جدا من المفكرين والفلاسفة الاجتماعيين قبل تونيز . كما تجدها عند عدد آخر من علماء الاجتماع الذين جاءوا من بعده وان كانت تتخذ اسماء مختلفة ، فتجدها في الفلسفة الكونفوشية والفكر الديني المسيحي عند القديس اوغسطين والقديس توما الاكويني وغيرهما ، كما تجدها في التقابل الذي يقيمه ابن خلدون بين البداوة والحضارة ، كما تجدها في فلسفة هوبز السياسية وايضا في فلسفة هجل حين يميز بين « مجتمع العائلة » و« المجتمع المدني » ثم نجدها بعد ذلك في التفرقة التي يقيمها اميل دور كايم بين ما يسميه « التضامن الآلي » Solidarité Méchanique « والتضامن العضوي » Solidarité Organique، وكما يقول رودلف هيبرلي Rudolf Heberle فان كل نظريات الفلاسفة الاجتماعيين تنبع اما من موقف رومانتيكي الى الحياة الاجتماعية اومن نظرة عقلانية ، ويكاد يكون كل الفلاسفة الاجتماعيين ينتمون الى واحد من الاتجاهين . ولكن الذي يميز تونيز هو انه يجمع بين هذين الاتجاهين المتعارضين معا ، ويحاول البرهنة والتدليل على ان هذا التباين او التعارض هو امر مفتعل وغير قاطع ، وان الواقع الاجتماعي او الحقيقة الاجتماعية تعكس « المظهرين » معا مع تغلب أحدهما على الآخر .

وعلى ذلك فمن الخطأ ان نتصور ان تونيز

---

(١٠) الواقع ان المسألة اكثر تعقيدا من ذلك ، وهي تتصل بالتقسيمات والتفريعات التي يقيمها تونيز في مجال علم الاجتماع ، لأن لكل فرع منهجه الخاص به .

فتونيز يستخدم مثلا اصطلاح علم الاجتماع بمفهوم واسع يشمل علم النفس الاجتماعي والديموجرافيا والتاريخ الاجتماعي الذي يسميه أحيانا بالأنثروبولوجيا الاجتماعية والتي يقصد به دراسة السلالات والوراثة . كما يشمل ايضا علم الاجتماع بالمعنى الدقيق للكلمة ايضا يسميه أحيانا بعلم الاجتماع الخاص . وينقسم علم الاجتماع الخاص بدوره الى علم الاجتماع البحت وعلم الاجتماع التطبيقي وعلم الاجتماع الأمبريقي .

(١١) Rudolf Heberle ; The Sociological System of Ferdinand Tonnies : " Community " and " Society" ; in H. E. Barnes (ed) ; Introduction to the History of Sociology, Chicago U. P. 1948, P. 232

يصنف التجمعات الانسانية او « الكيانات الاجتماعية » بفئتين منفصلتين تمام الانفصال ومتمايزتين كل التمايز احداهما عن الاخرى ، بحيث تعكس الفئة الاولى في بنائها وتركيبها وتنظيمها ونظمها مظاهر « الجماعة المحلية » بينما تعكس الفئة الثانية مظاهر « المجتمع » . ولكن على الرغم من ان التمييز بين نمطي الحياة الاجتماعية قديم كما رأينا، فان الاسس التي يقوم عليها لم تتضح بقوة مثلما اتضحت ـ ربما لاول مرة في تاريخ الفكر الاجتماعي ـ في كتاب تونيز وذلك نتيجة لازدياد المعرفة بالحياة الاجتماعية لدى الشعوب البدائية بفضل الدراسات الانثروبولوجية التي اجريت بين هذه الشعوب في القرن التاسع وكذلك ـ الى حد اقل ـ نتيجة لتقدم الفيلولوجيا المقارنة Comparative Philology والقانون المقارن Comparative Law وهذا بغير شك هو احد العوامل التي تجعل كتاب تونيز من اهم الكتب التي يعني بها الانثروبولوجيون ويعتبرونها من افضل المصادر النظرية التي تساعد على فهم التغير الاجتماعي وتمدهم بثروة نظرية ضخمة يعتمدون عليها ، ليس فقط في توجيه بحوثهم الحقلية ، بل وايضا في تحليل المادة الاثنوجرافية التي يحصلون عليها من هذه البحوث .

وليس ثمة شك في ان تونيز تأثر بكتابات بعض علماء الانثروبولوجيا في القرن التاسع عشر من امثال لويس مورجان Lewis Morgan وبخاصة كتابه عن المجتمع القديم Ancient Society وسير هنري مين Sir Henry Maine وبخاصة كتابه عن « القانون البدائي » Primitive Law [١٢] . خاصة وان هذين العالمين رغم اتجاههما التطوري واهتمامهما بدراسة المراحل التي مر بها المجتمع الانساني في تطوره لم يغفلا النظرة التكاملية الشمولية التي مهدت لقيام النظرية البنائية الوظيفية ، وقد اشار تونيز مرارا الى تأثره بكتاب مين بالذات وبالتفرقة التي يقيمها بين المجتمعات التي تقوم على اساس المنزلة Status وتلك التي تقوم على التعاقد او العقد Contract [١٣] ، بل ان نظرية تونيز التي ظهرت في كتاب « الجماعة المحلية والمجتمع » عام ١٨٨٧ مهدت بشكل او بآخر لقيام نظرية اميل دوركايم عن « التضامن » بنوعيه،وهي النظرية التي ضمنها كتابه المهم « عن تقسيم العمل

---

(١٢) لمزيد من المعلومات عن هذين الكاتبين راجع مقالنا عن « المجتمع القديم لويس مورجان » مجلة تراث الانسانية ، المجلد التاسع ، العدد الأول ١٩٧٠ ، ومقالنا عن « نظرية القانون عند سير هنري مين » ، المجلة الاجتماعية القومية . ويشير تونيز نفسه الى سير هنري مين في كتابه « الجماعة المحلية والمجتمع » في صفحتي ٢١١ ، ٢١٤ .

(١٣) التفرقة بين « المنزلة الاجتماعية » والعقد ترتبط في نظرية مين عن القانون بمكانة الفرد في المجتمع البدائي ومكانته في المجتمع الأكثر تطورا وتقدما . وقد ذكرنا في موضع آخر حول هذا الموضوع « ان الفرد في المجتمعات البدائية لا يكاد يتمتع بشخصية فردية مميزة او كيان شخصي مستقل وانما يتصرف ويعمل وينظر اليه على انه عضو او جزء من جماعة معينة سواء كانت هذه الجماعة جماعة قرابية او سياسية ، بعكس الحال في المجتمعات المتقدمة حيث يزداد ظهور النزعات الفردية على حساب روابط القرابة على الخصوص . وتظهر هذه التفرقة واضحة في كل ميادين الحياة الاجتماعية من اقتصادية وسياسية ودينية ، ولكنها تتبلور في اوضح صورها في « القانون » انظر الحاشية التي كتبناها في صفحة ٦٢ (حاشية رقم ٢) من ترجمتنا العربية لكتاب الاستاذ ايفانز بريتشارد ، الانثروبولوجيا الاجتماعية . الطبعة الاولى ١٩٥٨ ، منشأة المعارف بالاسكندرية .

الاجتماعي » De La Division du Travail Social الذي ألفه عام ١٨٩٣.ومع ان تونيز ميّز في كتابه بين نوعي التضامن ، واستخدم نفس المصطلحين « تضامن آلي » و« تضامن عضوي » فان استخدام دور كايم للمصطلحين كان يناقض تماما استخدام تونيز لهما .

ومن الطريف ان دور كايم كتب نقدا لكتاب تونيز ظهر في المجلة الفلسفية Revue Philosophique عام ١٨٨٩ اي قبل ان يصدر هو كتابه عن تقسيم العمل بأربع سنوات وعلى الرغم من اختلاف العالمين في تصورهما لنوعي التضامن ولنمط الحياة الاجتماعية التي ترتبط بكل نوع من نوعي التضامن، فان المبدأ الذي يقوم عليه تصنيفهما للحياة الاجتماعية وللتجمعات الانسانية واحد . وعلى العموم فان ظهور فكرة المقابلة بين نمطي الحياة الاجتماعية بين عدد كبير من الفلاسفة وعلماء الاجتماع لا يقلل من اهمية نظرية تونيز ، ومعظم الافكار « الحديثة » التي تتردد الآن في نظريات علم الاجتماع والانثربولوجيا هي في الحقيقة افكار « قديمة » سبق ظهورها اكثر من مرة خلال تاريخ الفكر الاجتماعي والانثربولوجي ، والمهم هو الاسهام الذي يضيفه كل عالم الى هذه الافكار او الاسلوب الذي يعالجها به . ومن هنا يمكن اعتبار نظرية تونيز « تنويعة » خاصة على « لحن اساسي » ان صحت هذه الاستعارة من مجال الموسيقى .

ولقد اقام تونيز هذا التقابل باسلوبه الجدلي على المستوى السيكولوجي اولا ، ثم نقله الى المستوى الاجتماعي . وعلى عكس الكثيرين من علماء علم الاجتماع وبخاصة في فرنسا ، كان تونيز يرى أن المدخل الصحيح لدراسة الحياة الاجتماعية هو المدخل السيكولوجي ، وذلك نظرا لأن الفعل الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية تصدر بالضرورة عن الارادة ، ومن هنا كانت نظرية الارادة تؤلف الركيزة الاساسية التي يرتكز عليها كل تفكيره الاجتماعي وكل تحليلاته للعلاقات الاجتماعية وللنظم السائدة في كلا النمطين من الحياة الاجتماعية : النمط الذي يؤلف الجماعة المحلية والنمط الذي يرتبط بالمجتمع .. والفقرة الاولى من كتاب تونيز عن « الجماعة المحلية والمجتمع » تظهر تحت عنوان « العلاقات بين الارادات الانسانية » كما انه يخصص الباب الثاني بأكمله (حوالي ثلث الكتاب) لدراسة نوعي الارادة اللذين يرتبطان بنمطي الحياة الاجتماعية اللذين يقابل بينهما .

هذان النمطان من الحياة الاجتماعية عالجهما تونيز مرة اخرى في اواخر حياته بأسلوب اكثر سلاسة في كتاب ظهر قبيل وفاته عام ١٩٣٥ تحت عنوان روح العصور الحديثة "Geist der Neuzeit" وقد عرض الاستاذ تشارلز لوميس Charles P. Loomis مترجم كتاب « الجماعة المحلية والمجتمع » الى الانجليزية (وهي الترجمة التي نعتمد عليها هنا)[١٤] لاهم القضايا التي أثارها تونيز

(١٤) نعتمد هنا على الترجمة الانجليزية التي نشرها الاستاذ تشارلز لوميس لكتاب « الجماعة المحلية والمجتمع » وعلى ذلك فان كل اشاراتنا الى كتاب تونيز ستكون في الحقيقة اشارات الى تلك الترجمة . وأرقام الصفحات التي ترد في النص بين أقواس تشير أيضا الى صفحات تلك الترجمة .

في كتاب « روح العصور الحديثة » كما يلي : لقد كانت الوحدة تسود المجتمع الانساني في القرون الوسطى فحل محلها التفكك والتفسخ والتجزؤ.وكانت السلطة تتخذ شكل الرعاية الابوية فاصبحت الآن نوعا من الاستغلال الاجباري المفروض على الناس ، وبينما كان يسود القرون الوسطى سلام نسبي فان الحروب الطاحنة والقتل الجماعي اصبحت هي سمة العصر ، وبينما كانت علاقات التراحم والمشاركة الوجدانية تسود بين الاقارب والمعارف اصبح الناس الآن اغرابا بعضهم مع بعض ؛ وبينما كان المجتمع يتألف في الاغلب من الفلاحين الذين يرتبطون بالارض والوطن اصبحت نظرة الناس الآن نظرة تجارية عملية في الاغلب ، وبينما كانت حاجات الناس قليلة وبسيطة ويمكن اشباعها عن طريق الانتاج المنزلي والمقايضة تعقدت احتياجاتهم ومطالبهم الآن ، وساد نظام التجارة العالمية والانتاج الرأسمالي ، وبينما كان الناس يميلون الى الاستقرار في مواطنهم ويقيمون فيها اقامة دائمة اصبحت الحركة والتنقل هي الغالبة ، وبينما كانت الفنون الشعبية والموسيقى والصناعات اليدوية تشغل حياة الناس وتفكيرهم اصبحوا الآن يتجهون الى العلم ويطبقون المنهج العلمي ، مما ادى في آخر الامر الى تجريد البشر من شخصياتهم بحيث لم يبق من هذا كله سوى رموز وتعميات جامدة (PP. XI—XII).وهذه الملاحظات تلخص الى حد كبير نظرة تونيز الى « الحياة المحلية » و« المجتمع » والتغييرات التي طرأت على الحياة الاجتماعية عموما وعلى العلاقات بين الناس خلال تطور المجتمع الانساني ومحاولته تفسيرها في ضوء نظريته عن الارادة كما ذكرنا .

فالتمييز بين نمطي الحياة الاجتماعية اذن اقتضى منه التمييز بين نوعين من الارادة ، وعلى الرغم من ان جميع الافعال الارادية تتضمن عنصرا من التفكير والاختيار فان تونيز يفرق بين الارادة من حيث هي تتضمن التفكير ، وبين التفكير من حيث هو يتضمن الارادة ، فالأول يعطينا ما يطلق عليه تونيز اسم « الارادة العضوية » بينما يعطينا الثاني « الارادة العقلانية ».ويستخدم تونيز كلمة ارادة بمعنى اوسع بكثير من معناها في الاستخدام العادي ، فالارادة هنا عبارة عن كل شامل معقد او وحدة كلية متأصلة تضم « مختلف المشاعر والغرائز والرغبات » ولكن بينما تكون هذه الوحدة في الارادة العضوية وحدة حقيقية وطبيعية فانها في الارادة العقلانية وحدة ذهنية او فكرية ، وبالتالي فهي وحدة غير طبيعية او مصطنعة ولذا يقول : إنني أسمي النوع الاول من الارادة الانسانية بالارادة الطبيعية **Wesenwille** بينما أسمي النوع الثاني بالأرادة العقلانية او الرشيدة **Kurwille** (كتاب الجماعة المحلية والمجتمع صفحة ٩ - ١٠) .

واذا كانت العلاقات الاجتماعية تنشأ بفعل الارادة فان الوقائع والحقائق الاجتماعية ذاتها ، او ما يعرف عموما في الكتابات السوسيولوجية باسم الظواهر الاجتماعية وكذلك ما يسميه بالكيانات الاجتماعية **Soziale Wesenheiten** لا يمكن ان تظهر الى الوجود الا اذا اراد الافراد الذين يدخلون أطرافا في تلك العلاقات والكيانات قيامها ووجودها ، كما ان

الصورة او الشكل الذي تتخذه هذه الظواهر وتلك الكيانات الاجتماعية تتفاوت وتتباين نتيجة للوسائل والاهداف التي يراد تحقيقها من قيامها . فكأن الارادة تتغير بتغير الظروف والملابسات . ويؤدي ذلك الى ظهور علاقات مختلفة بين نفس المجموعة من الافراد نتيجة لتغير ارادتهم تبعا لاختلاف هذه الظروف والاوضاع ، وتبعا للاهداف التي يريدون تحقيقها تحت كل ظرف او مناسبة او وضع من الاوضاع . فقد تنشأ العلاقات الاجتماعية مثلا ، او تتألف زمرة اجتماعية معينة لان الافراد الذين يدخلون طرفا فيها يريدون ،كما هو الحال في تعاون رجال الاعمال معا، تحقيق هدف معين عن طريق هذه العلاقة ، وبذلك فانهم يتعاونون معا من اجل ذلك الهدف ، وبصرف النظر عما قد يكون بينهم من تنافر ونفور وتباعد في بعض المواقف الاخرى.ففي هذه الحالة تكون الارادة العقلانية هي العنصر المسيطر والموجه لهذه العلاقة وما يرتبط بها من فعل اجتماعي ؛ ولكن من ناحية اخرى قد يرتبط الافراد بعضهم ببعض لانهم يرون لتلك الرابطة او العلاقة قيمة في ذاتها كما هو الحال في الصداقة التي تعتبر غاية في ذاتها (وتراد) لذاتها ، وهنا تكون الارادة الطبيعية هي السائدة والموجهة . فالارادة الطبيعية اذن تعتبر هي العنصر الاساسي او القوة الدافعة وراء كل عملية ارادية تكون مستمدة من مزاج الفرد او شخصيته او موقفه واتجاهه العقلي ، وسواء كان الباعث عليها هو الحب او الميل او العادة او الذاكرة . ولكن هذا لا يعني ابدا ان الارادة الطبيعية ارادة لاعقلانية دائما . فثمة درجات متفاوتة من العقلانية او (الرشاد) في الارادة الطبيعية وفي الجماعات والزمر التي تقوم على أساسها ، كما هو الحال مثلا في الجماعات او الزمر (المحلية) التي تقوم على الصداقة أو علاقات الجوار او روابط الدم . فدرجة العقلانية في الجماعات الاولى أكبر منها في جماعات الجوار ، وتصل الى أدناها في الجماعات التي تقوم على روابط الدم التي هي روابط بيولوجية قبل كل شيء (PP. XIV—XVI)

ويعرف تونيز الارادة العضوية بأسلوبه المعقد الغامض بأنها « المساوى السيكولوجي للجسم الانساني أو مبدأ وحدة الحياة » وذلك على افتراض انه يمكن تصور الحياة تحت ذلك الشكل من الحقيقة التي ينتمي اليها التفكير نفسه . فالارادة الطبيعية تتضمن التفكير مثلما يتضمن الكائن العضوي الحي خلايا المخ التي تسبب - حين تستثار - الانشطة السيكولوجية التي يمكن اعتبارها مساوية للتفكير .

وترتبط الارادة العضوية بالنشاط الذي تشير اليه بنفس الطريقة التي ترتبط بها القوة بالعمل الذي يصدر عنها ... فالارادة الطبيعية توجد كامنة بالضرورة في كل نشاط يقوم به الفرد ... (الجماعة المحلية والمجتمع ، صفحتا ١١٩ - ١٢٠) اي ان كل فعل يتضمن بالضرورة ارادة عضوية او ارادة طبيعية وذلك بعكس الحال بالنسبة للارادة العقلانية التي يراها تونيز منفصلة تماما عن النشاط مستقلة عنه كل الاستقلال ، بمعنى انها تسبق الفعل وتكون خارجة عنه . ورغم ما قد يبدو من بساطة الارادة الطبيعية او العضوية ، فالواقع انها ارادة متعددة الجوانب والمظاهر شأنها في ذلك شأن كل مشكلات

الحياة العضوية ذاتها ، فهي ارادة اصيلة وفطرية في الكائن البشري تلازمه خلال حياته وتنمو معه طيلة الوقت ، وتخضع اثناء ذلك لكثير من التعديلات والتغيرات بتأثير البيئة المحيطة به . اي ان تونيز يعترف هنا بتأثير البيئة المادية على الارادة الفطرية المتأصلة ، او على الاصح على العناصر (الفطرية) في الارادة . وأثناء عملية التطور والنمو تنضج الميول والامكانات وتصبح ملكات وقدرات ، وبذلك يمكن للارادة الطبيعية ان تواجه أحداث وأوضاع العالم الخارجي ككيان له القدرة على التأثر والتأثير . وكل هذا معناه ان تونيز يرى انه في الوقت الذي تصدر فيه الافعال عن الارادة الطبيعية فان هذه الارادة تتأثر وتتعدل نتيجة هذه الافعال ذاتها ، وبذلك يكون التأثير متبادلا بين الارادة الطبيعية والفعل الاجتماعي . ان الارادة الطبيعية هي مبدأ كل فعل يعطي الحياة وحدتها الحقيقية .. انها تتضمن التفكير وتحتويه وتحدده ، كما انها هي اصل كل عمل او مشروع ، كما انها مبدأ كل عملية خلق وابتكار ، بل انها اصل الأخلاق . (الجماعة المحلية والمجتمع صفحات ٣٧ - ٤١ ، ١٢٠ - ١٢٢) .

ويحدد تونيز الصور او الاشكال المميزة للارادة العضوية في ثلاثة ، تؤثر في سلوك الانسان وأفعاله وعلاقاته بالآخرين ، وهذه الصور او الاشكال هي : الميل (او الرغبة) والعادة ثم الذاكرة . وهنا ايضا نجد تونيز يعتمد في تحديده لهذه الصور الثلاث على الفلسفة القديمة التي تميز بين ثلاث مراحل للحياة هي الحياة النباتية والحيوانية والعقلية او الذهنية . فالميل هو التعبير الصريح المباشر للحياة النباتية ، ولذا فانه يعتبره الصورة الأساسية للارادة الطبيعية ، لأنه يمد الانسان بالرغبة في بعض الانشطة او الانصراف عن البعض الآخر وتجنبها ، بل ويتمثل الميل بوجه خاص في الرغبة في عمل كل ما من شأنه ان يساعد على اطالة الحياة والحصول على القوت وعلى التناسل والتكاثر ، وهذه الخاصية الأخيرة ، أعني الرغبة في التناسل والتكاثر ، هي التي تعطي الفكرة معناها الكامل الحقيقي ، لان التناسل هو الحياة ذاتها . يقول تونيز : « ان التقسيم الشائع العام لاعضاء الجسم ووظائفه يميز بين الحياة النباتية (او الداخلية) والحياة الحيوانية (او الخارجية) وبالمثل فان ثمة ما يجعلنا نسلم بوجود نوعية من الارادة هي الارادة النباتية والارادة الحيوانية وهما تتحدان معا وتتعاونان وتتساندان في ارادة الحيوان ، شأنهما في ذلك شأن تركيبات الجسم الفيزيقية . ولكن هذه الرابطة تفترض ضرورة تمييز الارادة الانسانية او العقلية (وكذلك ذلك النوع من الحياة) عن الارادة الحيوانية او النباتية بنفس الطريقة التي تتميز بها هاتان الارادتان احداهما عن الاخرى ، وان نتصور العناصر الثلاثة على انها تتحد معا في الكائن البشري بنفس الطريقة التي تتحد بها هاتان الارادتان الأخريان معا في التركيب العام للحيوان ... والارادة الطبيعية لدى الكائنات البشرية يجب تصورها على انها تشمل كل هذه الفئات التي تؤلف معا وحدة متكاملة ، وعلى ذلك يمكن اعتبارها هي الارادة العضوية بحيث نحددها بالاشارة الى الارادة الحيوانية - العقلية : كما يمكن اعتبارها هي الارادة الحيوانية التي يمكن التعبير عنها في الارادة العضوية والعقلية معا ، كما انها هي .

الارادة العقلية ذاتها في اعتمادها على الارادة العضوية - الحيوانية » (الجماعة المحلية والمجتمع صفحتا ١٢٣ - ١٢٤) .

وفي ضوء هذا التفكير الجدلي يحدد تونيز التصورات او المفهومات السيكولوجية التي يعتبرها صورا للارادة الطبيعية ، وتعني بها الميل والعادة والذاكرة التي سبقت الاشارة اليها . واذا كان « الميل » هو التعبير المباشر للحياة النباتية ، فان العادة تعتبر عند تونيز ارادة تظهر وتتكون بفضل التجربة وممارسة الاعمال واوجه النشاط المرغوبة او التي « يميل » اليها الفرد . فكل عادة تتضمن اذن قدرا من الميل مثلما تتضمن قدرا من التجربة او الخبرة ، وهي تجربة اللذة . مما يعني انها (العادة) ترتكز بالضرورة على عنصر « الميل » لعمل ما يحبه الانسان وتجنب الاعمال التي « ينفر » منها . وأخيرا فان الذاكرة ليست الا حالة متطورة في العادة . فهي أساس الحياة العقلية ولهذا فانها تعتبر الخاصة الاساسية المميزة للارادة الطبيعية او العضوية عند الانسان ... انها الصورة العقلية للارادة العضوية . ويتمثل الدور الرئيسي الذي تلعبه الذاكرة في حفظ التداعيات بين النمو من ناحية والممارسة من ناحية اخرى . وفي هذا بالذات يكمن سر التعلم ... ويمكن ان تضرب مثلا للتعاون والتنسيق بين هذه المظاهر الثلاثة باللغة ، فاللغة هي تعبير عام عن الحياة العقلية ولكنها عبارة عن تعلم وتذكر لمعنى وقيمة الالفاظ ؛ كما انها في الوقت ذاته عادة ولذة (أو ميل وحب ورغبة) (انظر : الجماعة المحلية والمجتمع ، القسم الثاني ، الفقرات ٦ - ٩ ، صفحات ١٢٤ - ١٣٢) .

والذي يريد تونيز ان يخلص اليه من هذا كله هو ان هذه الصور الثلاث المتعاونة والمتساندة للارادة العضوية هي التعبير الحقيقي عن كل الطبيعة البشرية في نموها التدريجي البطيء من التعبير الساذج المباشر عن الكائن العضوي الحي (اللذة) الى العمل الذكي (التجربة والخبرة) ثم الى التفكير (الذاكرة) ولكنها تظل مع ذلك مرتكزة طيلة الوقت على الارادة الاصلية العميقة ، وهي ارادة الحياة ، وعن طريق الارادة العضوية يمكن تفسير ومعرفة شخصية كل فرد وطابعه وخلقه الخاص ، لان الطابع او الخلق ليس الا « التوليفة » الفردية للترابط بين هذه الصور والاشكال الرئيسية للحياة التي يسود فيها صورة او شكل بقية الصور والاشكال . أضف الى ذلك ان الارادة العضوية هي مصدر الاخلاق ايضا ، فهي اصيلة وفطرية في الانسان كالضمير تماما ، كما انها تؤلف « عاطفة الالتزام » لدى الانسان ، وبذلك فهي التي تحدد له ما هو خير وحق وضروري ، سواء من الافعال او الاشياء او الناس . وهذا كله معناه في آخر الأمر أن تونيز يرى الارادة العضوية على انها تعبير عن الحياة ذاتها بكل عظمتها واتساعها وتطورها ونموها ، ومنها تنبعث وتصدر كل افعالنا سواء في ذلك الأفعال والأنشطة الفيزيقية او العقلية او الأخلاقية ، ولذا فانه يعتمد عليها ويتخذ منها أساسا لفهم وتفسير العلاقات ومظاهر السلوك التي ترتبط بذلك النمط من الحياة

الاجتماعية الذي يطلق عليه اسم « الجماعة المحلية Gemeinschaft » .

●●●

ولكن اذا كان تونيز يطلق على الارادة العضوية اسم « الارادة الطبيعية » لأنها تعبر عن « طبيعة » الفاعل فان الارادة العقلانية يدخلها عناصر أشد تعقيدا وأبعد عن التلقائية . والكلمة الألمانية Kürwille ذاتها مصطلح مستمد من كلمة جرمانية قديمة تعني الاختيار ، لأن الفاعل هنا يوازن بين كل الوسائل الممكنة ويختار منها تلك التي تحقق بأفضل شكل مستطاع الغاية التي يهدف اليها من الفعل . فالارادة العقلانية اذن هي محصلة التفكير وثمرته ونتاجه . وهذا هو ما يقصده تونيز من قوله انها « التفكير من حيث يتضمن الارادة » ولا يعني هذا أيضا ان الارادة العقلانية (غريبة) تماما حسب تعبير تونيز - عن الارادة العضوية أو الطبيعية ، بل ان ثمة علاقة وثيقة بينهما في اعتماد عمليات التفكير الى حد كبير على ميول الكائن العضوي الحسي وملكاته الطبيعية واتجاهاته العقلية واستخدامه لها كلها في صياغة أنساق الفكر ، وبالتالي استغلالها في تحقيق الأهداف والغايات المحددة التي يهدف اليها ، فالتفكير من أجل هدف معين هو اذن العنصر البارز أو الغالب في الارادة العقلانية الواعية المدركة ، ولذا كانت هذه الارادة تقوم على أساس تغليب التفكير على الرغبة ، كما أن نظرتها للأمور والأفعال هي بالضرورة نظرة مستقبلية مادامت ترمي في آخر الأمر الى تحقيق هدف مرسوم ، كما أن (الاختيار) بين الاحتمالات الممكنة يتم قبل الاقدام على تنفيذ « الفعل » ، والتفكير بهذا المعنى هو الذي يحدد كل أفعال الكائن العضوي الحي ويوجهها ويتحكم فيها وهذا بالضبط هو ما يؤلف أهم مقومات الارادة العقلانية عن الارادة الطبيعية .

وعلى ذلك فاذا كان التفكير البارد المتعمد المحسوب هو الذي يحدد للمرء الفعل الذي ينبغي عليه القيام به من أجل غاية أو هدف ، فلن يكون من الضروري أن تكون اللذة في أداء العمل هي الدافع الأساسي في أداء الفعل . فالعقل قد يختار عديد الأعمال غير السارة ، بل وحتى الأفعال المؤلمة ، ما دامت تحقق الهدف أو الغاية التي يصبو اليها ، وعلى ذلك ففي الارادة العقلانية الواعية توجد دائما قوة تتولى عملية المقارنة بين الوسائل المختلفة والموازنة بينها لاختيار أكثرها ملاءمة للهدف ثم اتخاذ القرار الخاص بأداء الفعل ذاته . ولكن الى جانب هذا التفكير المتعمد البارد المحسوب واتخاذ القرار بناء على تلك الحسابات الدقيقة ، فان للذهن تصوراته الخاصة به التي يلجأ اليها في محاولة فهم الواقع ، والتحكم بالتالي في سلوك الانسان وتوجيهه وتحديد أفعاله تماما . وعن طريق هذه التصورات والمفهومات ، التي ليست في حقيقتها سوى تخطيطات ذهنية بسيطة تتعلق بالواقع الاجتماعي ، تقوم الارادة العقلانية بصياغة النماذج العامة للعقل .

والعناصر الثلاثة التي تؤلف الارادة العقلانية ، وهي التمييز واتخاذ القرار والتصور ، هي التي تحدد كل الأفعال في نمط التجمعات الانسانية التي يطلق

عليها تونيز مصطلح « مجتمع Gesellschaft » والغاية الأخيرة من بلوغ أى هدف هو ـ فى نظره الحصول على أكبر قدر ممكن « السلطة والقوة والنفوذ » ويؤكد تونيز بشدة على هذه النقطة ويعتبرها عنصرا جوهريا فى الارادة العقلانية وكل ما يصدر عنها . ولعل أفضل مثال يوضح ما يذهب اليه فى المجتمع هو « قوة المال الذى يؤدى الى سيطرة وتسلط وتحكم من يملك فيمن لايملك » (الجماعة المحلية والمجتمع ، صفحة ١٤٥) وهذه مسألة لانجد لها مثيلا فى الارادة الطبيعية . ولهذا كله يذهب تونيز الى القول بأن الارادة العقلانية ليست هى جوهر الكائن الانسانى أو طبيعته لأنها ينقصها العاطفة وتفتقر الى المشاعر والأحاسيس والوجدانات ، بل وتخلو من الضمير . فالأنشطة التى تقوم على أساس هذه الارادة يتم فعلها وممارستها وأداؤها من أجل غرض معين أو غاية محدودة فحسب ، وتهدف الى صالح وخير الفاعل نفسه بصرف النظر عن قيمتها الأخلاقية ، بل وعن صالح الآخرين . بل أنها تنظر الى هؤلاء الآخرين بكثير من عدم الاهتمام واللامبالاة ، وقد تستغلهم وتعتبرهم مجرد أداة لتحقيق ذلك الصالح الشخصى أو المنفعة الذاتية (صفحة ١٤٧) ونظرا لأن القيم الأخلاقية ترتبط الى حد كبير بالعواطف والمشاعر والوجدانيات فان كل الأفعال الصادرة عن تلك الارادة العقلانية الواعية والتى تخلو من هذه الجوانب « تقف فى الحقيقة خارج مجال الأخلاق » . فالارادة العقلانية تعتبر كبت القيم الأخلاقية وخنقها ، وهذا هو مايجعل تونيز يذهب الى حد أن يصفها بأنها « مهزلة أو كوميديا يمثلها الانسان على نفسه وعلى الآخرين » لأنها هى ومنجزاتها أيضا ، لاتضم شيئا حقيقيا أو مخلصا أو صادقا (راجع فى ذلك كله كتاب الجماعة والمجتمع ، صفحات ١٣٨ ـ ١٦٠) .

وواضح من هذا كلهه الى أى حد يقف هذان النوعان من الارادة موقف التعارض التام أحدهما من الآخر ، وكما يقول تونيز فان احداهما (الارادة الطبيعية) تعكس نبضات القلب ، بينما تعبر الاخرى (العقلانية) عن نشاط العقل (ص ١٥١) : احداهما ارادة عضوية وانفعالية تماما بينما الاخرى فكرية ومجردة . ولكى يبين تونيز التعارض بين الاثنين فانه يقارن الارادة الطبيعية بالعضو (اليد مثلا) والارادة الصناعية أو العقلانية بالأداة أو الآلة المصنوعة . فالعضو يخلق نفسه ولا يكون له أى كيان الا بالنسبة لعلاقته بالكائن العضوى الحى ككل . أما الأداة فانها من خلق يد الانسان ، كما أنها تصنع لتحقيق هدف أو غرض معين . فضلا عن أن لها كيانا ووجودا قائمين بذاتها وبصرف النظر عن العضو أو حتى الكائن العضوى الحى الذى يستخدمها ، الا أن العضو حى ينمو ويتطور بالحياة بينما الآلة جامدة هامدة تستهلك ولا تلبث أن تختفى وتزول تماما عن طريق الاستعمال (صفحة ١٥٥) .

(٣)

هذا التعارض بين نوعى الارادة على المستوى السيكولوجى يجد له تعبيرا واضحا فى التعارض القائم بين فئات أو قطاعات معينة من المجتمع ، ويضرب تونيز لذلك عددا من الأمثلة ، ولكنه يخص بالدراسة

والتحليل ثلاثة أنواع من التعارض وهى : التعارض بين الجنسين والتعارض بين الشيوخ والشباب ثم التعارض بين العامة والمثقفين intelligentsia وهى تعارضات تظهر على المستوى السيكولوجى والسوسيولوجى فى كل المجتمعات مع بعض فوارق طفيفة . وينجم التعارض بين الجنسين أساسا من اختلاف الأمزجة والطباع والجهاز العصبى عند كل منها . فالمرأة فى نظر تونيز عاطفية تتحكم فيها عواطفها وانفعالاتها ووجدانها تماما . ولذا تظهر أشد حساسية من الرجل « ويسيطر عليها تماما جهازها العصبى » ـ على حد تعبيره ـ بحيث يكاد يكون من المستحيل أن يصدر عنها أى نوع من التفكير المنهجى أو المنطقى أو « الاستبصار البارد » . وتعيش المرأة بكل كيانها فى الحاضر . فهى تحس أكثر مما تفكر . وهى تصدر الأحكام التقويمية أكثر مما تصدر الأحكام التقريرية . وفى عبارة واحدة فان الذاتية تسيطر على أفعالها . وبذلك فانها تنتمى تماما الى مجال الارادة العضوية . أما الرجل فانه على العكس من ذلك يعتبر فى سلوكه وتصرفاته مثالا واضحا للارادة العقلانية المدركة الواعية . اذ تسيطر قواه العقلية والفكرية على كل تصرفاته . كما أنه يتمتع بقدرة هائلة على التفكير والحساب والتقدير المجرد وعلى التأمل المنطقى . وتتميز حياة الرجل بأنها أشد حركة ونشاطا وصعوبة لأنه هو الذى تقع عليه دائما مسئولية توفير القوت والحماية للمرأة والعائلة . فانه يتمتع بكل القدرات والسلطات التى تؤهله لأن يكون زعيما وقائدا . وعلى ذلك فان الرجل المفكر هو الموضوع الحقيقى للمجتمع Gesellschaft لأنه هو القادر على ممارسة التجارة وأداء العمل الشاق والتفكير المجرد . بينما يتصف عمل المرأة عموما بارتباطه بالجماعة المحلية الضيقة Communal فهو عبارة عن خلق داخلى internal creation وغاية فى ذاته وليس وسيلة لأى غاية أخرى (صفحات ١٧٤ ـ ١٧٦)

والتعارض بين الشباب والشيوخ يعكس فى معظم الأحيان نفس ملامح العلاقات القائمة بين الذكور والاناث . وحسب تعبير تونيز فان المرأة الشابة هى « المرأة الحقيقية » أما المرأة المتقدمة فى السن أو العجوز فانها « أقرب الى الرجل » ؛ بينما يعكس الأطفال ـ والشباب كثيرا من الطبيعة الأنثوية » اذ يظهر فيهم الغرور والبراءة . كما أن الأطفال بالذات يعيشون فى الحاضر ويغرقون فيه كلية . وينتمى النساء والأطفال الى نفس الفئة لأن لهم نفس العقلية ويفهمون بعضهم بعضا تمام الفهم . وذلك يعكس الرجل المتقدم بالسن فانه يعكس ملامح وخصائص الرجولة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . ويرتبط الأطفال والشباب بالعائلة ارتباطا قويا . كما يرتبطون بالبيت والقرية أى الجماعة المحلية بعامة Gemeinschaft واذا كانوا يمارسون أى عمل على الاطلاق فانما هم يمارسونه لأنهم يميلون اليه ويجدون فيه لذة . أو لأنه على الأقل يدخل البهجة والسرور الى نفوسهم . وذلك يعكس الرجل الناضج الذى يتحكم التفكير فى سلوكه واختياراته . كما يتغلب العقل والحكمة على قراراته والذى يستطيع بسهولة أن يتخلص من الجوانب العاطفية فى أحكامه . واذا كان الأطفال والشباب يرتبطون بالعائلة فان الرجل الناضج المكتمل الرجولة يرتبط أكثر بتجارته وعمله

ويستغل طاقته المنتجة فى هذه المجالات ، فضلا عن أنه يميل الى حياة المدن حيث تزدهر التجارة والصناعة ولا يكاد يعطى سوى القليل من اهتمامه للبيت ، وعلى ذلك فبينما تؤلف النساء والأطفال والمراهقون فئة واحدة متمايزة تؤهلها طبيعتها للانشطة الجماعية يظل الرجل الناضج المكتمل الرجولة مالكا لقواه ومسيطرا عليها وموجها كل نشاطه وملكاته وقدراته الى العمل . انه هو « الكائن الاجتماعى بمعنى الكلمة » لأنه وحده هو النشيط الفعال المفكر المالك لقواه والمسيطر على أهوائه والذى لا يكشف قط عن نفسه أو يتخاذل أمام الصعاب وانما هو يرتدى قناعا يخفى وراءه انفعالاته ومشاعره وعواطفه (صفحات ١٧٩ ـ ١٨١) .

أما التعارض الثالث وهو الذى يقوم بين غير المتعلمين أو العامة والمثقفين فانه يكشف بشكل أفضل عن نظرية تونيز السوسيولوجية التى تقوم على الاستقطاب الثنائى dual polarity وذلك نظرا لأنه هو الأساس الذى يقوم عليه التمييز بين فئتين كبيرتين متمايزتين تمايزا جذريا فى تكوين المجتمع ، واذا كان التعارض أو التمايز الأول يرتكز على « الحياة النباتية التى يظهر تأثيرها بشكل أوضح لدى الاناث فان التعارض الثانى يشير بشكل خاص الى « الحياة الحيوانية » التى تتمثل على الخصوص لدى الرجال . أما هذا التعارض الثالث بين العامة والمثقفين فانه تمايز ينتمى الى « المجال العقلى » ويرتبط بالموقف الذهنى وبالمعرفة، حسب التعبيرات التى يستخدمها تونيز نفسه (ص ١٨١)،وعلى الرغم من أهمية هذا التمايز بين هاتين الفئتين فى الحياة الاجتماعية فانه يمكن التغلب عليه نظرا لامكان الانتقال من فئة لأخرى نتيجة لتغيير الأوضاع والظروف ، كما أن ثمة درجات كثيرة وسيطة بين حالة الجهل المطبق والثقافة الراقية السامية . ومع ذلك فان الصفة الغالبة على الفئة الأولى هى اعتمادها على « الارادة العامة » أو « العقل العام » وعلى « الضمير الجمعى » أو « الضمير الشعبى » مما يجعلهم يرون الخير والحق فى كل ما هو عام وشائع، وذلك فضلا عن أن هذه الفئة هم أعمق ايمانا وأكثر تمسكا بالدين وأشد خوفا من الشياطين والأرواح والأشباح التى يعتقدون أنها قادرة على الحاق الأذى بهم أو جلب الخير لهم . وهذه كلها مشاعر وعواطف يعتبرها المثقفون وأعضاء الفئات المتعلمة من أكبر المعوقات لتقدم الحياة الاجتماعية ، ومن أهم العقبات التى تعوق تنفيذ الأهداف والغايات السامية . فكلما ازداد نصيب المرء من التعليم تبددت عواطفه وانفعالاته وأحاسيسه العامة أو الشعبية ، نظرا لأن المعرفة تحرره من أسار وربقة « الضمير الشعبى » وتجعله أكثر اهتماما وانصرافا الى ما يحقق أغراضه الخاصة ، والى جانب هذا التمايز السيكولوجى فان الملاحظ على المستوى الاجتماعى أن الشخص غير المتعلم يكون أكثر التصاقا بالعائلة والحياة العائلية ، انه ينعم بالعلاقات القوية مع جيرانه ويهتم بتوطيد روابط الصداقة مع كثير من الأفراد الذين يعتبرهم أصدقاء حميمين له،وذلك بعكس الشخص المتعلم المثقف الذى يجد لذته الكبرى وسروره الفائق فى العلاقات الاجتماعية التى تخلو من بعض الرسميات المتفق عليها والمقبولة اجتماعيا ، وذلك نظرا لتخلصه من علاقات الجوار

وروابط العائلة ، وأحيانا من الروابط الدينية ذاتها ، فهو « رجل المدينة » والحياة الحضرية أو حتى رجل «العالم» ككل، لايؤمن بالتقاليد المتوارثة ولا يعتقد في الأرواح والشياطين والحياة الغيبية بل يؤمن على العكس من ذلك بالعلم ويرى كل تاريخ الانسانية نوعا من الصراع بين الايمان والتقاليد من ناحية والعلم من ناحية أخرى .

هذه التعارضات أو الثنائيات الثلاثة التي يقيمها تونيزلكي يدعم نظريته السيكولوجية لتفسير الحياة الاجتماعية تكشف لنا عن الطريقة التي يعمل بها ذهنه والخط الذي يسير فيه تفكيره في محاولته رسم التفرقة بين نمطي الحياة الاجتماعية ونوعي والتجمعات الانسانية » اللذين تنقسم اليهما كل المجتمعات المعروفة .

١

ويخصص تونيز كل القسم الأول من كتابه « الجماعة المحلية والمجتمع » للكلام عن هذين النمطين . ويضع تونيز لهذا القسم الأول أو « الكتاب الأول » كما يسميه عنوانا له مغزاه هو « المقولات الأساسية » أو « المفهومات الأساسية » ـ اذ يبدأ بمناقشة هذين المفهومين من ناحية الاشتقاق اللغوى أولا قبل أن ينتقل الى الكلام عن « نظرية الجماعة المحلية Gemeinschaft ثم نظرية المجتمع Gesellschaft.

(٤)

يرتكز التقابل الذى يقيمه تونيز بين مفهومى الجماعة المحلية والمجتمع على التمييز بين الارادة الطبيعية أو العضوية والارادة العقلانية على ما سبق أن ذكرنا ، وذلك على اعتبار أن كل نوع من هذين النوعين من الارادة يؤدى الى قيام علاقات اجتماعية لها طابع معين يتمثل في ظهور أنماط سلوكية ونظم وانساق اجتماعية تتمثل من ناحية في ذلك « التجمع » الانساني أو « الكيان » الاجتماعي الذى يعكس خصائص « الجماعة المحلية » من ناحية و « المجتمع » من الناحية الأخرى . ومن هنا كان تونيز يعتقد أن هذين المفهومين كفيلان بتفسير « الواقع » الاجتماعي أو « الحقيقة » الاجتماعية القائمة الآن بالفعل ، وكذلك فهم التطور التاريخي للمجتمع الانساني في عمومه .

فكأن نقطة الانطلاق لفهم الحقيقة الاجتماعية هي دراسة وتحليل الارادة التى تنبعث عنها الأفعال والعلاقات ، وبالتالي النظم والانساق ، اذا نحن استخدمنا المصطلحات السائدة الآن في الكتابات الانثربولوجية بوجه خاص والسوسيولوجية بعامة . ومن هنا كنا نجد أن تونيز حين يريد دراسة العلاقات الاجتماعية السائدة في تلك الكيانات الاجتماعية التى يسميها « بالجماعة المحلية » يعود الى صور الحياة الثلاثة التى تتخذها الارادة الطبيعية أو العضوية والتى تقوم على أساس المحبة والميل أو العادة أو الذاكرة ، لأنها هى التى تحدد ـ في نظره ـ التجمعات الانسانية التى تعكس أهم خصائص « الجماعة المحلية » ومقوماتها . ولذا يميز تونيز بين ثلاثة أشكال من « الجماعة » المحلية هى الجماعات التى تقوم على أساس روابط الدم (المحبة والميل) وتلك التى تقوم على روابط المكان (العادة) ثم تلك التى تنشأ من

« روابط التفكير » أو « روابط الذهن » حسب تعبيره (الذاكرة) .

وترتكز « جماعات الدم » على الروابط التى تقوم بين أعضاء الأسرة بالمعنى الضيق للكلمة . ولكن من بين كل هذه الروابط فان الرابطة التى تقوم بين الأم وأولادها هى أنقاها وأسماها وأكثرها قربا من « الطبيعة » لأنها علاقة أو رابطة عضوية بسيطة فى المحل الأول ، وإن كان يدخلها بعد ذلك عناصر اجتماعية وثقافية كثيرة تؤدى الى تعقدها . والواقع أن تونيز يعطى أهمية بالغة لروابط الأمومة فى تكوين كل جماعات الدم ويعتبرها فى هذا الصدد أهم من العلاقة بين الأب وأولاده ، فعلاقة الأمومة تقوم على الغريزة وعلى اللذة الصافية فى أقوى وأسمى صورها . وعلى الرغم من أن العلاقة بين الرجل والمرأة أو على الأصح العلاقة الجنسية ـ تتركز هى أيضا على الغريزة واللذة الا أنه ليس من الضرورى أن تؤدى هذه العلاقة الى قيام حياة مشتركة بين طرفى العلاقة ، ان ما يعطيها صفة الاستمرار والاستقرار هو فى المحل الأول الاقامة أو السكن المشترك من ناحية ، ووجود الأطفال وما يحتاجونه من رعاية تتطلب تعاون الوالدين من ناحية أخرى ، وبالمثل فان علاقة الأخوة والأخوات بعضهم ببعض هى أقل قوة من علاقة الأم بأولادها على الرغم من أن علاقة الأخوة تقوم على روابط الدم ويدعمها الحياة المشتركة والعادات المشتركة والذكريات والعواطف المشتركة . وعلى أية حال فان رابطة الأبوة هى فى رأى تونيز أقل هذه الروابط « عضوية » لانه على الرغم من وجود جانب انفعالى أو عاطفى فيها فان الرجل لا يستجيب للعاطفة وحدها . وهذا لايقلل بحال من شأن الدور الذى تلعبه الأبوة فى حياة « الجماعات المحلية » فهى أفضل تجسيد لفكرة ومفهوم السلطة والسيطرة فى تلك المجتمعات أو « الكيانات » الاجتماعية . ومن هذه الناحية فان الأبوة تعتبر هى العامل الرئيسى فى تماسك العائلة والمحافظة عليها لأجيال طويلة متعاقبة لانتقال السلطة ، على الأقل فى المجتمعات الأبوية ، من الأب الى الابن الأكبر جيلا بعد جيل ، مما يساعد على ارتباط الأجيال المتعاقبة بالسلف الأول المشترك الذى كان ولا يزال حتى الآن فى كثير من الجماعات المحلية البدائية ـ موضع العبادة والتقديس (انظر صفحات ٥١ ـ ٥٣) من كتاب الجماعة المحلية والمجتمع) . ولقد كان تونيز يعتنق النظرية القائلة بأسبقية النظام الأمومى Matriarchy على النظام الأبوى Patriarchy وهى نظرية كانت سائدة فى القرن التاسع عشر لدى عدد كبير من علماء الأنثربولوجيا من أمثال باخوفن Bachofen ووليام روبرتسون سميث W. Robertson Smith وغيرهما . وبصرف النظر عن صدق هذه النظرية أو كذبها فالواضح أنها كانت تتفق كل الاتفاق مع نسق تفكير تونيز وموقفه النظرى ، وتدعم وجهة نظره فى أن روابط الأمومة أكثر أصالة وأقرب الى الطبيعة ، وان هذا هو السبب فى سبق نظام الانتساب الى جماعة الأم على نظام الانتساب الى جماعة الأب ، كذلك فان هذه النظرية تدعم فكرته عن الانتقال التدريجى من الارادة العضوية بكل مظاهرها وتعبيراتها الى الارادة العقلانية الواعية المدركة . فالمرأة (الام) والأمومة وما يرتبط بها من عواطف وانفعالات تنتمى

كلها الى النوع الأول ، بينا ينتمى الرجل والعلاقات الأبوية الى النوع الثانى ، وعلى العموم فان تونيز يعتبر العائلة « الخلية الحيوية » للجماعة المحلية بوجه عام ، لأن الروابط العائلية وعلاقات القرابة هى روابط وعلاقات طبيعية بكل معانى الكلمة ، ويمكن اكتشافها فى كل أشكال التجمعات الانسانية التى تندرج تحت مقولة « الجماعة المحلية Gemeinschaft» (صفحة ٢٦٧) .

ومن « جماعة الدم » تنشأ « جماعة المكان» فالعائلة لاتستطيع أن تعيش فى عزلة دائمة وانما هى تحتاج لأن تدخل فى علاقات مع غيرها من الجماعات التى من نفس النوع والتى تعيش فى المناطق المجاورة، مما يؤدى الى ظهور ما يسميه تونيز بعلاقات الجوار، وهى علاقات من الدرجة الثانية ، وذلك على اعتبار أن علاقات الدم هي علاقات من الدرجة الأولى نظرا لأصالتها . وبينما تقوم علاقات الدم والقرابة فى جوهرها على أساس عضوى فان علاقات الجوار تقوم على الملكية المشتركة للأرض والاستغلال المشترك لتلك الأرض ، وهذا هو الأساس الذي ترتكز عليه وحدة الحياة الريفية والذى يعطى هذه الحياة خصائصها ومقوماتها كما تتمثل فى القرية . وتحدد الارض المشتركة درجة تركز وتجمع السكان بعضهم الى جانب بعض تماما مثلما يربط الدم فى العائلة بين ذرية السلف الواحد .

ويؤدى التعاون بين أعضاء القرية ، وهو تعاون يقوم - فى نظر تونيز - على العواطف الطيبة والمشاعر النبيلة - الى اقرار النظام وحسن الادارة ورسوخ قواعد الضبط الاجتماعى . وفى ذلك الصدد يلاحظ تونيز أن الآلهة فى القرية البدائية والأرواح والأولياء تلعب كلها نفس الدور الذى يؤديه«السلف»بالنسبة لجماعة الدم وبخاصة فى المجتمعات التى تعرف « عبادة الاسلاف »،ومع أن العامل الأول فى تحديد «جماعة المكان» أو « الجيرة » هو القرب المكانى وتجاور المساكن فان هذه « الجماعة المحلية » تظل محتفظة بكثير من العلاقات والروابط بين أفرادها حين يتفرقون ويتباعدون اذا هم ظلوا محتفظين بعاداتهم وتقاليدهم وملكيتهم الجماعية للأراضي والحقول وبالشعائر والطقوس والاحتفالات التى تدعوهم للتجمع فى مواسم معينة (صفحة ٢٤٩)

أما « جماعة الفكر » فانها « تعبر عن وحدة الحياة الفكرية » - حسب تعبير تونيز (صفحة ٤٨) وهى بذلك تمثل « أسمى صور وأشكال الجماعات المحلية وأكثرها انسانية » . واذا كانت جماعة الدم تتمثل فى القرابة ، وجماعة المكان تتمثل فى الجيرة ، فان جماعة الفكر تتمثل بأحد صورها فى « الصداقة » . وليس من الضرورى أن ترتبط الصداقة بالقرابة أو بالجوار المكانى لأن العمل الرئيسى فى قيامها ونشأتها هو « تشابه العمل وتماثل الموقف العقلى » ... « كما تقويها اللقاءات الكثيرة السهلة الميسورة وهو ما يحدث بوجه خاص فى المدن الصغيرة ... والعلاقات بين الناس من حيث هم أصدقاء ورفاق لا يدخلها اذن أى عنصر عضوى أو غريزى ... وانما لها طبيعة عقلية ويبدو أنها تنشأ من المصادفة والاختيار الحر ، اذا هى قورنت بعلاقات

الدم وعلاقات الجوار » . (صفحات ٤٩ ، ٥٠) ولكن هذا لا يعنى انفصال جماعة الفكر عن جماعة المكان انفصالا كليا ، بل ان علاقات المكان كثيرا ما تكون هي العامل الرئيسي في ظهور « جماعة الفكر » مثلما تنشأ جماعة المكان في كثير من الأحيان عند جماعات الدم . فاللقاءات الكثيرة التي تقوى علاقة الصداقة وتساعد على استمرارها تتطلب القرب المكاني أو سهولة الاتصال على الأقل على ما ذكرنا ، واذا كان « الكيان » الاجتماعي الذي يقوم على روابط المكان والجوار هو « القرية » فان الكيان الاجتماعي الذي يقوم على أساس الصداقة ـ بالمعنى الذي يعطيه تونيز للكلمة ـ هو تلك الهيئات أو التنظيمات الاجتماعية Korperschaften والمتفاضلة وظيفيا ، والتي تنشأ عن التنظيم الحضري ويكون لها القدرة على الفعل عن طريق هيئات أو أشخاص يمثلونها . والمهم هنا هو أن تونيز يرى أن العلاقات الاجتماعية التي تميز التجمعات أو الكيانات التي يطلق عليها اسم « الجماعة المحلية Gemeinschaft » تمتد وتنتشر تدريجيا وباطراد من جماعة الدم الى جماعة الفكر مؤلفة سلسلة من الروابط التي تكون بمثابة الأساس أو الركيزة التي تقوم عليها وحدة وتجانس كل كيان من هذه الكيانات . ودراسة هذه الأشكال الثلاثة من الكيانات الاجتماعية (أي الأسرة أو الجماعة القرابية ، والمجتمعات القروية ثم الهيئات والمنظمات في المجتمعات الصغيرة) والأسس السيكولوجية التي تنبثق عنها العلاقات الاجتماعية التي تسود فيها والنظم والانساق المختلفة التي تميزها من اقتصادية وسياسية وقانونية ودينية كفيلة بأن تكشف للباحث عن أهم مقومات البناء الاجتماعي للمجتمعات المحلية البسيطة القليلة العدد والمحدودة المساحة سواء في ذلك تلك المجتمعات القائمة الآن بالفعل ، كالقرى والنجوع والقبائل الصحراوية والجماعات الحرفية الصغيرة ، أو المجتمعات المبكرة التي ظهرت في مراحل سابقة من تطور المجتمع الانساني . وهي كلها مجتمعات تتميز بالعلاقات الاجتماعية المباشرة في كل ميادين الحياة وقلة التفاضل أو التمايز الاجتماعي ، وهي خصائص تعطي هذه « الجماعات المحلية » ذلك النوع من التماسك الذي يطلق عليه « تونيز » اسم « التماسك العضوي » أو الطبيعي لأنه يماثل تماسك وتعاون أعضاء الكائن العضوي الحي .

(٥)

تقوم فكرة المجتمع Gesellschaft عند تونيز على أسس وعناصر تختلف كل الاختلاف عن تلك التي تقوم عليها فكرة الجماعة المحلية ، وبالتالي فان مقومات الحياة والعلاقات الاجتماعية والنظم والانساق التي تسود في المجتمع تختلف اختلافا كليا عن تلك التي تسود في الجماعة المحلية . ويحاول تونيز أن يفسر فكرة المجتمع بالعلاقات المجردة التي تميز الارادة العقلانية أو الواعية المدركة . فالمجتمع مجموعة من الأفراد الذين يعيشون جنبا الى جنب دون أن يكون بينهم بالضرورة أي نوع من العلاقات العضوية أو الطبيعية التي سبقت الاشارة اليها حين تكلمنا عن الجماعة المحلية ، اذ يعيش كل فرد بمقتضى ارادته العقلانية الواعية الخاصة وتبعا لتفكيره وحساباته

الخاصة أيضا . فهو لا يعطى شيئا أو يتنازل عن شيء دون مقابل يكون مساويا ـ على الأقل ـ لما أعطاه أو نزل عنه . وهذا الاستقلال أو تلك الفردية التى يتمتع بها كل عضو من أعضاء المجتمع Gesellschaft تستتبع ما يسميه « فردية الثورة » أو « خصوصية الثورة » التى تؤدى بدورها فى آخر الأمر الى ظهور التبادل الحقيقى الذى هو أصل التجارة والصناعة . بل أن تونيز يذهب الى أبعد من ذلك حين يقول أن هذه « التقديرات الرياضية » هى أصل العلم أيضا فان التبادل والتجارة والصناعة والعلم هى فى نظره حقائق مميزة لتلك المرحلة أو الحالة التى يطلق عليها اسم « مجتمع » لأنها كلها تعبيرات مباشرة للارادة العقلانية الواعية المدركة التى يتطابق فيها التبادل والتجارة مع التفكير العقلانى ، كما وتتطابق الصناعة مع القرارات العقلانية ، بينما يرتبط العلم بالأفكار والمفهومات Concepts .

يقول تونيز : « أن نظرية المجتمع تعالج التركيب المصطنع لتجمع الكائنات البشرية الذى يشبه بطريقة فجة سطحية الجماعة المحلية من حيث يعيش الناس ويقيمون معا فى دعة وسلام . ولكن الناس فى الجماعة المحلية يظلون متحدين ومتماسكين بالضرورة رغم وجود عوامل كثيرة للتفرقة والانفصال ،بينما هم يعيشون فى المجتمع منفصلين بالضرورة رغم كل العوامل التى قد تساعد على الإمساك والترابط . وعلى العكس من الجماعة المحلية فاننا لا نجد فى المجتمع أى أفعال يمكن أن تصدر من وحدة موجودة مسبقا وجودا ضروريا ، وبالتالى لا توجد فى المجتمع أفعال تكشف عن ارادة وروح الوحدة حتى وأن صدرت هذه الأفعال عن الفرد كفرد ، كما لا توجد أفعال تصدر عن الفرد ولكنها تعبر عن المجموعة التى يتحد ذلك الفرد معها . فمثل هذه الأفعال لا وجود لها فى المجتمع ، وانما الأمر على العكس من ذلك تماما ، اذ يعيش كل فرد بنفسه فى عزلة تامة عن الآخرين وفى حالة توتر ضد الآخرين . فمجالات نشاط الأفراد منفصلة انفصالا شديدا بعضها عن بعض حيث يرفض كل منهم أن يسمح للآخرين بالتدخل فى نشاطه وسلطته ، ويعتبر مثل هذا التدخل عملا عدوانيا . وهذا الموقف السلبى ازاء الآخرين هو السائد والمألوف . كما أنه يكمن وراء علاقات الأفراد بعضهم ببعض ويعتبر من الملامح المميزة للحياة فى « المجتمع » ، حيث يرفض الأفراد أن يمنحوا شيئا أو أن ينتجوا شيئا لغيرهم أو أن يتنازلوا عن شيء عن رضا وطيب خاطر الا اذا كان ذلك على سبيل التبادل فى مقابل هدية أو عمل يعتبره الفرد مساويا لما أعطاه » (الجماعة المحلية والمجتمع صفحة ٧٤) .

المهم هو أن التبادل فى نظر تونيز هو الأساس الذى تقوم عليه كل الأفعال والعمليات الكبرى الأساسية فى المجتمع ، وهو أساس عقلى الى حد كبير لأنه يقوم على التفكير والتقدير والتقويم ومقارنة قيم الأشياء المختلفة ، سواء أكانت هذه الأشياء : هى السلع التجارية أو المنتوجات الصناعية أو الأفكار العلمية . والمقصود بالقيمة هنا فائدة الشيء أو « السلعة » . ويفترض التبادل مقدما اتفاق الارادات الذى يتم التعبير عنه فى شكل « عقد » من أجل

اتمام العملية . وهذا العقد يتحكم فيه التراضى والاتفاق الى حد كبير ، وذلك على اعتبار أن كل عملية تبادل (تجارى مثلا) تتضمن نوعا من التراضى الاجتماعي أو الاتفاق الاجتماعى العام الذى يتمثل فى (العقد) . والتبادل القائم على العقد بهذا المعنى لا يدخل فيه أى عنصر عضوى أو أى جانب عاطفى ، ولا يتوقف على المركز الاجتماعى أو المرتبة كما هو الحال فى المجتمعات المحلية . ففى التبادل التجارى مثلا يتم تبادل السلع فى مقابل النقود التى تماثل هذه السلع فى (القيمة) والتى تعتبر (أى النقود) هى جوهر العمليات التجارية . وليست التجارة فى آخر الأمر الا (تبادلا اجتماعيا) للسلع فى مقابل النقود ، كما أن الهدف من التجارة هو تحقيق « الربح » أو « المكسب » وبالتالى زيادة مضاعفة الثروة ومن ثم زيادة النفوذ والقوة والسلطة فى المجتمع (صفحات ٨٠ ـ ٨٥) .

وليست الصناعة الا امتدادا اجتماعيا للتجارة ولو أنها لا تقتصر على تبادل السلع وانما يمتد نشاطها الى صنع تلك السلع ذاتها وانتاجها . كما أن الهدف الأخير منها هو ـ كما فى التجارة ـ الكسب أو الفائدة أو الربح الخاص . ويختلف « الرأسمالى » عن الصانع الحرفى الماهر Artisan فى الجماعة المحلية من حيث أنه لا ينتج بنفسه ما يبيعه وانما ينحصر دوره فى المضاربة ، كما أن مكسبه وربحه يتألفان فى الفرق بين سعر شراء « قوة العمل » ـ أى العمل نفسه ـ وسعر بيع المنتوجات الصناعية . وعلى أية حال فان التجارة والصناعة هما تعبيران عن نفس النوع من النشاط الاساسى لأنهما يوجدان معا فى أصل التركيب الثنائى للمجتمع الذى تتعارض فيه طبقة الرأسماليين الأحرار الأقوياء وطبقة العمال المستعبدين الذين يوفرون قوة العمل . فالعلاقة بين الطبقة الرأسمالية والطبقة العاملة هى التى تؤلف « مرحلة المجتمع Society phase » كما يسميها . فالتجار أو الرأسماليون (وهم الذين يملكون المال الذى يزداد ويتضاعف عن طريق التبادل) هم السادة الطبيعيون وحكام المجتمع ، والمجتمع Gesellschaft يوجد من أجلهم . أنه أداتهم . أما كل من عداهم من أعضاء المجتمع فانهم يكونون اما أشبه بالآلات والأدوات غير الحية ـ وهذه هى الصورة المثلى للعبودية والاسترقاق ـ أو أنهم لا يتمتعون بأى كيان قانونى خاص وبذلك يكونون عاجزين عن الارادة الحرة ... وبين السيد والعبيد لا توجد أى علاقة من العلاقات المميزة لحالة المجتمع ! وبالتالى لا يمكن أن تقوم مثل هذه العلاقات على الاطلاق » (الجماعة المحلية والمجتمع صفحات ٩٥ ، ٩٦) . وتتحدد « حالة المجتمع » بثلاثة أفعال » متكاملة هى : (أ) شراء قوة العمل (ب) استغلال قوة العمل ثم (ج) بيع تلك القوة فى صور السلع المنتجة أو الانتاج . ويشارك « العامل » فى الفعل الأول فقط من هذه الأفعال الثلاثة ، ولكنه حتى فى هذه المشاركة فانه يفقد حريته تماما . وواضح أن تونيز متأثر هنا بكتابات ماركس الى حد كبير ، ولذا قوبلت نظريته عن « المجتمع » فى بداية الأمر بنفور شديد ولقيت كثيرا من النقد وبخاصة من مدرسة علم الاجتماع الفرنسى .

أما « العلم » فانه يعكس بشكل واضح وجلي الارادة العقلانية الواعية المدركة بكل ما فيها من « برود » وعدم انحياز وتردد ، كما أنه بطبيعته ، وحسب القيم التي تحكمه ، يتميز بالكلية والعمومية ويتخطى كل حدود المكان وكل الروابط العضوية أو الطبيعية ويعمل على توحيد « العقول » والأفكار .

وليست التجارة والصناعة والعلم مجرد تعبيرات عن نفس المناشط العقلية ، وانما هي ترتبط أيضا بعضها ببعض ارتباطا قويا عن طريق البحث عن المعرفة . ولكن بينما يهدف العلم الى المعرفة لذاتها ، وهو ما يعطي العلم قيمة أخلاقية عليا ، فان التجارة والصناعة تطلبان المعرفة لتحقيق مزيد من المطالب العملية ومزيد من الربح والكسب والفائدة المادية .

وعلى العموم « فان تونيز يرد هذا التطور من التجارة الى العلم الى تطور الحياة الاجتماعية ذاتها ومرورها بثلاثة مراحل تتمثل في ثلاثة أشكال هامة من أشكال « المجتمع Gesellschaft وهي : المدينة الكبيرة والأمة ثم العالم ككل . فحياة المدينة تقوم الى حد كبير على أساس التراضي والاتفاق ، وهي بذلك تختلف عن خط الحياة السائدة في « جماعة محلية » مثل المدينة الصغيرة أو البلدة حيث ينظم العرف Custom العلاقات بين الناس . واذا كانت المدينة الكبيرة القديمة تعتبر مركزا تجاريا فانها لم تلبث أن تطورت بحيث أصبحت مركزا للصناعة . وان كانت الصناعة تتعدى بالضرورة نطاق المدينة وتمارس ـ كنشاط وعمل وانتاج ـ على مستوى الأمة كلها بل وعلى المستوى الدولي أيضا . وهذا يعني أن حياة الأمة هي امتداد لحياة المدينة التي تدخل في تكوين الأمة . بيد أن الأمة لا يمكن أن تقوم على أساس التراضي أو الاتفاق البسيط ، وانما هي تحتاج الى تنظيم « للطبيعة السياسية » يكون أكثر قوة وصلابة وتعقيدا وهذا التنظيم يتمثل في الدولة . وأخيرا فان الحياة العالمية أو الكوزموبوليتانية تظهر كنتيجة مترتبة على كل من الصناعة والسوق العالمية وتجد لها سندا من العالم الذي يتخطى كل الحدود المعروفة . وهذا لا يخفى على أية حال أن الحياة المرتبطة بالمجتمع Gesellschaft تجد أفضل تعبير لها في المدينة ، بينما الأمة والعالم ليسا سوى مجرد تطورات لهذه الحياة ، بنفس الطريقة التي تعتبر بها الصناعة والعلم امتدادا أكثر تقدما وتجريدا وعقلانية للتجارة . فالتجريد والعقلانية هما ما يؤلفان جوهر « المجتمع » بحيث لا نكاد نجد أية عناصر عضوية أو عاطفية في العلاقات السائدة فيه .

(٦)

ويكفي هذه القدر من المعلومات للتعرف على الخطوط الرئيسية لفكر تونيز عن الحياة الاجتماعية وأشكالها ومقوماتها . فلم يكن هدفنا أن نعرض بالتفصيل لأركان نظريته في علم الاجتماع (والواقع أنه لم تعد لهذه النظرية أهمية تذكر الآن) وانما كنا نهدف منذ البداية الى الكشف عن نظرته الى المجتمع الانساني بعامة والقوى التي تعمل على تغييره ، وان نتبين مدى تأثر هذه النظرية بالأوضاع السائدة في القرن التاسع عشر وتدخلها في صياغة فكره وتشكيله وتوجيهه . فعلى الرغم من كل ما يقال عن وضعية

الفكر الاجتماعي بموضوعية العلماء فان هذا الفكر هو في آخر الأمر محصلة للظروف والأوضاع التي تنشأ فيها وهذه مسألة سبق وأن عالجنا ها في دراستنا عن العلوم الانسانية والصراع الأديولوجي » (عالم الفكر ، المجلد ٢ العدد ٢ ، ١٩٧١) فالتغيرات التي كانت تحدث في المجتمع الأوروبي في كلّ المجالات كنتيجة مباشرة للثورة الصناعية كان لها بغير شك دخل كبير في تكوين نظرية تونيز عن « الجماعة المحلية والمجتمع » وتعتبر هذه النظرية الاسهام الحقيقي الذي أضافه الى الفكر الاجتماعي ، كما أنها هي الجزء الباقي من كتاباته الذي لا يزال يجد له صدى في كتابات الكثيرين من الانثربولوجيين المعاصرين وبخاصة الذين يهتمون منهم بدراسة التغير الأجتماعي والبنائي . فالذي استرعى انتباه تونيز وكان يؤكد عليه هو ذلك التعارض بين « الوضع الاجتماعي » الذي ينبثق من تشابه الارادات ويقوم على الانسجام ويجد سندا له من الأعراف والسند والأعراف الشعبية والدين وبين « الوضع الاجتماعي » الذي يتركز على اتحاد الارادات العقلانية ويقوم على الاتفاق والمواثيق والتراضي ، ويجد له سندا في التشريع السياسي ، كما يجد له تبريرا أيديولوجيا في الرأي العام (صفحة ٢٦١) .

في الحالة الأولى ـ نجد أن ثمة نسقا من « القانون الوضعي » ـ حسب تعبيره ـ يتكون من المعايير المفروضة التي تنظم العلاقات بين الارادة ويستمد كيانه وقوته من الحياة العائلية وملكية الأرض ، وتتولى مبادىء الأخلاق والعادات الشعبية صياغة قواعده وبنوده ، بينما تضفي المعتقدات الدينية الشعبية وأقوال الحكماء وتعاليم وإرادات « الحكام » عليه طابعامقدسـا كما لو كان صادرا عن الارادة الالهية . وفي الحالة الثانية نجد أيضا نسقا آخر من « القانون الوضعي » ولكن يتعارض تماما مع النسق السابق . فهو يؤكد الشخصية المستقلة المنفصلة للارادات الفردية العقلانية من كل علاقاتها وتفرعاتها وتشابكها ويستمد وجوده من التنظيم المتفق عليه والذي يتحكم في تحديد وتوجيه العلاقات والروابط المختلفة التي تعتبر العلاقات التجارية أفضل مثل لها ، كما أن الذي يفرض على الناس هو الارادة العليا التي تتمثل في قوة الدولة . وتوجد الى جانب ذلك ذلك الفكرة المزدوجة عن الأخلاقيات من حيث هي نسق مثال أو نسق عقلي من المعايير في حياة المجتمع ، الا أن هذا النسق يكون في الحالة الأولى تعبيرا عن المعتقدات والقوى الدينية وأداة لها ، كما أنه يتداخل بالضرورة مع أوضاع وحقائق روح العائلة والأساليب الشعبية والأعراف . أما في الحالة الثانية ـ فان ذلك النسق يكون حصيلة الرأي ونتاجه وأداته . ذلك الرأي العام الذي يتضمن كل العلاقات التي تنشأ من الروابط والعلاقات الاجتماعية التعاقدية ، ومن الاتصالات والأهداف والمرامي السياسية التعاقدية أيضا (صفحة ٢٦١) ... وفي هذا الشكل الأخير من الحياة الاجتماعية نجد أن التنظيم الاجتماعي والأوضاع والظروف والأحوال الاجتماعية تدفع الفرد الى العيش بعيدا عن الآخرين ، وأن يشعر نحوهم ويحمل لهم كثيرا من العداء المستتر ، ولا يمنعه من الكشف عن هذا العداء وترجمته الى أفعال عدوانية الا الخوف والانتقام والقصاص . فالعلاقات بين

الناس وحتى الجيران هى في جوهرها علاقات « حرب خفية » أو حرب غير معلنة ، وهذه في نظر تونيز أحد الملامح العامة لما يسميه « حضارة المجتمع » التى تشرف الدولة على حمايتها بقوة القانون السياسى .كما أن العلم والرأى العام يلعبان دورا هاما في الرفع من شأن « الحضارة » باعتبارها نوعا من التقدم نحو الكمال ، وذلك بعكس الحال بالنسبة للجماعة المحلية » حيث تسود مظاهر الحياة الشعبية والثقافة الشعبية وهى أمور لا تجد كثيرا من الترحيب أو الاهتمام أو الاحترام من الدولة التى تمثل « المجتمع » وتعتبر نفسها تجسيدا له . وعلى أية حال فانه في الحياة الاجتماعية والتاريخية للجنس البشرى » يقوم نمط من العلاقات القوية المتبادلة التى تتخذ شكل التعايش والتعارض بين الارادة الطبيعية والارادة العقلانية . وهذا لا يتعارض على أية حال مع ـ القضية الاساسية التى يحاول تونيز ابرازها في كثير من مواضيع الكتاب وهي أن الارادة الطبيعية الفردية التي تتطور الى تفكير خالص أو تفكير بحت وارادة عقلانية لا تلبث أن تطغى على الارادة العضوية وتضعف من تأثيرها . وان الصور والأشكال الاجتماعية الأصلية للجماعة المحلية تتطور بالمثل الى « مجتمع » والى ارادة عقلانية مرتبطة بالمجتمع وانه خلال التاريخ الانسانى كله أدت الثقافة الشعبية الى قيام حضارة الدولة ، وان الاتجاه العقلى للفرد هو التحرر التدريجى من تأثير الدين والخضوع التدريجى لسلطان العلم (الجماعة المحلية والمجتمع ، صفحات ٣٦٢ ـ ٣٦٥) .

بيد أن هذه الثنائية « توجد على أية حال في كل أشكال التجمعات الانسانية ولكن بنسب مختلفة ، بحيث تقترب الحياة في كل شكل من أشكال هذه التجمعات الى أحد الطرفين . فسلوك الفرد في « المجتمع Gesellschaft » لا يمكن أن يكون صادرا عن العقلانية فقط أو عن التفكير البارد المجرد المحسوب وحده وانما تلعب فيه دائما الانفعالات والوجدانات والمشاعر والرغبات دورا هاما ، وتتدخل في تحديد كل الارتباطات والعلاقات الانسانية . والعكس صحيح فيما يتعلق بنمط الحياة « الجماعة المحلية » . حيث يداخلها كثير من ملامح التفكير المجرد والارادة العقلانية ، وكل ما يمكن قوله ـ على هذا الأساس ـ هو أن العصور الوسطى مثلا كان يسود فيها علاقات من ذلك النمط الذى يميز « الجماعة المحلية » بعكس الحالة بالنسبة للعصر الحديث أو أن العائلة تتوفر فيها من ملامح وعناصر « الجماعة المحلية » أكثر مما يتوفر في كثير من التنظيمات الحديثة مثل الشركات المساهمة وهكذا . والمهم هو أن نتذكر دائما أنه لا العصور الوسطى ولا العائلات هى « جماعات محلية بحته » . وبالمثل فانه يمكن اعتبار العائلة الريفية أقرب الى « الجماعة المحلية » من عائلات العمال الذين يعيشون في المدن الكبرى اذ يوجد فيها قدر كبير من ملامح « المجتمع » وهكذا . فالجماعة المحلية والمجتمع اذن هما تصوران عقليان يمكن تطبيقهما على مختلف الكيانات والزمر والعصور (P. XIX).

فكأن من الخطأ الاعتقاد اذن أن تونيز حين يميز بين مايسميه « الجماعة المحلية » أو « المجتمع » كان يهدف الى تصنيف المجتمعات الانسانية الى فئتين متخارجتين ومتمايزتين ومنفصلتين تماما كما يعتقد الكثيرون ، والأقرب الى الصواب هو أن نقول أن

هذين النمطين هما نمطان مثاليان لا يمكن تحقيقهما بكل تفاصيلهما في الواقع ، وان أي تجمع انساني يجمع كما ذكرنا ، من خصائص وملامح كل من هذين النمطين ممتزجين معا في كلٍّ واحد متماسك . وتونيز نفسه ينبه الى ذلك فيقول في الفقرة الخامسة من خاتمة كتابه « ان الحياة العائلية هي الأساس العام للحياة في الجماعة المحلية ، فهي تستمرّ وتظهر في حياة القرية وحياة المدينة الصغيرة أو البلدة ، ومجتمع القرية ومجتمع البلدة يمكن اعتبارهما كعائلات كبيرة حيث تمثل العشائر والبيوت الكائنات العضوية الحية الأولية التي تدخل في تكوين جسم مجتمع القرية ، وتمثل الجماعات والاتحادات والمكاتب الحكومية ، وأعضاء البلدة . هنا نجد أن القرابة الاصلية والمركز أو المكانة الموروثة تظل حالة ضرورية أو شرطا هاما على الأقل للمشاركة مشاركة كاملة في الملكية العامة وغيرها من الحقوق . وقد تتقبل الجماعة المحلية الأغراب ، كما قد تقدم لهم الحماية باعتبارهم أعضاء يقدمون خدمات أو باعتبارهم ضيوفا يقيمون بصفة مؤقتة أو دائمة وبذلك فانهم يمكنهم الانتماء الى الجماعة المحلية كأشياء ، ولكن ليس كمفوضين أو ممثلين للجماعة المحلية .. أما في المدينة الكبيرة فان الاختلاف بين الأهالي الأصليين والأغراب يصبح غير ذي موضوع . فكل شخص هو بما هو عليه بفضل حريته الشخصية وثروته وتعاقداته ، فهو يعتبر خادما فقط بقدر ما يقدم من خدمات للآخرين ، كما يعتبر سيدا فقط بقدر ما يتقبل هو نفسه من خدمات .. وفي المدينة الكبيرة وكذلك في المدينة العاصمة ، أو على الأصح في المدينة العملاقة ، تتدهور حياة العائلة وتضمحل وتذوي ، وكلما زاد تأثير المدينة واستمر لمدة أطول تضاءلت الحياة العائلية بحيث تصبح علاقة عارضة فحسب ، لأنه لن يكون هناك سوى قلائل فقط يقنعون بأن يحصروا جهودهم في هذه الدائرة الضيقة ، بينما تجذبهم جميعا الى خارج هذا النطاق الأعمال التجارية والمصالح والاهتمامات الخاصة ، وبذلك يتباعدون بعضهم عن بعض ، فالرجل العظيم القوي الذي يدرك حريته واستقلاله يشعر بميل قوي لأن يتخطى حواجز الأساليب الشعبية والسنن والأعراف ، كما يدرك أن بامكانه أن يفعل ما يشاء وان لديه القدرة على ادخال التغييرات التي تلائمه ، وهذا دليل ايجابي على القوى التحكمية الفردية .. ولكن هذا لا يصدق دائما في كل الأحوال . وحتى اذا استبعدت كل الضوابط المرتبطة بالجماعة المحلية فانه تظل هناك بعد ذلك ضوابط المجتمع التي يخضع لها الأفراد ، لأن المجتمع Gesellschaft (بالمعنى الحقيقي للكلمة) يميل الاتفاق الى حد كبير على الأساليب الشعبية والسنن والدين ، فهو يحرم الكثير من الأمور التي اعتبرتها هذه الأساليب الشعبية والأعراف والأديان أمورا شريرة في ذاتها .. كذلك فان ادارة الدولة تلعب نفس الدور من خلال المحاكم والشرطة ، ولكن في حدود أضيق ، وتطبق قوانين الدولة على الجميع بغير تمييز .. كذلك يعمل الاتفاق على مساندة الأخلاق ، على الأقل من الناحية المظهرية .. لأن الدولة لا تكاد تهتم بطريق مباشر وصريح بالاخلاق وانما هي تكتفي بالقمع وتوقيع العقوبة على الأفعال العدوانية التي تعتبر ضارة بالصالح العام ، أو تهدد وجودها هي ذاتها ووجود المجتمع .. وحين تكتشف الدولة في آخر الأمر أن زيادة المعرفة والثقافة لا تكفي وحدها لجعل الناس أكثر رقة أو أقل أنانية أو أكثر رضا ، وأنه لا يمكن احياء الأساليب الشعبية والأعراف والمعتقدات الميتة بطريقة القسر ومن خلال التعليم ، فانها تدرك أن تكوين القوى الأخلاقية وبناء الأشخاص

الأخلاقيين يستلزمان تهيئة أساس قوى لذلك وتحقيق عدد من الشروط الأساسية . أو على الأقل القضاء على القوى المناوئة ، كما تجد لزاما عليها باعتبارها هى عقل المجتمع أن تقرر هدم ذلك المجتمع أو على الأقل اصلاحه وتجديده . والنجاح بمثل هذا الأمر مشكوك فيه الى حد كبير (الجماعة والمجتمع صفحات ٦٢٧ ـ ٢٦٩) .

مثل هذه العبارات والأحكام جعلت الكثيرين من الكتاب الذين اهتموا بأعمال تونيز يعتبرونه من الكتاب (المتشائمين) وانه لا يختلف فى نظرته الى (حضارة المجتمع) عن نظرة شبنجلر مثلا . ولكن من الانصاف أن نذكر أن تونيز كان يرى الهدف النهائى من أى نظام اجتماعى هو تحقيق العلاقات السلمية بين أعضاء المجتمع ، وفى ذلك يتركز معنى هذا النظام ومغزاه . ولقد سبق أن ذكرنا أن تونيز انطلاقا من هذه النظرة أخرج من مجال علم الاجتماع البحث السلوك السلبى والعدوانى ، والله كان يرى أن فى الامكان معالجة الانحرافات المختلفة بالأساليب والوسائل « السلمية » دون حاجة الى اللجوء الى الثورات التى تؤدى آخر الأمر الى هدم المجتمع وتقويض نظمه ومعاييره . فوظيفة علم الاجتماع هى أن يبين للناس السبيل الى اقامة علاقات انسانية سليمة بين الجماعات والزمر والطبقات والأمم ، كما أن الأشخاص العاديين أو عامة الشعب هم الذين يستطيعون دون غيرهم أن يستدلوا على ذلك الطريق . ولقد كان تونيز يشعر بالتعاطف والتجاوب مع عامة الناس كما كان يؤمن بهم ، وكان يعرف عن طريق الاحتكاك المباشر أنهم أكثر واقعية وأشد رقة وإحساساً بالجماعة من الأغنياء والمتعلمين الذين يعتمدون من أجل تحقيق مصالحهم والوصول الى مكانة اجتماعية عالية أو الاحتفاظ بمكاسبهم على التصرفات العقلانية التى لا تأخذ فى حسابها اعتبارات الانصاف والانسانية فى هذه الأفعال . وهذا هو السبب فى أن تونيز ـ حسب ما يقول لوميس فى مقدمته للكتاب (P. XXVI) كان يأخذ جانب العمال فى أى مشكلة تثور بينهم وبين أصحاب العمل ، اعتقادا منه أنه حين يؤازر الرجل العادى فانه يفعل ما فيه خير الأمة ، كما كان يؤمل فى أنه عن طريق الحركات التعاونية والنقابية سوف يمكن التغلب على كثير من المساوىء والمشكلات التى تنشأ عن تقدم العقلانية والفردية .

●●●

ان ما يجب أن نتذكره دائما هو أن تونيز كان أول عالم اجتماع اتخذ موقفا صريحا ضد النظام الصناعى الجديد ، مبينا أنه اذا لم يتمكن هذا النظام من الاحتفاظ ببعض عناصر النظام القديم المرتبط بالجماعة المحلية فان المجتمع سوف يضيع تماما وفى ذلك خسارة فادحة على الانسان من حيث هو انسان . وعلى الرغم من أن كثيرا من آرائه ظهرت فيما بعد بشكل أكثر ترتيبا عند أميل دوركايم وبخاصة فى التمييز بين المجتمعات البسيطة والمجتمعات المركبة أو بين التضامن الآلى والتضامن العضوى فان دوركايم يهدف الى اظهار حركة التقدم الحضارى من البسيط الى المركب وذلك يعكس تونيز الذى كان يرى أنه على الرغم من أن المجتمع هو تقدم لا مفر منه فان ثمن ذلك « التقدم » غال جدا لا يستطيع المجتمع الانساني أن يتحمله أو يدفعه . فهذا الثمن لن يكون أقل من فقدان العناصر الحيوية الطبيعية التى لا توجد الا فى ذلك النمط من العلاقات التى تتوفر فيما يسمّيه بالجماعة المحلية Gemeinschaft . ففى ذلك النوع من التجمع الانسانى يشعر الناس جميعا بالتعاطف والتماسك والتآزر وهى أمور يفتقر اليها المجتمع الصناعى الكبير الحديث .

مطالعات

دار العلم في طرابلس الشام خلال القرن الخامس الهجري

عمر عبد السلام تدمري

استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة اللبنانية - فرع طرابلس

شهدت مدينة طرابلس الشام في القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلاديين) نهضة ثقافية وحركة علمية لم تشهدها في تاريخها من قبل ، وتمثلت تلك الحركة الثقافية المزدهرة بكثرة المجالس العلمية التي كانت تعقد في مساجدها ومدارسها ودور علمها ، وباستقبال العديد من العلماء الذين نزلوها وحطوا رحالهم فيها ، أو اتخذوا منها محطة في رحلاتهم الواسعة طلبا للعلم أو التعليم ، وتوجت النهضة الثقافية ، أخيرا بقيام « دار العلم » التي ضمت مكتبة ضخمة كانت درة مضيئة في جبين التاريخ الحضاري للعرب والمسلمين .

وقبل أن نتعرف على « دار العلم » منذ تأسيسها حتى تدميرها ، يجدر بنا ، توطئة لذلك ، أن نستعرض العوامل التي ساعدت على قيام النهضة الثقافية في المدينة خلال تلك الفترة ، وهي الحركة التجارية والزراعية والصناعية المزدهرة ، الى جانب الموقع الطبيعي على ساحل البحر والاستعداد الفطري لأهل المدينة ، وتشجيع الولاة والأمراء للعلماء والأدباء .

الحركة التجارية

كان ميناء طرابلس الشام من أهم الموانىء التجارية في الشام خلال القرن الثالث الهجري وما بعده ، وهو المنفذ البحري الرئيسي لاقليم حمص ، وثغر دمشق على البحر المتوسط ، فمن طريقه تتم عمليات التصدير والاستيراد ، وبواسطته تنتقل منتجات الشام والشرق الى بلاد الروم والافرنج ، ويستقبل السفن التجارية القادمة من كل الجهات

لتفرغ حمولتها فيه ، ومنه تحمل لتوزع في أنحاء البلاد الشامية وغيرها من بلاد الشرق . فطرابلس بهذا تمثل همزة وصل ، أو جسرا بين الشرق والغرب ، وملتقى للقوافل التجارية ، برية كانت أم بحرية . ولذا استفادت ، بفضل موقعها ، من تجارة المرور ، وازدادت أرباح أهلها . وتردد على المدينة كثير من التجار الاجانب الوافدين من بيزنطة والاندلس وصقلية وبلاد غرب أوربا . وأبحرت من مينائها الأساطيل التجارية الخاصة بالخليفة الفاطمي في القاهرة ، قاصدة القسطنطينية وصقلية وشمال افريقية للتجارة معها .[1] كما كان أمراؤها من بني عمار يسيرون أسطولا « تجاريا » الى موانيء البحر الأبيض المتوسط ، حتى وهم يقاومون هجمات الصليبيين .

وقد وصف الرحالة الفارسي « ناصر خسرو علوي » الحركة التجارية النشطة في ميناء طرابلس أثناء زيارته لها في سنة ٤٣٨هـ / ١٠٤٧م ، أيام الدولة الفاطمية بقوله « .. وتحصل المكوس ، بهذه المدينة ، فتدفع السفن الآتية من بلاد الروم والفرنج والأندلس والمغرب العشر للسلطان فيدفع منه أرزاق الجند . وللسلطان بها سفن تسافر الى بلاد الروم وصقلية والمغرب للتجارة ... » .[2]

ويمكننا أن نتصور ضخامة النشاط التجاري في ميناء طرابلس اذا عرفنا أن ميناءها كان في القرن الثالث الهجري واسعا « جدا » بحيث كان يستوعب حوضه ألف مركب . ولذا أشاد به « **اليعقوبي** » المتوفى سنة ٢٨٤هـ . ووصفه في كتابه « البلدان » بأنه « ميناء عجيب يحتمل ألف مركب » .[3]

الثروة الزراعية

كانت الثروة الزراعية عاملا « آخر مساعدا » لقيام نهضة اجتماعية في طرابلس ، إذ كانت الأرباض المحيطة بالمدينة تشتهر بوفرة وتنوع مزروعاتها ، بحيث لا تحتاج الى استيراد شيء من المحاصيل ، وبذلك بقيت الأموال الواردة من طريق التجارة ، بين يدي أبنائها ، فاستفادت منها الحركة الصناعية والاقتصادية وانعكس ذلك كله بالتالي على النهضة الثقافية .

فقد أجمع المؤرخون والرحالة والجغرافيون ، على أن طرابلس تجمع في بساتينها من الفواكه والثمار « ما لا يوجد في سائر الأقاليم أصلا » . إذ لا يكاد يوجد فيها دار بغير شجر لكثرة تغرق أرضها بالمياه .[4] فهي تجمع بين « ثمار الشام ومصر » .[5] وأشاد « ناصر خسرو » بوفرة مياهها فقال انه وجد في سوق طرابلس « مشرعة ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير يأخذ منه الناس حاجتهم ، ويفيض باقيه على

(١) القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط - أرشيبالد ر . لويس - ترجمة أحمد محمد عيسى - ص ٢٣٦ - القاهرة .
(٢) سفرنامة - ناصر خسرو علوي - ترجمة د . يحيى الخشاب - ص ١٣ - القاهرة ١٩٦٨ .
(٣) البلدان - اليعقوبي - ص ٣٢٧ - طبعة ليدن ١٨٩١ .
(٤) تقويم البلدان - ابو الفداء - نشرة رينو والبارون ماك كوكين ديسلان - ص ٢٥٣ - باريس ١٨٤٠ ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر - شيخ الربوة الدمشقي - نشرة مهرن ص ٢٠٧ ليبزغ ١٩٢٣ ، والبداية والنهاية لابن كثير الدمشقي ٣١٢/١٣ .
(٥) البداية والنهاية ٣١٢/١٣ ، زبدة كشف الممالك - نشرة بولس راقيس - ص ٤٨ - لابن شاهين الظاهري - باريس ١٨٩٤ .

الارض ويصرف في البحر .. » ، ويصف مزروعاتها فيقول « وحول المدينة المزارع والبساتين ، وكثير من قصب السكر ، وأشجار النارنج والترنج والموز والليمون والتمر .. » ويقول « الأصطخري » عن طرابلس « وهي ذات نخل ، وقصب سكر ، وخصب » .[٦] ويقول « الشريف الادريسي » « ولها رساتيق وأكوار وضياع جليلة ، وبها من شجر الزيتون ، والكروم ، وقصب السكر ، وأنواع الفواكه ، وضروب الغلات ، الشيء الكثير ... » .[٧] وكانت أرضها تنتج الفاكهة بنوعيها ، اليابسة والرطبة ، وتحمل هذه الفواكه الى مصر في زمن الحاكم بأمر الله الفاطمي .[٨]

الحركة الصناعية

لما كان قصب السكر ينمو بغزارة حول طرابلس ، فقد أقيمت مصانع لعصره وتصنيعه ، وشاهد « ناصر خسرو » عملية عصر القصب بنفسه عند زيارته للمدينة ، وكانت طرابلس ومعها دمشق ، بوجه خاص تموّنان أوروبا حتى أواخر العصور الوسطى ، بالسكر بجميع أشكاله المعروفة آنذاك ، بشكل رقائق ، أو ناعم ، بشكل دقيق ، أو بشكل حلوى .[٩] وكان التاجر الاوروبي القادم من البندقية أو جنوا يعود الى بلاده وهو يحمل معه « سلال السكر وأكياسه من طرابلس الشام » .[١٠]

ولم تكن صناعة السكر هي الوحيدة في طرابلس ، بل كانت هناك صناعة الورق أيضا ، وهي الصناعة التي ساهمت بانتشار حركة التأليف وقيام المكتبات ودور العلم ، وكذلك صناعة النسيج التي أعجب بها الصليبيون حين احتلوا بلاد الشام الساحلية ،[١١] الى جانب صناعة ألواح الثلج وحفظها ، ونقلها الى قصور الخلفاء الفاطميين في مصر .[١٢]

وهكذا اجتمعت هذه العوامل الاقتصادية ، من تجارية وزراعية وصناعية ، لتكون سببا في ازدهار المدينة ورخائها ، وقد عاد ذلك بالخير على حكام المدينة وأهلها ، إذ عاشوا في بحبوحة ، وتنعموا بثروات كثيرة . وشهد المؤرخون المعاصرون للفترة التي نبحث لها بعظيم ثروة طرابلس وأهلها . فهذا « ابن الاثير » يقول « .. وكانت طرابلس من أعظم بلاد الاسلام ، وأكثرها تجملا وثروة » .[١٣] وهذا « ابن تغري بردي » يقول عن أهلها انهم « كانوا من أكثر

---

(٦) المسالك والممالك - الأصطخري - تحقيق د . محمد جابر الحيني - ص ٤٦ القاهرة ١٩٦١ .
(٧) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - الادريسي - نشره جوانيس جيلد ميستر - ص ١٧ - بون ١٨٨٥ .
(٨) تاريخ الانطاكي - يحيى بن سعيد - نشره لويس شيخو - ص ٢٠٠ - بيروت ١٩٠٩ .
(٩) لبنان في التاريخ - د . فيليب حتي - ص ٤١٤ - بيروت ١٩٥٩ .
(١٠) فضل العرب على اوروبة (شمس الله على الغرب) - د . سيغريد هونكه - ترجمة د . فؤاد علي - ص ٤٨ ، القاهرة ١٩٦٤ .
(١١) القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام - كتبها سيمون دي جوانفيل - ترجمة وتعليق د . حسن حبشي - ص ٣٦١ ، القاهرة ١٩٦٨ .
(١٢) خطط الشام - محمد كرد علي - ج ٢٤٩/٤ .
(١٣) الكامل في التاريخ - ابن الاثير ٤١٢/١٠ - بيروت ، طبعة صادر .

أهل البلاد أموالا وتجارة » [١٤] ويقول عنها في موضع آخر « إن فيها من الأموال والذخائر ما لا يحصى ولا يحصر » .[١٥]

ومن الأمثلة على ثراء أهل طرابلس ، انه بالرغم من تعرضها لحصار مستمر من الصليبيين في العشر الاخير من القرن الخامس الهجري ، فقد ظلت صامدة بفضل ثروتها التي أدهشت الصليبيين ، إذ عندما دخلت سفارة أرسلها « ريموندي تولوز » قائد الحملة الصليبية للتفاوض مع صاحب المدينة « فخر الملك بن عمار » ومرت بأسواقها ، أدهشها ما رأته من أنواع البضائع ورواج التجارة ، وعظيم الثروة والرخاء الذي ينعم به أمير المدينة وأهلها .[١٦]

أدى الرخاء والثروة التي نعم بها أهل طرابلس وأمراؤها الى الاهتمام بنواحي الحيـاة ومباهجها ، وسرعان ما بدت طرابلس كحاضرة كبيرة تجتذب اليها كل راغب في الثروة ، ولذا قصدها الشاعر المشهور « أبو الطيـب المتنبي » وهو ما يزال في صباه ، في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، ليمدح أحد رجالاتها ، وهو « عبيد الله بن خراسان الطرابلسي »[١٧] ولا شك انه كان يطمع في ثروته ليهبه ما يجود به ، على نحو ما فعل مع « سيف الدولة الحمداني » صاحب حلب ، و« كافور الأخشيدي » صاحب مصر .

وبما أن طرابلس تقع على ساحل البحر ، وتستقبل التجار والرحالة والمسافرين من كل بلد ومن كل لون ، فقد ساعد ذلك أهلها على تعلم لغات مختلفة للتفاهم والتعامل مع التجار الأوروبيـين أو الأسيويين غير العرب .

كذلك ، فان تعرض مدن وقرى الشام في هذه الفترة الى أعمال النهب والتخريب والتدمير التي كان يقوم بها البيزنطيون وغيرهم ، أدى الى كثرة النازحين الى طرابلس من الأدباء والشعراء والمحدثين والفقهاء وغيرهم ، إذ كانوا يجدون فيها ملاذا « أمينا » وحصنا « منيعا » لم يستطع البيزنطيـون أن يدخلوه في كل حملاتهم .[١٨]

كما كان قرب طرابلس من حاضرة الشام ، دمشق ، عاملا من عوامل ازدهار الحركة الثقافيـة فيها ، اذ كانت المدينة تجذب اليها كل عالم مقيم بدمشق أو زائر لها . وفي النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، استقبلت طرابلس جماعة كبيرة من وجوه وأعيان دمشق ، فأقاموا فيها بقية حياتهم ، ومنهم من أقام فيها لعدة سنوات ثم غادروها بعد أن شاركوا في إثراء حياتها العلمية وحركتها الثقافية بعلومهم وفنونهم . وأتى المؤرخون على ذكـر الرحلة الجماعية لوجوه دمشق الى طرابلس عند حديثهم عن فتنة « أتسز بن آب بن الخوارزمي التركي » الذي

(١٤ و ١٥) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ابن تغري بردي - ج ٥/١٨٠ و ١٧٦ - القاهرة .
(١٦) الحروب الصليبية الأولى - د . حسن حبشي - ص ١٦٥ - القاهرة ١٩٥٨ .
(١٧) يبدو من سياق قصيدة المتنبي التي مدحه بها أنه كان واليا على طرابلس من قبل الدولة الأخشيدية .
(١٨) استعرضنا الحملات البيزنطية على بلاد الشام عامة ، وطرابلس خاصة ، في كتابنا « تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور » - ج ١٨٩/١ - ٢٣٣ - طرابلس ١٩٧٨ .

حاصر دمشق سنة ٤٦٨هـ . واعتقل عددا من وجوهها .[١٩] وكان من بين الاعلام الذين غادروا دمشق في هذه المحنة وأقاموا بطرابلس الشاعر « ابن الخياط » صاحب الديوان المعروف باسمه وأخوه « يحيى » الذي أنجب في طرابلس عدة أبناء عرفوا بأبناء سني الدولة . وهكذا نجد أن لموقع المدينة أثرا « كبيرا » على الحركة العلمية التي شهدتها في العصر الوسيط ، وحتى في الفترة التي خضعت فيها للاحتلال الصليبي .

مظاهر الحياة الثقافية

إنصرف الموسرون والاغنياء من أهل طرابلس وحكامها الى شراء الكتب واقتنائها ، وإقامة المكتبات العامرة بمختلف المصنفات ، وقد مكنتهم ثرواتهم من جمع كتب كثيرة ، وبناء دور العلم ، وكان من شغف أهل طرابلس بالكتب والعلوم والثقافة أنهم وقفوا كتبهم أو خزائنهم لطلبة العلم تبرعا ، وأتى المؤرخون على ذكر تلك المكتبات التي كثرت في طرابلس ، الى حد يسترعي الاهتمام فقالوا : « .. وكانت بها خزائن كتب موقوفة قد وقفها ذوو اليسار من أهلها »[٢٠] وممن تردد على تلك المكتبات الشاعر المشهور « أبو العلاء المعري » في الربع الاخير من القرن الرابع الهجري ، بعد أن طمحت نفسه الى الاستكثار من تلقي العلم والتزود بالمعرفة والاطلاع . وصلت اليه شهرة طرابلس بمكتباتها ودور علمها ، ومجالس علمائها ، فانحدر اليها من بلدته المعرة واستقر فيها زمنا يجالس العلماء ويحضر مناقشاتهم ، ويتردد على مكتباتها ، ويحفظ ما يقرأ عليه من الكتب في شتى المواضيع .[٢١] ويغلب الظن على انه كان يود أن يبقى طويلا في طرابلس لولا ان ورد عليه نعي والده في سنة ٣٧٧هـ . فانصرف عنها ، غير انه اطلع على معظم الكتب الموقوفة بطرابلس على مايبدو ، ويؤيد ذلك ما ذكره « القفطي » في « إنباه الرواة » أن أبا العلاء حضر خزانة الكتب التي بيد « عبد السلام البصري » ـ وكان يتولى النظر في دار العلم ببغداد ـ وطلب منه معرفة أسماء ما تحتويه من كتب ، فقرأ له البصري أسماءها ، فلم يستغرب أبو العلاء منها شيئا لم يقف عليه بدور العلم بطرابلس ، سوى كتاب واحد هو « ديوان تيم اللات » فاستعاره منه .[٢٢]

إن هذه الرواية تشهد على ان دور العلم بطرابلس ومكتباتها كانت تجمع كل الصفات التي اطلع عليها ابو العلاء في دار العلم ببغداد ، اللهم الا كتابا « واحدا » هو ديوان تيم اللات وان نقص هذا الكتاب من مكتبات طرابلس لا ينقص من قيمة وغنى تلك المكتبات ، خاصة وانها كانت مكتبات أهلية بينما مكتبة دار العلم ببغداد هي مكتبة عاصمة الخلافة العباسية حيث الامكانات المادية المتوفرة لدى

(١٩) تهذيب تاريخ دمشق - ابن عساكر - هذبه الشيخ عبد القادر بدران - ج ٢٢٦/٢ - دمشق ١٣٣١هـ .

(٢٠) انباه الرواة على أنباه النحاة - القفطي - ج ٥٠/١ ، القاهرة ١٩٥٠ ، نكت الهيان في نكت العميان الصفدي - ص ١٠٣ ، القاهرة ١٩١١ ، شرح شواهد التلخيص المسمى معاهد التنصيص - العباسي - ص ٦٦ ، القاهرة ١٣٧٤هـ ، آثار أبي العلاء - تأليف جماعة من الاساتذة - ج ١٩٠/١ ، القاهرة ١٩٤٤ .

(٢١) رجال الاسلام - جيمز باسات - ترجمة عادل زعيتر - ص ٢٣٦ ، القاهرة ، أعلام الفلسفة العربية كمال اليازجي وأنطوان غطاس كرم - ص ١٧٠ - بيروت ١٩٦٤ .

(٢٢) إنباه الرواة - ص ٥٠ .

الخلفاء ، الى جانب ازدحام المدينة بالعلماء والمؤلفين والنساخ . ولا يضير مكتبات طرابلس شيئا « أن تكون حتى ذلك الوقت أقل منها شأنا » ، خصوصا « اذا تتبعنا تاريخ طرابلس السياسي في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، حيث نجد انها كانت عرضة لاعتداءات بيزنطية وصليبية متلاحقة ، تعرض خيراتها للاستنزاف وتقلل من ثرواتها ، وتهدد ميناءها بالشلل والحركة التجارية بالكساد ، وتتسبب في صرف طلاب العلم ورجاله عنها » . وقد لاحظ الامبراطور البيزنطي « يوحنا زيمسكس » اعتماد المدينة على الثروة الزراعية المحيطة بها ، ولذلك عمد الى إحراق الربض والقرى والمزارع والبساتين القريبة بعد أن فشل في اقتحام المدينة في حملته عليها سنة ٣٧٥هـ . ولكن طرابلس بالرغم من كل الأخطار التي كانت تتعرض لها فقد رفعت سيف الصمود بيد ، ومشعل العلم بيد أخرى ، ولم تنطفىء فيها جذوة العلم وهي تقاوم الحصار الصليبي .

ولا غرو أن تكثر المكتبات في طرابلس ، وان تزدحم بالكتب في القرن الرابع الهجري وفي القرن الذي تلاه ، فقد كانت مصانع الورق التي تقوم في المدينة تمد المشتغلين ببيع أو نسخ أو تأليف الكتب بكميات وفيرة من الورق بمختلف أنواعه المعروفة في ذلك الوقت من الكاغد والطوامير والقراطيس ، اذ اشتهرت طرابلس في هذه الفترة بمصانعها المنتجة للورق .[٢٣] وأشار « ناصر خسرو » الى صناعة الورق بطرابلس وأشاد بجودته أثناء رحلته ، فقال : « ويصنعون بها الورق الجميل مثل الورق السمرقندي بل أحسن منه » .[٢٤]

ولم تقتصر الحركة الثقافية في طرابلس على قيام المكتبات ، ودور العلم ، واستقبالها لطلبة العلم ، بل اشتملت ايضا على قيام حركة ترجمة واسعة ، فأدت طرابلس بذلك دورها الحضاري والانساني ، وشاركت أخواتها في الحواضر العربية في هذه الرسالة العظيمة التي كان فضلها كبيرا على البلاد الاوروبية حيث نشطت في طرابلس خلال هذه الفترة والفترة التي تلتها (العصر الصليبي) حركة الترجمة من الكتب اللاتينية ، والفارسية ، وغيرها ، الى العربية ، وبالعكس .[٢٥] ووقفت بذلك على قدم المساواة مع المدن العربية الاسلامية الكبرى كقرطبة ، والقاهرة ، ودمشق ، وبغداد . وترتب على قيام حركة الترجمة ، أن كثر النساخ والخطاطون والمترجمون والوراقون الذين يعملون في هذا المجال .

وكان لقيام مصانع الورق أثره على حركة التأليف والكتابة والتجليد ، فكثر المجلدون الذين كانوا يعملون في تجليد الكتب على الطريقة الصينية وزخرفتها وتوشيحها بالخطوط الملونة ، ووصلتنا أسماء عدد من الوراقين الطرابلسيين نذكر منهم « ابو الحسن ابراهيم بن عبد الله بن اسحاق الوراق »

---

(٢٣) تاريخ الدولة الفاطمية - د . حسن ابراهيم حسن - ص ٥٨٩ - القاهرة ١٩٦٤ .
(٢٤) سفرنامه - ص ١٣ .
(٢٥) علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب - دي لاسي أوليري - ترجمة وهيب كامل - ص ٣٦٦ القاهرة ١٩٦٢ .

ويعرف بوراق الوزير المتوفي سنة ٣٥٠هـ.[٢٦] و« الحسن بن محمد بن هبة الله ابو علي الطرابلسي الوراق »[٢٧] و« علي بن المحضر بن سليمان الوراق » المتوفي سنة ٤٥٥هـ.[٢٨] و« محمد بن الحسن بن هبة الله الوراق الطرابلسي »[٢٩] و« محمد بن هبة الله بن جعفر الوراق الطرابلسي »[٣٠] وكان لمحدث طرابلس الكبير « خيثمة بن سليمان القرشي الطرابلسي » المتوفي سنة ٣٤٣هـ . وراقان يهتمان بتوريق مصنفاته[٣١] هما : « عثمان بن أحمد بن شنبك الدينوري » المتوفي حول سنة ٣٦٥هـ.[٣٢] و« محمد بن موسى أبو يعلي الملقب بدرك »[٣٣].

وكان محبو الشعر من أهل طرابلس مولعين بإعطاء القصائد الى الخطاطين والشعراء لتبييضها لهم ، وكان الواحد منهم يدفع أكثر من سبعة دنانير ذهبية لتبييض القصيدة الواحدة ونسخها . فقد نقل المؤرخ « ابن العديم الحلبي » عن الشاعر ابن الخياط أن الشاعر « ابن الحيشي الحلبي أحمد بن حمزة » قام بتبييض سبعة وعشرين قصيدة في شهر رمضان لجماعة من الطرابلسيين فصار اليه منهم نحو مائتي دينار.[٣٤] وذلك في الربع الاخير من القرن الخامس الهجري .

بنو عمار مؤسسو دار العلم

إن القول الفصل في تحقيق الأصل الذي انحدرت منه اسرة بني عمار لم يجزم به حتى الان ، فقد ظهرت هذه الاسرة على مسرح الاحداث في طرابلس خلال القرن الخامس الهجري ، إلا ان هناك أسرة أخرى تحمل الاسم نفسه ، وكانت في بلاد المغرب بشمال افريقية ، وتطالع أخبارها منذ بداية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري . وتخلط المصادر التاريخية المعاصرة بين الأسرتين بشكل يعتقد معه الباحث أنها أسرة واحدة ، وذلك للتشابه الكبير في أسماء أفراد البيتين . إلا أن إرجاع أصل أحد هذين البيتين الى أرومة عربية من بني طيء ، والقول بأن شيخ البيت الآخر هو كبير قبيلة كتامة المغربية وشيخها وسيدها ، يدعو الى التأمل فعلا فيما اذا كان بنو عمار الافارقة يمتون بصلة القرابة لبني عمار الطرابلسيين ، فسلسلة نسب بني عمار تنتهي عند « المقريزي » بأبي يوسف الطائي ،[٣٥] والطائيون

---

(٢٦) تاريخ دمشق - ابن عساكر - مخطوط الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية - رقم ١٠٤١ تاريخ - ج ٢٢٧/٤ ، تاريخ الاسلام - الذهبي - مخطوط دار الكتب المصرية رقم ٣٩٦ تاريخ - ج ٨١/٢٠ .

(٢٧) الذريعة الى تصانيف الشيعة - آغا بزرك الطهراني - ج ٢٣٣/١ - النجف ١٣٥٧هـ .

(٢٨) ابن عساكر ٤٠٧/١١ و ١٤٠/٢٩ .

(٢٩) الذريعة ٢٧٣/١ .

(٣٠) طبقات اعلام الشيعة - آغا بزرك الطهراني - ج ١٨١/٢ - بيروت ١٩٧١ .

(٣١) من حديث خيثمة بن سليمان - تحقيق د . عمر عبد السلام تدمري - ص ٤٧ - بيروت ١٩٨٠ .

(٣٢) الاكمال - ابن ماكولا - ج ٢٦٢/٤ - حيدر أباد ١٩٦٣ ، ابن عساكر ١١٥/٢٦ تاريخ الاسلام ٣٣٩/٢٠ .

(٣٣) ابن عساكر ٨٣/٤٠ .

(٣٤) بغية الطلب في تاريخ حلب - ابن العديم الحلبي - ج ٦٨/١ - نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية - رقم ٩٢٩ تاريخ .

(٣٥) إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا - المقريزي - تحقيق د . جمال الدين الشيال ج ٤٧/٢ بالهامش ، القاهرة ١٩٤٨ .

بطن من الدواسر ، أحد قبائل بادية نجد ، ويذكر « الألوسي » أنهم من أشهر قبائل الزبيدية في بلاد قحطبة بجنوبي شبه الجزيرة العربية وانهم فرقة من بني سعيد ، احدى عشائر سورية الشمالية[٣٦] .

وقد اعتنق بنو عمار في بلاد المغرب والشام المذهب الشيعي ، وعندما قامت الدولة الفاطمية تولى شيوخ قبيلة كتامة مراكز قيادية في مصر والشام ، فكان منهم : « أمين الدولة أبو محمد الحسن بن عمار ابن أبي الحسين »[٣٧] الذي نطالع أسمه للمرة الاولى في حوادث سنة ٣٥١هـ . أثناء حصار المسلمين لقلعة « طرمين » في جزيرة صقلية ، اذ كان يقود جيش المعز لدين الله الفاطمي وحاصر « رمطة » في الجزيرة[٣٨] وظهر بشكل بارز على مسرح الاحداث في عهد الخليفة « العزيز بالله » فكان من أجل كتابه ،[٣٩] وهو كبير كتامة وشيخها وسيدها ،[٤٠] ويلقب بأمين الدولة ، وهو أول من لقب في دولة المغاربة .[٤١] ولما أفضت الخلافة الى الحاكم بأمر الله رد اليه الأمور والتدبير في سنة ٣٨٦هـ .

وقال له أنت أميني على دولتي ، ولقبه وكناه ، وكان الناس على اختلاف طبقاتهم يترجلون له .[٤٢] وهو الذي فتح الطريق لأبناء قبيلته لينتقلوا الى الشام حيث أرسل القائد « أبا تميم سليمان بن جعفر بن فلاح الكتامي » الى دمشق . فقام أبو تميم هذا بوضع أخيه « علي بن جعفر بن فلاح » واليا على طرابلس سنة ٣٨٦هـ .[٤٣]

غير ان المصادر التاريخية التي بين أيدينا لا تتحدث عن تاريخ بني عمار في طرابلس الشام ولا عن كيفية مجيئهم اليها لأول مرة ، اذ تنقطع أخبار الأسرة المغربية بعد قتل شيخها « الحسن بن عمار » سنة ٣٩٠هـ .[٤٤] ولا نقف على أخبار أسرة بني عمار الطرابلسية الا في الربع الاول من القرن الخامس الهجري ، حيث نطالع اسم أحد أفراد هذه الأسرة « الامين الوزير رئيس الرؤساء خطير الملك أبي الحسن عمار بن محمد » ، وكان يتولى ديوان الانشاء في مصر ، وقتل في سنة ٤١٢هـ .[٤٥]

ثم نطالع ذكرا لاثنين من أسرة بني عمار في

---

(٣٦) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب - القلقشندي - ص ٤٠٥ - تحقيق ابراهيم الابياري . تاريخ نجد - الألوسي - ص ٨٩ . عشائر الشام - وصفي زكريا ٢٦٢/٢ . الامارات العربية في بلاد الشام - محمد محمد الشيخ - رسالة دكتوراه - ص ١١ - مصر .

(٣٧) هكذا ورد اسمه في « وفيات الأعيان » - ابن خلكان - ٢٠١/٢ تحقيق د . احسان عباس - طبعة بيروت . والاشارة الى من نال الوزارة - ابن منجب الصيرفي - تحقيق عبدالله مخلص ص ٣١ - طبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٢٤ .

(٣٨) المكتبة العربية الصقلية - تحقيق ميخائيل أماري - ص ٣٢٠ - ليبزغ ١٨٥٧ .

(٣٩) ذيل تاريخ دمشق - ابن القلانسي - نشر آمدروز - ص ٣٠ - بيروت ١٩٠٨ .

(٤٠) وفيات الأعيان ٢٠١/٢ .

(٤١) ذيل تجارب الأمم - ابو شجاع الروذراوري - ج ٢٢٢/٣ - نشر آمدروز - مصر ١٩١٦ .

(٤٢) الاشارة ٣١ .

(٤٣) ابن القلانسي ٤٢ .

(٤٤) ابن القلانسي ٥٦ . الاشارة ٢٧ .

(٤٥) الاشارة ٣١ . الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية - ابن أيبك الدواداري - ص ٢٦٥ . تحقيق د . صلاح الدين المنجد - القاهرة ١٩٦١ .

طرابلس ، هما « أحمد بن محمد بن عمار » المعروف بأبي الكتائب ، و« عبد الله بن محمد بن عمار » المعروف بالقاضي الجليل أبي طالب . وقد صنف « ابو الفتح الكراجكي » المتوفي سنة ٤٤٩هـ . لأبي الكتائب كتابين ،[٤٦] ولأبي طالب كتابا في الفقه ..[٤٧]

ولدينا رواية « ابن حجر » عن « ابن أبي طيء » تقول ان ابن القطان البغدادي توجه الى طرابلس فأقام عند رئيسها أبي طالب محمد بن أحمد وأقرأ أولاده ، وصنف له « الشامل في الفقه » من ٤ مجلدات ، وكان موجودا سنة ٤٢٠هـ .[٤٨]

ولما كان « الكراجكي » موجودا في طرابلس سنة ٤٣٦هـ . كما يذكر في أحد مصنفاته ،[٤٩] فهذا يعني انه وضع المصنفات لبني عمار في الثلاثينات من المائة الخامسة . ورواية « ابن أبي طيء » تجعل وجود بني عمار بطرابلس في الربع الاول من القرن الخامس فهو يعرف أبا طالب برئيس طرابلس ، وهذه اشارة الى انه كان قاضيها المتصرف في شؤونها وما يليها من الحصون .

وجدير بالذكر ان الباحث المدقق يواجه عملا « مضنيا » عند تتبع أسماء أفراد أسرة بني عمار حسب ترتيبهم لاضطراب تلك الاسماء واختلافها الواضح في المصادر ، بحيث أن أية دراسة حول تسلسل أسمائهم ستظل محاطة بالغموض أو الشك ، ولسنا هنا في مجال مناقشة هذا الموضوع . كما اختلف المؤرخون المحدثون في تحديد تاريخ حكم بني عمار في طرابلس ، ونحن نرجع تاريخ ولايتهم الى سنة ٤٢٤هـ . حيث كان « أمين الدولة أبو طالب عبد الله ابن محمد بن عمار » يحكم المدينة من قبل الدولة الفاطمية على سبيل الولاية ، فجمع بين منصبي الوالي والقاضي ، وفي ذلك يقول المقريزي : « إن الدولة قد حولت الثغر في أيدي بني عمار على سبيل الولاية ، فلما جاءت الشدائد تغلبوا عليه ، ثم جاءت الدولة الجيوشية فخافوا مما قدموه فلم يرموا أيديهم في يده ، ولا وثقوا بما يذل لهم من الصفح عن ولاتهم » .[٥٠]

واستمر أمين الدولة ابن عمار على ولائه للدولة الفاطمية الى أن بدأ يحكم طرابلس بشيء من الاستقلال الذاتي ، عقيب سنة ٤٥٧هـ ./١٠٦٦م ، ثم استقل بها تماما عن الدولة الفاطمية سنة ٤٦٢هـ . /١٠٧٠م . واتخذ موقفا « محايدا » بينها وبين الدولة السلجوقية في العراق .[٥١]

ولم يطل حكم أمين الدولة بعد استقلاله وتأسيس إمارة بني عمار في طرابلس ، اذ توفي سنة

---

(٤٦) طبقات أعلام الشيعة ١٣٢ ، الغدير في الكتاب والسنة والأدب - العاملي النجفي - ج ١٥٥/٦ ، بيروت ١٩٦٧ .

(٤٧) الذريعة ٥/٢-١٠ ، طبقات أعلام الشيعة ١٠٩ و ١٣٢ .

(٤٨) لسان الميزان - ابن حجر - ج ٢٦٧/٢ - حيدر أباد ١٣٣٠هـ .

(٤٩) كتاب التفضيل - أبو الفتح الكراجكي - ص ٨ - طهران ١٣٧٠هـ .

(٥٠) إتعاظ الحنفا ٢٨/٢ - القاهرة ١٩٤٣ .

(٥١) دائرة المعارف الاسلامية - (مادة بني عمار) - سوبر نهايم - ص ٣٥٣ .

٤٦٤هـ . /١٠٧٢م . وبعد صراع على الحكم تم لابن أخيه « جلال الملك » الانفراد بالحكم ، وطالت مدة حكمه حتى توفي سنة ٤٩٢هـ .[٥٢] ثم خلفه أخوه « فخر الملك » الذي سطرت طرابلس في عهده سجلا من الصمود تفخر به على مر التاريخ ، حيث وقفت بقيادته تتحدى الهجمة الصليبية مدة عشر سنين حتى سقطت بأيديهم في آخر سنة ٥٠٢هـ . /١١٠٩م .

ومن أفراد أسرة بني عمار نذكر « شمس الملك ابن أمين الدولة المعروف بأبي المناقب » ونائب عن ابن عمه « فخر الملك » بحفظ طرابلس أثناء سفره الى بغداد سنة ٥٠١هـ . لطلب النجدة ضد الصليبيين .[٥٣]

و « جلال الدولة أبو القاسم علي بن أحمد بن عمار » وكان « قاضيا » في الاسكندرية ، وقتله الأفضل الجمالي سنة ٤٨٨هـ .[٥٤]

اهتمام بني عمار بالنواحي الأدبية والعلمية

كان « أمين الدولة » مؤسس إمارة بني عمار المستقلة رجلا « عاقلا » فقيها ، سديد الرأي ،[٥٥] ومن فقهاء الشيعة . كما كان كاتبا « مجيدا » ، ألف كثيرا من الكتب النفيسة .[٥٦] ولم يصلنا من هذه المؤلفات شيء ، سوى اسم كتاب واحد بعنوان « ترويح الأرواح ومفتاح[٥٧] السرور والأفراح » المنعوت « جراب الدولة » . واسم هذا الكتاب ورد عند « ابن الفرات » ، ونسبته الى أمين الدولة تستدعي التأمل . فقد ورد اسم هذا الكتاب منسوبا الى « أحمد بن محمد بن علويه السجزي » ويكنى أبا العباس ، ويعرف بجراب الدولة من أهل سجستان . وكان « طنبوريا » ومن الظرفاء المتطايبين في أيام المقتدر بالله العباسي (٢٩٥-٣٢٠هـ) وأدرك دولة بني بويه ، ويلقب بالريح ، سمى نفسه بجراب الدولة لأنهم كانوا يتفاخرون بالتسمية في الدولة . قال « ابن النديم » : له من الكتب كتاب « النوادر والمضاحك في سائر الفنون والنوادر » ، وسمى هذا الكتاب « ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح » وجعله فنونا ، وهو كتاب كبير .[٥٨] وقال « ياقوت » : لم يصنف مثله اشتمالا على فنون الهزل والمضاحك .[٥٩] وجاء في كشف الظنون كتاب بعنوان

---

(٥٢) الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - ابن شداد - نشره د . سامي الدهان - ص ١٠٨ - دمشق ١٩٦٢ تاريخ ابن الفرات - تحقيق و . قسطنطين زريق ج ٧٧/٨ - بيروت ١٩٣٩ .

(٥٣) الاعلاق الخطيرة - ج ٢ ق ١٠٩/٢ ، ابن الفرات ٧٧/٨ الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية - ابن أيبك - تحقيق أورلخ هارمان - ص ٢٨٥ ، القاهرة ١٩٧٦ .

(٥٤) أخبار الدول المنقطعة - ابن ظافر - ص ٨١ و ٨١ - نشر أندريه فر . - القاهرة ١٩٧٢ .

(٥٥) الاعلاق الخطيرة ١٠٧ .

(٥٦) الاعلاق الخطيرة ، ابن الفرات .

(٥٧) ابن شداد . وعند ابن الفرات « مصباح » .

(٥٨) الفهرست - ابن النديم - ص ١٥٣ - نشر غوستاف فلوجل - بيروت ١٩٧٢ .

(٥٩) معجم الأدباء - ياقوت الحموي - ج ١٩٨/٤ - الوافي بالوفيات ٧/٨ .

« مفتاح السرور والأفراح » غير منسوب لأحد .[٦٠] وذكر المرحوم الدكتور « سامي الدهان » انه لم يقع على ذكر الكتاب منسوبا « لابن عمار » وانه وقع على كتاب بهذا الاسم في « ذيل تاريخ الادب العربي » لكارل بركلمان - ٥٥٩/١ - وينسب الى « جراب الدولة » ، وهو مخطوط محفوظ في مكتبة باريس الأهلية برقم ٣٥٢٧[٦١] .

وذكر « ابن خلدون » كتابا بعنوان « جراب الدولة » نقل منه ما كان يحمل الى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي وجد بخط (أحمد بن محمد بن عبد الحميد) ، وهو يعدد غلات السواد مثل كور دجلة وحلوان والأهواز وفارس وكرمان والسند وسجستان وخراسان وجرجان وهمذان وأذربيجان وأرمينية ودمشق والاردن وفلسطين ومصر وأفريقية واليمن والحجاز ، وغيرها ، من سكر وزيت وتمر وثياب وعسل وغيره .[٦٢] وموضوع هذا الكتاب موضوع جليل رائع يبحث في اقتصاديات الدولة العباسية فأين هو من موضوع كتاب « جراب الدولة » في المضاحك والنوادر الذي نسب الى ابن عمار قاضي طرابلس الفقيه الجليل .

ان من الغريب - كما يقول الدكتور **مصطفى جواد** - أن ينسب ابن الفرات كتاب « ترويح الأرواح » في الفكاهة والهزل والباطل الى قاض وأمير ذي ديانة متينة ، ولا شك أن هذه الرواية يعتريها الاضطراب ويشوبها النقص حيث جمعت بين اسم الكتاب ولقب مؤلفه وجعلتها اسما « لكتاب القاضي ابن عمار » ، وهذا من أشنع الغلط .[٦٣] والمرجح ان اسم كتاب ابن عمار (جراب الدولة) يبحث في اقتصاديات الدولة الاسلامية وارتفاع الواردات ، وهذا يتناسب مع مكانة القاضي الجليل والأمير الفقيه .

ومن جهة أخرى ، اتخذ أمين الدولة ابن عمار دار علم له جمع فيها ما يزيد على مائة ألف كتاب وقفاً .[٦٤] وكان يرسل المراسلات الى أقطار البلاد ويبذل الأثمان الباهظة ، ويجلب الكتب النادرة لهذه المكتبة ، ويهتم بالعلم ويحنو على العلماء ، ويستميل طلاب العلم الى عاصمته .[٦٥] حتى توفي سنة ٤٦٤هـ . في شهر رجب وأثنى عليه المؤرخون فقال سبط ابن الجوزي « القاضي أمين الدولة الحاكم على طرابلس والمتولي عليها ، كان عظيم الصدقة ، كثير المراعاة للعلويين ، تفرد بذلك في زمانه ولم يدانيه أحد من أقرانه » .[٦٦]

---

(٦٠) كشف الظنون - عمود ١ ، ١٧٦ .

(٦١) الاعلاق الخطيرة - حاشية ص ١٠٧ .

(٦٢) مقدمة ابن خلدون ١٧٩/١ و ١٨٠ ، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت .

(٦٣) مقالة بعنوان (دار العلم في طرابلس) للدكتور مصطفى جواد - نشرت في « دائرة المعارف الاسلامية الشيعية » ، من وضع حسن الأمين - ج ١٣٢/١٢ - بيروت ١٩٧٧ دار التعارف م ٣ .

(٦٤) ابن شداد ، ابن الفرات ، ابن خلدون - العبر في ديوان المبتدأ والخبر - ٨٦٥/٥٠ ، بيروت .

(٦٥) لبنان في التاريخ ٣٥٢ .

(٦٦) مرآة الزمان - سبط ابن الجوزي ١٣٨/١٢ قسم ٢ .

وقال ابن شداد انه « من أعقل الناس وأسدهم رأيا »[٦٧] وقال ابن الفرات « وكان ابن عمار هذا رجلا عاقلا فقيها سديد الرأي » .[٦٨] ورثاه الشاعر « ابن حيوس » في ديوانه[٦٩] .

واقتفى كل من جلال الملك ثم فخر الملك آثاره ، فقام جلال الملك بتجديد دار العلم سنة ٤٧٢هـ ./١٠٨٢م . وكان مقصد الشعراء من أنحاء الشام . ووقف على طلبة العلم جرايات من الذهب ، كان المتولي على دار العلم يقوم بتوزيعها على طلبة الدار.[٧٠] وبنى جامعا باسمه في طرابلس ،[٧١] وساهم في اعادة بناء جامع حلب الكبير .[٧٢] وفي عهده استضافت طرابلس الأمير سديد الملك أبا الحسن علي بن منقذ صاحب شيزر لعدة سنوات ، فأثرى الحياة الأدبية أثناء اقامته بها ، حيث قصده الشعراء وتباروا في مدحه ، ومنهم : الشاعر الدمشقي ابن الخياط ، والشاعر الخفاجي ، وشرف الدين بن الحلاوي شاعر الموصل ، وابن مزاحم الصوري[٧٣] وأبو يعلى الأقساسي ،[٧٤] وابن الدويدة المعري ، وابن الخيشي الحلبي[٧٥] وابن حيوس ، وغيرهم من الشعراء والادباء الذين لم تصلنا أسماؤهم ، فضلا عن أن سديد الملك كان « له فضل جلي ، وشهر كأنه في نضارته حلي ، وهو وفي بعلمه ملي .. » .[٧٦]

وكان فخر الملك ابن عمار ، أيضا مقصد الشعراء والأدباء ، ومحبا للمجالس العلمية والمناظرات الادبية فيعقد في قصره المناظرات والمباريات الشعرية والفقهية والخطابية . وقد ذكر « العماد الأصفهاني » نقلا عن « ابن النقار الطرابلسي » ان فخر الملك اقترح على الشعراء أن يعملوا قصيدة على وزن قصيدة « ابن هانيء » المغربي ويجعل للفائز جائزة ، ففاز بها الشاعر ابو الحسن علي بن ابراهيم المعري .[٧٧]

وفي عصر بني عمار كانت مجلس العلم تقام في « دار العلم » التي أنشئت خصيصا لتدريس العلوم المختلفة ، ومن حلقات التعليم في عهدهم الحلقة التي يعقدها « ابو عبد الله الطليطلي » الناظر على دار العلم . كما كانت مساجد المدينة تشهد مجالس العلماء من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والقراء ، فكانت الرحلة اليها من مختلف الاقطار ، حيث يقصد مجالس

---

(٦٧) الاعلاق الخطيرة ١٠٧/٢ .

(٦٨) تاريخ ابن الفرات ٧٧/٨ .

(٦٩) ديوان ابن حيوس ١٣٢/١ ، سبط ابن الجوزي - ج ١٢ ق ١٣٨/٢

(٧٠) ديوان ابن الخياط - ص ١٣١ - تحقيق خليل مردم بك - دمشق ١٩٥٨ .

(٧١) Repertoire choonohogique d,Epigarphie Arabe- Gaston Wiet- T.8- p . 42

(٧٢) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب - ابن الشحنة - تعليق يوسف إليان سركيس - ص ٦٣ - بيروت ١٩٠٩

(٧٣) ابن عساكر ٣٩٨/٣٧

(٧٤) ابن عساكر ٤٠٨/٣٧ .

(٧٥) بغية الطلب في تاريخ حلب ٧٧/١ .

(٧٦) خريدة القصر وجريدة العصر - العماد الأصفهاني - تحقيق د . شكري فيصل - ج ٥٥٢/١ - دمشق ١٩٦٨ .

(٧٧) الخريدة ج ٧٧/٢ - دمشق ١٩٥٥ .

عليائها الطلبة فرادى وجماعات . وقد شهد أحد مساجدها رحلة جماعية قام بها شيوخ عسقلان بفلسطين ليسمعوا فيه على العالم الطرابلسي « عمر بن داود بن سلمون » .[٧٨]

والى جانب حلقات الدرس والتعليم ، كانت هناك لقاءات أدبية تتم بين عدد من الادباء والشعراء في أماكن غير المساجد أو المدارس ، مثل اللقاءات التي كانت تتم في دكان أحد العطارين النصارى بسوق طرابلس ويدعى ابا المفضل النصراني ، أو في متنزهات المدينة . فابن الخياط الدمشقي كان يتردد مع أبي الحسين هبة الله بن الحسن الحافظ على دكان العطار ويتجاذبان الأشعار ،[٧٩] كما كان الشعراء يخرجون الى عين ماء بظاهر طرابلس تعرف بعين ملكان فيتطارحون الأشعار عندها . كما يجتمع عندها الشيوخ فيعقدون مجالس الحديث .[٨٠] كذلك ، فقد كانت حلقات المناظرة تقام بين الفقهاء والشعراء في قصور بني عمار ، ومنها المناظرة التي جرت بين القاضي « ابن أبي روح » وبين بعض فقهاء المالكية[٨١] والمناظرة الخطابية التي كانت بين « الحسين بن بشر الطرابلسي » المتولي على دار العلم ، والخطيب البغدادي المؤلف المعروف .[٨٢] والمحاورة التي جرت بين قاضي طرابلس « ابن البراج » وعبد السلام القزويني شيخ المعتزلة المتوفى سنة ٤٨٨هـ .[٨٣]

وكان بنو عمار من الممدحين من شعراء عصرهم ، ومن الشعراء الذين مدحوهم : « ابن الخياط الدمشقي » وقد حفل ديوانه بالقصائد التي أنشدها لهم ، و« ابن النقار» الكاتب والشاعر الطرابلسي في ديوانه ايضا ، و« ابو المواهب المعري » و« ابن العلاني المعري » ، و« ابو الفتيان بن حيوس » صاحب الديوان المعرف باسمه ، و« ابو الحسن الناعظ الكتامي » و« ابن هبة الله الطرابلسي » المعروف بالأقطسي ، و« سديد الملك بن منقذ » وغيرهم . وكان عبد الله الحميري المعروف بابن النقار المولود بطرابلس سنة ٤٧٩هـ . يحضر مجلس فخر الملك ابن عمار ويدون قصائد الشعراء الواردين الى طرابلس في ديوانه ، وعنه نقل « العماد الاصفهاني » بعض تلك القصائد في الخريدة .[٨٤]

تاريخ بناء دار العلم

يذهب بعض الباحثين والمؤرخين الى أن مؤسس « دار العلم » هو جلال الملك ابو الحسن علي بن محمد بن عمار ، في سنة ٤٧٢هـ .[٨٥]

---

(٧٨) الأنساب - السمعاني - ص ١٠٥ ب - النسخة المصورة
(٧٩) تهذيب ابن عساكر ٦٧/٢ ، مجلة المجمع العلمي العربي - دراسة ديوان ابن الخياط - خليل مردم بك - مجلد ٣٣ - ج ٣ ص ٣٥٨ - دمشق ١٩٥٨ .
(٨٠) ابن عساكر ١٥٤/٤ .
(٨١) تاريخ الاسلام (مجلد الحوادث ٤٠١ - ٤٣٠هـ .) - ص ٢٠٥ - النسخة المخطوطة بدار الكتب المصرية .
(٨٢) لسان الميزان - ابن حجر العسقلاني - ج ٢٧٥/٢ - حيدر أباد ١٣٢٩هـ .
(٨٣) ابن عساكر ١٢٦/٢٤ .
(٨٤) انظر كتابنا « الحياة الثقافية في طرابلس الشام خلال العصور الوسطى » في مواضع مختلفة .
(٨٥) مصر والشام في الغابر والحاضر - د . أسعد طلس - ص ٦٥ . القاهرة ١٩٤٥ .

وتدحض هذا القول روايتا المؤرخين : « ابن شداد » و « ابن الفرات » في تاريخهما ، وكذلك عدة وقائع ذكرها غيرهما من المؤرخين ترجع تاريخ بناء الدار الى سنين سابقة لعهد جلال الملك ، فأمين الدولة الحسن بن عمار مؤسس الامارة المستقلة « كان له دار علم فيها مايزيد على مائة ألف كتاب وقفا » . ونفهم من هذا النص أن مكتبة دار العلم هذه كانت مكتبة عامة لأنها موقوفة في سبيل العلم والاطلاع والمعرفة .

ومن البديهي أن يبادر « أمين الدولة » خلال فترة حكمه الممتدة بين ٤٢٤ - ٤٦٤هـ . الى إقامة هذه الدار في عاصمة إمارته لتكون قاعدة دينية وثقافية وفكرية ، سيما بعد ان استقلت طرابلس عن الدولة الفاطمية سياسيا . وليس من الواضح التأكد إذا كانت هناك أية فكرة في أن تكون دار العلم منافسة للجامع الازهر بالقاهرة وبث المذهب الشيعي للأئمة الاثنى عشر السائد في ساحل الشام في العصر الفاطمي .

ويدعم قولنا أيضا ، من أن دار العلم كانت موجودة في النصف الاول من القرن الخامس الهجري معرفتنا لأحد نظارها « ابن بشر الطرابلسي » حيث كان على نظارتها قبل سنة ٤٤٩هـ . وهو الذي تناظر والخطيب البغدادي أثناء رحلته في ساحل الشام .

وحول تأسيس دار العلم ، ومناظرة ابن بشر والخطيب ، يضع المرحوم « يوسف العش » تاريخا لكل منها ، فيحدد تأسيس الدار بسنة ٤٧٣هـ .(٨٦) ويحدد تاريخ المناظرة بشهر شعبان من سنة ٤٦٢هـ . /١٠٦٩م . أي عندما دخل الخطيب طرابلس قبل فتح دار العلم حسب قوله :

"Cette polemique dut avoir lieu vers le mois de s a b a n 462/1069 quand Hatib entra a Tripoli, c'est-a-dire avant l'ouverture du dar al-'ilm" . (٨٧)

ونحن نقول : إن تحديد تاريخ تأسيس الدار بسنة ٤٧٣هـ . فيه سهو غير مقصود - ربما - إذ أراد بسنة ٤٧٢هـ . كما هي عند « ابن العديم » ، وهو يعتمد على نص روايته التي تقول ان القاضي جلال الملك هو الذي جدد دار العلم في سنة ٤٧٢هـ . وهذه أيضا ، رواية تدعو للمناقشة بعد قليل .

أما تحديد المناظر بسنة ٤٦٢هـ . فلا يقوم عليه دليل . ونحن نرى انها جرت قبل سنة ٤٤٩هـ . قطعا ، ونرجح انها حول سنة ٤٤٧هـ . لأن المصدر الوحيد الذي أتى على ذكر تلك المناظرة هو « أبو الفتح الكراجكي » ، وهذا توفي سنة ٤٤٩هـ . فكيف يذكر أمرا « حدث بعد وفاته بثلاثة عشر عاما » ؟

ومن الواضح ان المرحوم « العش » اعتمد في

(٨٦) Les bibliotheques Arabes, Publiques et Semi- Publiques en Mesopotamie, Syrie et en Egypte Au Moyen Age- Youssef Eche- P.117- Damas 1976

(٨٧) Youssef Eche- P.119

تحـديد سنـة ٤٦٢هـ . على ما ذكره « ابـن الجـوزي »[٨٨] و« ياقـوت الحمـوي »[٨٩] حيث يقولان ان الخطيب البغدادي خرج من بغداد الى الشام اثناء فتنة « البساسيري » (سنة ٤٥١هـ .) وأقام بدمشق ، ثم خرج الى صور سنة ٤٥٧هـ . فأقام بها حتى سنة ٤٦٢هـ . ثم خرج الى طرابلس ، ثم الى حلب ، فأقام بها سنة واحدة وتوفي سنة ٤٦٣هـ .

إن هذه الرحلة ، هي الرحلة المشهورة للخطيب البغدادي ، وهي التي اعتقد المرحوم « العش » ان المناظرة جرت فيها أثناء الأيام القلائل التي أمضاها الخطيب في طرابلس قبل عودته الى بغداد .

ولكن للخطيب رحلة سابقة الى ساحل الشام قبل رحلته المشهورة ، فقد تبين لنا بعد تتبع سيرته وترجمته في كتب التاريخ وطبقات الرجال وتراجم المحدثين ، من شيوخه وتلاميذه ، انه خرج من بغداد مرتين ، ففي سنة ٤٥١هـ . كان خروجه للمرة الثانية أما خروجه للمرة الاولى فكان في سنة ٤٤٦هـ . حيث ذهب لاداء فريضة الحج ، ودخل الشام ، ونزل مدينة صور ، ولقي بها « أبا الفرج عبد الوهاب الغزال البغدادي » المتوفي سنة ٤٤٧هـ . فسمع منه الحديث .[٩٠] وهذا يعني ان الخطيب كان بصور قبل وفاة « الكراجكي » بثلاث سنوات ، وهذا يدعم رواية « الكراجكي » حول المناظرة بين الخطيب وناظر دار العلم ، والتي ترجح انها جرت في هذه الرحلة أوائل سنة ٤٤٧هـ .

وهناك دليل قوي آخر على زيارة الخطيب لطرابلس في التاريخ الذي ترجحه (أوائل سنة ٤٤٧هـ .) نستمده من كتابه « تاريخ بغداد » حيث أثبت في مقدمته فصلا عن أنهار بغداد حدثه عنها « عبد الله بن محمد بن علي البغدادي » بطرابلس عن بعض متقدمي العلم .[٩١] واذا علمنا ان الخطيب أتم تأليف تاريخه الكبير قبل عودته الى بغداد وهو في صور اثناء اقامته بها للمرة الثانية ، حيث أهدى نسخة منه بخطه الى « أبي منصور عبد المحسن بن محمد المعروف بابن شهدانكه المالكي » المتوفي سنة ٤٧٨هـ .[٩٢] لتأكد لنا ان الفصل الخاص عن ذكر أنهار بغداد الجارية التي كانت بين الدور والمساكن وتسمية ما كانت تنتهي اليه من المواضع والأماكن قد كتبه الخطيب قبل سنة ٤٦٠هـ . على أية حال ، لأنها السنة التي وقف عندها في التأريخ لوفيات الأعلام الذين تضمنهم تاريخ بغداد .[٩٣]

ولنعد الآن الى النص الذي ورد عند « ابـن العديم » فأثار هذا الجدل لنقرأه بحرفيته : « .. وقد

---

(٨٨) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - ابن الجوزي - ج ٢٦٦/٨ - حيدر آباد ١٣٥٩هـ .
(٨٩) معجم الأدباء - ياقوت الحموي - ج ١٩/٤ .
(٩٠) الأنساب ٤٠٨ ب ، ابن عساكر ٥٥٣/٣١ .
(٩١) تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي - ج ١١١/١ .
(٩٢) الأنساب ١١٠ ب ، ابن عساكر ٣٦٦/٢٤ .
(٩٣) تاريخ بغداد ٤٤٦/١٤ .

ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء رحل الى دار العلم بطرابلس للنظر في كتبها . واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد . ولم يكن بطرابلس دار علم في أيام أبي العلاء . وإنما جدد دار العلم بها القاضي جلال الملك ابو الحسن علي بن محمد بن أحمد بن عمار في سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة . وكان ابو العلاء قد مات قبل جلال الملك في سنة تسع وأربعين وأربعمائة » .[٩٥]

ومن الواضح أن الالتباس مبعثه كلمة « جدد » الواردة في النص ، فيبدو أن المرحوم « العش » فسرها بـ « أسس » أو « أوجد » أو « أنشأ » .. ونحن لا نرى مبررا للتفسير والتأمل . فكلمة « جدد » تعني إعادة شيء قديم أو عتيق الى حالة حسنة . فالتجديد ، استئناف لشيء مؤسس سابقا . فدار العلم كانت موجودة قدما ، ويحتمل إن بناءها تصدع لسبب من الاسباب ، أو أنها ضاقت عن استيعاب الكميات المتزايدة من الكتب ، فاحتاج بناؤها الى ترميم أو توسيع ، فقام جلال الملك بتجديد الدار في سنة ٤٧٢هـ . كما قال ابن العديم .

وذكر الاستاذ محمد كرد علي أن مكتبة طرابلس كانت قبل بني عمار ، لأن بني عمار لم يستولوا على طرابلس إلا بعد الاربعين وأربعمائة . وان أبا العلاء المعري زار طرابلس وانتفع بخزانتها وكتبها الموقوفة .[٩٥] وقال بعضهم إن أبا العلاء كان يتردد على دار العلم التي بناها بنو عمار في طرابلس .[٩٦] وهذا قول لا يعتد به ، لأن أبا العلاء توفي سنة ٤٤٩هـ . وكان حضوره الى طرابلس في سنة ٣٧٧هـ . وفي هذا التاريخ لا نجد أي ذكر لبني عمار في طرابلس ، كما لم نعرف عن أبي العلاء انه عاد الى طرابلس من جديد . غير ان الاستاذ محمد سليم الجندي ينكر رحلة أبي العلاء الى طرابلس أصلا ، وحتى رحلته الى انطاكية واللاذقية . ولا يصدق ما قاله كل من : القفطي ، والذهبي ، والصفدي ، والسيوطي ، وغيرهم . ويرد على الدكتور طه حسين في « تجديد ذكرى أبي العلاء » وعلى الاستاذ الميمني في « أبي العلاء وما اليه » ، ويقول : ان رحلة أبي العلاء الى انطاكية واللاذقية وطرابلس ، وقصة حفظه لما يلى عليه ، وتعلمه من الراهب ، وأخذه من مكتبة طرابلس ، لا تطمئن النفس الى شيء منها . وليس هناك ما يوجب القطع بصحتها ، وانما سداها الوهم ولحمتها الباطل . وان قول ابن العديم في مكتبتي أنطاكية وطرابلس أقرب الى الصواب والواقع ...» .[٩٧]

ونحن اذا قرأنا ما ذكره ابن العديم ثانية لوجدنا ان الاستاذ الجندي قد ذهب بعيدا عن مفهوم الرواية ، فابن العديم نفى ان يكون أبو العلاء قد

(٩٤) الانصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري - ابن العديم الحلبي ص ٤٠ - نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ١٠٨٨ تاريخ - تيمور .

(٩٥) خطط الشام ١٩٦/٦ .

(٩٦) آراء وأبحاث - د أسد رستم - ص ٣٩ ، بيروت ١٩٦٧ . طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي د . السيد عبد العزيز سالم - ص ٣٨٧ ، الاسكندرية ١٩٦٧ .

(٩٧) الجامع في أخبار أبي العلاء - محمد سليم الجندي - ج ٢٠٢/١ و ٢٠٣ ، دمشق ١٩٦٢ .

رحل الى دار العلم بطرابلس لانها لم تكن قد أوجدت بعد ، بيد أنه لم ينف الرحلة مطلقا ، لأن طرابلس كانت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري تحتوي على مكتبات موقوفة موزعة في المساجد والمدارس قبل قيام دار العلم . وليس أن نراجع ما ذكره : القفطي ، والصفدي ، والعباسي ، وغيرهم ، لنتأكد من أن مكتبات طرابلس التي عنوها لم تكن هي دار العلم التي أقامها بنو عمار وإنما هي « .. خزائن كتب موقوفة ، قد وقفها ذوو اليسار من أهلها ..» .

نظار دار العلم

وصلت الينا أسماء ثلاثة ممن تولوا النظر على دار العلم بطرابلس ، هم على التوالي :

١ - الحسين بن بشر بن علي بن بشر الطرابلسي ، المعروف بالقاضي .

٢ - أسعد بن أحمد بن أبي روح ، ابو الفضل الرافضي القاضي .

٣ - أحمد بن محمد ، ابو عبد الله الطليطلي النحوي .

ولكننا لم نعرف مدة ولاية كل منهم ، وكم كانوا يتقاضون من مرتبات لقاء وظيفتهم هذه .

وقد ذكر المؤرخ « ابن أبي طيء » اسم أول هؤلاء النظار « الحسين بن بشر » بين رجال الشيعة الذين ترجم لهم ومن المؤسف ان كتب هذا المؤرخ قد فقدت ، ولو وصلت الينا لوقفنا على وصف أوضح لدار العلم ، وبيان أوفى لمكتبتها ، اذ كان معاصرا لها ، وتناول الحديث عن مكتبات الفاطميين بمصر بصورة مفصلة ، ونقل « ابن حجر العسقلاني » ترجمة « ابن بشر » عنه و قال انه كان صاحب دار العلم بطرابلس .[٩٨] إلا انه لم يذكر له تاريخا .

أما الناظر الثاني فهو « أبو الفضل أسعد » الذي تولى النظر عليها بعد سنة ٤٨٠هـ . ـ على ما يبدو ـ إذ كان حتى هذه السنة ما يزال تلميذا « لقاضي طرابلس » ابن البراج .[٩٩]

وكان الناظر الثالث « ابو عبد الله الطليطلي » قد وفد على طرابلس من الاندلس ومن المحتمل أنه جاءها في سنة ٤٧٨هـ ./١٠٨٥م . بعد سقوط مدينة طليطلة في أيدي القشتاليين كما يعتقد الدكتور سالم .[١٠٠] واستدل من لقبه « الطليطلي » على أنه أندلسي الاصل . وهذا الناظر بقي على دار العلم حتى دخل الصليبيون المدينة أواخر سنة ٥٠٢هـ ./١١٠٩م .

(*) ضبطه خليل مردم بك في ديوان ابن الخياط ١٢١ « النوح » بالنال ، والذي أثبتناه هو المشهور .

(٩٨) لسان الميزان ٢/٢٧٥ .

(٩٩) هو عبد العزيز بن البراج ، أبو القاسم ، قرأ على الشيخ المرتضى ، والطوسي ، وغيرهما ، ونزل طرابلس سنة ٤٣٨هـ ، وولاه جلال الملك ابن عمار قضاء طرابلس ، فلبث في منصبه عشرين عاما ، « وقيل ثلاثين عاما » . تعرف بوجه الاصطحاب وفقيههم ، الى أن توفي سنة ٤٨١هـ . وقد نيف على الثمانين ، وترك مصنفات بالعربية والفارسية . (انظر عنه روضات الجنات) - الخوانساري ج ٦/١١٣ - طهران ١٣٩٠هـ . الكنى والألقاب - عباس القمي ٦/٢١٩ - النجف ١٩٥٦ .

(١٠٠) طرابلس الشام ٢٨٧ .

ومن مطالعتنا لتراجم النظار الثلاثة نلاحظ انه قد روعي في تولية هذه الوظيفة على رجال علماء لهم وزنهم ومكانتهم وشهرتهم العلمية .

فابن بشر الطرابلسي كان خطيبا « مفوها » وكان من أعيان الشيعة ، وله خطب يضاهي بها خطب « ابن نباته » المشهور بهذا الفن .[١٠١] كذلك اشتهر عن ابن بشر أنه جرت بينه وبين الخطيب البغدادي المؤرخ مناظرة في الخطابة ذكرها « أبو الفتح الكراجكي » المتوفى سنة ٤٤٩هـ . في رحلته وقال انه حكم لابن بشر بالتقدم على الخطيب البغدادي في العلم .[١٠٢]

وأبو الفضل الرافضي كان قاضيا وفقيها ، ورأسا للشيعة في الشام ، وقد عقدت له حلقة الاقراء ، وانفرد بالشام وطرابلس وفلسطين ، وكان مرجعا للامامية واليه يرجع أهل عقيدته بعد شيخه القاضي « ابن البراج » وولي بعده قضاء طرابلس وأخذ عن شيخه العلوم في سنة ٤٨٠هـ . وقبلها . وكان متعبدا « زاهدا » . ذكره « ابن عساكر » فقال انه جليل القدر ، يرجع اليه أهل عقيدته ، وكان عظيم الصلاة والتهجد ، لا ينام الا بعض الليل ، وكان صمته أكثر من كلامه . وحكى أبو اللطف الداراني قال : ما استيقظت من الليل قط الا وسمعت حسه بالصلاة ، وبالغ في وصفه وحكى له كرامة . وجمع « فخر الملك ابن عمار » بينه وبين بعض فقهاء المالكية فناظرهم في مسائل منها : تحريم الفقاع ،[١٠٣] وحدوث القرآن ، وأفعال الناس مخيرة أم مسيرة ، والمتعة . وذكر الذهبي نقلا « عن ابن ابي طي » « أن أبا الفضل انتقل من طرابلس الى صيدا وأقام بها ، وكان مرجع الامامية بها ، فلم يزل الى أن ملكت الفرنج صيدا ، فأظنه قتل بها عندما ملكت الفرنج البلاد ، ورأيت من يقول انه انتقل الى دمشق .[١٠٤]

وقال ابن حجر انه توفي قبل سنة ٥٢٠هـ . وينقل عن ابن أبي طيء انه قتل في حيفا عندما ملكها الصليبيون . وهذا لا يتفق مع ما ذكره المؤرخون من أن حيفا سقطت بيد الصليبيين سنة ٤٩٤هـ . وبذلك يكون القول في تحوله الى دمشق ووفاته بها قبل سنة ٥٢٠هـ . أقوى .

وقد خرج أبو الفضل من طرابلس أثناء الحصار الصليبي لها ، وعندما انتقل منها كانت له مكتبة خاصة تحتوي على أكثر من أربعة آلاف مجلد ، وقد ضاعت .[١٠٥] وهو صاحب المصنفات المتعددة ، وسنذكرها بعد قليل . وتخرج على يديه عدد من التلاميذ منهم « ابن مخلوف الراشدي » المعروف بابن بركات الطرابلسي .[١٠٦]

---

(١٠١) هو عبد الرحيم بن محمد بن نباتة الفارقي (٩٤٦ - ٩٨٤م) خطيب . ولد ومات بميافارقين بديار بكر . عاش بحلب وكان خطيبها . أشتهر بخطبه في الحث على الجهاد في حروب سيف الدولة مع البيزنطيين . قرأ على المتنبي بعض شعره . له ديوان مطبوع .

(١٠٢) لسان الميزان ٢/٢٧٥ .

(١٠٣) الفقاع الكمأة ، نبات فطري .

(١٠٤) تاريخ الاسلام (حوادث ٥٠١ - ٥٢٠هـ) - ص ٢٠٤ و ٢٠٥ ، سير أعلام النبلاء - ج ١٢ ق ١١٥/١ و ١١٦ .

(١٠٥) لسان الميزان ٢٦٦/١ و ٣٨٧ ، أعيان الشيعة - ج ٣٧٤/١١ .

(١٠٦) انظر المصدرين السابقين .

أما « أبو عبد الله الطليطلي » فكان رجل علم ، ومن الحفظة المكثرين ، ويتمتع بملكة نادرة في حفظ نصوص الكتب . وقد أشار « اسامة بن منقذ » الامير والشاعر المعروف الى ذلك في كتابه « الاعتبار »(١٠٧) عندما أخبره في قوة حفظه ، اذ كان يتهذب على يديه ، حيث لبث يقرأ عليه علم النحو مدة عشر سنين . ويقول أسامه عن شيخه وأستاذه ما نصه « الشيخ العالم ، أبو عبد الله الطليطلي ، النحوي ، رحمه الله ، وكان في النحو سيبويه زمانه ، قرأت عليه النحو ، نحواً من عشر سنين ، وكان متولي دار العلم بطرابلس » . ثم قال « .. وشاهدت من الشيخ أبي عبد الله عجبا » . دخلت عليه يوما لأقرأ عليه ، فوجدت بين يديه كتب النحو « كتاب سيبويه » ،(١٠٨) وكتاب « الخصائص » لابن جني ،(١٠٩) وكتاب « الايضاح » لأبي عبد الله الفارسي ،(١١٠) وكتاب « اللمع » ،(١١١) وكتاب « الجمل »(١١٢) فقلت : ياشيخ أبا عبد الله ، قرأت هذه الكتب كلها ؟ قال : قرأتها ! لا والله الا كتبتها في اللوح وحفظتها ، تريد ان تدري ؟ خذ جزءا « وافتحه واقرأ من أول الصفحة سطرا » واحدا ، « فأخذت جزءا » وفتحته وقرأت منه سطرا ، فقرأ الصفحة بأجمعها حفظا » حتى أتى على تلك الاجزاء جميعها . فرأيت منه أمرا عظيما ما هو في طاقة البشر .. » .

وكان ابو عبد الله يعقد حلقة للتعليم في طرابلس قبل ان يتولى النظر على دار العلم ، والمرجح ان هذه الحلقة كانت تقام داخل دار العلم ، وكان الشاعر ابن الخياط يغشى تلك الحلقة ، كما كان يتردد على الدار عندما كان « ابو الفضل » ناظرا عليها . ويبدو ان أبا الفضل استمر في منصبه الى سنة ٤٨٦هـ . أو بعدها بقليل إذ في هذه السنة غادر ابن الخياط طرابلس ولم يشر الى ما يدل على تغيير في نظارة الدار .

وتمتع ابو عبد الله الطليطلي بشهرة عظيمة في علمه ومنصبه مما حدا بوالد اسامة(١١٣) وعمه(١١٤) ان يبعثا بمال الى الصليبيين افتداياه به من أيديهم إبان سقوط طرابلس . كما افتديا معه شخصا يدعى « يانس الناسخ » واستخلصاها لنفسيهما ، فأصبح

(١٠٧) الاعتبار - أسامة بن منقذ - تحقيق د . فيليب حتي - ص ٢٠٨ و ٢٠٩ - برنستون ١٩٣٠ .

(١٠٨) عرف باسم « الكتاب » أوه كتاب سيبويه » وسيبويه لقب فارسي معناه رائحة التفاح ، وهو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي ، أمير النحاة . ناظر أمام نحاة الكوفة « الكسائي » محكما بالفصل عليه . فأسف وعاد الى بلده فوضع كتابه الشهير هذا وتوفي ١٦١ وقيل ١٨٠هـ .

(١٠٩) عثمان بن جني (٩١٢ - ١٠٠٢م) نحوي . ولد بالموصل ومات ببغداد . حلق اللغة بالنحو . وبرز في الصرف . اعتمد على آراء الفارسي وأكملها . له عدة مؤلفات .

(١١٠) من أئمة النحو . نزل طرابلس وسكنها مدة . كان شيخا « للملك عضد الدولة » ولابن جني » مات ببغداد سنة ٣٧٧هـ . سير أعلام النبلاء - ج ١٠ ق ٢٤٣/٢ أ . العبر في خبر من غبر ٤/٣ . ابو علي الفارسي حياته ومكانته بين أئمة العربية - د . عبد الفتاح اسماعيل شلبي - ص ١٤٧ و ١٤٨ ، مصر ١٣٧٧ .

(١١١) يقول د . فيليب حتي انه لابن جني (الاعتبار ٢٠٩) وأقول لعله لابن نصر السراج .

(١١٢) يقول د . فيليب حتي انه إما لأبي القاسم عبد الرحمن الزجاجي المتوفي سنة ٩٥٠م . أو لعبد القاهر الجرجاني المتوفي سنة ١٠٨١م . وأقول : لعله لأبي خالويه النحوي المتوفي سنة ٩٨٠ م .

(١١٣) هو مجد الدين ابو سلامة مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ (١٠٦٨ - ١١٣٧م)

(١١٤) هو عز الدين ابو العساكر سلطان بن علي بن مقلد المولود بطرابلس ، والمتوفي سنة ٥١٢هـ .

الطليطلي استاذا » لأسامة ، بينما عمل « يانس » في نسخ الكتب ، أو على الأرجح في نسخ المصحف الشريف ، اذ كان والد أسامة مولعا بنسخ المصاحف .(١١٥)

وليس من العسير ان نستدل من اسم « يانس الناسخ » على انه كان أحد الناسخين او الخطاطين الذين كانوا يعملون في نسخ المصنفات بدار العلم بطرابلس ، وان مهنته قد غلبت على كنيته فأصبح يعرف بها . وهو الاسم الوحيد الذي وصلنا من بين مائة وثمانين ناسخا ،(١١٦) كان دأبهم نسخ المصنفات والمؤلفات القديمة والثمينة .

هذا ، وقد أخرجت طرابلس عددا ممن برعوا في الخط ، نذكر منهم « أحمد بن حمزة بن الشام الحلبي » وهو طرابلسي الاصل . وكان له خط حسن على غاية ما يكون من الضبط والاتقان . ذكره ياقوت الحموي وقال انه رأى بخطه نسخة من شعر أبي الطيب المتنبي ، وقد نسخها بمصر في سنة ٥٠٨هـ .(١١٧)

وكما رأينا نبوغ ابن بشر في الخطابة ، ورسوخ أبي الفضل في العلم ، وشهرة الطليطلي في النحو ، فإن يانسا « الناسخ كان ماهرا » أيضا في فنه ، فقد ذكر عنه اسامة أنه « قريب الطبقة في الخط من طريقة ابن البواب » .(١١٨) وقال انه أقام عندهم بشيزر مدة من الزمن ، ونسخ لوالده ختمتين من المصحف الشريف ،(١١٩) ثم انتقل الى مصر في سنة ٥٠٦هـ . فاستخدم في خزانة الكتب الأفضلية ، وكان الأفضل بن بدر الجمالي قائد الجيوش يؤدي اليه عشرة دنانير في الشهر ، وثلاث رزم كسوة في السنة ، بالاضافة الى الهبات والرسوم . ولبث مقيما في مصر حتى توفي في سنة غير معلومة .(١٢٠)

طلبة دار العلم

تردد على دار العلم بطرابلس الكثير من طلبة العلم ، وتخرج منها العديد في كل فن ، وزارها جماعة كبيرة من العلماء الذين كانوا ينزلون طرابلس في رحلاتهم ، ولكن المصادر التاريخية لا تصرح بأسماء أولئك الذين استفادوا من الدار ومكتبتها العامرة ، إذ لم يصلنا سوى اسم أحد طلبتها وهو « أحمد بن محمد ابن علي » الشاعر المعروف بابن الخياط الدمشقي ، المولود سنة ٤٥٠ والمتوفي سنة ٥١٧هـ . وكان قد خرج من دمشق في الفترة ما بين سنة ٤٦٣-٤٦٩هـ . إذ كانت تعاني خلالها فترة عصيبة

---

(١١٥) ذكر أسامة أن أباه كان يكتب خطا « مليحا » وكان لا ينسخ سوى القرآن الكريم . وانه نسخ ٤٦ ختمة من المصحف الشريف بخطه منها ختمتان بالذهب .

(١١٦) المكتبات في الاسلام - د . محمد ماهر حمادة - ص ١٣٢ - بيروت ١٩٧٠ . Eche P. 118 بيت الحكمة - سعيد الديوه جي - ص ٥٥ - جامعة الموصل ١٩٧٢ . دار العلم بطرابلس الشام - مجلة الحديقة - محب الدين الخطيب - ج ١٧٥/١ . القاهرة ١٣٤٦هـ .

(١١٧) بغية الطلب في تاريخ حلب - ج ٦٥/١ .

(١١٨) هو أبو الحسن علي بن هلال البواب ، خطاط عربي مشهور ، كان أبوه بواب بيت القضاء ببغداد ، نسخ القرآن بيده أربعا وستين مرة ، وهو الذي ابتدع الخط الريحاني ، توفي سنة ٤١٣هـ .

(١١٩) الاعتبار ٢٠٨ .

(١٢٠) إتعاظ الحنفا - ج ٥١/٣ .

من الفتن والجوع والفاقة ، وهو ما يزال في صباه ، فقصد حماه ، ثم ذهب الى حلب فالتقى هناك بالشاعر « ابن حيوس » فشكا له حاله ، فقال له : « كرمت عندي ، وتعبت الى نفسي ، فإن الشام لا يخلو من شاعر مجيد ، فأنت وارثي ، فاقصد بني عمار بطرابلس فإنهم يحبون هذا الفن . »(١٢١) فنزل طرابلس والتحق بدار العلم ، فكان من ينظر اليه يعتقد انه جمال أو حمال لشكله وطوله وعرضه وبزته ، وما كانت صورته تنبيء عن ذكائه ولطفه وفضله وفطنته ، ولما كان فقيرا فقد انضم الى غيره من الطلبة الفقراء الذين يتقاضون الجرايات والهبات التي وقفها بنو عمار عليهم ، وصرح هو بذلك في ديوانه ، وقال : « .. ومضيت الى بني عمار وصحبتهم فأحسنوا الي وألجأوني الى إجادة شعري »(١٢٢) وكان جلال الملك ابن عمار أمر القاضي أبا الفضل بتوزيع الذهب على الطلبة . غير أن ابن الخياط لم يلحقه نصيب من ذلك فكتب الى أبي الفضل يعاتبه ويطالبه بنصيبه .

أبـا الفضـل كيف تناسيتني
وما كنت تعدل نهج الرشاد
فأوردت قوما رواء الصدور
وحـلأتَ مثلي وإنـي لصاد
لقـد أيأستني من ودك الحقيقة
إن كـان ذا باعتقاد .(١٢٣)

وغشى ابن الخياط حلقة الدرس التي كان يعقدها ابو عبد الله الطليطلي ، وكان الطليطلي يعنف طلبته الذين لا يحفظون ما يعطيهم من دروس ، وكان ابن الخياط من بينهم ، وقد ذكر الذهبي عن الطليطلي قوله : « كان ابن الخياط أول ما دخل طرابلس وهو شاب ، يغشاني في حلقتي وينشدني ما أستكثره له ، فأتهمه ، لأنني كنت إذا سألته عن شيء من الأدب لا يقوم به ، فوبخته يوما على قطعة عملها ، وقلت : أنت لا تقوم بنحو ولا لغة ، فمن أين لك هذا الشعر ؟ فقام الى زاوية ففكر ، ثم قال : اسمع :

وفاضـل قال إذ أنشدتـه ، نخبا
مـن بعض شعـري وشعـري كلـه نخب
لا شيء عنـدك مـا يستعين به
مـن شأنـه محجـرات النظـم والخطب
فلا عروض ولا نحـو ولا لغة
قـل لي فمـن أين هذا الفضـل والادب ؟
فقلـت قول امـرىء صحّـت قريحته :
إن القريحـة علـم ليس يكتسب
ذوقـي : عروضي ، ولفظـي : جلـه لغتي
والنحـو : طبعـي ، فهـل يختالنـي سبب ؟

فقال ابو عبد الله الطليطلي : حسبك الله ، والله لا استعظمت لك بعدها عظيما . ولزمه بعد ذلك ، فأفاد ابن الخياط من الأدب ما استقل به .(١٢٤)

(١٢١) النجوم ٥/٢٢٦ ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق - ج ٣/مجلد ٢٣ - ص ٢٥٣ وما بعدها .
(١٢٢) خريدة القصر - (شعراء دمشق) - ص ٢٤٣ بداية قسم شعراء الشام .
(١٢٣) ديوان ابن الخياط ١٢١ .
(١٢٤) سير أعلام النبلاء - ج ١٢ - ق ١/١١٠ - ١١٠ ؟ .

ومن تلاميذ الطليطلي ، ابو جعفر محمد بن محمد ابن هبة الله المولود في طرابلس في سنة ٤٦٢هـ . وقد قرأ عليه العربية . وأخذ علمَ النسب على علي ابن محمد بن ملقطة العلوي النسابة بطرابلس ايضا . ولا شك انه كان في عداد طلبة دار العلم ، وتخرج منها ، وعمل في نسخ الكتب ، وقال الشعر ، فكان يكتب على طريقة أبي عبد الله بن مقلة ،(١٢٥) ومدح جلال الملك ابن عمار وغيره في سنة ٤٨٥هـ . فكان أول ما ظهر شعره ، ثم اعتقله فخر الملك ابن عمار لأمر بدا منه ، ثم أخرجه من طرابلس بعد مدة فقصد الأفضل بن بدر الجمالي ومدحه في سنة ٥٠١هـ . ثم عاد الى طرابلس وقدم على فخر الملك بأهله وبنيه قبل خروجه منها فمدحه ولزمه ، وولي قاضي عسقلان في سنة ٥١٠هـ . وصرف بعد سنة ، وعاد الى القاهرة فولي صاحب ديوان الأحباس ، والجامع العتيق ، والأوقاف ، والمواريث بمصر والقاهرة وأعمالها في سنة ٥١٥هـ . ثم ولي قضاء المحلة الغربية من غربي الفسطاط ، ورشح الى ولاية نقابة الاشراف . وقال فيه القاضي الرشيد بن الزبير في كتاب « الجنان ورياض الأذهان » انه شاهده بمصر في سنة ٥١٧هـ . فرآى شخصا كامل الأدوات ، قد أحرز الفضل من كل الجهات ، ومحله في الادب موازمحله في العلم والنسب . وله ديوان شعر أكثره في مدح جلال الملك ابن عمار وأخيه فخر الملك ، وكان ابن النقار الطرابلسي يحفظ أشعاره وينشدها للحافظ والمؤرخ الكبير « ابن عساكر الدمشقي »(١٢٦) كما كان لدى القاضي الفاضل في مصر نسخة من ديوان أشعاره أهداه الى العماد الاصفهاني فأثبت كثيرا من قصائده في الخريدة .(١٢٧)

ومن طلبة الدار أيضا « الأمير والشاعر أبو العساكر سلطان بن علي بن مقلد بن منقذ » المولود بطرابلس سنة ٤٦٤هـ . حيث نشأ وتعلم فيها وتتلمذ على يد الطليطلي ، ووفاء لاستاذه فقد قدم للصليبيين فدية لاطلاق سراحه حين استولوا على المدينة ، واستضافه عنده بشيزر حين ولي إمرتها ، فأفاد هناك ، ولذا عرف بنزيل شيزر ، وقرأ عليه فيها الأديب « أبو عبد الله محمد بن يوسف بن مشيرة الكفرطابي » المتوفي سنة ٥٥٣هـ .(١٢٨) و« عبد القاهر بن عبد الله المعروف بالوأواء الحلبي » المتوفي سنة ٥٥١هـ .(١٢٩) فضلا عن أسامة بن منقذ .

---

(١٢٥) هو أبو علي محمد بن علي المعروف بابن مقلة الوزير ، صاحب الخط الذي تضرب بحسنه الامثال . تولى الوزارة ثلاث مرات واعتقله ... فقطع يده « الراضي العباسي » فكتب باليسار مثل ما كان يكتب باليمين ، ثم شد على يده المقطوعة وكتب بها قلم يفرق بين خطه قبل قطعها وبعده . مات بالحبس سنة ٣٢٨هـ .

(١٢٦) ابن عساكر ٣٢٢/٣٩ ، المقفي - المقريزي - نسخة مصورة بدار الكتب المصرية - ج ٥٢/٤ و ٥٣ - رقم ٤٣٧٦ تاريخ .

(١٢٧) الخريدة - قسم شعراء مصر - شرح أحمد أمين وشوقي ضيف واحسان عباس - ج ١٢٦/١ - ١٤٤ ، القاهرة ١٩٥١ .

(١٢٨) الخريدة ٥٧٣/١ (قسم شعراء الشام) .

(١٢٩) هو أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير ، الأديب صاحب الديوان المعروف به ولد بعكا سنة ٤٧٨ وكنا بقيسارية تنسب اليها ، وسكن دمشق وامتدح الملوك والكبار وتولى ادارة الساعات التي على باب الجامع . قرأ الادب وتعلم الهندسة على توفيق بن محمد بن زريق الطرابلسي - وأبي الفرج بن الشام الطرابلسي . توفي سنة ٥٤٨هـ . (بغية الطلب ج ٦٤/٧ و ٦٥ و ١٦٠/٨ ، تاريخ الاسلام ٣٢٢/٢٥)

ومن خريجي الدار الشاعر الطرابلسي « أحمد بن منير » المولود بها سنة ٤٧٣هـ . فقد ذكرت كتب التراجم انه حفظ القرآن الكريم ، وتعلم اللغة والأدب بطرابلس قبل ان يغادرها الى دمشق أثناء الحصار الصليبي . وهو أشهر من أخرجته طرابلس من الشعراء في العصر الوسيط على الاطلاق . إتصل بمعظم ملوك وأمراء ووزراء وأعيان عصره في الشام والعراق ، وترك ديوانا نافس في معاصريه ابن القيسراني[١٣٠] حتى شبها بجرير والفرزدق .[١٣١] وأكثر أشعاره الحماسية والتي تحض على الجهاد ومقاتلة الصليبيين هي التي أنشدها لعماد الدين زنكي ، ثم لابنه نور الدين محمود ، ومعظم قصائده هذه حفظها لنا المؤرخ الدمشقي « أبو شامة » في كتاب « الروضتين » حيث ضاع ديوانه ، وتوزعت قصائده في الغزل والرثاء والوصف والتشبيب والهجاء والمديح وغير ذلك من العديد من كتب الأدب والتاريخ . وقد جمعنا شتاتها فبلغت ألفا وخمسمائة وخمسة وخمسين بيتا . ويبدو أن ذكريات الدراسة في دار العلم جمعت بينه وبين أمير شيزر « سلطان بن منقذ » حيث استضافه عنده مدة .[١٣٢] وكانت وفاته بحلب سنة ٥٤٨هـ .

ومن درس في دار العلم ايضاً ابو محمد عبد الله بن أحمد بن الحسين النقاره ، وهو الكاتب المعدل المولود بطرابلس في سنة ٤٧٩هـ .[١٣٣] إذ نشأ وتأدب وقرأ القرآن بها ، وعندما تخرج تولى وظيفة الخطابة والامامة في جامع جبلة[١٣٤] ثم انتقل الى دمشق فكتب الانشاء لملوكها ، وكتب لنور الدين محمود وسمع شعره « ابن عساكر الدمشقي » .[١٣٥] وكانت وفاته بدمشق في سنة ٥٦٩هـ .[١٣٦]

ومنها تخرج أبو محمد توفيق بن محمد المعروف بابن زريق الطرابلسي فكان من كبار العلماء في الهندسة والنحو والتاريخ ، وقد ولد بطرابلس في سنة لا نعرفها وانتقل الى دمشق اثناء الحصار الصليبي ، على الأرجح ، وتوفي بها سنة ٥١٦هـ . ترجم له « القفطي » فقال : « كان جده محمد بن زريق يتولى الثغور الشامية من قبل الطائع لله . وانتقل ابنه عبيد الله الى الشام ، وولد توفيق بطرابلس ، وانتقل الى دمشق وسكنها . وكان أديبا « فاضلا » حاسبا « هندسيا عالما » بعلم الهندسة وتسيير الكواكب . » يعلم كلام الأوائل ومقاصدهم ومذاهبهم ، ويفيد علم العربية . قرأ عليه عالم من الأدباء وتخرجوا به . وكان له شعر جيد » .[١٣٧] روى عنه ابن الصغير

---

(١٣٠) الخريدة ١/٦٦ (قسم شعراء الشام) .
(١٣١) الخريدة ١٥٥/٢ (قسم شعراء الشام) .
(١٣٢) تهذيب ابن عساكر ٩٨/٢ .
(١٣٣) ابن عساكر ٦٠٣/١٩ .
(١٣٤) تهذيب ابن عساكر ٣٧٢/٤ .
(١٣٥) تهذيب ابن عساكر ٢٧٦/٧ .
(١٣٦) الخريدة ٣١٨/١ .
(١٣٧) إنباه الرواة على أنباه النحاة - القفطي - ج ٢٥٨/١ .

القيسراني شيئا من شعره ، وقرأ عليه شيئا من علوم الحكماء في تسيير النجوم وتأثيرها ، وحقق بقراءته على ابن زريق نسخة من « زريج كشيار » ، وهو كتاب ينسب الى كشيار بن لبان الجيلي يحسب سير الكواكب ومنه يستخرج التقويم .(١٣٨) وكان الشيوخ من تلاميذه يقولون : « كان توفيق ، ذا توفيق ، وعلم وتحقيق ، ونظر وتدقيق ، وله تصانيف ، وشعر حسن لطيف » .(١٣٩)

وخرج من طرابلس مهندس آخر في تلك الفترة هو « ابن أبي العيش الطرابلسي » وهو أحد أفراد أسرة أبي العيش التي أنجبت عددا من القضاة والأعلام ، وأشتهرت بالعلم والأدب والفضل ، ونرجح أن ابن أبي العيش هذا درس في دار العلم ، ثم خرج من طرابلس أثناء حصار الصليبيين لها ، وانتقل الى مصر فكان بين الخبراء الذين أنشأوا المرصد المأموني ، مع أبي عبد الله محمد بن فاتك البطائحي الملقب بالمأمون ، وهو الوزير الفاطمي الذي صلب حول سنة ٥١٩هـ ./١١٢٥م .(١٤٠)

ومن طلبة الدار « ابو عبد الله محمد بن الحسن ابن مخلوف الراشدي » المعروف بابن بركات الطرابلسي ، وكان يتردد عليها ايام ناظرها القاضي أبي الفضل بن أبي روح ، وتخرج منها ، واشتغل بالأدب فصنف كتاب « التصريح في شرح قصيدة كثير وابن ذريح » . وتوفي سنة ٥٤٠هـ .(١٤١)

وتخرج من الدار « ابو طاهر جعفر بن علي بن دواس » المعروف بقمر الدولة ، وهو شاعر من أهل مصر ، ولكنه نشأ بطرابلس ودرس فيها ، ثم رحل الى بغداد وأقام بها مدة في خدمة « قسيم الدولة البرسقي » وكان نديما له .(١٤٢) وكان قمر الدولة شاعرا رقيق الألفاظ عذب الايراد ، لطيف المعاني ، وله في الغناء وضرب العود وطريبه طريقة حسنة بديعة ، وشعره في بعض المصادر .(١٤٣)

ودرس بدار العلم « أبو الحسن علي بن يحيى بن هبة الله الكتاني » المعروف بالناهض وهو من مواليد الاسكندرية والمتوفى بها في آخر المحرم سنة ٥٣٣هـ . ذكره ابو طاهر السلفي فقال : « الناهض هذا كان كبيرا » ، وكان يحفظ من أشعار متأخري الشاميين كثيرا ، ورأى منهم شعراء بطرابلس ، وبها تربى في خدمة بني عمار ، وقد علقت منها ملحا .(١٤٤) ومن الشعراء الذين التقى بهم في طرابلس وروى عنهم : « ابو القاسم زيد بن أحمد بن عبيد الله » المعروف بابن أبي الفتح الناهر الحلبي ، وقد رآه ابن الخياط

---

(١٣٨) إنباه الرواة ٢٥٨/١ .

(١٣٩) إنباه الرواة ٢٥٨/١ و ٢٥٩

(١٤٠) دائرة المعارف الاسلامية ٣٠٩/٧ (مادة البطائحي) .

(١٤١) لسان الميزان - ج٣٨٢/١ ، اعيان الشيعة - ج١٣٥/١١ ، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون - ج ٢٩٣/١ .

(١٤٢) الوافي بالوفيات - الصفدي - ج ٥٠/١١ - نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة ، ١٣٠ تاريخ .

(١٤٣) انظر : الوافي ٥٠/١١ و ٥١ ، الدرة المضية في الدولة الفاطمية - ابن ايبك - ج ٥٩٢/٦ ، فوات الوفيات - ابن شاكر الكتبي - ج ٢٠٠/١ ، خريدة القصر - قسم العراق - ج ٦٤/٢ و ٦٥ .

(١٤٤) معجم السفر - السلفي - ق ٦٦٣/٢ - نسخة مصورة بدار الكتب المصرية ، رقم ٣٩٣٢ تاريخ .

الدمشقي فيها فقال « رأيت ابن الناهر بطرابلس ، وهو يعمل أشعارا ضعيفة ركيكة ، وكان يعتمد على الجناس المركب فلا يأتي بشيء، فعمل أبياتا يهنيء بها إنسانا تولى الخطابة فقال بعد ذكر المنبر :

أترى ضم خطيبا منك
أم ضمخ طيبا ؟(١٤٤)

كما التقى الناهض بأبي حامد المفضل المعروف بابن المرطل الطرابلسي المولود بها سنة ٤٠٤هـ . وهو يروي حديث « خيثمة بن سليمان الطرابلسي »(١٤٦) والناس يرحلون اليه ويقولون انه عالي السند .(١٤٧)

ومن تلاميذ دار العلم « الحسين بن محمد بن أحمد » المعروف بابن النقار المولود بدمشق سنة ٤٦٤هـ . وهو ابن عم « عبد الله الكاتب » اصطحبه أبوه معه الى طرابلس حين خرج من دمشق أثناء الفتنة التي وقعت فيها ، وخرج منها أيضا « عمه أحمد بن الحسين » ، في جملة أعيان دمشق الذين قصدوا طرابلس واستوطنوها سنة ٤٦٨هـ . فنشأ الحسين بها وتردد على دار علمها وتعلم بها قراءة القرآن الكريم واللغة ، وبرع في الخطابة ، وخطب لفخر الملك ابن عمار أثناء إقامته بجبلة في سنة ٥٠١هـ . بعد خروج طرابلس من يده ، ثم رحل الى دمشق وبغداد فكان أحد الشهود المعدلين ، وكتب الشروط ، وروى عن والده ، وأكثر من تلاوة القرآن الكريم ، حتى توفي سنة ٥٣٣هـ .(١٤٨)

ومنهم : « محمد بن الحسين الطرابلسي » المعروف بالمحنك ، القاضي المرتضي . ولد بطرابلس ونشأ فيها وتلقى علومه بدار علمها ، ثم انتقل الى مصر فولاه الوزير « رضوان بن ولخشي » ديوان المجلس في ذي القعدة سنة ٥٣١هـ ، ثم صرف ، وأعيد ثانيا بعد « ابن معصوم » في ربيع الآخر سنة ٥٤٢هـ . وكانت وفاته سنة ٥٤٩هـ . قال ابن ميسر : « وكان ممن ولي نظر الدواوين والخزائن وغير ذلك من المناصب . وله (تاريخ خلفاء مصر) قطع فيه على الحافظ . وقيل انه ينظم الشعر » .(١٤٩)

ومنهم : « ابن الكاتب محمد بن يحيى » المعروف بابن سني الدولة الطرابلسي ، وهو ابن اخي الشاعر ابن الخياط الدمشقي ، وقد ولد بطرابلس أثناء إقامة والده يحيى فيها ، ونشأ فيها ، وتردد على دار علمها ، فكان بعد تخرجه من رجال الادب ، وكتب لبعض الامراء .(١٥٠)

●●●

أما الذين زاروا دار العلم واستفادوا من مكتبتها ، أو جالسوا علماءها ، أو شاركوا بدروسهم

---

(١٤٥) بغية الطلب ٦٤/٢ و ٦٥ .

(١٤٦) أشهر المحدثين الحفاظ الذين أخرجتهم طرابلس في العصر الوسيط على الاطلاق ، لقب بمسند الشام . ولد بطرابلس سنة ٢٥٠هـ . وتوفي بها سنة ٣٤٣هـ . ترك مصنفات في الحديث ، وفضائل الصحابة ، والرقائق والحكايات ، وجميعها تحت الطبع حاليا من تحقيقنا وستصدر عن « دار الكتاب العربي ببيروت » .

(١٤٧) معجم السفر - ق ١٦٣/٢

(١٤٨) تهذيب ابن عساكر ٤٥٦/٤ و ٣٥٢

(١٤٩) أخبار مصر - ابن ميسر - صححه هنري ماسيه - ج ٩٧/٢ - طبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩١٩ ، المقفى - المقريزي - ج ٢١٩/٢ ، اتعاظ الحنفا ٢٢٣/٣ .

(١٥٠) الوافي بالوفيات - الصفدي ٧٠/٨ .

فيها فهم أكثر من أن يحصوا ، ويمكن القول أن مئات المحدثين ، والفقهاء ، والادباء ، والشعراء ، والنحاة ، والعلماء الذين أخرجتهم طرابلس في القرن الخامس الهجري ، والذين كانوا يؤمون المدينة من أقطار العالم الاسلامي ، ترددوا بشكل أو بآخر على دار العلم ومكتبتها ، كطلبة ، أو مدرسين ، أو للمطالعة ، أو للوقوف على ما تحتويه من نفائس المخطوطات . نذكر منهم ، على سبيل المثال لا الحصر : « الخطيب البغدادي » الذي زار طرابلس مرتين ، وناظر في أحدى رحلتيه صاحب دار العلم « الحسين بن بشر القاضي » و « ابو الفتح الكراجكي » الذي سمع الحديث بطرابلس ، ووضع المصنفات لبني عمار قبل ان ينتقل الى صور ويتوفى بها سنة ٤٤٩هـ . و « زيد بن علي بن عبد الله الفارسي » النحوي اللغوي ، والفاضل العالم العارف بعلوم كثيرة ، ابن اخت « أبي علي الفارسي » العالم النحوي المشهور ، وكان قد نزل بطرابلس فأقرأ فيها وأملى « شرح إيضاح أبي علي الفارسي » وشرح الحماسة ، وتوفي بها في أواخر سنة ٤٦٧هـ .[١٥١] و « عبد السلام بن محمد ابو يوسف القزويني » شيخ المعتزلة والمتكلم على مذهبهم ، وقد سكن طرابلس مدة ، وحدث بها ، واجتمع بقاضيها « عبد العزيز بن البراج » المتوفى سنة ٤٨١هـ .[١٥٢] و « ابو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي » القاضي والفقيه الشافعي ، قاضي الديار المصرية في الدولة الفاطمية ومصنف كتاب « الشهاب » وقد نزل بطرابلس وحدث بها أثناء سفارته للخليفة الفاطمي الى ملك الروم في القسطنطينية ، وكان يدرس بكتابه « الشهاب » فسمعه جماعة من طلاب الحديث بطرابلس ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٥٤هـ .[١٥٣] و « أبو طاهر أحمد ابن الحسين بن النقار » المولود بالكوفة سنة ٤١٨هـ . نشأ ببغداد وقرأ النحو وحفظ القراءات السبع ، وانتقل الى دمشق وسكنها مدة مديدا ، ورحل الى مصر ولقي جماعة من الفقهاء الشافعية ، ثم دخل طرابلس سنة ٤٦٨هـ . وأقام فيها الى سنة ٤٩٧هـ . حيث عاد الى دمشق وتوفي بها سنة ٥٠١هـ .[١٥٤] و « ابو نصر أحمد بن حمزة » الملقب بالمهند ، ويعرف بابن الحيشي الحلبي ، شاعر مجيد ، جزل الالفاظ ، حسن المعاني ، أصله من خلاط ، وأقام بحلب فنسب اليها ، وجاء طرابلس فأقام فيها مدة ، والتقى به ابن الخياط الدمشقي أثناء دراسته بدار العلم ، فقال : « رأيت الأمير ابن المهند أبا نصر أحمد بن حمزة الحيشي بطرابلس ، وكنا نجتمع على الطريق ، وكان يتشوق الي أبدا » واجتمعنا يوما في أوايل شهر رمضان ، فعرض علي الافطار عنده ، فامتنعت ، فلم يراجعني ، وافترقنا ، وأتبعني غلامه وأنا لا أعلم ،

---

(١٥١) بغية الطلب ١٢٤/٧ ، انباه الرواة ٣٢٥/٢ ، معجم الادباء ١٣٦/١١ ، بغية الوعاة السيوطي - ج ٥٢٣/٦ - مصر ١٩٦٤ ، تهذيب ابن عساكر ٩٥/٦ .

(١٥٢) ابن عساكر ١٢٦/٢١ ، النجوم الزاهرة ١٥٦/٥ .

(١٥٣) ابن عساكر ١٣٥/٣٦ و ٣٦٥/٤٣ ، تهذيب ابن عساكر ٤٤١/٤ ، معجم السفر ٣٧٦/٢ ، القفطي ٢٧٧/١ ، الوافي ١١٦/٣ ، العبر في خبر من غبر ٢٣٣/٣ ، اللباب ٢٦٩/٢ .

(١٥٤) إنباه الرواة ٣٥/١ و ٣٦ .

فعرف البيت ، ورصدني الى حين خروجي ، فخالفني اليه ففتش القفل ونقل جميع ما فيه الى بيت مولاه ، فلما انصرفت عشاء وعاينت بيتي ظننت أني سرقت ، واذا الأمير قد وافاني يضحك ، فعلمت انه صاحب القصة ، وما برح حتى انصرفت معه فأقمت عنده الشهر كله .. رأيته في هذا الشهر وقد بيض سبعا وعشرين قصيدة لجماعة من الطرابلسيين ، وصار اليه منهم نحو مائتي دينار ، فعرض علي القسمة فما فعلت ، ولم يحصل لي أنا شيء .[١٥٥] ومن شعر الحيشي وقد كتبه الى الأمير سديد الملك ابن منقذ :

إنـي وحقـك في طرابلس كمـا ... تهـوي العـدى تحـت المقيم المقعد
أمـا « المحـرم » قد حرمـت نجـاز ما ... وعـدوا ، في « صفـر » فقـد صفـرت يدي
قالـت لي العلياء لمـا أن شفو ... ني كأس مطلهـم : سكرت فعربد[١٥٦]

و« ابو القاسم زيد بن أحمد الحلبي » المعروف بابن أبي الفتح الناهر ، أصله من حلب ، وسكن مع أبيه دمشق ، ثم انتقل الى طرابلس وأقام بها حتى توفي بعد ٤٨٠هـ . وقد رآه ابن الخياط الدمشقي بطرابلس وهو يعمل أشعارا ضعيفة ركيكة ، ويروي عن أبيه شيئا من شعره وقد نيف على السبعين .[١٥٧]

و« أبو اليمن محمد بن الخضر المعري » الملقب بالسابق ، وهو شاعر أديب من أهل المعرة ، نزل طرابلس والتقى فيها بابن الخياط الدمشقي ، وكان يجلس معه في دكان عطار نصراني يعرف بأبي الفضل ، ذكي محب للادب ، وكان الثلاثة يتطارحون الاشعار عند غدير ماء بظاهر طرابلس . قال عنه عماد : « كان شاعرا مجيدا » ، مليح القول ، حسن المعاني ، رشيق الألفاظ . دخل بغداد وجالس ابن باقيا ، والأبيوردي ، والخطيب أبا زكرياء التبريزي ، وأنشدهم من شعره . ودخل الري ، وأصبهان ، ولقي ابن الهبارية الشاعر . وعمل حين رجع من العراق رسالة لقبها « تحفة الندمان » أتى فيها بكل معنى غريب ، وكل شعر مختار لأديب . توفي بعد سنة ٥٠٩ .[١٥٨] و« أبو الحسين أحمد بن الحسين بن حيدرة » المعروف بابن نرسان الطرابلسي ، الأديب والشاعر المشهور ، له ديوان فيه فنون ، ولكنه مفقود ، وكان من أثرياء طرابلس ومترفيها ، ذكر ابن عساكر انه عمل أبياتا « يصف فيها بركة » له ملأها خمرا في بستان يملكه بطرابلس ، وأوقف على جوانب البركة عددا « من الجواري البيض والسود » وقد ساءت علاقته لسبب تجهله بأمراء بني عمار مما جعله يهجو في شعره فخر الملك وأخاه جلال الملك ، فأمر به فخر الملك فضرب حتى مات ودفن بطرابلس سنة ٤٩٧هـ .[١٥٩]

---

(١٥٥) بغية الطلب ٧٠/١ .
(١٥٦) بغية الطلب ٧٠/١ .
(١٥٧) بغية الطلب ٦٤/٧ و ٦٥
(١٥٨) تهذيب ابن عساكر ٦٧/٢ و ٦٨ . الخريدة - ص ٣٢ . بدائع البداءة - ابن ظافر ١٢٩ - مصر ١٩٧٠ .
(١٥٩) مرآة الزمان - سبط ابن الجوزي - ج ٨ ق ١٠/١ - حيدر آباد ١٩٥١ .

هذا فضلا عن قاضي طرابلس « عبد العزيز بن البرّاج » الذي سبق التعريف به ،[١٦٠] والشعراء الذين مدحوا الامراء بني عمار ، وسديد الملك بن منقذ ، وغيرهم من الامراء والقضاة والأعيان ، ممن نمسك عن ذكرهم خشية الاطالة .

أسماء بعض المصنفات في مكتبة دار العلم

ذكر « ابن العديم الحلبي » في « الانصاف والتحري »[١٦١] أن جلال الملك ابن عمار وقف بدار العلم من تصانيف أبي العلاء المعري ما يلي :

- « الصاهل والشاحج » ، ومقداره أربعون كراسة ، ويتكلم فيه عن لسان فرس وبغل .[١٦٢]

- « السجع السلطاني » ومقداره ثمانون كراسة ، ويشتمل على مخاطبات الجنود والوزراء وغيرهم من الولاة .[١٦٣]

- « الفصول والغايات » ومقداره مائة كراسة ،[١٦٤] قال عنه ابن الجوزي انه وضعه في معارضة سور القرآن الكريم وآياته ، وهو على حروف المعجم في آخر كلماته .[١٦٥]

- « السادن » ومقداره عشرون كراسة ، وهو مختصر يبحث في الغريب من كتاب الفصول والغايات .[١٦٦]

- « إقليد الغايات » ومقداره عشر كراريس .[١٦٧]

- « رسالة الاغريض » وهي رسائل قصيرة من ديوان الرسائل لابي العلاء .[١٦٨]

وكان في مكتبة الدار ما صنفه الطرابلسيون على الأرجح خلال القرن الخامس الهجري وما قبله ، ومصنفات الكثير ممن نزلوا طرابلس وشاركوا في حياتها العلمية والأدبية ، فنذكر من مؤلفات الطرابلسيين ما يلي :

- « فوائد » في الحديث ، لأبي عبد الله الحسين بن عبد الله المعروف بابن أبي المتوكل الطرابلسي المتوفى سنة ٤١٤هـ ، وقد خرجها له خلف بن محمد الواسطي وانتقاها عليه فسمعها عبد العزيز الكتاني .[١٦٩]

---

(١٦٠) انظر حاشية رقم (١٠٠) .
(١٦١) الانصاف والتحري - ص ٥٠ .
(١٦٢) إنباه الرواة - ج ٦١/١ .
(١٦٣) المصدر نفسه - ج ٥٧/١ .
(١٦٤) المصدر - ج ٦٦/١ .
(١٦٥) البداية والنهاية - ابن كثير ٧٤/١٢ .
(١٦٦) إنباه الرواة - ج ٦٣/١ .
(١٦٧) المصدر نفسه .
(١٦٨) المصدر - ج ٦٥/١ .
(١٦٩) ابن عساكر (المخطوط بدار الكتب المصرية) - ج ٢/١١ ، تهذيب ابن عساكر ٢٠٥/٤ ، الأنساب ٤٦١٢ ، معجم البلدان ٢١٣/١ و ٢٥٧/٣ ، التكملة لكتاب الصلة - ابن الأبار - ص ٥٩٩ - مدريد ١٨٨٦ ، تاريخ الاسلام - ج ٨٣/٢١ و ٢٥٣ و ٢٥٤ ، سير أعلام النبلاء - ج ١١ ق ٦٦/١ أو ٧٥ و ٧٦ ، العبر ١١٦/٣ ، شذرات الذهب ٢٠٠/٢ .

- « فوائد » في الحديث .[١٧٠]

- « فضائل الصحابة » .[١٧١] وهو من أجزاء .

- « فضائل أبي بكر الصديق »[١٧٢] وهو من أجزاء .

- « فضائل عمر بن الخطاب » .

- « فضائل عثمان بن عفان » .

- « فضائل علي بن أبي طالب » .

- « الرقائق والحكايات » .[١٧٣] وهو من أجزاء .

وجميعها من تصنيف محدث طرابلس الكبير « خيثمة بن سليمان القرشي الطرابلسي » (٢٥٠ - ٣٤٣هـ .)

وترك القاضي عبد العزيز بن البراج عدة تصانيف في الفقه وغيره ، كتبها بالعربية والفارسية ونرجح أن تلميذه أبا الفضل بن أبي روح الذي تولى نظارة دار العلم وضع مصنفاته في مكتبتها ، وقد عرفنا منها :

- « المهذب » .

- « المعتمد » .

- « الروضه » .

- « المقرب » .

- « عماد المحتاج في مناسك الحاج » .

- « الكامل » في الفقه .

- « الموجز » في الفقه .

وله كتاب في الكلام ، وكتب في الاصول والفروع منها :

- « الجواهر » .

- « المعالم » .

- « المنهاج » .

- « روضة النفس في أحكام العبادات » .

- « حسن التعريف » .

- « شرح جمل العلم والعمل » لشيخه المرتضى .[١٧٤]

ووضع شيخه الطوسي كتابا سماه « الجمل والعقود في العبادات » وقد ألفه بطلب من خليفته في البلاد الشامية القاضي ابن البراج كما صرح في أوله .[١٧٥] ويحتمل انه كان في عداد المصنفات التي وضعت في دار العلم .

---

(١٧٠) تاريخ التراث العربي - فؤاد سزكين - ترجمة د . فهمي أبو الفضل - ج ٤٦٢/١ و ٤٦٣ ، القاهرة ١٩٧١ ، فهرست المنتخب من مخطوطات الحديث بالظاهرية - محمد ناصر الدين الالباني - ص ٢٧٦ و ٣٣٢ .

(١٧١) تاريخ التراث .

(١٧٢) تاريخ التراث .

(١٧٣) تاريخ التراث .

(١٧٤) روضات الجنات - الخوانساري - ج ١٦٣/١ ، طهران ١٣٩٠هـ . الكنى والألقاب - عباس القمي - ج ٢١٩/١ ، النجف ١١٥٦ ، أمل الآمل - الحر العاملي - ق ١٥٢/٢ ، رجال السيد بحر العلوم - ج ٦٧/٣ .

(١٧٥) النهاية في مجرد الفقه والفتاوى - الطوسي - مقدمة (ص) - بيروت ١٩٧٠ ، رجال السيد بحر العلوم - ج ٢٣٣/٣ ، طبقات اعلام الشيعة ١٠٧/٢ .

وصنف « أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكراجكي » أكثر من سبعين مصنفا منها ما ألفه لبني عمار في طرابلس ، ووضعت على الأرجح في مكتبة دار العلم ، عرفنا منها :

- « عدة البصير في حج يوم الغدير » ألفه في طرابلس للشيخ أبي الكتائب ابن عمار ، قال عنه « النوري » في « المستدرك » هذا كتاب مفيد يختص بإثبات إمامة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في يوم الغدير ، وقد بلغ الغاية في هذا الكتاب حتى حصل في الامامة كافيا للشيعة وهو في جزء واحد من مائتي ورقة .(١٧٦)

- « مختصر طبقات الوارث » وهي رسالة ألفها للمبتدئين في طرابلس .(١٧٧)

- « معدن الجواهر ورياضة الناظر » في الأدب والحِكَم . نقل عنه المجلسي في كتابه « بحار الأنوار » . رواه عنه تلميذه الفقيه أبو عبد الله الحسين بن هبة الله الطرابلسي كما في صدر بعض نسخه القديمة .(١٧٨)

- « البستان » في الفقه ، ويعبر عنه بالشجر أيضا لأنه رتب فيه أبواب الفقه بعنوان الشجرات . قال بعض معاصريه الذي ألف فهرس تصانيفه انه فقه في معنى « لم يطرق وسبيل لم يسلك قسم فيه أبوابا من الفقه ، وفرّع كل فن منها حتى حصل كل باب شجرة كاملة يكوّن نيفا وثلاثين شجرة . وقد صنفه للقاضي أبي طالب عبد الله بن محمد بن عمار .(١٧٩)

- « الرحلة » أشار اليها « ابن أبي طي » الحلبي في رجال الشيعة ، وذكر فيها المناظرة التي جرت بين القاضي الطرابلسي ابن بشر والخطيب البغدادي .(١٨٠)

- « تلقين أولاد المؤمنين » وهو في كراستين ، صنفه بطرابلس كما ذكره بعض معاصريه في فهرس كتبه .(١٨١)

- « الاستطراف في ذكر ما ورد من الفقه في الأنصاف » . ألفه لأبي الفتح عبد الحاكم القاضي بطرابلس والذي تحول عنها بسنة ٤١٥هـ .(١٨٢)

- « نهج البيان » . ألفه في طرابلس لأبي الكتائب ابن عمار .(١٨٣)

- « مسألة البيان عن جمل اعتقاد أهل الايمان » . وهي من عدة مسائل سئل الكراجكي عنها وهو في

---

(١٧٦) الغدير - ج ١٥٥/١
(١٧٧) فلاسفة الشيعة - عبد الله نعمة - ص ٤٤٩ - بيروت .
(١٧٨) طبقات اعلام الشيعة ١٧٨/٢ .
(١٧٩) الذريعة ١٠٥/٣ ، طبقات اعلام الشيعة ١٠٩/٢ و ١٣٩ ، فلاسفة الشيعة ٤٤٩ .
(١٨٠) لسان الميزان ٢٧٥/٦ ، فلاسفة .. - ٤٤٩ .
(١٨١) الذريعة ٤٢٩/٤ ، معالم العلماء في فهرست كتب الشيعة وأسماء المصنفين منهم قديما وحديثا - ابن شهر آشوب - ص ١١٩ ، النجف ١٩٦١ .
(١٨٢) الذريعة ٢٧/٢ ، طبقات اعلام الشيعة ١٠٤/٢ .
(١٨٣) طبقات أعلام الشيعة ١٣٢/٢ .

طرابلس فكتب عنها رسالة في عقائد الامامية بكتابه « كنز الفوائد » .[١٨٤]

وهناك عدد من المصنفات التي ألفها في صيدا وصور قبل وفاته سنة ٤٤٩هـ . ولا ندري ان كان قد وصل نسخ منها الى مكتبة دار العلم بطرابلس .

وترك « ابو عبد الله محمد بن هبة الله الوراق الطرابلسي » مجموعة من المصنفات يحتمل انها كانت بدار العلم ، عرفنا منها :

- « الواسطة بين النفي والاثبات » .
- « ما لا يسع المكلف اهماله » .
- « عمل يوم وليلة » .
- « الزهرة في أحكام الحج والعمرة » .
- « الأنوار » .
- « الأصول والفصول » .
- « جوابات المسائل الصيداوية » .[١٨٥]

ومن المرجح أن الكتب التي ذكرها أسامة بن منقذ عند حديثه عن استاذه الطليطلي ، كان يوجد منها نسخ في دار العلم وهي :

- « كتاب سيبويه » في النحو .
- « كتاب الخصائص » لابن جني .
- « كتاب الأيضاح » لأبي علي الفارسي ، وهو قدم الى طرابلس وسكنها مدة وانتفع بكتباتها الموقوفة . وتوفي ببغداد سنة ٣٧٧هـ .[١٨٦]
- « كتاب اللمع » لابن نصر السراج . ويبحث في النحو . قال عنه « الروذراوري » إنه مع قلة حجمه يوفي على الكتب الكبار التي من جنسه في قوة عبارته وجودة صنعه .[١٨٧]
- « كتاب الجمل » ، وهو إما للزجاجي أو الجرجاني ، أو ابن خالويه النحوي .

ويمكننا أن نضيف أيضا الى قائمة أسماء الكتب بدار العلم ، كتاب أمين الدولة ابن عمار :

- « جراب الدولة » .

والكتابين اللذين وضعها « زيد بن علي الفارسي ابو القاسم » والمتوفي بطرابلس سنة ٤٦٧هـ .

- « كتاب شرح الأيضاح » لخاله أبي علي الفارسي .
- « كتاب شرح ديوان الحماسة » لأبي تمام الطائي .[١٨٨]

وهناك من المصنفات :

- « كتاب شرح اللمع » الذي وضعه « ابو بركات

---

(١٨٤) مجلة العرفان - احمد عارف الزين - ج ٤ مجلد ٢٨٧/١٠ ، صيدا .
(١٨٥) معالم العلماء - ص ١٢١ ، النهاية - الطوسي - صفحة (ط) و (م) أمل الآمل ٣١٩/٢ و ٣٧٣ .
(١٨٦) سير أعلام النبلاء - ج ١٠ ق ٢١٣/٢ أ ، العبر ٤/٣ .
(١٨٧) ذيل تجارب الأمم - الروذراوري - ج ٦٨/٣ .
(١٨٨) بغية الطلب ١٢٨/٧ ، إنباه الرواة ١٧/٢ ، معجم الادباء ١٣٦/١١ ، بغية الوعاة ٥٣٣/١ .

النحوي » وهو من أهل الكوفة ، وأقام في طرابلس الى ان توفي سنة ٤٦٦هـ .[١٨٩]

- « المسائل الطرابلسية » وهي مسائل وضعها السيد المرتضى علي بن الحسين المتوفي سنة ٤٣٦هـ . وسئل عنها « ابو الفضل ابراهيم بن الحسن الأباني الطرابلسي » وعددها (١٣) مسألة . فصنف منها الطرابلسي ثلاث مسائل ، الأولى ١٧ مسألة ، والثانية ١٢ مسألة ، والثالثة ٢٣ مسألة ، عرفنا منها :

- « مسائل الامامة » وعددها تسع .

- « إعجاز القرآن » مسألة .

- « كيفية مسخ الممسوخ » مسألة .

- « كيفية نطق النمل والهدهد » .[١٩٠] وهي تفسير لما جاء في سورة النمل .

وليس من المستبعد أن تكون دار العلم قد ضمت نسخة - وربما نسخا - من ديوان أبي الطيب المتنبي الذي زار طرابلس ومدح رجالاتها ، ونسخ « أحمد بن حمزة بن الشام الطرابلسي » نسخة من شعره بمصر في سنة ٥٠٨هـ .[١٩١] وكذلك بعض مصنفات الخطيب البغدادي ، ودواوين العديد من الشعراء الذين نزلوا طرابلس ومدحوا أمراتها وولاتها وأعيانها .

ومن الكتب التي كانت بدار العلم :

- « الشامل » في الفقه ، وهو من أربع مجلدات . صنفه « الحسين بن أحمد بن محمد القطان البغدادي » في طرابلس لرئيسها أبي طالب محمد بن عمار .[١٩٢]

- « عيون الأدلة في معرفة الله » .

- « التبصرة في معرفة المذهبين الشافعية والامامية » .

- « البيان في الخلاف بين الامامية والنعمان » .

- « المقتبس في الخلاف مع مالك بن أنس » .

- « النور في عبادة الأيام والشهور » .

- « البيان عن حقيقة الانسان » .

- « كتاب الفرائض » .

- « كتاب المناسك » .

- « كتاب البراهين » .

- « مسألة تحريم الفقاع » .

وهذه كلها من تأليف القاضي أبي الفضل ابن أبي روح الناظر على دار العلم .[١٩٣]

- « أنس الجليس ومسرة الأنيس » صنفه « ابو الحسين ادريس بن ابراهيم الواعظ البغدادي » وروى

---

(١٨٩) الحياة الثقافية في طرابلس الشام - عمر عبد السلام تدمري - ص ٥٣ - بيروت ١٩٧٣ .

(١٩٠) الغدير ٤/٢٦٥ ، اعيان الشيعة ٥/١١٠ .

(١٩١) بغية الطلب ١/٦٥ .

(١٩٢) لسان الميزان ٢/٢٦٧ .

(١٩٣) سير أعلام النبلاء - ج ١٢ - ق ١/١١٦ ، تاريخ الاسلام (حوادث ٤٠٠ - ٤٣٠هـ .) - ص ٢٠٤ ، لسان الميزان ١/٢٨٦ ، اعيان الشيعة ١١/١٣١ ، ميزان الاعتدال - الذهبي - ج ١/٦١٠ ، الوافي ٩/٤٠ تحقيق يوسف فان إس ١٩٧٤ .

فيه عن محدث طرابلس خيثمة بن سليمان، وخراسان ابن عبد الله الطرابلسي، وأبي القاسم علي بن محمد الصوري، وغيرهم.[١٩٤]

- «أسماء الشيوخ»، وضعه «ابو الفضل علي بن عبد الواحد المري الطرابلسي».[١٩٥]

وكان يوضع في مكتبة دار العلم مصنفات العلماء والادباء والمحدثين والفقهاء والمفسرين والنحاة والقراء، ودواوين الشعراء، والرسائل، والمسائل، والمناظرات، التي وفد أصحابها الى طرابلس، أو التي كان يقتنيها محبو الكتب من أهل المدينة، أو التي كان يبتاعها بنو عمار من البلاد البعيدة، أو تهدى اليهم، أو تصنف أو تنسخ بناء لطلبهم. هذا عدا النسخ المكررة التي يقوم النساخون بكتابتها، ومن ذلك ثمانون ألف نسخة من كتب التفسير،[١٩٦] وخمسون ألف نسخة من المصاحف الشريفة.[١٩٧] كما كان بها كثير من كتب اليونان والرومان والفرس والهند التي تتناول جميع أنواع المعرفة الانسانية وعلوم الطب والفلك والتنجيم والفلسفة والهندسة وغيرها.

وكانت كل هذه الكتب أو أغلبها من أجمل الكتب المجلدة والمزخرفة والمحلاة بالذهب والفضة، بالخطوط المنسوبة لأشهر الخطاطين، وفيها عدد كبير جدا من الكتب بخطوط مؤلفيها.[١٩٨] فجاء عمل بني عمار هذا شبيها بما قام به سيف الدولة الحمداني في حلب.[١٩٩] بل هو أعظم وأبعد أثرا، وفاقت شهرة أسرة بني عمار في رعايتها للعلم واهتمامها بالتعليم والفكر والثقافة «، ه كل ١٠ كان لم ا من صفات حربية».[٢٠٠] وصارت طرابلس بدار علمها «مجمعا علميا» سمت به مكانة العلوم».[٢٠١] وأصبحت مكتبتها تقارن بمكتبات ملوك العرب في أسبانيا.[٢٠٢] حتى أنها اعتبرت أروع مكتبة في العالم.[٢٠٣]

وتبوأت طرابلس بدار علمها ومكتبتها الرائعة مكانة الصدارة في ميادين العلم، وأضحت أول مدينة علمية في الشام كله، على ما رأى المستشرق «فان برشم»[٢٠٤] ومركزا من أهم وأعظم المراكز الفكرية للشيعة الامامية في العصر الوسيط.[٢٠٥] مما حدا

---

(١٩٤) ابن عساكر (المخطوط) ٤/٥٧٤ و ١٢/٣٩٠، تهذيب ابن عساكر ٢/٣٣٦، الوافي ٨/٣١٧.
(١٩٥) ابن عساكر ٢٥/١١٣.
(١٩٦) المكتبات في الاسلام - ص ١٣٣ وجاء في «الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره» لمحمد سليم الجندي ج ١/٢٠٢ - انها عشرون ألف نسخة.
(١٩٧) المصدرين السابقين.
(١٩٨) المكتبات في الاسلام - ص ١٣٣.
(١٩٩) لبنان في التاريخ - ص ٣٤٢، دائرة المعارف الاسلامية - ص ٣٥٣ (مادة بني عمار).
(٢٠٠) تاريخ الحروب الصليبية - ستيفن رنسيمان - ترجمة د. السيد الباز العريني - ج ٢/٣٨٠، بيروت، الثقافة.
(٢٠١) تاريخ العلم في سورية - البارون راي - مجلة الباحث - ع ١١ - المجلد ١٧/٨٠٢ - جرجي يني.
(٢٠٢) Tripoli of Lebanon- B .konde- P.8- Beyrouth 1961
(٢٠٣) تاريخ الحروب الصليبية ٢/١١٣.
(٢٠٤) مصر والشام - د. فلبي - ص ٦٥.
(٢٠٥) خطط الشام - ج ٤/٣٨، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام - د. أحمد بدوي - ص ٢٩ - القاهرة.

بالمؤرخ « ابن الفرات » ان يقول : « ان طرابلس في زمن آل عمار صارت دار علم ».[٢٠٦]

عدد المصنفات في مكتبة دار العلم

اختلف المؤرخون في تقدير عدد المصنفات التي احتوتها مكتبة دار العلم في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) فكانوا بين مقل ومكثر. فمنهم من قال انها ضمت « عشرة آلاف » مجلد .[٢٠٧] ومنهم من قال ان عدد كتبها كان يزيد على مائة ألف كتاب وقفا .[٢٠٨] وتواضع على هذا الرقم كثير من الباحثين المحدثين ، العرب منهم والمستشرقين على السواء .[٢٠٩] ومنهم من قال ان المكتبة كانت تشتمل على « ثلاثمائة ألف مجلد » .[٢١٠] ومنهم من قال انها كانت تحتوي على نحو « مليون كتاب » .[٢١١] وهناك الكثير من المؤرخين العرب والمستشرقين الذين ينقلون عن المؤرخ « ابن الفرات » قوله ان كتب دار العلم بطرابلس « ثلاثة آلاف ألف » . أي ثلاثة ملايين . وهو ينقل عن المؤرخ « ابن أبي طي ، الحلبي ».[٢١٢] ولم تقع تحت يدنا هذه النسخة من تاريخ ابن الفرات ، بل اطلعنا على النسخة التي حققها الدكتور قسطنطين زريق وهي لا تذكر هذا الرقم . ونخص بالذكر من المستشرقين الذين أخذوا بتقدير ابن أبي طي ، من أن عدد الكتب هي ثلاثة ملايين كتاب . المؤرخ الانكليزي وأكبر بحاثيهم في أمور المشرق « ادوارد جيبون E. Gibbon » في « تاريخ الدولة الرومانية » .[٢١٣] و« أرنولد Arnold » و« غروهمان Grohman » ،[٢١٤] وشوشتري « التي يذكر في كتابه مختصر الثقافة الاسلامية » ان مكتبة طرابلس كانت تحوي أكبر عدد من كتب عرف ان مكتبة ما حوته حتى ذلك الزمن . ألا وهو ثلاثة ملايين .[٢١٥] وهذا الرقم الهائل يعني انه كان بها ثلاثة أرباع ما تحويه مكتبة « بودليان » . منذ بضع

(٢٠٦) بيت الحكمة - سعيد الديوه جي - ص ٧٣ .
(٢٠٧) الحركة الصليبية - د . سعيد عبد الفتاح عاشور - ج ١١٧/١ - القاهرة ١٩٦٣ .
(٢٠٨) الأعلاق الخطيرة - ص ١٠٢ ، تاريخ ابن الفرات ٧٧/٨ ، نهاية الارب في فنون الادب - النويري - ج ١٤/٢٩ ، مصور بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ معارف عامة .
(٢٠٩) دائرة المعارف الاسلامية ٣٥٣ ، مشاهدات في لبنان - لويس لورته - ص ١٣ ، بيروت ١٩٨١ لبنان الدليل الاخضر - روحي جميل - ص ٢٠٧ ، بيروت ١٩٦٨ ، لبنان - حسن محمد جوهر ص ١٢٣ ، القاهرة ١٩٧٠ .
(٢١٠) منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان - محمد أمين الخانجي - ج ٢٩٣/٢ ، القاهرة ١٩٠٧ ، ذيل لبنان - بديع أبي فاضل - ص ٣١٧ ، القاهرة ١٩٠٩ ، سمير الليالي محمد أمين سوق - ج ١٠٦/١ - طرابلس ١٣٣٢هـ .
(٢١١) أعيان الشيعة - ج ١ ق ٢٥٥/٦ وينقل « أغناطيوس الخوري » عن النويري قوله انه كان في دار العلم « ألف ألف كتاب » (أي مليون) انظر ، مصطفى آغا بربر حاكم طرابلس - ص ١٧ - بيروت ١٩٦٧ وهذه الرواية لم نجدها عند النويري ، وما ذكره النويري في « نهاية الارب » هو مائة ألف كتاب ج ١٤/٢٩ النسخة المصرية .
(٢١٢) خطط الشام ١٧٧/٦ .
(٢١٣) تاريخ الدولة الرومانية - جيبون ج ٥٠٥/٢ - طبعة أوروبا ، تاريخ التمدن الاسلامي - جرجي زيدان - ج ٣٣٤/٣ ، القاهرة ١٩٥٨ ، العالم العربي - دكتورة نجلاء عز الدين - ترجمة أساتذة ، ص ٥١ ، القاهرة ١٩٦٢ ، خزائن الكتب العربية في الخافقين - فيليب طرازي - ج ١٠٠٣/٣ بيروت - ١٩٤٧ .
(٢١٤) المكتبات في الاسلام ١٣٩ ، تاريخ التمدن ٣٣٤/٣ .
(٢١٥) المكتبات ١٣٩ .

سنوات أو أكثر من نصف ما تحويه مكتبات الهند وباكستان في الوقت الحاضر،[٢١٦] ولسنوات قليلة.

وينقل الكونت « فيليب دي طرازي » عن الاستاذ أحمد ذكي قوله عن المستشرق الفرنسي « كاترمير Katrmiar » (١٧٨٢ - ١٨٥٧) في بعض تآليفه نبذة في مجموعته المطبوعة سنة ١٨٦٢ في باريس وعنوانها « محبة الشرقيين للكتب » ، ان هذا المستشرق لم يخالجه أدنى شك في تقدير عدد الكتب بدار العلم بطرابلس ، بثلاثة ملايين كتاب.[٢١٧]

ومن المؤرخين النصارى الذين أيدوا عدد الكتب بثلاثة ملايين : « جرجي زيدان »[٢١٨] و« جرجي الخوري مكسك »[٢١٩] و« فيليب دي طرازي »[٢٢٠] ومن المستشرقين أيضاً « هرشويك ديرنبورغ » و« الألماني بروتس Protz ».[٢٢١]

ولكن الاستاذ محمد كرد علي لا يوافق على هذا العدد ويعتقد أن العدد يشمل كل الكتب التي كانت موجودة في ذلك الوقت في مدينة طرابلس وليس في دار العلم فقط.[٢٢٢] ونحن نرى هذا معقولا . ويسلم الاستاذ يوسف العش بأن العدد كان يفوق المائة ألف ، ويرى ان الثلاثة ملايين رقم مبالغ فيه ،[٢٢٣] وكذلك أغناطيوس الخوري »[٢٢٤] والمستشرق « تومبسون Tompson » في « المكتبة في العصور الوسيطة »[٢٢٥] أما « هنري لامنس » فهو يقلل من أهمية مكتبة دار العلم ومدرستها ولا يقبل الرقم الذي جاء عند النويري أيضاً .[٢٢٦] وأيده في ذلك أصحاب كتاب « لبنان » .[٢٢٧]

ويبقى عندنا ما رواه « ابن الأثير » ، فهما وان كانا قد تهيبا تحديد رقم معين فقد ذكرا ان كتب دور العلم الموقوفة بطرابلس وما كان منها في خزائن أربابها « ما لا يحد عدده ولا يحصى فيذكر » .[٢٢٨]

ونقول : من المحتمل أنه كان في المكتبة مائة ألف كتاب في أول أمرها ، عندما كانت برعاية أمين الدولة أبي طالب بن عمار ، حسب روايات « ابن شداد الحلبي » و« النويري » و« ابن الفرات » .

---

(٢١٦) دراسات في الحضارة الاسلامية - د . احمد شلبي - ٥١/١ ، القاهرة ١٩٧٦ .
(٢١٧) خزائن الكتب العربية ١٠٠٣/٢ ، الحضارة الاسلامية - احمد زكي باشا - ص ٥٣ و ٥٤ .
(٢١٨) تاريخ التمدن الاسلامي - جرجي زيدان ٢٣٥/٣ .
(٢١٩) اعداء الكتب - مجلة الآثار - جرجي الخوري مكسك - ج ٢٣/١ - سنة ١٩١٢ .
(٢٢٠) خزائن الكتب العربية في الخافقين - ج ١٣٩/١ و ١٠٠٣/٣ .
(٢٢١) الصليبيون ومكتبة طرابلس الشام - هنري لامنس - نبذة تاريخية انتقادية في مجلة المشرق - عدد ٢ - ص ١٠٨ و ١٠٩ - السنة ١٩٢٢ .
(٢٢٢) خطط الشام ١٩٧/٦ .
(٢٢٣) Youssef Eche- P.118
(٢٢٤) مصطفى آغا برير - ص ١٧ .
(٢٢٥) المكتبات ١٣٤ .
(٢٢٦) الصليبيون ومكتبة طرابلس الشام - مجلة المشرق - عدد ١٠٨/٢ .
(٢٢٧) لبنان مباحث علمية واجتماعية - لجنة من الأدباء - ج ٥٦٢/٢ - بيروت ١٩٦٩ .
(٢٢٨) ذيل تاريخ دمشق ١٦٣ ، الكامل في التاريخ ١٧٦/١٠ .

وان هذا العدد ارتفع حتى بلغ ما يزيد عن المليون وذلك في عهد جلال الملك ابن عمار، عندما قام بتجديد دار العلم سنة ٤٧٢هـ . على حد رواية ابن العديم الحلبي ، وارتفع هذا الرقم على مر الأيام الى ثلاثة ملايين في عهد فخر الملك عمار بن عمار.

ومن المحتمل أن يكون جلال الملك قد تصدى لجمع المكتبات الأهلية الموجودة في طرابلس والتي كانت فيها خزانات كتب موقوفة الى جانب مكتبة عمه أمين الدولة ، وكون منها ومن الكتب التي كان يبتاعها هو ، دار كتب ضخمة ، حيث توفر له ما يساعده على إقامة هذا المدخر العلمي وازدهاره ، ما لم يتوفر لأمين الدولة من قبل ، اذ كانت الأحداث في عهد أمين الدولة لا تساعده على التفرغ للناحية الثقافية ، وكان استقلال طرابلس عن الدولة الفاطمية في مراحله الاولى ، بينما استقر حكم جلال الملك وامتد زهاء ثمانية وعشرين عاما ، وازداد ثراء أمارته ، كما اتسعت ممتلكات الامارة ونشطت تجارتها ، وكثرت مجالسها العلمية .

ومن الجائز ان الرقم الكبير لا يقتصر على كتب دار العلم فقط ، بل يدخل تحته ما في المدينة كلها من كتب ، وليس بمستغرب ان تكثر الكتب في طرابلس الى هذا الحد المذهل في ذلك التاريخ ، اذ كانت مصانع الورق الجيد توفر ما يحتاجه الوراقون والمصنفون والنساخة ؛ وهي في متناول يد الطرابلسيين حيث كانت صناعة الورق مزدهرة عندهم في القرن الخامس الهجري ، بشهادة الرحالة الفارسي ناصر خسرو.

ويظهر أن دار العلم بطرابلس كانت تستقبل كميات من الكتب التي تخرج من دار العلم بالقاهرة أثناء الفتن ، وان كانت المصادر التاريخية التي وصلتنا لم تصرح بذلك ، إلا أننا نستنتج ذلك من رواية ذكرها « المقريزي » في حوادث سنة ٤٦١هـ . تقول انه خرج من قصر المستنصر الفاطمي خردادي وباطية من بللور في غاية النقاء وحسن الصنعة ، مكتوب عليها اسم [illegible] ماء ، ويسع الخردادي تسعة أرطال ، دفع فيها « أمين الدولة » ابن عمار بطرابلس ثمانمائة دينار فامتنع صاحبها .[٢٢٩] ونقول : اذا كان قد وصل الى طرابلس بعض الادوات والأواني الثمينة ، فليس يستبعد ان تصلها كمية من الكتب قام بها ابن عمار ، ولم تذكر ذلك المصادر التاريخية ، فقد أخرج من خزائن الكتب في ذلك الوقت ثمانية عشر ألف كتاب في العلوم القديمة ، وألفان وأربعمائة ختمة من المصاحف الشريفة في ربعات بخطوط منسوبة محلاة بالذهب والفضة . وأخرج في شهر المحرم من سنة ٤٦١هـ . في يوم واحد خمسة وعشرون جملا « موقرة كتبا » ، صارت الى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر بن المعز ، واقتسمها هو والخطير بن الموفق في الدارين بخدمات وجبت لهما عما يستحقانه وغلمانهما من ديوان الجليين ، نهبت بأجمعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة من مصر في صفر ، مع غيرها مما نهب من دور من سار معه من الوزير أبي الفرج وابن أبي كدينة وغيرهما . وأخرج ما في خزائن دار العلم

(٢٢٩) اتعاظ الحنفا ٢/٢٨٣ .

بالقاهرة وصار الى عماد الدولة أبي الفضل بن المحترق بالاسكندرية كثير من الكتب، ثم انتقل منها كثير بعد مقتله، الى المغرب وأخذته ولاته، فما صار اليها بالابتياع أو الغصب من الكتب الجليلة المقدار ما لا يعد ولا يوصف، فجعل عبيدهم وإماؤهم جلودها نعالا في أرجلهم، وأحرق ورقها تأولا منهم أنها خرجت من القصر، وأن فيها كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم، فصار رمادهم تلالا عرفت في نواحي أبيار بتلال الكتب، وغرق منها وتلف، ووصل الى الامصار ما يتجاوز الوصف.(٢٣٠)

كذلك فقد أقام بمصر « ابو يوسف عبد السلام القزويني » وحصل في سنين إقامته بها أحمالا « من الكتب. فكان ينتقل بين البلاد ويجمع الكتب حتى اجتمع له منها الشيء الكثير، فسكن بغداد. ثم سافر الى الشام، ثم الى مصر، ثم دخل طرابلس وسكنها مدة، وعاد الى بغداد وهو يحصل الكتب، فقيل انه حصل غاليها من مصر في عام الغلاء المفرط، وكان يقول: ملكت نفيسين منها: تفسير ابن جرير الطبري في أربعين مجلدا، وتفسير أبي القاسم البلخي، وأبي علي الجبائي، وابنه أبي هشام؛ وأبي مسلم بن بحر، وغيرهم. وقيل دخل بغداد قادما من طرابلس الشام، وقد أتى من مصر وما معه عشرة جمال عليها كتب بالخطوط المنسوبة في فنون العلم. اهدى منها لنظام الملك أشياء ما لأحد مثلها، ذكرها محمد بن عبد الملك الهمداني، ومنها عهد القاضي عبد الجبار بن أحمد بالقضاء بخط الصاحب ابن عبادة، وأشار به، وهو سبع مائة سطر، كل سطر في ورقة سمرقندي، وله غلاف أبنوس يطبق كالاسطوانة الغليظة، والرابع مصحف بخط بعض الكتاب الموجودين بالخط الواضح، وقد كتب كاتبه اختلاف القراء بين سطوره بالحمرة، وتفسير غريبه بالخضرة وإعرابه بالزرقة، وكتب بالذهب العلامات على الآيات التي تصلح للانتزاعات في العهود والمكاتبات وآيات الوعد والوعيد، وما يكتب في التعازي والتهاني، وأهداه أيضا: غريب الحديث لابراهيم الحربي بخط أبي عمر بن حيويه في عشر مجلدات. فوقفه نظام الملك بدار الكتب ببغداد، ومنها: شعر الكميت بن زيد بخط أبي منصور في ثلاثة عشر مجلدا. وكان عنده جزء ضخم من حديث أبي حاتم الرازي عن محمد بن عبد الله الأنصاري في غاية العلو، وله تفسير القرآن في سبعمائة مجلد، وقيل في أربعمائة، وقيل ثلاثمائة. وكان الكتاب موقوفا في مشهد أبي حنيفة رضي الله عنه.(٢٣١) ويعتبر القزويني مثالا « لغيره من المولعين باقتناء الكتب، كما تعتبر مقتنياته منها مثلا لما كانت تحتويه دور العلم في عصره. والتي كانت دار العلم بطرابلس واحدة منها » ولا يستبعد أن يكون القزويني قد أهدى بني عمار بعض المخطوطات التي أتى بها من مصر، أو اشتروها منه ووقفوها في دار العلم.

(٢٣٠) اتعاظ الحنفا ٢/٢٩٤ و ٢٩٥.

(٢٣١) ابن عساكر ١٣٦/٢٤، تهذيب ابن عساكر ٢٨٦/٢، معجم البلدان ٢٢٦/٢، طبقات الشافعية الكبرى - السبكي - ج ٣/ ٢٣٠، لسان الميزان ١١/٢ و ١٢، كتاب الروضتين - ابو شامة - ج ١ ق ٧٢/١، البداية والنهاية ١٥٠/١٢، الوافي ٧٦/٥، النجوم ١٥٦/٥، العبر ٣٢١/٣.

ولندع الآن « إبن الفرات » يحدثنا عن دار العلم ، في النسخة التي لم نقف عليها من تاريخه ، وقيل أنه رواها استنادا الى المؤرخ « ابن أبي طيء » ، ونحن ننقلها عن مقالة « هنري لامنس » :

قال ابن الفرات : « وكان لطرابلس دار علم لا نظير لها في العالم . تحتوي على ثلاثة آلاف ألف كتاب ، في العقائد وتفسير القرآن الكريم والحديث والأدب . وكان عدد المصاحف فيها يبلغ خمسين ألفا ، والتفاسير عشرين ألفا » . وكان قضاة بني عمار يهتمون بنجاح دار العلوم هذه[٣٣٢] ويصرفون الرواتب السنوية على مائة من النساخ . وكان بينهم ثلاثون نساخا لا يبرحون الدار نهارا ولا ليلا . وكان لهم عملاء في كل البلدان ليبتاعوا لهم أفضل ما يجدون من الكتب . وكانت طرابلس في عهد بني عمار أصبحت مدينة زاهرة حافلة بالعلوم يتقاطر اليها العلماء من كل البلدان .[٣٣٣]

ويلاحظ على هذا النص أن « لامنس » جعل عدد النساخ مائة ، بينما هم عند الاستاذ يوسف العش ومحب الدين الخطيب : مائة وثمانون .[٣٣٤] وهذا أمر له أهميته ، سوف نناقشه عما قليل .

مقارنة مكتبة طرابلس بالمكتبات الكبرى

شهد العالم الاسلامي في العصور الوسطى نهضة حضارية وثقافية ، لم يشهدها في تاريخه كله ، وقد عبر الملوك والامراء العرب والمسلمون عن هذه النهضة بإنشاء دور العلم ، وبيوت الحكمة ، والمكتبات العظيمة ، وخزائن المخطوطات ، وكانت مكتبة طرابلس واحدة من تلك المكتبات التي انتشرت في مدن العالم الاسلامي من مشرقه الى مغربه .

وهذه إحصائية لاعداد الكتب التي كانت تحتويها تلك المكتبات ، ومقارنة بين المكتبات الكبرى المشهورة في العالم الاسلامي في ذلك الوقت ، ومكان « دار العلم » بطرابلس منها ، كما رتبها « جرجي زيدان » على الوجه التالي :

١ - مكتبة سابور[٣٣٥] في بغداد - عدد المجلدات - ١٠,٤٠٠[٣٣٦]

٢ - مكتبة الحكم[٣٣٧] في قرطبة - عدد المجلدات - ٦٠٠,٠٠٠[٣٣٨]

٣ - خزائن القصور بالقاهرة - عدد المجلدات - ١,٦٠٠,٠٠٠[٣٣٩]

---

(٣٣٢) ورواية هنف ، « عقد دار العلوم » .
(٣٣٣) الصليبيون ومكتبة طرابلس الشام (مجلة المشرق) - ٦/٢ - ١١٠ .
(٣٣٤) Enke-P.118 دار العلم بطرابلس الشام وعدد ما كان فيها من الكتب - (مجلة الحديقة) - محب الدين الخطيب - ج ٤/١٢٥ ، بيت الحكمة - سعيد الديوه جي - ص ٥٥ .
(٣٣٥) هو سابور بن أردشير ، أنشأها سنة ٣٨١هـ ، (تجديد ذكرى أبي العلاء) - د . طه حسين - ص ١٤٠ - القاهرة ١٩٣٧ .
(٣٣٦) (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري - آدم ميتز - ترجمة د . محمد عبد الهادي أبو ريده - ج ٢٩٦/١ - القاهرة ١٩٥١ .
(٣٣٧) هو المستنصر بن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٦هـ ، /٩٦١ - ٩٧٦م) .
(٣٣٨) نفس المصدر - ص ٢٩١ .
(٣٣٩) نفس المصدر - ص ٢٦١ ، تاريخ الدولة الفاطمية - د . حسن ابراهيم - القاهرة ١٩٦٤ .

٤ - دار الحكمة بالقاهرة - عدد المجلدات - ٦٠٠,٠٠٠[٢٤٠]

٥ - مكتبة مراغة - عدد المجلدات - ٤٠٠,٠٠٠[٢٤١]

٦ - دار العلم بطرابلس الشام - عدد المجلدات - ٣,٠٠٠,٠٠٠ ملايين

ومن هذه الاحصائية يتضح لنا أن عدد مجلدات الكتب في دار العلم بطرابلس، كان يفوق عدد جميع الكتب في المكتبات المذكورة مجتمعة. وقد اقتصرت المقارنة، كما يلاحظ، على مكتبات العالم الاسلامي فقط، اذ لم يكن هنالك مكتبات أخرى غيرها، يصح أن يطلق عليها «مكتبات كبرى»، وخاصة في أوروبا. اذ كانت الأديرة الاوروبية في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، تقيد السفر القليل من الكتب الذي قد لا يتجاوز العشرة بالسلاسل نظرا لندرتها، وخوفا عليها من الضياع.[٢٤٢] وفي القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي، كانت مكتبة «كلوني Cluny» تعتبر أكبر مكتبة في أوروبا، ولا تحتوي سوى على خمسمائة وسبعين كتابا[٢٤٣] وفي سنة ١٣٠٠م. أصبحت مكتبة كنيسة «كنتربري» أغنى مكتبة أوروبية حيث ضمت خمسة آلاف كتاب.[٢٤٤] وفي القرن الرابع عشر الميلادي أيضا، لم يستطع ملك فرنسا «شارل الخامس» الملقب بالحكيم أن يجمع أكثر من ألف كتاب، يكاد ثلثها يكون خاصا «بعلم اللاهوت».[٢٤٥]

إن مكتبة كانت تضم عددا «هائلا» من الكتب، كمكتبة طرابلس الشام، استلزمت، ولا شك بناء «ضخما» متسع الارجاء، وتحتاج الى موظفين وعمال ومشرفين كثيرين، وبالطبع، كانت ترصد لها ميزانية ضخمة للانفاق على العاملين بها من موظفين، ونظار، ونساخة، وخطاطين، ومترجمين، ومجلدين، ووراقين، وحرس، فضلا عن التجار الذين كانوا يأتون بنوادر الكتب من مختلف أقطار الدنيا، مهما غلا ثمنها، والطلبة الذين كانوا يتقاضون الهبات والجرايات الشهرية، مع ما يستلزم من نفقات العناية بالمكتبة من فراشة وتنظيف وإنارة، وتأمين لأدوات الكتابة من أقلام ومحابر وورق وجلد، وما تحتاجه من بسط أو حصير، ومناضد ومقاعد، وخزائن ورفوف، وما يرصد من نفقات سنوية لترميمها أو تبييضها.

وكانت دار العلم تضم عدة أجنحة، كما يخيل، أحدها كان يضم قاعة التعليم، حيث تعقد حلقات الدرس، وأحدها كان مخصصا للمكتبة، وهذا يضم

---

(٢٤٠) بناها الحاكم بأمر الله في ١٠ جمادي الآخرة سنة ٣٩٥هـ. /آذار - مارس سنة ١٠٠٥م. (شمس الله ... - ص ٢٩٦).
(٢٤١) أنشأها هولاكو التتري لما نهبه التتر من بغداد والشام والجزيرة - (العرب والعلم) د. توفيق الطويل - ص ٨١ - بيروت ١٩٦٨.
(٢٤٢) شمس الله ... - ص ٢٩٠ و ٢٩١
(٢٤٣) العرب والعلم - ص ٨٣. شمس الله ... - ص ٢٩٠
(٢٤٤) العرب والعلم ٨٣
(٢٤٥) العرب والعلم. حضارة العرب - غوستاف لو... رجيو - ص ١٣٤ القاهرة الحضارة العربية - جاك ريسلر - ترجمة غنيم عبدون - ص ٨٣. القاهرة.

قاعة للمطالعة ، وقاعة للنساخة ، وقاعة للتوريق والتجليد والزخرفة . ومن المرجح انه كان يفصل بين القاعات أروقة مسقوفة يسهل على المترددين اليها الانتقال بينها .

وكانت خزائن الكتب المخطوطة تتوزع حسب موضوعاتها في غرف كبيرة ، كل غرفة تختص بنوع من الكتب ، على غرار مكتبة الخليفة الفاطمي بمصر ، الحاكم بأمر الله . ونستدل على ذلك من رواية ابن الفرات التي يذكر فيها أن احدى حجرات دار العلم كانت تحتوي على نسخ المصاحف الشريفة فقط .

وكانت « دار العلم » بكل ما تشتمل عليه ، مع غيرها من المكتبات الأهلية الموجودة في بيوت وقصور الأمراء والأعيان ومحبي اقتناء الكتب ، توجد في منطقة البلدة الحالية حيث كانت تقوم هناك مدينة طرابلس الفينيقية القديمة . وكنا نود معرفة الموضع الذي أقيمت عليه الدار من المدينة القديمة ولكن الاحداث التي شهدتها طرابلس أثناء الاحتلال الصليبي ، لم تترك لنا أثرا يدل عليها . فقد اندثرت معالمها وضاع منها كل أثر ، بفعل ما ارتكبه الصليبيون عند دخولهم المدينة ، اذ شمل التدمير والاحراق ، فيما شمل هذه المكتبة العظيمة كما يسميها « رينيه ديسو » .(٢٦٦)

مصير دار العلم ، إحراق وتدمير

تتحدث بقية رواية ابن الفرات عن احراق الصليبيين لدار العلم ، وظروف ذلك الحريق فتقول ان الكاهن المنقطع لخدمة الكونت « برترام بن ريموند » دخل الى المكتبة ، بعد اقتحام المدينة ، فوجدها ملأى بالكتب بحيث أثارت تعجبه ، فدخل القاعة المخصصة للمصاحف الشريفة ، فأراد أن يتصفح ما في احدى خزائنها ، فتناول نسخة وحين استقرأها وجد قرآنا « كريما » . وظل يفعل الشيء نفسه حوالي عشرين مرة ، فلما أيقن أن جميع النسخ التي تصفحها كانت نسخا من القرآن الكريم ، اعتقد بجهله ان المكتبة كلها لا تضم سوى المصاحف ، ولذلك غضب وثارت في نفسه الروح الصليبية ، وقال : هذه مكتبة مملوءة بالمصاحف ، أحرقوها وهكذا نفذ أمر هذا الكاهن الجاهل المتعصب وأميره الصليبي ، وأضرم أصحابه النيران في دار العلم فأتت على جميع الكتب حتى أصبحت أثرا بعد عين .(٢٦٧) ولم يكن إتلاف هذه المكتبة الرائعة سوى مقدمة لما حل بالمكتبات الاسلامية الاخرى من جراء الأعمال التدميرية التي أتاها المغول عندما اجتاحوا دول الاسلام .(٢٦٨) كما كان مصير مكتبات الاندلس الاسلامية الأحراق والتدمير على أيدي رهبان وأمراء أوروبا المتعصبين .(٢٦٩) ولم يقتصر الحريق على

---

(٢٦٦) La Grande Encyclopédie - R.D- v.31 - P.402

(٢٦٧) يقول جرجي زيدان عن « جيبون » قوله ان الكونت برترام هو الذي دخل المكتبة وأمر باحراقها . (تاريخ التمدن الاسلامي – ج ٣/ ٢٢) . المكتبات في الاسلام – ص ١٣١ نقلا عن المكتبات العربية في العصر العباسي – يحيى أرلنا .

(٢٦٨) العالم العربي – ص ٦١ .

(٢٦٩) أحرق الكردينال « كسيمنس » في ساحة غرناطة ثمانية آلاف كتاب عربي ، قسم كبير منها تراجم للعلماء والمؤلفين ، ويقال انهم أحرقوا أكثر من مائة ألف من الكتب العربية يوم استنفاذ في غرناطة ، سوى كتب الطب والطبيعة والحساب . (حاضر العالم الاسلامي – لوثروب ستودارد) – تعليق شكيب ارسلان – ج ١/ ١٤٤ الفن والثقافة – بيروت ١٩٧٣ .

المكتبة ، بل تعداه الى المدرسة ومصنع الورق أيضا .(٢٥٠) لاجتثاث كل ما يمت الى العلم بصلة أو ينشط حركته .

ومن اللاحظ أن معظم المؤرخين الأفرنج لا يتعرضون لذكر إحراق هذه المكتبة إلا في سياق سردهم للأحداث التاريخية ، فهم يذكرون ذلك عرضا وبصورة موجزة بهدف التقليل من أهمية هذا العمل ، بل ان بعضا من باحثيهم حاولوا التشكيك بحادثة إحراق هذه المكتبة ، تماما ، كما فعلوا في حادثة إحراق مكتبة الاسكندرية القديمة ، والتي نسبوا إحراقها باطلا الى « عمرو بن العاص » ، وبأمر من الخليفة عمر بن الخطاب ، ومن الذين حاولوا التشكيك في أمر إحراق الصليبيين لمكتبة طرابلس المستشرق الفرنسي « كاترمير » حيث يزعم ان هذه الحادثة من وضع المؤرخين الشرقيين (يقصد المسلمين) وأن هذه الحادثة إن لم تكن مخترعة فمن الجائز أنها محرفة أو مبالغ فيها بسبب العصبية القومية . وذلك لأن المسلمين قد اتهموهم أحيانا بإحراق خزانة الاسكندرية . ويضيف الى ذلك قوله : « ولا شك أن ضمائرهم (أي المسلمين) ترتاح لايقاع تهمة من هذا النوع على عاتق النصارى أيضا » .(٢٥١)

واذا كان « كاترمير » قد أبدى تشكيكه في مسألة احراق المكتبة ، فهو لم يذكر لنا أين وكيف ضاعت ، ولم نسمع عنها شيئا أيام الاحتلال الصليبي لطرابلس طوال مائة وثمانين عاما (٥٠٢ - ٦٨٨هـ./ ١١٠٩ - ١٢٨٩م .) وعلى تأخذ رواية المؤرخين أمثال ابن القلانسي ،(٢٥٢) وابن الأثير ،(٢٥٣) وابن خلكان ،(٢٥٤) وابن ايبك الدواداري ،(٢٥٥) والعمري ،(٢٥٦) والسيوطي(٢٥٧) وابن الفرات ،(٢٥٨) وغيرهم ، على أنها روايات مختلقة ومكذوبة حين يقولون ان الصليبيين انتهبوا مكتبة طرابلس ودور علمها !.

أما هنري لامنس فقد وضع كتابا بعنوان « مختصر تاريخ سورية » ونشر نبذة تاريخية انتقادية عن « الصليبيين ومكتبة طرابلس الشام » قلل فيها من أهمية دار العلم ، ووصفها بأنها لم تكن سوى مدرسة صغيرة ، وهو بهذا يحاول التخفيف من الجريمة التي ارتكبها الصليبيون ، ويصرف الأذهان بإبراز أحداث دمشق عندما دخلها « أتسز الخوارزمي »

(٢٥٠) مختصر تاريخ العرب - سيد أمير علي - ترجمة عفيف بعلبكي - ص ٢٨٨ - بيروت .
(٢٥١) خزائن الكتب ٣/ ١٠٠٤ .
(٢٥٢) ذيل تاريخ دمشق ١٦٣ .
(٢٥٣) الكامل في التاريخ ١٠/ ٤٧٦ .
(٢٥٤) وفيات الاعيان ٥/ ٣٠٠ .
(٢٥٥) كنز الدرر وجامع الغرر - ج ٨ ق ٢/ ٢٥٤ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٧٨ تاريخ .
(٢٥٦) مسالك الابصار في ممالك الامصار - ج ٨ ق ١/ ٦٠ - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥٩ معارف عامة .
(٢٥٧) تاريخ الخلفاء ٤٨٢ - القاهرة ١٩٦٤ .
(٢٥٨) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق - بحث انتقادي للاستاذ محمد كرد علي - مجلة ٢ - ج ٩/ ٢٧٢ - دمشق ١٩٢٢ .

فقال : « ان دار العلم بطرابلس لم تكن مدرسة جامعة بل مدرسة صغيرة لتلقين العلم الديني » ثم يقول : « ان حريق الجامع الأموي بدمشق سنة ١٠٦٩م . على عهد الفاطميين كان أشأم على العالم من أخذ طرابلس » . وقد رد الاستاذ محمد كرد علي على هذه الدعوة الغريبة فقال :- « ان المؤرخين يجمعون على أن طرابلس كان فيها دار حكمة على مثال بيت الحكمة في بغداد ، وقد قال الاثري العلامة فان برشم في مفكراته أزدهرت طرابلس زمن القاضي ابن عمار ، وقد جعلها مركزا من مراكز التشيع وأنشأ فيها بيت حكمة جهزه بمائة ألف مجلد من الكتب ، وكان فيها على عهده مدرسة جامعة ومدارس دينية وخزائن كتب ، وربما كانت طرابلس قبيل استيلاء الصليبيين عليها اول بلدة علمية في الشام » . وكتب «لامنس » يقول : ان المراد بالعلم في اصطلاح مؤرخي العرب انما هو درس القرآن وما يلحق به من التفسير والحديث واللغة . أما العلوم المدنية كالطب والهندسة والرياضيات ... الخ . فكانت تعرف بعلوم الأوائل ، وكان لها مدارس خاصة يحضرها الدارسون كما أثبت ذلك المستشرق الكبير أغناطيوس غولد سيهر . ولا شاهد لدينا يثبت تعليم المسلمين علوم الأوائل في طرابلس .[٢٥٩]

وترد على هذه الدعوى بأن علوم الاوائل لم تكن مجهولة في طرابلس ، فهي وان لم تكن مزدهرة كبقية العلوم الاسلامية ، فقد برز فيها عالمان طرابلسيان هما : توفيق بن محمد بن زريق الطرابلسي الذي كان من كبار العلماء في الهندسة والرياضيات وعلم الفلك ، وابن أبي العيش القاضي الطرابلسي العالم الفلكي الذي شارك ببناء المرصد المأموني في مصر ، وقد سبق التعريف بهما .

أما علم الطب فقد أجمعت كتابات الباحثين على ازدهاره في عصر الامارة الصليبية في طرابلس حيث أقيم فيها أعظم معهد أكاديمي للطب كان فيه عدد كبير من الاطباء اليعاقبة والملكانيين والمسلمين ، وذلك بشهادة « لامنس » نفسه .[٢٦٠] فهل ينشأ هذا المعهد من العدم ؟ أم أن هناك أصولا لهذا العلم كانت موجودة في طرابلس قبل مجيء الصليبيين ؟

أما أخذ الطرابلسيين بالعلوم الطبيعية فيستدل عليه من تطويعهم للمغناطيس واستخدام البوصلة في أسفارهم البحرية ، حيث تحدث صاحب كتاب « كنز التجار » عن ابتكار البحارة في طرابلس لتلك الآلة ، من خلال مشاهدته الذاتية في مينائها في النصف الاول من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) فكتب يقول : « ومن خواص المغناطيس أن رؤساء البحر الشامي اذا أظلم عليهم الجو ليلا ولم يروا من النجوم ما يهتدون به الى تحديد الجهات الأربع يأخذون إناء مملوءا ويحترزون عليه من الريح بأن ينزلوه الى بطن السفينة ثم يأخذون إبرة ويغرزونها في سمرة أو قشة حتى لتبقى معارضة فيها كالصليب ،

(٢٥٩) الصليبيون ومكتبة طرابلس الشام - ص ١٠٨ .
(٢٦٠) Lammens- La Syrie- 1943 Columbia -P.395- V.2 A History of Deeds one beyond the sea- William of Tyro- P.244- Y.I- Beiyrouth 1921

ويلقونها في الماء الذي في الاناء فتطفو على وجهه ، ثم يأخذون حجراً « من المغناطيس كبيرا » ملء الكف ويدنونه من وجه الماء أو يحركون أيديهم دورة اليمين ، فعندها تدور الابرة على صفحة الماء ، ثم يرفعون أيديهم في خفلة وسرعة فإن الابرة تستقبل بجهتيها جهة الجنوب والشمال ، رأيت هذا الفعل منهم عيانا في ركوبنا البحر من طرابلس الشام الى اسكندرية في سنة أربعين وستمائة .(٢٦١)

ووضع « أمين الريحاني » كتابا بعنوان « النكبات »(٢٦٢) تحدث فيه عن النكبات التي حاقت بلبنان والشام عبر التاريخ ، ولم يشر الى إحراق أو ضياع مكتبة طرابلس على يد الصليبيين ، وكأنها لم تكن نكبة حضارية وانسانية في نظره .

كذلك فإن « فيليب طرازي » وضع كتابا تحدث فيه عن تاريخ لبنان ، وأبرز فتح المماليك لطرابلس سنة ٦٨٨هـ ./١٢٨٩م . وركز القول على ان المسلمين « قوضوا دور المدينة ، ولم يتركوا برجا » من أبراجها إلا دكوه ، ولا كنيسة من كنائسها إلا هدموها .. وقتلوا جماعة من الكهنة والشمامسة والرهبان والراهبات » .(٢٦٣) ولكنه تناسى الحديث عن أعمال الصليبيين اللاإنسانية عندما دخلوا طرابلس وغيرها من المدن العربية .

ويجدر هنا أن نسوق ما ذكره ابن القلانسي وابن الاثير عن أعمال الصليبيين عندما دخلوا طرابلس سنة ٥٠٢هـ /١١٠٩م .(٢٦٤)

يقول ابن القلانسي : « إن الصليبيين ملكوا طرابلس بالسيف ونهبوا ما فيها وأسروا الأسوال ، وغنموا من أهلها الأموال والأمتعة ، وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يحد ولا يحصى ، فإن أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالا وتجارة » ، وعاقب الفرنج أهلها بأنواع العقوبات وأخذت دفائنهم وذخائرهم من مكامنهم .(٢٦٥)

وذكر ابن كثير في تاريخه مثل ذلك .(٢٦٦) وكذلك سبط ابن الجوزي .(٢٦٧) أما « السلامي » فيقول : إن مدينة طرابلس كانت مملوءة حينذاك بالعلماء من المسلمين ففني منهم خلق كثير بعد أن فني فيها الجوع والضائقة والقتل .(٢٦٨)

وحين كتب « تاج الدين بن الأثير الحلبي » تهنئة على لسان السلطان المنصور قلاوون الى

---

(٢٦١) العلوم عند العرب - قدري حافظ طوقان - ص ٥٠ و ٥١ ، القاهرة ، سلسلة الألف كتاب ، المدنية الاسلامية وأثرها في الحضارة الاوروبية - د . سعيد عاشور - ص ١٢٥ ، القاهرة .

(٢٦٢) النكبات أو خلاصة تاريخ سورية - أمين الريحاني - بيروت ١٩٢٨ .

(٢٦٣) اصدق ما كان عن تاريخ لبنان وصفحة من أخبار السريان - فيليب طرازي ج ٦٣/١ ، بيروت ١٩٤٨ .

(٢٦٤) ذيل تاريخ دمشق ١٦٣ .

(٢٦٥) الكامل في التاريخ ٤٦٦/١٠ .

(٢٦٦) البداية والنهاية ١٧١/١٢ .

(٢٦٧) مرآة الزمان في تاريخ الاعيان - ج ٨ ق ٢٧/١ ، حيدر آباد ١٩٥١ .

(٢٦٨) مختصر التواريخ - السلامي - ص ٢٢٧ - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٠٤١ رمز ح .

صاحب اليمن المظفر يوسف بن رسول بفتح طرابلس الشام واسترجاعها من الصليبيين في سنة ٦٨٨هـ ./١٢٨٩م . أتى على ذكر دار العلم ووصفها بالمشهورة . فقال : « وهذه المدينة لها ذكر في البلاد ومنعة ، كانت قد ضربت دون القصد بالاسداد ، فتحت في صدر الاسلام في زمن الصحابة الكرام في ولاية معاوية بن أبي سفيان ، وتنقلت في أيدي الملوك من ذلك الزمان ، وعظمت في زمن بني عمار ، حتى استهلت ولو بتطليق الأعمار ، وبنوا بها دار العلم المشهورة في تاريخ التواريخ ، فلما كان في أخر المائة الخامسة المذكورة ، ظهرت طوايف الفرنج بالشام ، واستولوا على البلاد وعادوا بها حكام » .[269]

هذه هي مكتبة طرابلس التي عرفت باسم « دار العلم » ، وأصبحت هذه التسمية علما و« اسما » للمدينة نفسها ، فعرفت طرابلس في ذلك العصر بمدينة دار العلم ، وجاءت تسميتها في عدد من المصادر التاريخية . فقال ابن فضل الله العمري وهو يصف طرابلس انها « كانت تسمى قديما بدار العلم » .[270] وكذلك يسميها الشاعر شهاب الدين محمود وهو يمدح الملك المنصور قلاوون ويهنئه بفتحها حيث يقول في قصيدة :

وكانت بدار العلم تعرف قبلها
فمن أجل ذا للسيف في نظمها نثر[271]

ومن قصيدة أخرى له أيضا :

وهي أيضا بدار علم تسمى
إنما ليس كالجبال الأكام[272]

***

---

(٢٦٩) كنز الدرر - ج ٨ ق ٢/٢٥١ ، مسالك الأبصار - ج ٨ ق ٦٠/١ .

(٢٧٠) مسالك الأبصار - ج ٢ ق ٢/١١٨ ، الدر المنتخب - ابن الشحنة - ص ٢٦٣ .

(٢٧١) الدرة الزكية - ص ٢٩٦ ، عيون التواريخ - ابن شاكر الكتبي - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٤٩ تاريخ - ق ١ ج ٢/١٢ .

(٢٧٢) عقد الجمان في تراجم الأعيان - العيني - ج ٦٩٢/٢آ - مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٢٤٦ تاريخ .

صَدر حَديثاً

حرب البوير

تأليف
توماس باكنهام
(ويد نفلد ونكولسون ـ لندن ١٩٧٩)

عرض وتحليل : أحمد عبدالرحيم مصطفى

شكلت الامبراطورية البريطانية ـ التي أصبحت في ذمة التاريخ ـ ركنا أساسيا من أركان السياسة العالمية في العصور الحديثة . ولقد نمت هذه الامبراطورية نموا مطردا منذ القرن السادس عشر ، حتى شغلت في نهاية الأمر حوالي خمس الكرة الأرضية ، وخضع لحكمها سدس سكان العالم . وقد جاء تكوين هذه الامبراطورية مرتبطا بتفوق بريطانيا [illegible] بعيدا قدر الامكان عن صراعات القارة الاوربية التي استهلكت طاقات عدة دول مثل فرنسا واسبانيا مما كان له انعكاسه في تقلص أملاكها الخارجية بين وقت وآخر . هذا الى أن بريطانيا قد بنت خطط سياستها الخارجية على أسس ثابتة لا يطرأ عليها تعديل جوهري إلا على محك الواقع العملي أومقتضيات الضرورة ، وهكذا أحرزت قصب السبق في مضمار الاستعمار وارتفعت مكانتها في السياسة الدولية بحيث أصبح يحسب لها حساب خاص ، وبالتالي ما أحرزته من انتصارات باهرة نتيجة لتصدرها موائد المؤتمرات الدولية التي كانت تعقد لتسوية شئون القارة الاوروبية أو شئون ممتلكات أوربا فيما وراء البحار . ومن الطبيعي أن تكون بريطانيا مثار حسد الدول الاوروبية التي حالت مشاغلها وخلافاتها دون قيامها بجهد مشترك لتحدي بريطانيا التي جعلها موقعها الجزري وتفوقها البحري بنجوة من الغزو الخارجي منذ الفتح النرمندي (١٠٦٦م) حتى الوقت الحاضر .

ولقد ألحقت بريطانيا الهزيمة بفرنسا وقضت على طموحات بعض حكامها ـ مثل لويس الرابع عشر

ونابليون ـ للسيطرة على القارة الاوروبية . كما دمرت الاسطول الاسباني الذي حاول غزو الجزر البريطانية في أواخر القرن السادس عشر ، ولعبت دورها في تصفية الامبراطورية الاسبانية في العالم الجديد ، في الوقت الذي ورثت فيه كثيرا من الاملاك الفرنسية في أمريكا والهند . وطفقت طيلة القرن التاسع عشر تلتقط مستعمرة اثر أخرى حتى قيل ان الشمس لم تكن تغيب عن أملاكها . لهذا كله فان فشل بريطانيا في فرض ارادتها على المستوطنين البيض في جنوبي افريقيا من غير البريطانيين (الذين أطلق عليهم اسم البوير) ، بل وتعرضها للهزائم العسكرية المتوالية على أيديهم كان بمثابة صدمة للرأي العام البريطاني ، وفرصة نفست فيها الدول الاوروبية عن أحقادها وشماتتها مما أصاب الكبرياء البريطاني بلطمة شديدة نبهت بريطانيا الى حقيقة الشعور المعادي لها في أوروبا ، وجعلتها تعيد النظر في علاقاتها الدولية وأوضاعها العسكرية .

أما حرب البوير التي اندلعت في ١١ أكتوبر ١٨٩٩ بين بريطانيا والمستوطنين البيض في جنوبي افريقيا الذين ينتمون الى أصول ألمانية وفرنسية وهولندية ، والتي توقع الانجليز أن تنتهي قبل آخر أعياد ميلاد القرن التاسع عشر ، فقد ثبت أنها أطول الحروب التي خاضتها بلادهم طيلة قرن من الزمان يمتد مابين عامي ١٨١٥ و ١٩١٤ ، اذ أنها ظلت تحتدم خلال عامين وثلاثة أرباع العام . كما ثبت انها أكثر حروب بريطانيا خلال هذه الفترة تكلفة في الاموال والأرواح : فقد كبدتها أكثر من مائتي مليون جنيه استرليني وأكثر من ٤٠٠,٠٠٠ حصان وبغل وحمار وما لايقل عن ٢٢ ألف قتيل .

●●●

ويرتبط تاريخ حرب البوير بتوسع المستوطنين البيض (الذين أطلقوا على أنفسهم اسم الافريكاندرز Afrikanders أو Afrikaners بمعنى شعب افريقيا) طيلة قرنين ونصف في جنوبي افريقيا وصراعهم مع كل من الأفارقة ـ سكان البلاد الاصليين ـ والبريطانيين . ففي عام ١٦٥٢ أنشأت شركة الهند الشرقية الهولندية محطة للسفن في رأس الرجاء الصالح (أو الكاب) . وفي البداية كانت هذه المستوطنة قليلة السكان ـ فبعد نصف قرن من قيامها لم يزد عدد المستوطنين البيض فيها عن ٢٥,٠٠٠ نفس وهو عدد يقل كثيرا عن أعداد خدمهم الملونين (بما في ذلك العبيد المستوردون) الذين كان الاوربيون يكلون اليهم القيام بالاعمال اليدوية التي يستنكفون هم عن ممارستها . وكان معظم المستوطنين البيض من الكلفنيين الهولنديين والبروتستانت الالمان والهيجونوت الفرنسيين الذين اعتنقوا جميعا نوعا أو آخر من المذاهب الدينية الجديدة التي تمردت على المذهب الكاثوليكي التابع لبابا روما الذي كانت له السيطرة العقائدية على أوروبا الغربية لمدة تزيد على ألف عام . وازاء الاضطهاد الديني الذي تعرض له أتباع المذاهب الجديدة في بلادهم الاصلية فان كثيرا منهم هاجروا الى العالم الخارجي بما في ذلك مستعمرة الكاب . ومن الطبيعي أن يكون المهجرون ساخطين منذ البداية على أوروبا التي

أرغمتهم على الهجرة ومفارقة الأهل والأوطان ـ ومن ثم الاسم الذي أطلقوه على أنفسهم في جنوبي افريقيا وهو اسم « شعب افريقيا » . أما اللغة المشتركة التي كانوا يتكلمونها فهي تختلف بعض الشيء عن اللغة الهولندية . وقد أطلق عليها اسم Afrikans . أما البوير (أي الفلاحون المتجولون) فكانوا أفقر هؤلاء المهاجرين الاوروبيين وأكثرهم نزوعا الى الاستقلال ـ وقد أفضى بهم جريهم وراء مزيد من المراعي الجديدة الى التوغل بالتدريج في داخل القارة الافريقية .

وقد احتلت بريطانيا مستعمرة الكاب في عام ١٨٠٦ خلال الحروب النابليونية ، وقررت الاحتفاظ بها باعتبارها قاعدة بحرية على طريق الهند والشرق واحدى القواعد الاستراتيجية الهامة بالنسبة الى مواصلاتها الامبراطورية . بيد أن هذه المستعمرة الفقيرة لم تجتذب كثيرا من المهاجرين الانجليز بحيث شكل الافريكاندرز أغلبية سكانها البيض ، الذين أبدى معظمهم استعدادا للخضوع لسلطة التاج البريطاني ، على حين استنكف بوير الحدود ذوو النزعات الجمهورية تدخل بريطانيا في شئونهم وبخاصة فيما يتعلق بمعاملتهم للزنوج الافارقة . وحين أصدرت بريطانيا في عام ١٨٣٤ قرارها الخاص بتحرير العبيد في كل أرجاء امبراطوريتها هاجر حوالي ٥,٠٠٠ من البوير يرافقهم عدد مماثل من خدمهم السود عبر نهري فال وأورنج الى ما وراء الحدود الشمالية ـ الشرقية لمستعمرة الكاب ، ساعين الى الاستحواذ على أراض تبدو خالية من السكان يمكنهم فيها أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم وأن يعاملوا الزنوج وفق ما يحلو لهم . وقد اصطحبوا معهم في هجرتهم أسرهم ومواشيهم وأغنامهم وبنادقهم وبارودهم وكل ما يحتاجون اليه لمواجهة الافارقة ، كما نظموا أنفسهم منذ البداية على أسس عسكرية وكان برفقتهم حدث اسمه بول كروجر قيض له فيما بعد أن يلمع نجمه في أفق جنوبي افريقيا وأن يتحدى السيطرة البريطانية . وفي النهاية استطاع البوير ـ الذين امتلأت قلوبهم بكراهية لبريطانيا ظلت محتدمة طيلة قرن من الزمان ـ أن يؤسسوا جمهوريتين (دولة الاورنج الحرة وجمهورية الترنسفال) اعتبرتا وطنا قوميا للبوير الذين ، برغم خلافاتهم ومشاجراتهم ، كانت تجمعهم عقيدة واحدة قوامها انكار الحقوق السياسية على الافارقة والملونين الذين ينتمون الى أجناس مختلطة .

وخلال ما تبقى من القرن التاسع عشر لم تسر علاقات بريطانيا بالبوير على وتيرة واحدة . فبسبب ما شاب سياستها من تردد لم تتخذ من الاجراءات ما يكفل اعتراض عبور نهر أورنج ، كما لم تحرم الاتجار مع المهاجرين . أما حكومة الكاب فقد أصدرت تصريحا يؤكد سلطتها على البوير الهاربين دون أن تتخذ من الاجراءات ما يكفل خروج هذا التصريح الى حيز التنفيذ . وفي عام ١٨٤٣ أنشأت بريطانيا مستعمرة ثانية حين ضمت نا تال ـ موطن قبائل الزولو التي تغلب عليها البوير ـ وكان قد تركز فيها المهاجرون البيض من مستعمرة الكاب . وما لبثت بريطانيا أن اعترفت في عامي ١٨٥٤,١٨٥٢ بالاستقلال الذاتي لجمهوريتي البوير الجديدتين

(الترنسفال وأورنج الحرة) ، خاصة وأن حكومة الاحرار كانت تفضل الاقتصاد في الانفاق على الامبراطورية ، وتحبذ التوسع في فتح الاسواق دون أن يستلزم ذلك فرض مزيد من النفوذ البريطاني . على أن ذلك لم يرض بعض البريطانيين الذين كانوا يتحرقون الى توسيع رقعة أملاكهم ـ ومن ثم ضم بريطانيا للترنسفال في عام ١٨٧٧ ومحاولتها توحيد جنوبي افريقيا . وفي عام ١٨٨٠ ثار البوير ـ بزعامة بول كروجر ـ على الحكم البريطاني وأوقعوا الهزيمة بالجيش البريطاني في موقعة ماجوبا . وأرغمت بريطانيا ، ازاء ذلك ، على منح البوير حكما ذاتيا داخليا تاما ، واحتفظت لنفسها بالاشراف على علاقات الترنسفال الخارجية . واتخذت التسوية شكلا دوليا بمقتضى اتفاق بريتوريا الموقع في عام ١٨٨١ واتفاق لندن الموقع في عام ١٨٨٤ . ولكن كروجر ـ الذي أصبح رئيسًا لجمهورية الترنسفال التي عادت الى حيز الوجود ـ لم يخف كونه يوقع على الاتفاق تحت ضغط الظروف ، وأنه سيبذل كل مافي وسعه للتفاوض حول اتفاق ثالث من شأنه أن يبعد شبح هيمنة بريطانيا عن شئون الترنسفال .

وفي تلك الأثناء أدى اكتشافان معدنيان الى قلب الخريطة السياسية لجنوبي افريقيا ظهراً على عقب : فقد اكتشف الماس في كمبرلي الواقعة في داخل جمهورية الاورنج الحرة قرب حدود مستعمرة الكاب ، وأدى ذلك الى اعادة النظر في مشكلة البوير والتمهيد لتمتع مستعمرة الكاب بالحكم الذاتي الفعال في نطاق الامبراطورية البريطانية . كما ارتبط هذا الاكتشاف بمستقبل اثنين من كبار المليونيرات البريطانيين هما سيسل رودس والفرد بيت (Beit) ـ فقد أصبح رودس رئيسا لوزراء مستعمرة الكاب واشترك مع بيت في انشاء مستعمرة بريطانية جديدة في الاراضي الافريقية الواقعة الى شمال الترنسفال ، والتي عليها اسم روديسيا (نسبة الى سيسل رودس) وكانت تدير شئونها شركة ذات امتياز أنشأها رودس وبيت بمقتضى رخصة صادرة عن التاج البريطاني . وفي عام ١٨٨٦ اكتشف الذهب في منطقة ويتووترزراند الواقعة في داخل جمهورية الترنسفال ـ وأدى هذا الاكتشاف الجديد الى اثارة المتاعب في وجه الجمهورية التي ازدادت متاعبها في أواخر القرن التاسع عشر نتيجة لاكتشاف الفحم في المنطقة الواقعة حول مدينة جوهانسبرج . فقد أصبحت جمهورية الترنسفال أغنى مناطق جنوبي افريقيا وأقواها عسكريا ، مما عجل باصطدام البوير بالمهاجرين الجدد الذين اجتذبهم اكتشاف الذهب ، ومعظمهم من البريطانيين .

ورغم تفوق المهاجرين البريطانيين على البوير من الناحية العددية ، فقد فرض البوير عليهم قانونا انتخابيا يحرمهم من الحقوق السياسية ، مما أثار سخطهم وأضعف ولاءهم لوطنهم الأخير . وعلى هذا الأساس تآمر رودس وبيت في عام ١٨٩٥ للاستيلاء على الترنسفال وضمها للامبراطورية البريطانية ـ فقد بدا لهما أن سخط سكان الترنسفال البيض من غير البوير نتيجة لحرمانهم من الحقوق السياسية من شأنه ـ بالاضافة الى ملايينها ـ أن يوفر لبريطانيا

قرصة جديدة لانتزاع الترنسفال من البوير ـ وهكذا وضعت الخطة على أساس قيام البيض الساخطين في داخل الترنسفال بالتمرد الذى تدعمه قوة بريطانية مسلحة تتسلل الى داخل الترنسفال تحت قيادة دكتور جيمسون أحد أتباع رودس . الا أن البيض الساخطين في داخل الترنسفال لم يتمردوا ، اذ أنهم كانوا يحظون بدخل جيد من مناجم الذهب ولم يكونوا على عجلة من أمرهم للقضاء على حكومة كروجر ، بل توصلوا الى الاتفاق معه ومع البوير . وفشلت المؤامرة وأسر دكتور جيمسون ورجاله ، وعثر رجال كروجر معهم على معلومات تفضح المؤامرة . وبدلا من محاكمة جيمسون آثرت حكومة الترنسفال ارساله الى لندن لكى تقوم السلطات البريطانية بمحاكمته . وكانت فضيحة كادت تقضى على وزير المستعمرات جوزيف تشمبرلن الذى كان على علم بالمؤامرة التى أعطى بشأنها الضوء الاخضر لرودس .

وفي تلك الأثناء جرى تعيين أحد الامبرياليين البريطانيين ـ وهو سير الفرد ملنر ـ مندوبا ساميا بريطانيا لجنوبي افريقيا وذلك في عام ١٨٩٧ ، وكانت صلاحيات منصبه تقضى بكونه الرجل المسئول عن المستعمرات البريطانية في جنوبي افريقيا . وبعد أن أمضى ملنر عامين في الكاب وجد أن للصبر حدودا بخاصة وأن سلسلة الاخطاء التى سبقت غارة جيمسون كانت تؤرقه . فخلال معظم القرن التاسع عشر كانت سياسة بريطانيا ازاء جنوبي افريقيا تتسم ـ في رأيه ـ بالضعف وعدم الاستقرار ، شأنها في ذلك شأن سياسة بلاده الخارجية بوجه عام . ففى مرات ثلاث جرى بذل محاولة ايجابية لحل مشكلة البوير باتباع سياسة توسعية ، وفي كل مرة ـ ولأسباب مختلفة من بينها العجلة ومناورات الحياة الحزبية ـ كانت هذه السياسة التوسعية تمنى بالفشل بكارثة ، وتنتهى بكارثة ، في الوقت الذى يدافيه أن البدائل لم تكن سوى سلسلة من الأخطاء الفادحة . وبينما هذا يجرى في الساحة البريطانية ، كان البوير يزدادون ثراء وعددا بالصورة التى تشكل مزيدا من التهديد لبريطانيا وامبراطوريتها . فهم قد واصلوا تعزيز معاقلهم في الداخل وزحزحة الافارقة صوب الاراضى الاكثر فقرا ، في الوقت الذى شكل فيه المهاجرون من غير البريطانيين (الافريكاندرز) مستعمرة الكاب التى أصبح وضعها في منتهى التعقيد . فهى مستعمرة لا يرتفع ولاء سكانها عن مستوى الشبهات ، في الوقت الذى أدى فيه ضعف هجرة البريطانيين الى استمرار كونهم أقلية بالنسبة الى السكان البيض الذين كانوا بدورهم يشكلون أقلية بالنسبة الى السكان السود . وهكذا تبلورت المشكلة في نشوب الصراع بين البيض والسود ، وبين البيض بعضهم وبعض ، وبين البيض وأوروبا بوجه عام ، وبدا لملنر ان تجنيب جنوبى افريقيا خطر نشوب حرب لاتنتهى لن يتم الا بمعجزة ، خاصة وأن كثيرا من العسكريين البريطانيين قد أبدوا سخطهم على اتفاقيتى ١٨٨١ و ١٨٨٤ مما أشعل روح التطرف الاستعمارى البريطاني الذى كان ملنر يجاريه بمحاولة فرض السيطرة البريطانية المباشرة على جنوبي افريقيا بالطابع الامبراطوري على نمط ما كان كرومر يقوم به في مصر ـ وكان ملنر قد عمل معه في مصر

وأبدى نحوه ونحو جهوده كثيراً من الاعجاب . كان من رأى ملنر أن السياسة القائمة على أنصاف الحلول لايمكنها أن تعزز السيطرة البريطانية في جنوبي افريقيا ، وخاصة بعد اكتشاف الذهب في تلال الترنسفال في عام ١٨٨٦ . فالذهب هو الذى أغرى رودس وبيت في عام ١٨٩٥ بمحاولة فرض السيطرة البريطانية على الترنسفال ، مما أضاف غارة جيمسون الفاشلة الى سجل هزيمة ماجوبا . واكتشاف الذهب هو أيضا الذى أدى الى انتقال زعامة جنوبى افريقيا من الكاب الى الترنسفال ، وهو الذى أدى الى ذلك الوضع الشاذ الذى جعل أغلبية سكان الكاب من البوير ، في الوقت الذى كان فيه المهاجرون البريطانيون يشكلون أغلبية سكان الترنسفال .

ومن أول المهام التي واجهها ملنر كان هو التغلب على آثار غارة جيمسون ووضع سياسة طويلة المدى للتصدى للبوير ، وتحقيق نفس الاهداف التى توختها الغارة . أى الاستيلاء على الترنسفال والتمهيد لذلك باتخاذ موقف صلب ازاء كروجر واختلاق الصدام معه وترك الاحداث تفرض الازمة ، على أن توافق الحكومة البريطانية ، طوعا أو كرها ، على الخطوط العريضة لهذا المخطط . ومما كان يشجع ملنر على السير قدما في تنفيذ مخططه أن وزير المستعمرات البريطاني ـ جوزيف تشمبرلن ـ كان يتحرق للقضاء على كروجر الذى كاد يقضى على مستقبله السياسي وأنه لم يكن يمانع في اتخاذ الوسائل الكفيلة بأخذ ثأره من زعيم الترنسفال . ورغم أن كروجر كان قبل غارة جيمسون قد بدأ يفقد شعبيته بسبب نزعته الاوتوقراطية وخراب ذمة بعض كبار أعوانه ، الا ان فشل الغارة قد أبرزه باعتباره بطلا شعبيا وأسدل ستار النسيان على ما سبق « للتقدميين » أن وجهوه من اتهامات الى حكومته التى دمغت قبل الغارة بخراب الذمة .

وبالاضافة الى ذلك فان عام ١٨٩٧ الذى جرى فيه تعيين ملنر مندوبا ساميا لجنوبي افريقيا شهد توقيع ميثاق عسكرى بين جمهوريتى الترنسفال وأورنج الحرة . ولما كانت غارة جيمسون قد لفتت نظر كروجر الى ضعف تنظيم جيشه وحكومته ، فانه بذل محاولات لتعزيز قواته المسلحة الحديثة (وبخاصة مدافع الميدان والبنادق المتطورة) التى جرى شراؤها من الخارج ، وبخاصة من ألمانيا وفرنسا . ولم يخف كروجر تطلعه الى أن يحقق لبلاده الاستقلال التام بمرافقة بريطانيا . كما أن كثيرا من البوير أبدوا استهتارهم بقوة بريطانيا موقنين أن بامكانهم القاءها في البحر واقامة امبراطورية للبوير تمتد من خليج تيبل (Table Bay) الى نهر الزمبيزى . لهذا كانوا يتحرقون الى المبادرة بشن الهجوم واستغلال تفوقهم العسكرى في جنوبى افريقيا قبل أن تصل التعزيزات البريطانية من الخارج ، مما يتيح لهم فرصة الاستيلاء على كميات كبيرة من الاسلحة وتشجيع بوير المناطق الداخلية على انشاء مستعمرة ثالثة . وفوق هذا كله فان « صقور » البوير كانوا يتوقعون أن يكون الموقف الدولى مواتيا لهم ، وأن يبادر خصوم بريطانيا ـ وبخاصة روسيا وفرنسا وألمانيا ـ الى الوقوف الى جانبهم واستغلال المأزق الذى لابد أن تقع فيه بريطانيا لتوجيه ضربة شديدة الى تفوقها

الامبراطوري ، مما يتيح للبوير تحقيق أحلامهم الخاصة بالاستقلال والتوسع .

وهكذا تمهد السبيل للاصطدام بين الطرفين اللذين أخذ المتطرفون بناصية الموقف بالنسبة الى كل منهما . وحاول ملنر أن ينفذ مخططه خلال المفاوضات التي جرت بينه وبين كروجر ورجاله حول النظر في اتفاقيتي ١٨٨١ و١٨٨٤ ، ومن ثم تعمده استفزاز كروجر مما جعل البوير يبادرون الى اعلان الحرب . وفي البداية أحرز البوير انتصارات سريعة هزت ثقة الرأي العام البريطاني : فقد اعتاد البريطانيون طيلة نصف قرن من الزمان أن يحرزوا انتصارات سهلة على شعوب متخلفة ، في آسيا وافريقيا دون أن يكلفهم ذلك سوى ثمن زهيد من جثث الرجال والنفقات . ومما زاد في قلق البريطانيين ما أبدته دول القارة الاوربية ـ وبخاصة ألمانيا ـ من شماتة خاصة وأن القيصر وليم الثاني أرسل الى كروجر برقيته الشهيرة التي هنأه فيها على انتصاراته . ولم يغفر البريطانيون على الاطلاق لوليم هذا التحدي السافر الذي يؤرخ بداية العداء بين بريطانيا والمانيا ، خاصة وأن هذه الاخيرة حاولت تكتيل دول القارة الاوروبية في حلف بحري ضد بريطانيا . وما وافى خريف عام ١٨٩٩ حتى كانت الحكومة الالمانية قد قررت مضاعفة عدد سفنها الحربية ، في الوقت الذي اشتدت فيه حملة الدعاية المعادية لبريطانيا في شتى ربوع القارة الاوروبية التي اشتد فيها العطف على شعب صغير يتحدى أضخم امبراطوريات العالم . فقد أبدت صحافة معظم الدول الاوروبية الكبرى عداءها لبريطانيا التي وقفت وحيدة وجنت الثمرة المرة لما أسمته بسياسة « العزلة المجيدة » ازاء الحلفين القائمين على القارة : الحلف الروسي ـ الفرنسي من ناحية والحلف الالماني ـ النمسوي ـ الايطالي من ناحية أخرى . وعلى محك حرب البوير وموقف الدول الاوروبية منها تخلت بريطانيا بالتدريج من عزلتها ، فما لبثت بعد وقت قصير أن عقدت أول أحلافها الدولية مع اليابان الناشئة (١٩٠٢) وذلك لمواجهة آثار الحلف الروسي ـ الفرنسي في ساحة الشرق الأقصى ، ثم سعت الى تصفية نزاعها الاستعماري مع فرنسا بمقتضى الوفاق الودي الذي جرى عقده بين الدولتين في عام ١٩٠٤ ، ومع روسيا القيصرية بمقتضى وفاق عام ١٩٠٧ . وهكذا أمكنها أن تتفرغ لمواجهة طموح وليم الثاني الى منافسة بريطانيا في مجال الاستعمار وتحدي تفوقها البحري ، مما آذن بتوتر الموقف الدولي والتمهيد للحرب العالمية الاولى .

أما فيما يتعلق بحرب البوير في حد ذاتها ، فان الهزائم التي منيت بها بريطانيا في البداية وعزلتها في المجال الدولي مما جعلها تستنفر طاقاتها وتشحذ قواها لمواجهة الموقف . وقد أثبتت الاحداث صدق ولاء المستوطنين البريطانيين فيما وراء البحار ، مما أدى الى وقوفهم الى جانب الوطن الأم ومساندتها بالمال والرجال . كما أبدى سكان الجزر البريطانية روحا وطنية قوية مكنت البلاد من اجتياز الازمة بسلام . وبعد جهود شاقة تمكنت القوات البريطانية التي بلغ تعدادها حوالي ربع المليون من الانتصار على البوير الذين كان محاربوهم أقل عددا من ذلك بكثير ،ولكن

بعد مرور ما يقرب من ثلاثة أعوام منذ أن بدأ القتال . وكان ملنر لايميل الى عقد الصلح على أساس التفاوض ، بل كان أميل الى مواصلة القتال حتى يتم دحر البوير نهائيا وإملاء الشروط البريطانية عليهم بما يكفل توحيد جنوبي افريقيا في نطاق الامبراطورية البريطانية ، وضم جمهوريتي البوير باعتبارهما مستعمرتين بريطانيتين لا أكثر ولا أقل ، الا أن القائد العام البريطاني في جنوبي افريقيا ـ لورد كتشنر ـ ضغط في سبيل التوصل الى حل وسط أتاح للبوير قدرا كبيرا من الاستقلال الذاتي مع تبعيتهم في نفس الوقت للتاج البريطاني . وفي عام ١٩٠٦ أمكن لحزب الاحرار البريطاني ان يرتفع بمستعمرتي الترنسفال وأورنج الحرة الى مستوى المستعمرات المتمتعة بالحكم الذاتي مما أدى الى اخلاص كثير من البوير للامبراطورية البريطانية ، وإيثارهمْ الانضواء تحت لوائها عرف باسم الممتلكات الحرة أو الدومنيون التي وقفت الى جانب بريطانيا خلال الحربين العالميتين الاخيرتين .

●●●

أما مؤلف الكتاب الذي نعرض له فهو الابن الاكبر للايرل والكونتيسة لونجفورد . وقد ولد توماس باكنهام في عام ١٩٣٣ وتلقى تعليمه في أمبلفورث واكسفورد ، وعاش خلال السنوات الاخيرة في القصر الذي شيدته أسرته في ايرلنده خلال القرن السابع عشر وأعادت بناءه خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . وفي عام ١٩٦٩ أصدر باكنهام كتابه « عام الحرية » الذي عرض فيه للثورة الايرلندية العظمى التي نشبت في عام ١٧٩٨ . ثم أمضى ثماني سنوات في جمع مادة الكتاب الذي نعرض له وكتابته ، بما في ذلك الاشهر العديدة التي أمضاها في جنوبي افريقيا حيث أمكنه اتقان اللغة الهولندية ولغة الأفريكانز المتفرعة عنها ، مما أتاح له الاطلاع على المصادر الاصلية المكتوبة بهاتين اللغتين ، بالاضافة الى المصادر الاخرى المكتوبة باللغة الانجليزية . كما اطلع على المصادر الاصلية غير المنشورة الصادرة عن معاصري الحرب (سواء أكانت مخطوطات أم مصادر شفوية) ـ ومن ذلك الاوراق الخاصة لمعظم القادة العسكريين والساسة البريطانيين الذين لعبوا أدوارهم في الحرب ، وبعضها لم يسبق الاطلاع عليه . فقد عثر باكنهام على الارشيف المفقود الخاص بسير ريد فرز بولر القائد العام البريطاني في جنوبي افريقيا في عام ١٨٩٩ ، كما عثر على الخطابات المتعلقة بمعارك حرب البوير التي احتفظ بها بولر وظلت مخبوءة تحت منضدة البلياردو بمنزله في ديفون ، وفي غرفة وزير الحرب البريطاني في ذلك الوقت لورد لانسزدون . وبالاضافة الى ذلك فقد اطلع على اليوميات السرية للحرب التي وجدها بقسم المخابرات بوزارة الحرب وهي تشتمل على نحو مليون كلمة . وعلى أوراق لورد لانسزدون الخاصة ، وأوراق غيره من الوزراء الانجليز ، وتتبع أكثر من مائة مجموعة من الخطابات واليوميات التي وفرها له ورثة كل هؤلاء . وفوق ذلك فانه سجل ذكريات اثنين وخمسين من قدماء المحاربين الذين اشتركوا في الحرب وكان أصغرهم سنا قد بلغ السادسة والثمانين حين أدلى بأقواله .

وبعد أن حصل باكنهام على هذه المادة التي لم يطلع عليها سابقوه من مؤرخي حرب البوير ، اخذ يسجل تاريخ الحرب بأسلوب أشبه بالقصص ويتحدى في أكثر من موضع وجهات النظر المقررة التي طرحها سابقوه وبخاصة ما ورد منها في المؤلفات الرسمية وشبه الرسمية التي انحازت للجانب البريطاني أو تجنب مؤلفوها اغضاب أحد أطراف النزاع ، بما في ذلك البوير - وكل هذه المؤلفات الرسمية وشبه الرسمية لم تسجل وجهة نظر البوير. ولكي يتجنب باكنهام مثل هذا التحيز أو التحرز نجده يستعين بالمؤلفات التي ألفها مؤرخو جنوبي افريقيا المحدثون بلغة الافريكانز . وهكذا نجده يسلط الضوء للمرة الاولى على الدور الذي لعبه المليونيران سيسل رودس والفرد بيت ، اللذان ربطتهما مصالحهما المالية المرتبطة بمناجم الذهب المكتشف وشيكا في جوهانسبرج ، يتحالفان بصورة مستترة مع لورد ملنر بهدف اشعال الحرب - ومن ثم ما يذهب اليه باكنهام من أن هذا التحالف السري هو الذي أدى الى تصلب ملنر بالصورة التي أدت الى بدء القتال . وبالاضافة الى ذلك فقد كشف المؤلف عن الصراع الناشب في وزارة الحرب البريطانية بين جناحين متعارضين ، مما أدى الى سلسلة الاخطاء التي جرى ارتكابها خلال الحرب . ومن ناحية ثالثة فانه اهتم بأثر الحرب على الزنوج الافارقة الذين تغاضى مؤلفو حرب البوير عن الآلام التي عانوها . فرغم ما ذهب اليه المعاصرون من أن حرب البوير كانت « حرب جنتلمان » و « حرب رجل أبيض » ، الا أن باكنهام أثبت خطأ مثل ذلك التعميم . وألقى الضوء على الدور الهام الذي لعبه الأفارقة في حرب البوير . حقيقة انهم لم يشتركوا في القتال بصفة رسمية ، الا أن حوالي ١٠٠,٠٠٠ من الافارقة انضموا الى كلا الطرفين بصفتهم عمالا وسائقين ومرشدين وغير ذلك - وخلال المراحل الاخيرة للحرب كان حوالي ١٠٠,٠٠٠ افريقي يخدمون تحت السلاح في نطاق القوات البريطانية . وبالاضافة الى ذلك فقد جلد البوير كثيرا من السود غير المحاربين وأطلقوا عليهم النار . وحصيلة هذا كله نجد أن باكنهام يسلط الضوء للمرة الأولى على كون الافارقة هم الذين دفعوا أفدح ثمن خلال الحرب وفي أعقابها ، دون أن يخفف ذلك من حدة التفرقة العنصرية التي لا تزال تلطخ سمعة جنوبي افريقيا بالأوحال . فلم يحل البريطانيون في أعقاب الحرب دون فرض البيض الحاجز اللوني على الملونين في نص دستوري الجمهوريتين السابقتين - فهم قد جاملوا البوير ، وبالتالي فحين تم اتحاد جنوبي افريقيا لم يبذلوا أي جهد لمنع فرض هذا الحاجز الذي لم يكن يمارس في مستعمرة الكاب . وهكذا نشأ تحالف بين البيض في مواجهة الملونين امتد بمرور الزمن فشمل عضوية البرلمان والصناعة وأدى الى حرمان الملونين من التصويت في الانتخابات . وهكذا عاد الوضع الى ما كان عليه في أواخر القرن التاسع عشر : فاما التوصل الى حل وسط أونشوب الحرب ، وهو الاحتمال الأقوى .

وهناك ناحية رابطة سلط عليها باكنهام الأضواء ترتبط بما عاناه المدنيون من البوير ، نساء وأطفالا مما جرته الحرب من صعاب . فلقد أحرقت الحقول

وجرى نهب قطعان الماشية وشحن النساء والاطفال في معسكرات الاعتقال حيث قضت الأوبئة على عدد يتراوح مابين ٢٠,٠٠٠ و ٢٨,٠٠٠ وقد أثر ما عاناه البوير نتيجة للحرب في ضمير البريطانيين ، بحيث يمكن أن يقال ان الفدائيين البوير قد خسروا الحرب ولكنهم كسبوا السلام ولو على حساب الافارقة والملونين .

أما بالنسبة الى بريطانيا فقد بين باكنهان أن حرب البوير قد أدت الى تعزيز ميزانية وزارة مستعمراتها التي قفزت من ٦٠٠,٠٠٠ الى ٣٥ مليون جنيه استرليني . كما اكتسب كثير من الضباط البريطانيين خبرة عسكرية خلال الحرب كان لها أثرها فيما أبدوه من كفاءة خلال الحرب العالمية الاولى ، وقد قيض لبعض هؤلاء أن يحصلوا فيما بعد على عصا الماريشالية ، ومنهم ادموند اللنبي ودوجلاس هيج . كما أتاحت الحرب الفرصة لتجربة البندقية الجديدة وحرب الخنادق ، مما أكسب البريطانيين خبرة باستعمال السلاح الجديد واتقان حرب الخنادق خلال الحرب العالمية الاولى ، وبخاصة في جبهتي الدردنيل والفلاندرز . وبعد الحرب أقام البريطانيون في جنوبي افريقيا شبكة ضخمة من السكك الحديدية ومشروعات الري ، مما جعل الامبرياليين منهم يحلمون بوصل الكاب بالقاهرة والاسكندرية ، وهو الحلم الذي تحقق في النهاية حين تم ربط سلسلة المستعمرات والمحميات البريطانية الواقعة بين أقصى الاطراف الجنوبية لافريقيا وبين البحر المتوسط .

وهناك ملحوظة أخيرة على الكتاب الذي نعرض له هي استطراده بطبيعة الحال في وصف المعارك الحربية التي شغلت حيزا كبيرا من العرض وامعانه في سرد تفاصيلها أحيانا بصورة مملة تشق على القارىء العادي . وقد يكون له عذره في ذلك اذا وضعنا في عين الاعتبار ان الكتاب خاص بحرب هي حرب البوير وأن كاتبه قد حاول أن يخرج بعرض متكامل للحرب يجب ما قبله . وعلى أي حال فان هذا الكتاب يسجل اضافة لها قيمتها من حيث مادته وأسلوب عرضه الذي لم يسبق له مثيل بالنسبة الى موضوعه من حيث تعمده اثبات وجهات نظر جميع الاطراف المشتركة في الحرب ، بما في ذلك وجهة النظر الصامتة الخاصة بالافارقة والملونين .

***